الحاكمية

نظرة شرعية .. ورؤية واقعية

تأليف

دكتور/ ناجح إبراهيم عبد الله

إهـــــداء

إلى الصابرة على أمر الله ..
والراضية عن الله ..
زوجتى الفاضلة وأم أولادى/ أم هيثم
عرفانًا بفضلها وعطائها..
فلولاها بعد الله ما كان لى بيت ولا أسرة ولا أولاد
فقد تحملت مسؤوليتهم الكاملة خلال محنتى الطويلة
ولولا وجودها فى حياة أسرتى خلال هذه المحنة ..
لكانت حياتنا صحراء جرداء.
فقد كانت نورًا فى ظلمة المحنة ..
ويسرًا بدد عسرها ..
ورخاءً بدد شدتها ..
فجزاها الله كل خير.

المؤلف
ناجح إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تقدست أسماؤه .. وتباركت آلاؤه .. وعظمت على عباده منته .. ووسعت كل شيء رحمته .. عز كل ذليل .. وغنى كل فقير .. لا ينال الخير إلا بفضله .. ولا يستدفع الشر إلا بحوله وطوله.

بذكره تطمئن القلوب .. وبطاعته تنشرح الصدور، وتزكو وتطيب النفوس .. سبحانه هو الطيب الذي لا يقبل إلا طيبًا .. الودود الذي يوالي نعمه على عباده تلطفًا وتحببا .. كل نعمة فمنه وحده .. لا شريك له.

وإنما السعيد من وصله وأدناه .. والشقي من قطعه وأقصاه .. سبحانه من سأله أعطاه .. ومن استغنى به كفاه .. ومن لاذ ببابه أكرمه وآواه .. لا إله غيره .. ولا رب سواه.

نحمدك ربنا حمد معترف بفضلك .. مشغوف بحبك .. متلذذ بالأنس بك .. نحمدك حمد الطامعين في قربك .. الراغبين فيما عندك .. المتنسمين لحنانك ومنك .. المتنعمين بألطافك وبرك .. نحمدك ربنا حمدًا يوافي نعمك ويكافيء مزيدك .. نحمدك ربنا حتى ترضى .. ونحمدك بعد الرضا .. ولك الحمد يا ربنا دائمًا أبدًا..

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة .. والنعمة المسداة .. محمد ﷺ، الذى هدى الله به من الضلالة .. وبصر به من العمى .. ففتح به أعينًا عميًا .. وقلوبًا غلفاً، وآذانا صمًا .. وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

كل الفلاح فى الاهتداء بهديه .. والاقتداء بسنته ولزوم محبته .. صلى الله عليه وآله وصحبه وذريته وأهل بيته .. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــــد ..

بين يدى الكتاب

مقدمة

منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان .. وتحديدًا فى أواسط الستينيات من القرن الماضى شهدت مصر ظهور أولى بوادر بدعة التكفير فى السجن الحربى .. وكان من أهم أسباب ولادة هذه البدعة المقيتة ما لقيه الإخوان المسلمون من تعذيب يفوق الوصف فى هذا السجن الفظيع.

وهو ما أدى بدوره إلى أن يتساءل البعض عدة تساؤلات كانت بالنسبة لهم شبهات معقولة ومنطقية حسب ظروفهم النفسية والذهنية فى ذلك الوقت، وتلك الظروف أيضًا كانت عاملاً قويًّا فى جنوح تفكير بعضهم بعيدًا عن الوسطية والاعتدال .. فقد تساءل البعض قائلين :

- لماذا يُصب علينا كل هذا العذاب؟ وبتلك الطريقة الوحشية؟

- هل لكوننا آمنا بالله ربًا وبالقرآن دستورًا وبالإسلام منهجًا للحياة؟!

- وهؤلاء الذين يقومون على تعذيبنا دون شفقة أو رحمة .. هل هم مسلمون؟!

- وإذا كان هؤلاء كفارًا فما حكم سادتهم الذين هم أصحاب القرار .. وبيدهم سلطة الأمر والنهى؟

- وما بال هذه الجماهير التى تطيع أولئك الحكام وتهتف باسمهم وتخضع لهم .. هل تستحق وصف الإسلام؟!

ولم تجد تلك التساؤلات لديهم حينها غير جواب واحد يقضى بتكفير كل هذه الطوائف وإخراجها من دائرة الإسلام.

ومن خلال هذا المكان المظلم بدأت أمواج التكفير المتلاطمة فى التتابع والانتشار لتصيب فئات من شباب المجتمع المصرى .. ولتسجل أولى الملاحظات المهمة حول هذا الفكر المنحرف.

- وهى أنه لا ينمو ويترعرع إلا فى أجواء القهر والتعذيب والتضييق .. ولا يجد له أنصارًا إلا فى غياب شمس الدعوة الصحيحة إلى الله.

- أما حين تتاح الفرصة للدعاة المخلصين والعلماء الصادقين ليؤدوا واجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .. فإن بدعة التكفير - وغيرها من الأفكار الخاطئة - توأد فى مهدها .. وسرعان ما تكتب لها ولأصحابها شهادة الوفاة .. فمن المحال أن يجتمع النور والظلام فى موضع واحد أبدًا.

أما الملاحظة الثانية حول بدعة التكفير .. فهى أن الخلط فى مفهوم الحاكمية قد كان ولا يزال هو الركن الركين لكل ما يعانى منه أصحاب هذه البدعة من اختلالات فكرية وسلوكية وواقعية عميقة ..

فتحت مسمى «الحاكمية» كانت الشرارة الأولى لتكفير المجتمع، تنطلق دائمًا بتكفير الحكام .. ثم تنتشر عدوى التكفير انتشار النار فى الهشيم لتطال أعوان الحكام وعلماء الإسلام الرسميين، وموظفى الحكومة فى مختلف هيئات الدولة ومؤسساتها ..

ولا ينتهى الأمر إلا بتكفير كل عوام المسلمين وجمهورهم لأنهم قد أطاعوا الحكام واتبعوهم، ورضوا بأفعالهم .. والرضى بالكفر كفر.

وتحت مسمى الحاكمية أيضًا غالى أصحاب بدعة التكفير فى كثير من المسائل الاجتهادية الظنية .. مثل تحقيق مناط حكم الكفر وتنزيله على واقع معين .. أو ما يسمى بتكفير المعين، الذى هو من مسائل الاجتهاد التى لا يضطلع بها سوى العلماء .. ورفعوها إلى منزلة قطعيات الدين وثوابته .. فنزعوا اسم الإسلام عن كل من خالفهم فى تكفير فلان أو فلان .. واعتبروا تكفير الحكام بأشخاصهم وأعيانهم من ثوابت دينهم وأسس عقيدتهم.

إن مشكلة المشاكل لدى أصحاب بدعة التكفير هى أن حاكمية الله تعالى لا تعنى عند الكثيرين منهم سوى تكفير الحكام وتكفير جميع أعوانهم .. بدعوى أن أى تقصير أو تهاون فى تنفيذ أحكام الله والعمل بها هو كفر بواح مخرج من الملة .. ليس لأهل الحكم فحسب، بل أيضًا لجميع الأعوان.

وكلمة الأعوان عندهم ليس لها نهاية محددة .. فهى تبدأ بالوزير وتنتهى بالخفير .. حتى ذلك الجندى الذى يقضى فترة تجنيده فى الجيش أو الشرطة، وحتى علماء المسلمين الذين يتولون مناصب رسمية فى الدولة تم تكفيرهم .. وما قصة الشيخ الذهبى فى مصر منا ببعيد .. فما زال اختطافه وقتله ماثلاً فى الأذهان حتى اليوم .. وقد كان رحمه الله عالمًا فاضلاً ملء السمع والبصر .. ولم يكن له عيب فى عرفهم غير أنه كشف عوار فكرهم، ورد على بدعتهم.

وما أود تقريره هنا بكل صراحة ووضوح هو أن حاكمية الله تعالى لا تعنى بحال تكفير أحد من الناس .. وأن حاكمية الله تعالى بريئة من تكفير حكام المسلمين وشعوبهم وعلمائهم .. فحاكمية الله تعالى هى صفحة بيضاء نقية لوثتها الأهواء والآراء .. وقلة البضاعة من العلم الشرعى النافع الصحيح.

إن الحق الذى لا مراء فيه أن حاكمية الخالق منزهة عن كل ما تم باسمها على يد دعاة التكفير من إخراج المسلمين إلى دائرة الكفر.

فالكفر حكم خطير لا يثبت إلا باستيفاء شروط وانتفاء موانع .. ولا يصح إلا بعد إقامة الحجة من عالم مهاب أو سلطان مطاع.

وأكرر ثانية هنا دون أن أمل من التكرار ، وأقول:

إن تكفير المعين من المحكومين أو الحكام لا شأن له بحاكمية الله .. ولا علاقة له البتة بثوابت الدين، ولا أصول الشريعة.

فتكفير المعين من المسلمين هو محض اجتهاد بشرى من عالم أو مجتهد فى علوم الشريعة .. وهو حكم بشرى غير معصوم قد يخطىء وقد يصيب .. وهو مهمة أهل العلم من الفقهاء والمجتهدين .. وليس مهمة أهل الدعوة من الحركة الإسلامية وأبنائها.

ولا يصح أن يكون تكفير المعين أصلاً يوالى عليه ويعادى عليه .. فهو حكم عملى اجتهادى يسوغ فيه الخلاف .. وتتعدد فيه وجهات نظر العلماء.

أما الدعاة وطلاب العلم وأبناء الحركة الإسلامية .. فالسلامة فى حقهم أوجب وأولى ..

والاحتياط منهم أجمل وأفضل .. والسلامة لا يعدلها شيء.

لقد كان الخلط الشديد فى مفهوم الحاكمية سببًا فى انشغال كثير من الشباب المسلم ردحًا طويلاً من الزمن .. كما تسبب فى شغل أمتنا العربية والإسلامية عن كثير من أولوياتها .. وعن العديد من واجباتها وفروض أوقاتها .. وذلك بما استنزفه مثل هذا الخلط من طاقاتها، ومن دماء أبنائها وجهودهم وأوقاتهم.

وقد كان هذا الخلط أيضًا من أسباب عرقلة مسيرة الدعوة إلى الله فى أكثر بلدان المسلمين سنوات وسنوات .. كما أساء إلى هذه المسيرة النقية الطاهرة وعكر صفوها .. وجعل كثيرًا من أولى الأمر والحكام يتوجسون بشدة من الدعاة إلى الله، ويحْذَرونهم ويحذّرون غيرهم من ترك حرية الدعوة حتى لا تنقلب فى النهاية ضدهم .. وحتى لا تكون أرضية خصبة لتفريخ أجيال ممن يسعون إلى الخروج المسلح عليهم، ويناهضون حكمهم بالسيف واللسان.

لقد كان من آثار هذا الخلط واللبس أن توالت على الحركة الإسلامية كثير من المحن والنكبات.. فأصبحت السجون هى محل الإقامة الدائمة لمعظم الإسلاميين .. فما يلبث أحدهم أن يخرج منها حتى يعود إليها .. وذلك فى موجات متعاقبة لا يعرف لها نهاية .. والسبب الرئيسى فى ذلك هو تكفير حكام المسلمين وأعوانهم، أو الخروج المسلح عليهم أو السعى لأجل ذلك.

وبنظرة فاحصة لبعض الآثار التى ترتبت على تكفير حكام المسلمين فى القرن الماضى، وتجارب الخروج المسلح عليهم .. سنلاحظ بكل يسر وسهولة ما يدمى قلوب المخلصين من أبناء هذه الأمة ويمزق أفئدتهم .. فقد كان ذلك سببًا فى تقلص مساحة الموجود من الشريعة، وزيادة مساحة المفقود منها.

أقولها هنا بكل صراحة .. لو استمر الحال هكذا فى بلداننا فى القرن الحالى .. واستمرت محاولات الخروج المسلح على حكام المسلمين - لاسيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر - فستذهب البقية الباقية من شرائع ديننا الحنيف وعقائده وأخلاقه أدراج الرياح .. وسوف تدهمنا موجة تغريب عاتية تشمل خريطة الحياة كلها.

ولولا أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه .. وتعهد له بالرعاية والصيانة لضاع الدين فى خضم المحن والفتن المتلاحقة التى عصفت ببلاد المسلمين فى السنوات الماضية .. ولازالت تعصف بأركانها حتى يومنا هذا.

إخوانى الأحبة

لا شك أن كل مخلص منا يسعى سعيًا حثيثًا فى سبيل تحقيق نهضة أمتنا وإقالة عثرتها .. وإن هذه الأمة لن تكون رائدة الخير فى العالم كله .. وقائدة له .. وقائمة بدورها العظيم الذى أراده الله لها فى هداية البشرية إلى خير الدارين إلا بأمور أربعة:

وهى أن تكون تقية، قوية، غنية، وموحدة.

بكل ما تحمل هذه الكلمات الأربع من معان دقيقة وشروط مهمة .. فالتاريخ يشهد أن العالم الإسلامى لم تتحقق له السيادة والريادة فى وقت من الأوقات إلا باجتماع هذه الصفات.

إن عودة تلك الصفات العظيمة إلى الأمة ليس مهمة الحكام وحدهم .. وإنما هى مهمة الأمة بأسرها، وبجميع طوائفها حكامًا ومحكومين.

وإن تكفير الحكام وأعوانهم، والخروج المسلح عليهم لن يحل مشاكل الأمة .. ولن يحقق شيئًا من نهضتها وريادتها .. بل سيؤدى إلى مزيد من التراجع والتقهقر لاسيما فى مثل هذه الفترة العصيبة .. وسيؤدى إلى عكس هذه الصفات السابقة .. والتاريخ على ذلك خير شاهد وأصدق دليل.

ومع عظيم حزننا واهتمامنا لغياب بعض شرائع الدين اليوم عن أكثر بلداننا، فإننا نقرر بكل وضوح وصراحة، أن الفوضى والفتن والتقاتل بين أبناء الدين الواحد، هى أشد خطرًا على الدين والإسلام وأوطان المسلمين من غياب بعض أحكام الدين فى حياتنا ومجتمعاتنا .. ليس استهانة بما هو مفقود من شرائع الإسلام .. ولكن ،لأن هذه الفوضى والفتن والتقاتل داخل بلادنا وأوطاننا لن يأتى بهذا المفقود من الشريعة .. بل سيؤدى إلى ضياع الشريعة كلها بدلاً من غياب جزء منها.

إخوتى وأحبتى

لقد نظرت فى أحداث التاريخ، وتأملت تجارب الواقع .. فوجدت أن كثيرًا من المفاسد الهائلة التى عانت منها أمتنا على مدار تاريخها الطويل كانت نتيجة الخروج المسلح على الحكام .. والتقاتل بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد.

ووجدت أن السبب الأساسى غالبا لهذا الخروج المسلح هو تكفير حكام المسلمين، انطلاقًا من فهم خاطئ وسقيم لمفهوم الحاكمية .. وهو الفهم الذى جعل أصحابه من حاكمية الله تعالى تكأة لتكفير حكام المسلمين بأعيانهم، وتكفير كل من أطاعهم واتبع أوامرهم.

ووجدت أن كثيرًا من العلماء الأجلاء، والدعاة العظماء غالبًا ما يتهيب أن يخوض غمار هذا الأمر .. وأن يعرض له بالشرح والتحليل لبيان وجه الحق والصواب .. ذلك لأن المتصدى لمثل هذا الأمر غالبا ما تناله ألسنة الذين يكفرون الناس .. وعادة ما تطلق عليهم التهم الجاهزة بالعمالة للسلطة أو ممالأة الحكام، أو الضعف والتهاون فى أمر الدين.

ووجدت أيضًا أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى كتاب جامع لكل ما يمت للحاكمية بصلة .. فكل ما كتب عن الحاكمية من قبل، إما تناول اللفظ بتعميم وإجمال يزيد المشكلة تعقيدًا وخفاءً .. وإما تحدث عن مسائل جزئية وأمور متفرقة لا تجمع أطراف الموضوع .. ولا ترسم له صورة متكاملة .. ولا تضع لكثير من تساؤلاته إجابة شافية كافية.

فكان لابد من حل هذه المعضلة .. وكما أن «الجماعة الإسلامية» كان لها - بفضل الله - دور بارز فى محاربة بدعة التكفير فى صعيد مصر فى السبعينيات من القرن الماضى .. وهو ما كان له الأثر البالغ فى وقاية جميع أبنائها وغيرهم من لوثة التكفير .. فقد كان عليها أن تكمل جميلها وتقوم بواجبها وأن تضع النقاط على الحروف فى موضوع الحاكمية .. وأن تحارب تكفير حكام المسلمين بغير حق كما حاربت تكفير المحكومين من أهل الإسلام بغير حق.

ولذا وجدت أن من واجبى أن أطرح خلاصة عمرى وفكرى وتجربتى للمسلمين حتى يستفيدوا منها .. راغبًا فى الله وحده لا أرغب فى سواه .. خائفًا من الله وحده غير خائف من سواه

.. راجيًا له وحده، لا أرتجى سواه .. معظمًا لله وحده «والله خير وأبقى» .. ومفضلا شريعته ودينه على كل ما سواه .. فلم يبق فى العمر متسع لطمع فى دنيا فانية ولا رغبة فى جاه زائل، فقد زهدت فيهما فى شبابى، وكان كلاهما بين يدى، فلا أطمع فيهما وأنا فى العقد السادس من عمرى .. فكان هذا الكتاب المهم «الحاكمية .. نظرة شرعية ورؤية واقعية».

إخوتى وأحبتى

لقد كتبت هذا الكتاب بعد أن رزقت الصبر على أمر الله وقدره فى السجن أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا .. كنت فيها راضيا عن الله تعالى فى كل حين .. والحمد لله أنى لم أسخط يومًا على قدره .. ولم أجبن يومًا عن واجب شرعى أملاه على دينى الذى خالط حبه شغاف قلبى فصار أحب إلىَّ من نفسى، ومن الناس أجمعين .. ولم أتقاعس يومًا فى سجنى – ولله الفضل والمنة – عن قضاء حوائج الناس وتطبيب مرضاهم .. ولم أبخل يومًا على إنسان مسلم كان أو غير مسلم بما أطيقه من المعروف والخير .. ولله الحمد أننى قضيت سنوات سجنى الطويلة فى طلب العلم النافع ومدارسته وتعليمه.

وقد محصت هذا الكتاب تمحيصًا دقيقًا مع مجموعة كبيرة من إخوانى من أهل العلم والفضل .. وراجعته عليهم مرة بعد مرة.

واستطيع أن أقرر بنفس مطمئنة أن كل كلمة قلتها فى هذا الكتاب تمثل قناعتى الشرعية التى ألقى الله عز وجل بها راجيًا رضاه ومثوبته.

وسوف يلمس القارئ بإذن الله دقة معانى هذا الكتاب .. وعمق القضايا التى تناولها .. وهى تدور أساسًا حول «الحاكمية» كنظرية .. أما جانب التطبيق العملى، والذى يتضمن قضايا الحكم الدينى الثيوقراطى، والديمقراطية، والتعددية السياسية، وغيرها من الموضوعات ذات الصلة العملية بمفهوم الحاكمية فسوف نفسح لها المجال فى كتاب قادم بإذن الله.

إخوتى وأحبتى

كثير من الشباب المسلم تقفز إلى ذهنه تساؤلات عديدة مثل:

- ما هو الحد الأدنى الذى يثبت به الإسلام؟ والذى يجعل المسلم معصوم الدم والمال؟
- وهل يكفر من ترك العمل بشىء من واجبات الدين؟ أو ارتكب شيئا من المعاصى والمحرمات؟
- وما حكم من وقع فى شىء من أفعال الكفر وهو لا يعلم أنه كفر؟ ولا يقصد الوقوع فيه؟
- وهل يجوز تهنئة أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى المناسبات الدنيوية كالزواج والنجاح وغيرها؟
- وهل يعتبر آثما من توجه قلبه بالحب لأحد من النصارى حين يسدى إليه معروفًا أو يكون سببا فى نجاته من هلكة؟
- وما حقيقة القول بكفر الأنظمة الحاكمة فى بلاد المسلمين؟ وهل هذا القول صحيح شرعًا؟!
- ولما لا نطالب حكام المسلمين اليوم بقطع علاقاتهم مع جميع الدول المحاربة للإسلام؟ وبإعلان الجهاد لنصرة المستضعفين فى كل مكان؟
- وهل حكام المسلمين اليوم لا يختلفون كثيرًا عن جنكيز خان ملك التتار؟
- وهل القوانين التى تحكم بلاد المسلمين هى ياسق عصرى؟
- وهل حقًا أن حكام المسلمين صاروا كفاراً بتركهم لبعض شرائع الدين؟..
- أو امتناعهم عن تنفيذ بعض أحكامه عملاً بقول الله تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»؟
- وهل للحكام والعلماء والمفكرين من أهل الاجتهاد حق فى التشريع؟
- وهل هذا التشريع يعد كفرًا؟
- وما حدود هذا الحق فى التشريع؟

- وهل هو مصادم لحق الله فى التشريع والحاكمية؟
- وهل يجوز الخروج على حكام المسلمين اليوم بالسيف والسلاح؟
- وهل يصب هذا الخروج فى مصلحة الدين أم يصب فى صالح أعدائه؟
- وما هى تجارب المسلمين التاريخية فى الخروج على الحكام؟
- وماذا تقول هذه التجارب من عبر وعظات؟

أسئلة كثيرة وعديدة حار أكثر المسلمين عامة - والشباب المسلم خاصة - فى الإجابة عليها .. ولم يجدوا لها جوابًا شافيًا صحيحًا يروى ظمأهم للعلم النافع الصحيح .. ويهدى نفوسهم الحائرة التى تحب الإسلام وتسعى لخدمته .. ولكنها فى خضم هذه الفتن الفكرية تقف حيرى .. وتتساءل فى لهفة وشوق:

- كيف السبيل الصحيح لخدمة هذا الدين؟
- وما هو الطريق لمرضاة الله رب العالمين؟
- وكيف نعلى شأن ديننا وأمتنا؟
- وما هو الواجب الشرعى الذى يفرضه علينا زماننا؟

كل هذه التساؤلات ستجد لها - أخى القارئ الحبيب - إجابة علمية موضوعية شافية فى ثنايا هذا الكتاب وبين صفحاته .. فقد بذلت ما فى وسعى لأستخلصها من بطون الكتب .. ولأجنيها لك من عصارة التجارب وخبرات الحياة والواقع.

فجاءت بحمد الله سهلة ميسرة لن تتجشم فى الوصول إليها أى عناء أو مشقة .. وستجد فيها بإذن الله ما يريح قلبك .. ويطمئن نفسك، ويسعد روحك، ويدلك على الطريق الصحيح لخدمة دينك وإعلاء شأن أمتك ووطنك.

إخوتى وأحبتى

إن هذا الكتاب الذى بين أيديكم هو الكتاب الأول من نوعه الذى يتعرض لقضية الحاكمية، ليس من منظور شرعى فحسب .. ولكن من منظور عملى وواقعى أيضًا.

فهو يبحث ظروف هذا العصر فى إطار نصوص الشرع .. يتكلم عن الواجب الشرعى فى الحكم بما أنزل الله .. ولا يهمل فى الوقت نفسه الواقع العملى .. يربط أحكام الشرع بهذا الزمان الذى نعيشه .. ويدرس النصوص فى سياق المكان والزمان والأحداث .. كل ذلك فى سهولة ويسر .. وبكل دقة وأمانة، مع الحرص البالغ على موافقة قواعد الشريعة.

فقد خضع هذا الكتاب لكم كبير من مراجعات ومناقشات الكثيرين من أولى العلم والفضل والخبرة والتجربة .. لم نغضب فيها لنصح ناصح، ولم نهمل رأيًا لذى رأى.

ولا أكون مبالغاً لو قلت إن هذا الكتاب هو أول كتاب يطرح مسائل العقيدة الشائكة الدقيقة بأسلوب أدبى ميسر منضبط .. ولن تمل نفس القارئ فيه من جفاف مادة العقيدة الإسلامية المعروفة بصعوبة أسلوبها ودقة ألفاظها.

وقد تعرض الكتاب لمعظم المسائل النظرية المتعلقة بقضايا الكفر، والإيمان .. وقام بصياغتها ونسجها فى حلة بهية، وثوب قشيب يجمع بين الدقة العلمية والأسلوب الأدبى الراقى .. ويقرن بين عمق المادة وبساطة الأسلوب ويوازن بين الأدلة العقلية والمعانى الإيمانية.

و هو ما يجعل مثل هذا الكتاب مرشحًا لأن يتدارسه طلاب العلم فى جميع البلاد العربية والإسلامية .. إذ يقدم تصورًا شرعيًّا وواقعيًّا متكاملاً لمفهوم الحاكمية، دون إفراط ولا تفريط .. كما يرسم ملامح صورة مشرقة للعقيدة الإسلامية لاسيما فيما يتعلق بمسائل الكفر والإيمان.

وبعد .. إخوتى وأحبتى

إن كثيرًا من الشباب المسلم الحائر مع عظيم صدقه وإخلاصه فى حب الدين والعمل له قد تلقفته دعاوى التكفير التى تكفر الحاكم والمحكوم على السواء.. وتكفر الولاة والرعية .. وتخرج أمة الإسلام حكامًا ومحكومين من دائرة الدين.

فلهؤلاء الشباب الحائر وغيرهم من شباب الإسلام المخلص، كتبت هذا الكتاب.

كتبته حبًّا لهم، وحدبًا عليهم، وحرصًا على جهودهم وأعمارهم أن تضيع هدرًا، أو تذهب سدى نتيجة فهم خاطئ سقيم.

كتبته مرضاة لله سبحانه .. وليس مرضاة لأحد من الخلق كائنًا من كان .. «والله خير وأبقى».

«كتبته من أجل مصلحة الإسلام الذى أتشرف بالانتماء إليه .. والذى أحمد ربى أن قضيت عمرى كله من أجله وفى حبه والعمل له.

كتبته من أجل وقف نزيف الدماء المستمر بين المسلمين، ليس فقط فى مصر وحدها، ولكن فى أرجاء العالم الإسلامى كله.

كتبته من أجل وقف هذا الزحف الهادر من الشباب المسلم نحو السجون والمعتقلات، يقضون فيها زهرة شبابهم .. ويحرمون دينهم وأمتهم وأوطانهم من خيرهم وبرهم وصلاحهم .. وقلوبهم الصافية النقية وأياديهم البيضاء المتوضئة.

كتبته من أجل أن تزدهر دعوة الإسلام الصحيحة .. فلا يكرهها أحد .. ولا يخاف منها أحد .. ولا يتوجس منها أحد .. ولا يضيق عليها أحد .. ولا يؤذى من وراء العمل لأجلها ذلك الإيذاء الفاحش فى صورته أحد.

وإنى لأرجو الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب بداية قوية وصحيحة للخروج من هذه الدوامة التى لا نهاية لها.

والتى تبدأ بتكفير حكام المسلمين بغير حق ثم تكفير الشعوب المسلمة ثم الخروج على حكام المسلمين بالسيف والسلاح.

لتكون النهاية المأساوية آلافًا من القتلى والجرحى والمصابين .. وعشرات الآلاف من السجناء والمعتقلين .. وأنهارًا من الدماء لا يعلم مداها إلا الله.

إخوتى وأحبتى

لقد آن الأوان أن نكسر هذه الدائرة المقيتة المحزنة التى لا تدور رحاها إلا على حساب ديننا وأمتنا وأوطاننا .. وأن نوقف مسلسل التآكل الداخلى الذى ينخر فى جسد الأمة الإسلامية.

ولا أظن مخلصًا من أبناء المسلمين يرضى لنفسه أن يكون معول هدم فى يد أعداء هذه الأمة، يفتتون به وحدتها، ويمزقون به أوصالها من حيث لا يدرى ولا يشعر.

فالوعى الوعى .. والترابط الترابط .. والوحدة الوحدة، فى وجه رياح عاتية تريد اقتلاع الدين من جذوره .. فإنما نحن جميعًا - حكامًا ومحكومين - على متن سفينة واحدة .. ولا يحسن بركاب السفينة الواحدة أن يتنازعوا فيما بينهم .. وصفير الرياح يصم الآذان من حولهم .. وأمواج البحر المتلاطمة تتلاعب بهم .. والغرق يهددهم جميعًا.

إخوتى وأحبتى

أرجو أن يكون كتابى هذا أول صيحة على طريق الخير لأمتنا فى هذا الظرف العصيب .. وأن تتبعه مزيد من الصيحات المخلصة الصادقة .. لتجتمع تلك الصيحات جميعا فى صوت واحد قوى يهيب بالشاردين من أبناء هذه الأمة أن يفيقوا من شرودهم .. وأن يدركوا حجم الأخطار المحدقة بأمتهم من كل حدب وصوب .. فيعزموا عزمة صادقة على العودة لهدى نبيهم وسلفهم الصالح.. ويعلنوا بكل وضوح عهدًا جديدًا من المصالحة مع بنى قومهم .. ففى ذلك حفظ الدين والأوطان .. وإغاظة العدو الرابض حول أمتنا فى كل مكان.

وإنى لأتمثل فى هذه اللحظات الحديث العظيم للرسول العظيم ﷺ «لم يشكر الله من لم يشكر الناس».. وأتوجه بالشكر الكبير لجنود مجهولين من إخوانى المعتقلين الذين ساعدونى مساعدة عظيمة فى هذا الكتاب .. فلولاهم بعد الله ما خرج هذا الكتاب بهذه الصورة الطيبة .. وهؤلاء لم تكتب أسماؤهم على غلاف الكتاب أو مقدمته .. ولكن الله يعلم عطاءهم وبذلهم وسهرهم الليالى الطوال معى عدة أشهر متتابعة .. وسوف يجزيهم الله الجزاء العظيم كلما أفاد هذا الكتاب أى مسلم يقرؤه .. ومهما فعلت فلن أوفيهم حقهم .. ولكنى أرجو أن يكون لهم مستقبل

عظيم فى العلم النافع والعمل الصالح فى قادم الأيام إن شاء الله.

وإنه لمن يمن الطالع أن ننتهى من إعداد هذا الكتاب ونحن على أبواب شهر رمضان سنة ١٤٢٥هـ وكذلك فى يوم ٦ أكتوبر سنة ٢٠٠٤ م .. ليجتمع شهرا الانتصارات القديمة والحديثة، ونتذكر مع ذكرى غزوة بدر وعين جالوت ذكرى الانتصار الوحيد العظيم للأمة العربية والإسلامية فى القرن العشرين والذى كان شعار الجنود فيه «الله أكبر».

عسى أن يكون هذا الكتاب بداية لانتصارات على أعدائنا بدلاً من الانتصارات الزائفة على أنفسنا وشعوبنا وبنى ديننا ووطننا.

وإنى لأرجو الله العلى القدير أن يجعل عملى هذا خالصًا لوجهه الكريم .. وأن يتقبله منى، ويجعله ذخرًا لى ولأهلى يوم القيامة .. وأن يغفر لى ما كان فيه من سهو أو قصور، فتلك عادة البشر .. والكمال لله وحده .. والعصمة لأنبيائه ورسله .. وكفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه ..

والحمدلله رب العالمين

المؤلف دكتور/ ناجح إبراهيم

دمنهور فى ٢٢ شعبان ١٤٢٥ هـ

٦ أكتوبر ٢٠٠٤ م

الباب الأول

برقيات مهمة
إلى شباب الأمة

بين يدى الباب

كان انتشار آفة التكفير دائمًا مصدر تهديد لوحدة الأمة .. ومعول هدم يعمل على خلخلة بنائها .. لأن فكر التكفير فكر انشطارى يمزق الصف، ويشتت الشمل .. كما أنه خلل فكرى يعكر صفو المظهر الإسلامى .. ويشوه معالمه ..

ولقد كان من فضل الله تعالى أن عصمنا من السقوط فى هاوية التكفير .. ورزقنا منذ أمد بعيد عزمًا قويًا فى محاربة هذا الفكر، وكشف عواره أمام الناس .. فقد أدركنا منذ اللحظة الأولى خطر هذه البدعة، وآثارها السلبية على أمتنا وأوطاننا ..

ومما يذكر لإخواننا فى هذا المجال دورهم فى نصر عقيدة السلف الصالح، والتصدى لأهل الغلو، وأصحاب بدعة التكفير بالحجة الناصعة، والبيان الجلى .. وقد كان لهذه الجهود أعظم الأثر فى منع انتشار تلك البدعة فى صعيد مصر على وجه الخصوص .. وهذا من فضل الله علينا، فله الحمد والمنة.

واليوم، دار الزمان دورته .. وأطلت فتنة التكفير برأسها مرة أخرى فى بعض البلاد العربية والإسلامية كالجزائر وغيرها .. وتفاقم الأمر حين اقترن التكفير هناك بحمل السلاح .. فصدرت الفتاوى الخاطئة بتكفير أهل الإسلام حكامًا ومحكومين .. وأهدرت دماء العوام من النساء والشيوخ والأطفال .. ومن ثم استبيحت الأعراض، وانطلق الرصاص فى كل اتجاه يحصد أرواح آلاف الأبرياء.

وكان لابد من وقفة حازمة إزاء هذه الظاهرة التى كادت تمزق شمل الأمة .. وتسببت فى تشويه صورة ديننا الحنيف .. وبات من الضرورى على المخلصين من أبناء الأمة أن يسعوا جاهدين لرتق الخرق قبل أن يتسع .. وقبل أن تغرق الأمة فى بحار مظلمة من الفتن والأهواء.

فكان هذا الباب المهم كركيزة أولى للانطلاق نحو علاج ظاهرة تكفير المسلمين حكامًا ومحكومين .. وهو بعنوان ..

«برقيات مهمة .. إلى شباب الأمة» ..

وكان حرصنا شديدًا على أن يأتى هذا الباب قويًّا فى طرحه، جديدًا فى مضمونه، عذبًا فى أسلوبه .. ولم نشأ أن نلتزم فيه الأسلوب الجاف الذى يميز غالب كتب العقيدة، والتى تمتلئ بكثير من المصطلحات مما يصعب فهمها على الكثيرين .. بل حاولنا أن ننثر فى ثنايا كلامنا بعض المعانى الإيمانية، وخلطنا المسائل النظرية بالنماذج الواقعية، والأمثلة الموضحة ليكون ذلك ترطيبًا لجفاف لغة العقيدة.

وقد تميز هذا الباب بمميزات عدة .. ومنها أننا طرحنا فيه مسائل لم تطرح من قبل مثل الحديث عن عزلة الدول، وضوابط العلاقات الدولية، وعلاج بعض المعانى الدقيقة فى مسألة الولاء والبراء .. كما تميز الباب بتناوله لجميع المفردات التى انبنى عليها فكر التكفير .. ومناقشتها واحدة تلو الأخرى بجرأة وشجاعة .. مع التزام الأدب والموضوعية، والبعد عن الطعن والإسفاف.

وجاءت موضوعات هذا الباب موزعة على فصلين :

الأول : وتناول عددًا من قضايا الكفر والإيمان بأسلوب سهل بسيط مع تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة المتعلقة بأحكام ومسائل الاعتقاد.

الثانى: ألقى الضوء على قضية الحاكمية وبعض المسائل المتعلقة بالحكام سواء من الناحية النظرية أو العملية .. وذلك من خلال رؤية موضوعية مع تقييم لبعض المصطلحات الشائعة، وضبط مضمونها فى ضوء الشرع الحنيف.

والآن أتركك أخى القارئ لتعيش فى جنبات هذا الباب، والذى عرضت جميع موضوعاته فى صورة برقيات عاجلة إلى كل مسلم عمومًا، وإلى كل شاب مسلم خصوصًا، ولتضيف مع كل برقية لبنة فى صرح الهداية، وتفتح بها ثغرة فى حقل ألغام التكفير .. بحيث تخرج بعد إتمام جميع البرقيات برؤية شاملة وكاملة لما ينبغى عليك اعتقاده وعمله فى مسائل الكفر والإيمان، وبحيث لايصيبك بعد ذلك أى لبس أو غموض.

وقبل أن أتركك تعيش مع هذا الباب أذكرك بأنه مفتاح بين يديك لفهم بقية الكتاب بيسر وسهولة دون عنت أو مشقة .. وذلك لو أحسنت فهمه، وأصغيت سمعك لرسائله .. فدونك هذا

المفتاح أنت أولى به، وأنت أحق الناس بحيازته.

والآن .. إليك أخى القارئ هذه البرقيات الودودة محفوفة بالتهانى الخالصة بسلامة القلب والعقل من بدعة التكفير - وممزوجة بالبشرى الطيبة لك إن أنت ملأت قلبك بمحبة المسلمين ومحبة هدايتهم، والإشفاق عليهم، والرحمة بهم، والحرص على دعوتهم والسعى الدؤوب لإدخالهم فى الدين لا لإخراجهم منه والأخذ بأيديهم برفق وحرص إلى طريق الله المستقيم.

الفصل الأول

«وإن زنى وإن سرق»

رغم أنف أبي ذر

﴿١﴾ الدعاة إلى الله .. هداة لا قضاة

إن المهمة الحقيقية للدعاة إلى الله عز وجل ليست إخراج الناس من الإسلام، أو الحكم عليهم بالكفر أو الفسق أو النفاق .. ولكن مهمتهم الحقيقية هى هداية الخلائق .. والأخذ بأيديهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .. ووظيفتهم الأساسية هى تضميد جراح أمتهم .. وإعادة العصاة من المسلمين إلى حظيرة الإيمان .. فليس من شأن الدعاة إلى الله تعالى أن يطلقوا على الناس الأحكام .. ولم يكن ذلك شأنهم فى يوم من الأيام.

إن الله عز وجل لم يتعبدنا بإخراج الناس من الإسلام . وإدخالهم فى الكفر .. وإنما تعبدنا بإدخالهم فى الإسلام، وإرشادهم بكل رفق إلى طريق الله عز وجل .. فنحن دعاة لا قضاة .. وهداة لا ولاة .. والحكم على الناس هو من شأن القضاة والولاة .. فهم أقدر الناس على تحمل آثاره. وتنفيذ ما يترتب عليه .. كما أن لهم من الملكات والقدرات ما يؤهلهم لتحرى الحق وإصابته .. فهم قادرون على فحص الوقائع .. وتمحيص الأدلة .. واستدعاء الشهود .. ولهم من الهيبة والسلطان ما يضفى على أحكامهم قوة رادعة .. ويجعلها موضوع قبول بين الناس .. ولذلك يكون لأحكامهم أثر إيجابى فى إقرار الحق وإبطال الباطل .. ويترتب عليها كثير من الفوائد الدينية والدنيوية.

أما الدعاة إلى الله، فلهم فى ذلك الأمر شأن آخر .. فهم لا يملكون من القدرات والملكات ما يؤهلهم للوصول إلى الحقيقة والصواب فى الحكم على أحد من الناس .. كما يعجزون عن التحقق من صحة ما نسب له من تهم وادعاءات وليس قدحًا فى الدعاة أنهم لا يحسنون ذلك .. فالحكم على الناس لا يدخل فى صميم عملهم ورسالتهم .. بل إنهم لو انشغلوا بذلك لابتعدوا كثيرًا عن قصدهم وغايتهم . وهى هداية الخلق إلى ربهم عز وجل ..

والدعاة إلى الله حين يتركون السعى إلى هداية الناس جانبًا. ويشغلون أنفسهم بتكفير فلان، وتفسيق فلان، وتبديع فلان، فإنهم بذلك يخسرون قضيتهم ويحيدون عن طريقهم .. ويتركون أثرًا سيئًا فى نفوس الناس يكون كافيًا لصد الناس عن الحق الذى معهم .. وبدلاً من أن يحببوا الناس فى ربهم ويرغبوهم فى الدين .. إذا بهم يبغضون الناس فى هذا الدين وفى أهله وفى الداعين إليه

.. وإذا بالناس تنفض من حولهم وتتفرق عنهم وعن دعوتهم .. فالناس مهما كان خطؤهم فى الدين قد يقبلون النصح مادام ممزوجًا بالرفق، ومخلوطًا بالرحمة والإشفاق .. ولكنهم لا يقبلون أبدًا أى توجيه ممن يطعن فيهم وفى دينهم، فضلاً عن أن يرميهم فى وجوههم بالكفر والظلم والنفاق.

لقد كان فى عهد النبى ﷺ كثير ممن يأتون المعاصى ويقترفون الذنوب .. ومع ذلك لم يفسق النبى ﷺ أحدًا منهم، ولم نسمع أنه رمى أحدًا من المنافقين مثلاً بالكفر أو وصفه علنًا بالنفاق. فالنبي ﷺ لم يبعث بذلك، وإنما كان رحمة مهداة .. وبعث إلى الناس جميعًا بالأدب الراقى والخلق الجميل.

وتأمل موقفه ﷺ حين أتى إليه رجل كان يدمن الخمر ويقام عليه الحد مرارًا .. فلما جاء ذات مرة وهو فى حال سكره، ثم أقيم عليه حد الخمر قال أحد أصحاب النبي ﷺ : «اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به» .. فماذا كان رد النبى الحليم الرحيم ﷺ؟ لقد نهاه النبي ﷺ وزجره قائلاً: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»(١) فلم يقبل ﷺ السكوت على لعن أحد الصحابه له حتى نهاه عن ذلك .. ولم يقل له يا فاسق أو يا فاجر جزاءً لإصراره على ارتكاب تلك الكبيرة.

وها هو عبد الله بن سلول رأس المنافقين. قد آذى النبى ﷺ وأصحابه المرة بعد المرة .. وبلغ من النفاق والكفر مبلغًا عظيمًا .. ورغم ذلك كله لم يقل له النبى ﷺ مرة: يا كافر أو يا منافق .. ولم يذكره بذلك فى أى خطبة من خطبه أو حديث من أحاديثه النبوية الشريفة .. وذلك رغم تيقنه ﷺ بنفاق ابن سلول وكفره الشديد.. بل كان أقصى ما قاله النبى ﷺ عنه عند طعنه فى عائشة رضى الله عنها وإشاعته لحديث الإفك بين الناس، أن خطب ﷺ فقال: «من يعذرنى فى رجل آذانى فى أهلى(٢) .. إنه الأدب الراقى والخلق الإسلامى الكريم .. فبرغم شدة الخطب وعمق الجرح .. وبرغم طعن هذا المنافق للنبى ﷺ فى أشرف وأكرم ما يطعن فيه بشر ألا وهو العرض .. ومع ذلك يعرض النبى ﷺ عن ذكر اسمه أمام الناس، فضلا عن أن يرميه بالكفر أو النفاق .. فما أحوج شباب الإسلام لمراجعة خلق إمام الدعاة ﷺ .. فقد كان لا يواجه أحدًا بشىء يكرهه ولم يثبت عنه ﷺ أنه قال لأحد من الناس فضلاً عن المسلمين: يا كافر أو يا فاسق.

---

(١) رواه البخارى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد عن عائشة - رضى الله عنها - فى مسنده.

وقد يظن بعض الشباب أن اتهام أهل المعاصى بالفجور والفسق هو من قبيل الصدع بالحق .. وتجده يشغل نفسه بذلك، ولا هم له: إلا أن يقول هذا فاسق، وهذا منافق، وهذا مبتدع، بل قد يظن فى نفسه أنه مقصر فى الصدع بالحق إذا لم يطلق هذه الأحكام .. والحقيقة أنه بذلك أبعد ما يكون عن الصدع بالحق .. فالصدع بالحق ليس معناه أن تقول لمسلم يا فاسق أو يا فاجر أو يا مبتدع .. فإن في هذا الأسلوب تنفيرًا عن الحق وتشويها لصورة الحق.

ولكن الصدع بالحق يعنى بيان الحق للناس وتيسير فهمه لهم برفق ولين وسهوله بحيث يتسلل هادئًا إلى نفوسهم .. وتقتنع به عقولهم دون إساءة إلى الخلق أو طعن فى أحد منهم.

والداعية العظيم هو الذى يستطيع أن يجمع بين الصدع بالحق وعفة اللسان .. وبين تعظيم الحق والرحمة بالخلق .. وبين مراعاة الحق وملاطفة الخلق.

﴿٢﴾ ورحمتي وسعت كل شيء

يصعب أحيانًا على بعض النفوس أن تتصور رحمة الله تعالى بعباده المذنبين .. ويشق عليها أن تستوعب عفوه سبحانه عن العصاة المخطئين .. وهؤلاء حين يبصر الواحد منهم أهل المعاصى والذنوب يتساءل فى نفسه طويلا .. كيف يريد هذا الزانى المصر على ارتكاب الفاحشة أن يدخل الجنة؟! .. وذلك الذى داوم على شرب الخمر فلا يكاد يفيق من سكره .. أو هذا الذى سفك دماء المسلمين بغير حق .. أو عاش حياته آكلاً للحرام آخذًا للربا .. هل يظن هؤلاء جميعًا أن لهم فى دار النعيم مكانًا وموضعًا؟! بل كيف يتصورون أنهم ما زالوا فى دائرة الإسلام أصلاً؟! وماذا بقى لهم من الإسلام بعد كل ما فعلوه؟! وهل يعقل أن يجمع الله فى مستقر رحمته بين رجل قضى عمره طائعًا لربه، حافظًا لحدوده .. وآخر أضاع عمره فى المعاصى والمحرمات، يظلم الناس ويعيث فى الأرض فسادًا؟! وهذه المرأة العارية التى تفتن الشباب .. وتدعوهم - تصريحًا أو تلميحًا- إلى الوقوع فى الفاحشة .. كيف تدخل الجنة جنبًا إلى جنب مع تلك العفيفة الشريفة التى سترت نفسها .. ووقفت عند حدود ربها؟! بل كيف يتصور أن يبخل مسلم على ربه بإخراج زكاة ماله .. ثم يطمع بعد ذلك أن يكون من أهل الجنة؟!

هذه التساؤلات وغيرها تحيك فى صدور من زلت أقدامهم فى هوة التكفير .. وتدفعهم دفعاً لإخراج هؤلاء العصاة من رحمة الله تعالى، وطردهم خارج دائرة الإسلام والإيمان .. وما علم أولئك سعة عفو الله تعالى وعظيم رحمته .. بل قد غاب عن الكثير منهم كيفية معاملة الله سبحانه لعباده.

إن أولئك الذين سقطوا فى هوة التكفير قد ظنوا أن الإيمان كل لا يتجزأ .. فالناس عندهم إما مؤمن كامل الإيمان .. وإما كافر ليس فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .. وغاب عن ذهنهم أن الإيمان يزيد وينقص .. وأن الذنوب والمعاصى تنقص من كمال الإيمان .. ولكنها لا تنقض أساسه ولا تذهب به بالكلية .. وأصحاب النفوس الغليظة لا علم لهم بكرم الله وفضله وجوده سبحانه ولا فقه لهم بسعة عفوه ورحمته .. ولا يتصورون أن يغفر الله تعالى للعصاة المذنبين، أو أن يشملهم برحمته التى وسعت كل شىء.

إن الله عز وجل قد كتب على نفسه ألا يخلد فى النار من لا يشرك به شيئًا .. وأن يغفر لمن شاء من أهل التوحيد ، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء .. وما أعظم حديث صاحب البطاقة حين وقف بين يدى الله عز وجل .. وهو على يقين من أنه لا محالة هالك .. فالميزان منصوب بين يديه.. وكفة الحسنات فارغة، ولم يعمل فى حياته خيرًا قط .. أما كفة السيئات فله فيها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر .. والرحيم الغفور سبحانه يقرره بذنوبه ويقول: يا عبدى ألك شيء عندنا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يارب .. فيخرج الله تعالى له بطاقة صغيرة، ويقول: إن لك عندى هذه البطاقة .. فيقول الرجل فى نفسه: وماذا تصنع هذه البطاقة الصغيرة أمام كل تلك السجلات؟! فتوضع البطاقة وفيها لا إله إلا الله . وإذا بكفة السيئات تطيش أمام هذه البطاقة .. وترجح كفة الحسنات بكلمة التوحيد لتكتب النجاة لذلك الرجل[(١)] .. وليعلم هو وغيره أن توحيد الله تعالى لا يثقل معه شيء.. فأى رحمة وأى كرم أوسع من رحمة الله تعالى وكرمه سبحانه بعباده المقصرين؟!.

وكيف غابت هذه الرحمة فلم يقدر على تصورها أصحاب بدعة التكفير ألم يسمعوا ما رواه النبي ﷺ عن تلك المرأة الزانية والتى امتهنت الزنا حرفة كيف غفر الله لها وأدخلها الجنة بسقيها كلباً؟! .. فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : «بينما كلب يطيف بركية (أى : بئر) قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل فنزعت موقها (أى خفها) فاستقت له به .. فسقته، فغفر لها به»[(٢)] .. وكأن الله تعالى قال لتلك المرأة: أنا أكثر منك جودًا وكرمًا .. وعزتى وجلالى لأغفرن لك ولأدخلنك جنتى.

ولنستمع بقلوبنا إلى الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يصور ذلك المشهد تصويرًا رائعًا ويقول : «وقريب من هذا ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى (أى التراب) فقام بقلبها مع عدم الآلة (أى الوسيلة التى تسقى بها) وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها .. ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر .. وملء الماء فى خفها .. ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفيها بفمها وهو ملآن، حتى أمكنها الرقى من البئر .. ثم تواضعها لذلك المخلوق

---

(١) رواه الترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وقال الترمذى حسن غريب.

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة.

الذى جرت عادة الناس بضربه .. فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا .. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها»[١] أ.هـ

فأين نحن من هذه الرحمة الواسعة .. وذلك الفضل العظيم من رب الأرض والسماوات .. فهو سبحانه أكرم الأكرمين .. وليس هناك أحد من عباده أوسع منه جودًا وكرمًا .. لقد غفر الله تعالى لعبد لم يعمل فى حياته خيرًا قط .. غير أنه كان غنيًّا وكان يقرض الناس فيتأخرون فى سداد ديونهم .. فكان يتسامح مع الناس وينظر المعسر منهم .. فتجاوز الله عنه وسامحه وغفر له، كما كان يتجاوز عن عباد الله ويتسامح معهم .. إذ الجزاء من جنس العمل.

عن أبى مسعود البدرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا ، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر .. قال الله عز وجل: «نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»[٢].

وتعالوا بنا نتأمل قصة ذلك الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسًا[٣].. ثم أراد أن يتوب فدله الناس على راهب، فلما جاءه وقص عليه قصته استكثر عليه الراهب عفو الله عز وجل، ولم يتصور أن يشمل المولى تبارك وتعالى ذلك القاتل برحمته .. وكأنه قال فى نفسه: «ما هذا الجنون»؟!، يقتل تسعة وتسعين نفسًا ثم يريد أن يتوب هكذا بكل بساطة .. ويطمع فى أن يدخل الجنة وأن يكون فى مقام مثلى، وأنا الذى قضيت عمرى كله فى طاعة الله؟!

كيف يكون ذلك؟!». فقال للرجل: «لا أجد لك توبة، فقتله الرجل، فأكمل به المائة»[٤] .. ولكن حرارة المعصية لذعت فؤاد الرجل .. وحب التوبة لم يفارق قلبه. فسأل مرة أخرى عن أعلم أهل الأرض، فدله الناس على عالم، فلما جاءه وأخبره الخبر .. قال العالم: «ومن ذا الذى يحول

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨ طبعة المكتبة القيمة بمصر

(٢) رواه مسلم «صحيح مسلم» (١٥٦١)

(٣) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٤) هذا الراهب كان مجتهدًا فى العبادة ولكنه لم يكن عالمًا بالله تعالى ولا بأسمائه وصفاته .. فأغلق فى وجه القاتل باب التوبة.. وقد غاب عنه أن الله تعالى حين جعل باب التوبة من الذنوب مفتوحًا مهما كانت عظيمة، كان هذا لمصلحة جميع العباد .. إذ لو علم العاصى أن طريق الرجوع إلى الله مقطوع .. وأنه لا أمل فى التوبة لتمادى فى غيه وفقد رشده وصوابه .. وعاث فى الأرض فسادًا .. فسبحان الله الحكيم الذى له فى كل أمر حكمة بالغة.

بينك وبين التوبة.. اذهب إلى أرض كذا فإن بها قومًا صالحين فاعبد الله معهم». فلما انتصف الطريق بالرجل وافته المنية فجعل يميل بصدره نحو القرية الصالحة، وهو فى سكرات الموت من فرط حبه للتوبة، وصدقه فى الرجوع إلى الله .. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .. تقول الثانية لقد قتل مائة نفس ولم يعمل فى حياته خيرًا قط .. وتقول الأولى: لقد جاء تائبًا مقبلاً على الله تعالى .. فأوحى الله إليهم أن قيسوا بين المسافتين .. فإلى أى القريتين كان أقرب فألحقوه بها .. ثم أوحى الله إلى القرية الصالحة أن تقاربى، وإلى القرية الأخرى أن تباعدى .. فعدل فى نواميس الكون وغير لأجله وجه الأرض إكرامًا لنيته الصالحة، وصدقه فى التوبة والرجوع إلى الله.

ويقول الإمام ابن القيم : «وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق (أى الموت) عن السير إلى القرية، وحملته وهو فى تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره (أى يميل نحو القرية الصالحة) ويعالج سكرات الموت .. فهذا أمر آخر .. وإيمان آخر .. ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها»[(١)] .أ.هـ

وهذا الكلام السابق لا ينبغى أن يفهم على أنه تبرير لعصيان العصاة والمذنبين .. ولا التماسًا لعذرهم فى بعدهم عن الله عز وجل .. فما من عذر لمن أدار ظهره لربه .. وسعى فى ما يغضب سيده ومولاه .. ولأمثال هؤلاء يقال: لا تنظروا إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظروا إلى عظمة من عصيتم .. فالمعصية فى ذاتها انتهاك لهيبة الله سبحانه .. ودليل على نقص توقيره فى قلب العاصى بقدر معصيته .. وأما هذا الكلام فهو بيان لكيفية معاملة الله سبحانه لعباده من العصاة والمذنبين.

ولا شك أن أولئك الذين يكفرون أهل الإسلام بالمعاصى والذنوب، قد ضاقت صدورهم قبل عقولهم عن تصور سعة عفو الله تعالى وعظيم رحمته .. وقصرت أفهامهم عن إدراك حقيقة تعامل الحق مع الخلق .. وما علموا أن ذنوب العصاة مهما بلغت فلن تعجز عفو الله عز وجل .. وأن معاصى الخلق وإن عظمت فلن تعظم على رحمته سبحانه .. أليس هو القائل فى الحديث القدسى الشريف: «يا ابن آدم .. لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك على ما كان منك

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ١٨٨ طبعة المكتبة القيمة بمصر.

ولا أبالى .. يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[1] .. فليحذر أحد المسلمين أن يستكثر على الناس رحمة الله تعالى .. وليخف على نفسه أن يتألى على ربه كما تألى ذلك الرجل الصالح من بنى إسرائيل فعاقبه الله بأن أحبط عمله .. فعن أبى هريرة – رضى الله عنه– قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان من بنى إسرائيل متواخيين[2]، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة .. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلنى وربى .. أبعثت علىَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة .. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد، أكنت بي عالمًا، أو كنت على ما فى يدى قادرًا؟! وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة – رضى الله عنه – : والذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[3].

وبعد .. فما أحوجنا جميعًا لأن نعيش بقلوبنا وجوارحنا مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى .. وخاصة مع اسم الله الرحيم والعفو والكريم .. وأن نتأمل بعينى قلوبنا كيف يعامل الحق سبحانه وتعالى عباده المذنبين .. ولتسمو نفوسنا مقتبسة من أنوار تلك الأسماء الحسنى قدر ما تستطيع .. فالنفوس الرحيمة ترجو للناس الرحمة .. والنفوس العفوة تطلب لهم العفو .. والنفوس المتسامحة تسعى بين الخلق بالتسامح .. فما أقرب تلك النفوس من الله تعالى .. وما أجدرها بنيل عفوه ورحمته .. فالجزاء من جنس العمل .. والراحمون يرحمهم الرحمن عز وجل ..

---

(١) رواه الترمذى عن أنس وحسنه.

(٢) متواخيين : أى متآخيين

(٣) رواه أبو داود عن أبى هريرة وصححه الألبانى.

﴿٣﴾ «إذا بلغ الماء قلتين .. لم يحمل الخبث»

لو أن نهرًا جاريًا من الماء العذب ألقى فيه بعض الشوائب .. فهل تستطيع تلك الشوائب أن تعكر من صفوه شيئًا؟ أم أنها ستغيب فى غمرة مائه العذب الرقراق؟ ولو أن بحرًا عظيمًا سقطت فيه بعض الألوان والأصباغ الملوثة الضارة فهل تقدر هذه الأصباغ على أن تغير شيئًا من لونه؟ أم أنها ستذوب سريعًا فى عرض هذا البحر، وتصير أثرًا بعد عين؟

بنفس هذا المنطق يكون التعامل مع أصحاب الفضل والإحسان العظيم .. وتكون النظرة الصحيحة لأهل البذل والعطاء الواسع الفياض .. ويكون الأدب مع من قدموا الخدمات الجليلة، والإسهامات الكبيرة لأجل دينهم وأوطانهم .. فمن كان له فى الإسلام قدم راسخ، وتاريخ حافل مشهود .. فإن من الصواب فى حقه أن يعفى عن يسير زلله .. وأن يغض الطرف عن قليل خطئه .. وليس من العدل والإنصاف مع أمثال هؤلاء من العظماء والوجهاء أن تدفن جميع حسناتهم لسوء بدر منهم .. أو يهدر عظيم فضلهم لزلة وقعوا فيها .. إذ ليس أحد من البشر معصومًا غير الأنبياء والمرسلين .. وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون .. وما من إنسان إلا وفيه عيب وإنما العبرة بكثرة المحاسن .. قال سعيد بن المسيب - رحمه الله - «ليس هناك من شريف ولا عالم ولا ذو فضل إلا وفيه عيب .. ولكن من كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله».

ومادام الأمر كذلك .. فالعبرة فى الحكم على الناس بكثرة الفضائل والحسنات فمن رجحت كفة فضائله، وفاض نهر خيراته ومحاسنه .. فلا تؤثر فيه هنة من الهنات .. ولا تقدح فيه زلة من الزلات .. والمنصف .. كما قال ابن رجب الحنبلى (من اغتفر قليل خطأ المرء فى كثير صوابه) .. أو ليست القاعدة الشرعية قد قررت أن الحكم للأغلب، وأنه لا عبرة بالنادر؟! .. إذن .. فمن قل خطؤه وزاد صوابه فهو الموفق المرضى .. وهو على خير كثير.

وما أعظمك يا سيدى يا رسول الله - ﷺ - وقد علمت أمتك هذا المبدأ العظيم حين قلت فى حديثك : (إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث)[1] ومع أن هذا الحديث أصل فى باب من أبواب الفقه .. ولكنه فى ذات الوقت قاعدة جليلة وأصل مهم أيضًا فى التعامل مع الخلق .. ومعناه أن الإنسان إذا فاض خيره وتكاثرت حسناته وفضائله لم يضره يسير الهنات وقليل العيوب .. فمن غلبت حسناته سيئاته وفاق خيره شره .. وزاد فضله عن نقصه .. غمرت سيئاته فى بحور حسناته .. وعفى عن يسير شره لكثير خيره .. ووهب نقصه لفضله.

ألا ترى إلى الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة حين أفشى سر رسول الله - ﷺ - وأرسل إلى أهل مكة يخبرهم بنية المسلمين فى غزوهم .. وهو ما كاد يفسد الفتح الأعظم .. ويذهب بأثر المفاجأة على قريش .. ولكن حاطبًا كان ممن هاجر إلى المدينة وممن شهدوا بدرًا، وكان من السابقين إلى الإسلام .. وكان له من الحسنات العظيمة ما يشفع له .. فغمرت هذه الزلة فى بحر حسناته وفضائله فلم تضره .. وحين هم به عمر - رضى الله عنه - أن يؤدّبه نهاه النبى - ﷺ - وقال له : وما يدريك يا عمر، لعل الله -عز وجل - قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.[2] فكان شهود بدر بالنسبة لحاطب حسنة عظيمة لا تقوى مثل هذه الزلة على مواجهتها والنيل منها.

وتأمل ما كان من عثمان ذى النورين -رضى الله عنه - حين فر من القتال يوم أحد .. فكانت هنة فى حقه .. ولكن ماذا تصنع هذه الهنة أمام جبال حسناته وفيض بذله وعطائه فى سبيل الله .. فهو من السابقين الأولين فى الإسلام .. وزوج ابنتى رسول الله - ﷺ - رقية وأم كلثوم .. وهو الذى اشترى بئر رومة ووسعها للمسلمين ووهبهم إياها ابتغاء وجه الله - عز وجل - وفيها قال عنه المصطفى - ﷺ - «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[3] أى أن هذه الحسنة العظيمة لا يقدح فيها بعدها أى هنات أو زلات .. فقد بلغ فيض عطائه - رضى الله عنه - القلتين ويزيد .. ومحال لهذا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن.

(٢) متفق عليه عن على رضى الله عنه.

(٣) رواه الترمذى فى مناقب عثمان.

القدر من الخيرات والحسنات أن يحمل الخبث .. ولو فقه هذه المعانى الجليلة تلك الشرذمة من الهمج الرعاع الذين خرجوا على عثمان - رضى الله عنه - وقتلوه ما ارتكبوا ذلك الإثم الكبير .. ولو كانت تلك القاعدة الذهبية ماثلة فى أذهانهم لما نقموا عليه يسير هنات وزلات لا تساوى شيئًا فى جنب فضله الكبير ومنزلته السامية .. ولكن بلغ من عظيم جرمهم أن منعوه جرعة ماء من البئر التى وهبها هو للمسلمين .. ومات رحمه الله - ورضى الله عنه - عطشان ليبوء أولئك المجرمون بإثمه فى مشهد دموى حزين تدمى له قلوب المؤمنين.

وها هو خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ذلك الأسد الهصور، والسيف المسلول على أعداء الله - عز وجل - وقد كان له بعد إسلامه زلات وهنات .. منها قتله لبنى جذيمة وهم مسلمون، حتى إن الرسول - ﷺ - تبرأ من فعله، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: اللهم أنى أبرأ إليك مما صنع خالد[1] ومنها ما كان من أمر زواجه من امرأة مالك بن نويرة .. لا سيما وأنها كانت لا تزال فى عدتها وغير ذلك من الهنات البشرية التى لا يخلو منها أحد .. ولكنها جميعًا غمرت فى بحار فضله وعطائه .. وتصاغرت فى جوار الجبال الشامخة من حسناته .. فلو لم يكن له من فضل غير قتاله لمسيلمة الكذاب ومن معه .. وتمكنه من دحر باطلهم وإخماد فتنتهم لكفى .. فكيف وقد أمضى عمره كله فى جهاد متصل .. وقتال دائم لأعداء الدين دون كلل أو ملل؟! .. فلله كم من عدو للإسلام قصمه خالد .. وكم من أرض للشرك والمشركين طهرها الله، وأزال عنها الرجس بخالد .. وكم من راية للتوحيد قد رفرفت بجهاده .. وكم من صوت للأذان شق أركان الفضاء فى كل أرض وطئتها خيوله وهل فتحت وهزمت إمبراطورية الفرس والروم إلا على يديه.

ولعل الكثيرين منا يعرفون الظاهر بيبرس، ولكن لا يعلمون أنه كان الصانع الحقيقى للنصر على التتار فى عين جالوت - بعد الله عز وجل - فقد كان بيبرس فارساً مغوارًا قوى الشكيمة .. ومع ذلك لم يخل هذا البطل العظيم من أخطاء وهنات .. فهو الذى قتل سيف الدين قطز سلطان المسلمين فى مصر والشام أثناء عودتهما من عين جالوت .. رغم حرمة الخروج على قطز فضلاً عن قتله وإراقة دمه إلا أن هذه المعصية وتلك الزلة إذا قورنت بجبال فضله وإحسانه توارت خجلاً منها

(١) رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما

.. فقد أبلى بيبرس بلاءً عظيمًا فى «عين جالوت» و أذاق الله التتار على يديه كئوس الذل والهوان .. وهو أول من هزم التتار فى الشام .. وأول من غزاهم فى عقر دارهم وكسر شوكتهم .. كما يحسب لبيبرس أنه أول من أدخل تدريس المذاهب الأربعة إلى مساجد مصر بعد أن أدخل صلاح الدين الأيوبى المذهب الشافعى فقط وكان يهتم بالمساجد وبأهل العلم اهتمامًا بالغاً .. فهل تنهض معصية الظاهر بيبرس -رحمه الله - أمام هذا السيل الجارف من الحسنات والأفعال الصالحات؟! أم تذوب فى بحار فضائله وأنهار شمائله؟!

ربما تعجب كثيرًا حين تعلم ما كان من أمر السلطان العثمانى محمد الفاتح - رحمه الله - والذى فتح الله القسطنطينية على يديه وأيدى جنوده .. فقد كان لخلفاء الدولة العثمانية فى ذلك الوقت عادة قبيحة، وخلق ذميم .. وهو أن يعمد أحدهم حين يبايع بالخلافة إلى قتل أشقائه حتى لا ينازعوه الملك.. أو على الأقل يكتفى بحبسهم إن كان رحيمًا .. ولم يخرج محمد الفاتح عن نهج سلفه فى تلك العادة القبيحة، فقتل بعض أشقائه، وكانت تلك هى النقطة السوداء المظلمة فى سجل حسناته .. ولكنه مع ذلك كان ذا همة عالية، وعزيمة ماضية، ورغبة لا حدود لها فى جهاد أعداء الله ونشر دينه فى ربوع الأرض .. فجهز جيشه وكان ابن نيف وعشرين سنة وضرب الحصار على القسطنطينية حتى فتحها الله على يديه، وكان ذلك اليوم عيدًا فى تاريخ الإسلام والمسلمين .. وصار فتح القسطنطينية خطوة انطلاق نحو فتح أوروبا لتعلو راية الإسلام فيها .. ولتكتب هذه الأعمال فى ميزان حسنات القائد المسلم محمد الفاتح الذى استحق وسام النبى - ﷺ - «تفتح عليكم القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها»(١) .. ولعل هذه الزلة التى اقترفها محمد الفاتح تطيش أمام سجلات فضائله وحسناته.

وها هو أيضاً كليم الله موسى عليه السلام .. وقد تملكه الغضب من قومه حين عبدوا العجل .. فألقى ألواح التوراة من يديه .. ولم يكن هذا الفعل يسيرًا ولا هيناً فالألواح فيها كلام الله المقدس، ووحيه لعباده .. ولكن هذه الهنة اغتفرت لموسى عليه السلام .. وذابت فى بحار فضله وعظيم صبره فى ذات الله تعالي .. فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، مالا يعفى

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤ / ٣٣٥) بلفظ لتفتحن القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها.

لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره .. ولنعش بقلوبنا مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يؤكد لنا تلك القاعدة فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم حين قال: «انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه .. رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها .. وجر بلحية نبى مثله، وهو هارون .. ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد -ﷺ- ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه ويدلله لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدوٍ له، وصدع بأمره وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر .. وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى، غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه فى بطن الحوت .. ولم يحتمل له ما احتمل لموسى.

وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد .. ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له .. وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بألف شفيع .. كما قيل.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد.. جاءت محاسنه بألف شفيع(١)

فأمثال هؤلاء وغيرهم من أهل الفضل والإحسان لا تذكر هفواتهم .. ولا يسلط على هناتهم .. فلهم فى الخير أيادٍ بيضاء .. ولهم فى نصرة الدين والعمل لأجله إسهامات جليلة .. قد بلغ سيل فضائلهم مبلغاً عظيمًا .. وجاوز نهر بذلهم وعطائهم كل حد فلا تقوى الهنات والصغائر على النيل من جبال حسناتهم .. ولا تستطيع الزلات والسقطات أن تمحو سجلات خيراتهم فلو بدر منهم شىء من الهنات .. أو بدا عليهم نوع من القصور .. فكل بنى آدم خطاء والكمال لله وحده .. وكما قالوا : كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه.

ومن المؤسف والمحزن أن ترى شباباً صغير السن، وحديث العهد بالالتزام يتناول بعض أهل الفضل بالطعن والتجريح .. وينظر إليهم بعين السخط مبدياً مساوئهم ومركزًا حديثه دائماً على مثالبهم .. ومسلطاً الضوء على هناتهم .. والعجيب أنه في ذات الوقت الذى يتناول فيه هذه النقائص والهنات، يغض طرفه عن عظيم حسناتهم وفضائلهم .. ويعمى بصره عن غزير عطائهم

(١) مدارج السالكين. ابن القيم (١/٢٥٥، ٢٥٦) ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

ومناقبهم .. وما هكذا يكون العدل والإنصاف مع أمثال هؤلاء العظماء .. فضلاً عن حفظ جميلهم والاعتراف بفضلهم.

فالواجب مع أمثال هؤلاء السكوت عن هناتهم .. وعدم إهدار عظيم عطائهم وبذلهم لزلة وقعت منهم .. فالله تعالى يقول : «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» .. وإن من الإحسان أن نعرف لصاحب الفضل فضله .. وأن نحفظ له قدره .. وليس من الإحسان أبدًا أن نفتش عن الزلات والهنات .. أو نشنع على صاحب فضل كبير وعطاء واسع بسقطة أو هفوة .. ولو فعلنا ذلك فلن يسلم لنا عالم ولا شريف وصدق الإمام الذهبى - رحمه الله - حين قال : «ولو أنا كلما أخطأ إمام خطأ فى اجتهاده فى آحاد المسائل خطأ مغفورًا له قمنا عليه، وبدعناه، وهجرناه لما سلم معنا ابن نصر ولا ابن منده (من كبار علماء السلف) ولا من هو أكبر منهما»[1].

وتعالوا بنا نجلس هذه الجلسة الإيمانية مع الإمام الذهبى نتعلم على يديه درسًا عمليًا فى الأدب الجم مع أصحاب الفضل وأهل العطاء .. فقد ذم بعض الجالسين معه يومًا تفسير الإمام أبى بكر القفال .. وذكروا ميل هذا العالم لمذهب المعتزلة، وانتصاره لآرائهم .. وظن الجالسون أن الإمام الذهبى سيوافقهم فيما فعلوه وذهبوا إليه .. لاسيما وقد كان الذهبى عالمًا بتاريخ الرجال وسيرهم .. ولكن الإمام الذهبى - رحمه الله - لم يخض معهم فى ذلك العالم .. وقال معاتبًا لهم، ومعلماً شباب المسلمين درسًا فى الإنصاف والعدل : «قد مر موته (أى قد مات القفال وأفضى إلى ربه) .. والكمال عزيز .. وإنما يمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل .. فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها .. وقد يغفر الله له باستفراغه الوسع فى طلب الحق»[2].

فما أجدر الشباب المسلم أن يستوعب هذا الدرس العظيم .. وأن يكف لسانه عن الطعن فى أناس من أهل العلم وذوى الفضل أحياءً أو أمواتًا .. لاسيما وإن كانوا قد أفضوا إلى ربهم .. فلربما حطوا رحالهم فى الجنة منذ زمن طويل فأين يذهب من تناول بعض أهل الجنة بالطعن والتجريح؟!

إنه لمن العيب الكبير فى حق الشباب المسلم أن يتجاهل عطاء السنوات الطوال لبعض أهل

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٤٠)

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦ / ٢٨٥)

الفضل والإحسان .. ثم هو يتوقف أمام بعض هناتهم وعيوبهم .. وذلك لعمرى نوع من الجحود والنكران يأنفه الطبع السوى .. ويأباه الخلق القويم ولو أنصف هؤلاء لعلموا أن يسير الزلل يغتفر فى عظيم البذل والعمل .. وأن صغائر الهنات لا تؤثر فى جبال الحسنات. فبأى حق يستبح البعض إطلاق ألسنتهم بالطعن والتجريح فى عالم جليل كأبى حنيفة النعمان - رحمه الله - ورضى عنه؟! وقد قدم فى سبيل الدين أعظم تقديم .. وعاش حياته متقلباً بين علوم الشريعة .. متبحرًا فى أسرارها .. وروائعها حتى لقب بحق «الإمام الأعظم» .. وحتى تلقته الأمة بالقبول سلفاً وخلفاً .. فلا يكاد يذكر اسمه حتى تتوالى عبارات الثناء وألفاظ الترحم والترضى عليه .. ولا يكاد عالم أو متعلم يتناول مسألة من مسائل الشرع إلا ويذكر قوله ورأيه - رحمه الله - فأى هنة تلك التى تقدح فى عظيم عطائه؟! وأى زلة تلك التى تقوى على النيل من بحار فضله؟!

وهل تؤثر بعض هنات أو عيوب فى مقام رجل عظيم مثل القارىء الشيخ/ عبد الباسط عبدالصمد - رحمه الله - على سبيل المثال؟! .. كيف وقد قضى عمره خادمًا لكتاب الله عز وجل - مترنمًا بآياته .. تالياً لها فى جميع أنحاء الأرض ويكفيه شرفاً وفخرًا أن أسلم على يديه العشرات حين سمعوا تلاوة القرآن حية خاشعة أخذت بمجامع قلوبهم وأرواحهم .. ولئن كان الله تعالى قد حفظ القرآن الكريم مكتوبًا بعثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقد حفظ كتابه متلوًا ومسموعًا بكامل أحكامه، وبمختلف قراءاته على يد الشيخ / عبد الباسط عبد الصمد وأمثاله من القراء العظام .. ويكفيهم أيضًا أن صحائف حسناتهم مفتوحة لم تغلق بموتهم .. فمع كل آية تتردد بأصواتهم فى كل مكان تمتلىء بالحسنات كتبهم حتى يلقوا ربهم بوسام أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»[1].

(١) ومثل هذا يقال فى حق بقية القراء العظام كالشيخ / محمد رفعت ، والشيخ / شعيشع، والشيخ / الشعشاعى، والشيخ / مصطفى اسماعيل، والشيخ/ الحصرى، والشيخ/ البنا ، والشيخ/ صديق المنشاوى وغيرهم فقد اختصهم الله بفضيلة حفظ كتابه تلاوة وأداءً بعد حفظه مكتوبًا على يد عثمان - رضى الله عنه - فهؤلاء العظماء حفظوا للأمة بأصواتهم الندية أدق تلاوة للقرآن وأحكمها .. إذاً فقد حفظ القرآن مرتين مرة فى عهد عثمان - رضى الله عنه - كتابة وأخرى فى العصر الحديث تلاوة وأداءً.

وهل تقدح بعض الهنات والهفوات فى عالم جليل مثل الشيخ محمد متولى الشعراوى - عليه رحمة الله..؟! .. ويكفى أن نسأل أنفسنا : كم مليون من المسلمين فهم على يديه العديد من معانى القرآن الكريم؟! وكم من عصاة المسلمين اهتدى بكلماته ومواعظه؟! وكم من فقراء المسلمين قد نالهم فيض عطائه وجوده؟! وقد كان يعطى عطاءً واسعاً يندر أن يكون له مثال .. كما أقام من مشاريع خيرية أطعمت فقراء، وكفلت أيتاماً، وواست أرامل، وعالجت مرضى؟!

فهل من العدل والإنصاف أن يأتى شاب لم يبذل فى سبيل الله معشار ما بذل، ثم يهدر جبال حسناته لهفوة بدرت منه؟! أو يمحو سجل فضائله لهنة وقع فيها؟! اللهم لا.

وهؤلاء العظماء وأمثالهم ممن قدموا لدين الله خدمات جليلة .. وأسهموا إسهاماً عظيماً فى رفع راية الإسلام لا ينبغى أن تذكر هفواتهم .. ولا يصح أن يشنع على أحدهم بسقطة أو هنة .. فلهم من عظيم الحسنات ما يشفع لهم هذه الزلات .. وما تطيش بجواره تلك المساوىء والسقطات .. فليحذر شباب الإسلام من التعرض لهم بالطعن والتجريح .. فهم أولياء الله عز وجل .. وإن لم يكونوا أولياء الله وهم من ضحوا بأعمارهم فى سبيل الله، وبذلوا أوقاتهم وأموالهم لرفعة شريعته .. فمن يكون لله وليًا؟! .. وليضع كل شاب نصب عينيه هذا الحديث القدسى : (من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب)[1].

وما أفدح الخطب وأسوأ الأثر حين تغيب تلك المعانى عن أذهان الشباب المسلم فعندئذ تهدر فضائل العظماء وتجحد محاسنهم .. ولعلنا نذكر بكل الحزن والأسى ما قام به البعض من جماعة التكفير بقتل الشيخ الذهبى - رحمه الله - بعد تكفيره واختطافه فى أسوأ سابقة فى تاريخ الإسلام الحديث وقد كان - رحمه الله - عالماً جليلاً مفسرًا للقرآن الكريم .. وله فى بيان أسرار الشريعة مؤلفات قيمة .. ولذلك اختير وزيرًا للأوقاف فى السبعينيات[2] وقد نقم عليه قاتلوه أشياء لا حق

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) يطلق البعض على العلماء العاملين فى المؤسسات الرسمية اسم «علماء السلطة» وهذه تسمية خاطئة لا أساس لها من الصحة .. فالعالم عالم سواء كان فى السلطة أو خارجها مادام متمسكا بدينه .. فإذا أصاب الحق وجب قبول قوله بغض=

لهم فيها(١). ومع ذلك لم يشفع له عندهم سابق عطائه للدين .. ولو أنهم وزنوا الرجل بحسناته وسيئاته لتبين لهم أن ما اعتبروه فى حقه نقيصة ومذمة إنما هو مغمور فى بحر حسناته .. ولاذكر له فى جنب بذله وعطائه للإسلام.

فلنبدأ - شباب الإسلام ودعاته المخلصين - من هذه اللحظة عهدًا جديداً نحفظ فيه ألسنتنا من الخوض فى أصحاب الفضل والإحسان والبذل .. ونلتزم الأدب الجم مع السابقين من أهل العلم والدعوة إلى الله .. حتى وإن كان منهم نوع خطأ أو قصور .. فحسبهم صدق نيتهم فى إرادة الخير والمصلحة للإسلام والمسلمين .. ويكفيهم أن اجتهدوا حتى ولو أخطأوا .. فخطؤهم غالباً خطأ نظر واجتهاد، لا خطأ هوى وعناد.

وقد يكون من حقنا أن نختلف معهم، وأ ن نناقش رأيهم بكل أدب واحترام وتقدير .. ولكن ليس أبدًا من حقنا أن نطعن فى أشخاصهم أو نشكك فى نواياهم .. أو نسىء الظن بهم .. فليس ذلك من أخلاق الإسلام مع عوام المسلمين .. فضلاً عن رموزهم وقادتهم وعلمائهم(٢) ولنسمع أخيرًا إلى الإمام الحافظ ابن عساكر - رحمه الله - وهو ينصحنا نصيحة محب مشفق .. ويحذرنا تحذير خائف وجل يقول - رحمه الله -: «اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك لمرضاته .. وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة .. وعادة الله فى هتاك أستار منتقصيهم معلومة .. وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب (أى بالطعن والسب) ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب

= النظر عن موقعه وعمله.. أما إن أخطأ فلا يؤخذ بقوله حتى ولو كان خارج السلطة فالحق قديم لا يتغير لكونه أتى من عالم قريب من السلطة أو بعيدًا عنها والحق لا يعرف بالرجال، ولكن الرجال يعرفون بالحق، والحق دومًا أحق أن يتبع أما بالنسبة للاجتهادات الفرعية الفقهية فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر وكلاهما مأجور مغفور له مادام محصلاً لأدوات الاجتهاد ومتبعًا لقواعده.

(١) نقم قتلة الشيخ الذهبى ـ رحمه الله - على الشيخ قبوله منصب وزير الأوقاف فى الدولة وقد كانوا يعدون العمل فى مؤسسات الدولة كفرًا وكان هذا من ضلال فكرهم .. كما نقموا عليه رده الشرعى على فكر التكفير الذى يعتنقونه، رغم أنه كان ردًا قوياً سليمًا ومنضبطًا بالشرع.

(٢) التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى - الباب الثالث

«فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»[١].

(١) من أكثر العلماء المعاصرين الذين تناولهم البعض بالطعن والتجريح فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله – وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى حفظه الله تعالى .. وهذان العالمان بالذات لهما من بحار الفضائل وجبال الحسنات ما يتصاغر بجواره أى هنه أو قصور بشرى وتاريخهما حافل بخدمة الدين والتضحية فى سبيله بالأموال والأعمار والجهود .. فليس من العدل والإنصاف أن تدفن جبال محاسنهم لهنة من الهنات .. وأمثال هؤلاء لا تذكر زلاتهم إن كان لهم زلات .. وأما أن يشنع عليهم لاجتهاد يخالفه البعض أو يستغربه فليس هذا من قبيل الأدب الواجب مع أهل العلم والفضل .. بل نوقرهم ونجلهم، ونحترم اجتهادهم، ونحسن الظن بهم حتى ولو خالفنا رأيهم ، ولم نتفق مع بعض اجتهاداتهم إن كان هناك من الأدلة الشرعية القاطعة ما يؤيد ذلك.

﴿٤﴾ لنا الظاهر .. والله يتولى السرائر

وهذه قاعدة ذهبية سطرها الإسلام بعدله ورحمته لتكون ميزانًا دقيقًا للتعامل مع الناس. . فالعبرة فى تعامل المسلم مع الخلق إنما هو الظاهر، والله يتولى السرائر .. والمسلم ليس مأمورًا بالتفتيش عما فى قلوب الناس، والبحث عما فى صدورهم ليرى ما فيها من خير وصلاح أو شر وفساد .. فليس ذلك من شأنه ، ولا هو داخل حيز طاقته .. فأمر القلوب موكول إلى علام الغيوب سبحانه وتعالى، فهو العليم، يعلم بواطن الأمور كما يعلم ظواهرها .. ولا تخفى عنه سرائر النفوس البشرية وخواطرها ألم يقل عن نفسه سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾[١]. وقال أيضا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[٢]. إمَّا نحن بنو البشر ، فتكويننا قاصر، ونظرنا محدود .. ولو أن الله كلفنا بالتنقيب عن قلوب الناس، والبحث عما تطوى سرائرهم وتخفى بواطنهم لشق ذلك علينا .. ولكان من تكليف مالا يطاق .. والله سبحانه منزه عن ذلك، ومن أجل ذلك قال : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاّ وسْعَهَا﴾[٣].

والحكم على الناس بالظاهر سياج متين يحمى الأمة من التفكك .. ويصون المجتمعات من الانهيار .. ولنا أن نتخيل حال الأمم والمجتمعات لو فتح باب الحكم على الناس بناءً على خلجات نفوسهم، وخبايا صدورهم .. إذن لعمت الفوضى وساد الاضطراب واتهم البرئ وبرئ المتهم .. ولكثرت الدعاوى بغير بينة ولا دليل، وتراشق الناس بالتهم الباطلة بلا برهان .. ولساد بين الناس سوء الظن واتهام النوايا والتشكيك فى خبايا النفوس .. وفى ذلك كله مالا يعلمه إلا الله عز وجل من فساد المعايش وتوقف عجلة الحياة .. وارتفاع الأمن وغياب الأمان.

من أجل ذلك قررت الشريعة هذه القاعدة لصلاح أمر الناس فى الدين والدنيا وجعلت من دخول الشخص فى الإسلام ، وإعلانه مفارقة الشرك ظاهرًا، أمرًا كافيا لثبوت عقد الإسلام لصاحبه، أيًّا كانت سريرته، وما يخفيه قلبه، فسريرته إلى الله تعالى موعدها يوم القيامة «يوم تبلى

---

(١) سورة غافر .. آية (١٩) (٢) سورة ق آية (١٦) (٣) سورة البقرة آية (٢٨٦).

السرائر»[1] أى تختبر، وتتكشف القلوب وخبايا النفوس فالعبرة فى الدنيا بما فى الظواهر .. وما بدا على اللسان والجوارح أما ما استقر فى القلب وتلجلج فى الصدر فموعده هناك فى الآخره.

«﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾»[2] .. وها هو القرآن يؤكد تلك الحقيقة مخاطبًا أهل الإيمان، ومعلمًا إياهم كيف يكون التعامل مع غير المؤمنين فيقول: فإنّ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين. يعنى .. وإن أخفوا فى قلوبهم ما أخفوا .. فلا شأن لكم ببواطنهم .. إنما الشأن بالنسبة لكم فى الدنيا فيما توحى به الظواهر .. وينزل القرآن مرة ثانية موبخًا بعض أصحاب النبى ﷺ حين عدلوا عن الظاهر وما يدل عليه إلى التنقيب عما فى القلوب فأفضى بهم ذلك أن سفكوا دم مسلم معصوم بغير حق .. فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا (أى ليحمى نفسه من القتل) فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه للنبى ﷺ فنزل قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[3]، [4]. فانظر كيف جعل القرآن مجرد إلقاء السلام .. وهو مظهر من مظاهر هذا الدين - علامة واضحة على إسلام صاحبه، ومانعًا من التعدى على حرمة دمه وماله .. وذلك تأكيدًا على قاعدة الأخذ بالظاهر وترك السرائر إلى الله عز وجل .. وواضح من ذلك حديث أسامة بن زيد عندما قتل الرجل الذى قال لا إله إلا الله، فعنفه النبي ﷺ ورغم أن غلبة الظن هنا أن الرجل إنما قال كلمة التوحيد خوفًا من القتل، ولكن هيهات أن تأخذ الشريعة أحدًا بظنون. وينطلق رسول الله ﷺ معاتبًا أسامة بقوله: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟». قال الإمام النووى رحمه الله: «ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر، وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان»[5] .. إن رسول الله ﷺ رغم كونه مؤيدًا بالوحى .. معصومًا من الهوى، لم يكن له اطلاع على ما فى قلوب الناس .. ولم يهبه الله عز وجل تلك الخصيصة

---

(١) سورة الطارق آية ٩ (٢) سورة الشعراء الآية ٨٨، ٨٩ (٣) سورة النساء آية ٩٤

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (٣٨١) (٥) رواه الإمام أحمد

التى تفرد بها سبحانه .. ولوأراد الله عز وجل أن يهبها لأحد لوهبها لرسوله وحبيبه المصطفى ﷺ .. وقد أخبر ﷺ عن نفسه مؤكدًا ذلك فقال فى الحديث الشريف: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع»[1] .. الحديث، أى أنه ﷺ إنما يفصل بينهم بما بدا له من ظواهرهم، وما نطقوا به بألسنتهم، وحساب سرائرهم على الله سبحانه وتعالى.

ومن عظيم اهتمام العلماء بتلك القاعدة بوب لها الإمام النووى بابًا فى كتابه «رياض الصالحين» بعنوان: باب: إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى». وقد ذكر فيه من الآيات والأحاديث والآثار ما يؤكد هذه القاعدة. وكان مما جاء فيه ما رواه عبد الله بن عتبة بن مسعود- رضى الله عنه- أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي. فى عهد رسول الله ﷺ. وإن الوحى قد انقطع .. وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم: فمن أظهر لنا خيرًا أمنّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه فى سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة»[2] .. وفى هذه الكلمات يتحدث عمر رضى الله عنه.. إلى الناس عن أقوام من أهل النفاق كانوا يعيشون فى المدينة على عهد النبى ﷺ يصلون مع المسلمين، ويجاهدون معهم، ويلتزمون أحكام الإسلام الظاهرة غير أنهم قد أشربوا النفاق فى قلوبهم .. وتشبعوا بالكفر .. ورغم ذلك كان النبى ﷺ يعاملهم كمسلمين، ويحكم لهم بالإسلام بناءً على ما ظهر من أعمالهم، ويكل سرائرهم إلى الله . . وقد أطلعه القرآن عليهم بأوصافهم وسماتهم فقال عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[3] فكان النبى ﷺ يعلم بتعليم الله له، ويحذر من شرهم .. يقول عمر: أما وقد انقطع الوحى، ولم يعد هناك سبيل لمعرفة هؤلاء . فإن اعتمادنا يكون على الظاهر خيرًا كان أو شرًا. وليس لنا من أمر السرائر شيء.. وهكذا ينبغى أن يكون المسلم دائما فى حاله مع الناس.

(١) متفق عليه من حديث أم سلمة.

(٢) رواه البخارى عن عبد الله بن عتبه بن مسعود.

(٣) سورة التوبة الآية ١٠١.

﴿٥﴾ الالتزام بالدين لا يعنى تكفير المسلمين

رحم الله سلفنا الصالح .. فقد كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا .. وأقلها تكلفًا .. وأكثرها تورعًا عن طعن المسلمين فى دينهم وإسلامهم .. والخوض فى دمائهم وأعراضهم .. وهذه حقيقة ربما غابت عن كثير من الشبابِ المسلم المتحمس فى غمرة حميته للدين .. وغضبته لانتهاك حرمات الله عز وجل ..

إن التدين الحقيقى لا يعنى تكفير أكبر قدر من المسلمين أو تفسيقهم أو الحكم عليهم بالابتداع دون مبرر شرعى .. والالتزام الصادق بالدين ليس معناه إطلاق اللسان فى إنزال هذه الأحكام على أشخاص الأمة وأفرادها .. ولو كان ذلك تدينًا والتزاماً لسبقنا إليه من قبلنا من علماء الأمة وسلفها الكرام .. ورغم غزارة المعلومات التى شاعت بيننا عن تلك الثلة المباركة .. ورغم كثرة الكتب التى أسهبت فى ذكر مناقبهم واستعراض سيرهم .. ولكننا لم نسمع عن أحد منهم كان اهتمامه بالإكثار فى وصف أحد من المسلمين بكفر أو فسق أو بدعة أو نفاق .. بل كانوا رحمهم الله كثيرًا ما يقولون من فعل كذا فهو كذا .. ومن قال كذا فهو كذا، دون التعرض للفاعل أو القائل نفسه بحكم من الأحكام .. وقد كفاهم ذلك والحمد لله .. ولم ينقص من إيمانهم وتدينهم .. كما لم يزد الإكثار من إصدار الأحكام على الناس من تدين صاحبه .. بل ربما أضره وأوقعه فى الخطأ والإثم والعياذ بالله، وهذا يدل على عبقرية سلفنا الصالح وعظيم فهمهم للدين .. حيث وقفوا عند حدود بيان أحكام الشرع الحنيف وكفوا ألسنتهم عن الخوض فيما وراء ذلك من الحكم على الأشخاص، مما لا يجلب لهم نفعًا فى دين ولا فى دنيا .. فضلا عن أن يرتد فى دينهم ضررًا بالغًا وعيبًا ثقيلا يثقل كواهلهم أمام الله عز وجل.

إن نموذجًا واحدًا من أولئك العظام نقدمه لشباب أمتنا اليوم يكون كافيًا لتعليمهم أن الإكثار من تكفير هذا أو تبديع ذاك أو تفسيقه ليس شرطًا لصحة اعتقاد العبد وقوة إيمانه .. وأن حفظ اللسان عن ذلك لايعتبر نقصًا فى إيمان العبد أو خللاً فى اعتقاده كما يفهم كثيرٌ من المتحمسين للدين .. فها هو حبر الأمة وترجمان القرآن «عبد الله بن عباس» رضى الله عنهما.. لقد كان من

تقدير الله عز وجل لذلك الصحابى الجليل أن عَمر طويلاً .. وشهد أثناء حياته بعثة النبى ﷺ فكان من أوائل المؤمنين به .. ثم لحق النبى ﷺ إلى جوار ربه، فعاصر ابن عباس خلفاء الأمة الراشدين أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - رضى الله عنهم - وشهد بعينى رأسه فتنة اقتتال المسلمين وما صاحبها من أهوال عظام .. ومنها ظهور الخوارج وغيرهم من الفرق التى مزقت شمل الأمة .. بل كان له نصيب فى علاج الخلل الفكرى والعقائدى الذى اعترى ذلك النفر من أبناء الأمة .. فقد ذهب إلى الخوارج وناظرهم فى تكفيرهم للصحابة وطعنهم فى عقيدة المسلمين .. وهدى الله على يديه آلافًا منهم عادوا إلى الحق ورجعوا للصواب، ثم عاش ابن عباس- رضى الله - عنه طرفًا من الخلافة الأموية فى أواخر حياته .. وتألم قلبه لكثير من المظالم التى قام بها بعض حكام بنى أمية .. والتى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد تقتيل المسلمين وانتهاك أعراض نسائهم .. بل وضرب الحصار على مكة ورميها والكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير في البيت الحرام وهو متعلق بأستار الكعبة[1]، ثم صلبه فى مكة .. إلى غير ذلك من المظالم التى لا يجرؤ حاكم على ارتكابها اليوم .. وبعد هذه المسيرة الطويلة فى الحياة .. وذلك العمر المديد لابن عباس -رضى الله عنهما- هل سمعنا عنه رضى الله عنه أو قرأنا فى الكتب التى عرضت لسيرته أنه كفر أحدًا من المسلمين بذاته؟! أو أنه رمى أحدًا من أهل الإسلام بفسق أو فجور أو بدعة أو نفاق؟! وذلك رغم تلك المظالم والانتهاكات؟! .. بل هل سمعنا عن غيره من الصحابة أو التابعين الذين عاصروا تلك الأحداث المريرة أنهم كفروا أحدًا من المسلمين أو حكموا عليه بفسق أو نفاق؟! ولو فعلوا ذلك أو قالوه لنقل عنهم، ولوصل إلينا كما وصل غيره من سيرهم وأخبارهم .. وحق لنا أن نتساءل ههنا فنقول: ألا يسعنا ما وسع ابن عباس رضى الله عنه بل وما وسع الصحابة والتابعين وغيرهم من أسلافنا الصالحين رحمهم الله؟!

نعم قد يكون فى تلك المظالم والأعمال ما يحمل فى طياته قدرًا من الفسق أو الظلم أو الفجور .. بل قد يصل بعضها فى بعض الأحيان إلى أبعد من ذلك .. هذا بالنسبة للفعل ذاته .. ولكن الحكم على الفاعل أمر آخر. وشأن آخر .. وهذا محور الحديث فى هذه المسألة.

---

(١) كان ذلك في عهد عبد الملك بن مروان.

إن السلف الصالح من علماء هذه الأمة وشيوخها العظام كانوا يتقللون من إطلاق حكم الكفر وغيره على أشخاص المسلمين .. لأن هذه الأحكام تستوجب استيفاء شروط وانتفاء موانع .. وتحتاج إلى إقامة حجة واضحة بينة شافية .. وغير ذلك من الشروط التى بدونها لا يمكن الحكم على شخص ما بكفر أو فسوق أو نفاق .. فلا عجب إذن أن يتحرز علماء السلف من ذلك .. بل ويبالغون فى النهى عنه كما كان يفعل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد قال عن نفسه «إنى ومن جالسنى، يعلم أننى من أشد الناس نهيا عن أن ينسب إلى معين (أى شخص من الأشخاص) تكفير أو تفسيق أو تبديع. حتى تقوم الحجة الرسالية التى يكون تاركها كافرًا تارة .. وفاسقًا تارة، ومبتدعًا تارة أخرى»[١].

وقد ذكر شارح كتاب العقيدة الطحاوية حديثًا قال فيه رسول الله ﷺ «من صلى صلاتنا .. واستقبل قبلتنا .. وأكل ذبيحتنا .. فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا»[٢]. قال شارح الطحاوية: «والمراد بقوله : استقبل قبلتنا، من يدعى الإسلام ويستقبل الكعبة. وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصى، ما لم يكذب بشئ مما جاء به الرسول ﷺ[٣]أ.هـ.

ومن تأمل كتاب «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبى .. وهو من أعظم الكتب التى تناولت سير السلف الصالح وسطرت أخبارهم وآثارهم سيجد ذلك المعنى واضحًا وضوح الشمس فيه .. وسيرى كما كان أولئك الأخيار يتحرزون من تكفير أشخاص المسلمين أو تفسيقهم أو تبديعهم .. بل كانوا يلتمسون الأعذار للمخطئ قدر استطاعتهم، ويقيلون عثرة المذنب ما وسعهم ذلك فلم يدفعهم حرصهم على بيان الحق .. وغضبهم لانتهاك حرمة الدين أن يتعدوا على أحد أو يطعنوا فى دين أحد .. بل كانوا يهدمون الباطل من أساسه .. وينسفون الضلال نسفًا .. وكل ذلك بمزيج من الأدب الراقى والخلق الجميل .. وبلسان عفيف يتحرز من التورط فى تكفير مسلم أو تفسيقه أو تبديعه بغير حق .. وما أحوج شباب الأمة لأن يطيلوا النظر فى كتاب «سير أعلام النبلاء» .. فهو منهج تربوى متكامل يغرس فى النفوس معانى الإنصاف والعدل وعفة اللسان.

(١) مجموع الفتاوي.

(٢) رواه البخارى عن أنس - رضى الله عنه (٣) شرح العقيدة الطحاوية

وعمومًا يكفى أن نقول: إن تكفير أشخاص المسلمين والإكثار من وصفهم بالكفر والنفاق لم يعرف إلا عن أهل البدع والأهواء .. ولم ينتشر فى صفوف الأمة إلا بعد أن ظهر الخوارج على مسرح الأحداث فى تاريخ أمة الإسلام ..

وقد كان التكفير ومازال سلاحًا يستخدمه أهل البدع والأهواء للحكم على من خالفهم بالكفر أو الابتداع .. فهم الذين صدق فيهم قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[1] فليربأ كل مسلم بنفسه عن التخلق بأخلاق أهل البدع والأهواء .. وليناً عن الاتصاف بصفاتهم .. وحسبه الوقوف حيث وقف أسلافه الصالحون فى هذه المسألة .. فإنه يسعه ما وسعهم.

(١) سورة الأنعام ١٥٩ .

﴿٦﴾ لأن تخطئ فى الأسلمة خير من أن تخطىء فى التكفير

لم تعان أمة الإسلام فى تاريخها من آفة مثلما عانت من آفة تكفير المسلمين .. تلك الآفة البغيضة التى عشعشت فى عقول نفر من أبناء الأمة .. وجعلتهم يطلقون أحكام الكفر على المسلمين بغير مبرر شرعى سليم .. وقد نسى هؤلاء – أو تناسوا – أن المجازفة بتكفير المسلمين أمر خطره عظيم، وضرره جسيم، .. فإخراج مسلم من دينه، والحكم عليه بالكفر هو خلع لربقة الإسلام من عنقه .. وجزم بخلوده فى النار .. إنها مسألة صعبة عسيرة تهتز لها قلوب الصالحين .. وتقشعر من هولها أبدان المؤمنين .. وفى مثل ذلك يقول الإمام الغزالى : «والذى ينبغى الاحتراز منه التكفير ما وجد إلى ذلك سبيلاً .. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ .. والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك دم المسلم»(١).

وصدق الإمام الغزالى رحمه الله .. فتكفير المسلم بغير حق أمر خطير .. ومسلك وعر كم زلت فيه من أقدام .. وضلت فيه من أفهام، والمعصوم من عصمه الله تعالى .. كما أنه مجازفة لا تؤمن عواقبها .. ولا تحمد مثالبها فمن ذا يستطيع لقاء ربه بحقوق امرئ مسلم قد أهدر دمه وماله وعرضه بغير حق؟! ومن ذا يرضى لنفسه الدخول تحت طائلة قول النبى ﷺ «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»(٢).

لقد جعل النبي ﷺ اتهام المسلم بالكفر بغير حق مثل قتله .. ونظيرًا لسلب روحه من جسده، فقال محذرًا أمته من الانزلاق فى تلك الهوة السحيقة: «ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله» (٣)فأى تحذير أقوى من هذا التحذير؟! وأى إنذار أبلغ من ذلك الإنذار؟! أو ليس رمى المسلم بالكفر – وهو منه براء – يعد قتلاً أدبيًا ونفسياً له؟! ألا يعد تكفيره وصمة عار فى جبينه تلاحقه أينما حل وأينما رحل؟! ولربما ازداد الأمر خطورة إذا أتبع هذا القائل لأخيه القول بالفعل .. والرمى بالكلمات بالرمى بالرصاصات .. والرمى بالتهمة بالرمى بالرشاش.

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. (٣) رواه البخارى عن ثابت بن الضحاك – رضى الله عنه.

إن الأمر جد خطير .. وإن مجانبة الصواب فى تكفير أحد من المسلمين قد يترتب عليها عواقب وخيمة .. ومفاسد جمة لا يعلم مداها إلا الله تعالى .. ولربما تفاقم الخطب بحيث لا يستطيع أحد تداركه ومنع آثاره .. أرأيت لو أن خطيبًا قام فى أحد المساجد .. وأطلق حكم الكفر على أحد من المسلمين فى خطبته فماذا يكون الحال إذا تلقف هذا الحكم بعض الشباب المتحمس من الحاضرين ثم دفعتهم حماستهم للدين وحميتهم للحق إلى قتل ذلك المحكوم عليه بالكفر؟! وكيف يكون الأمر إذا تبين لاحقًا خطأ هذا الحكم، وعدم كفر ذلك الرجل؟! كأن تكون الحجة لم تقم عليه .. أو كان له تأويل سائغ فيما ذهب إليه .. أو يتبين كذب ما نسب إليه أصلاً من قول أو فعل .. فمن ذا الذى يبوء بإثم قتله؟! ومن ذا الذى يتحمل وزره يوم القيامة؟! أو ليس طلب السلامة أولى؟!

وصدق الإمام الغزالى حين قال: «القضية أن تكف لسانك عن أهل القبلة (يعنى المسلمين) ماداموا يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله. فإن التكفير فيه خطر . أما السكوت فلا خطر فيه»(١)

لقد قرر علماء الإسلام أن اليقين لا يزول بالشك ، وأن الحقائق لا تمحى بالظن .. وأن من ثبت إيمانه بيقين فلا يزول إلا بيقين مثله .. والأصل فى التعامل مع المسلم هو استصحاب الأصل الذى هو عليه وهو الإسلام ولا يصح انتفاء هذا الأصل إلا ببرهان جلى، ودليل واضح أوضح من شمس النهار .. وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات كما أخبرنا بذلك النبى ﷺ وذلك احترازًا من ظلم امرئ مسلم، وإقامة حد من حدود الله عليه بغير حق .. رغم أن تلك الحدود أقل خطرًا ، وأيسر شأنًا من الردة والكفر .. فكيف بإطلاق حكم عظيم كحكم الكفر الذى يترتب عليه إهدار الدماء واستباحة الأموال ألا يستحق الدرء بالشبهات من باب أولى؟ وهل يعقل من شريعة كالإسلام أن تأخذ الناس بالظن فى مثل هذا الحكم الخطير؟ أو أن تبنى أحكامها فيه على الشكوك والأوهام؟ ذلك أمر بعيد جدًا فى شريعة قامت بالعدل ورفعت شأن الإنصاف عاليًا.

إن المسلم التقى هو الذى يقدم الحرص على سلامة دينه .. ويكف لسانه عن إطلاق حكم الكفر على أحد من المسلمين .. فالسلامة لا يعدلها شىء ولأن يخطئ العبد فى الأسلمة خير له

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .. الإمام الغزالي.

من أن يخطىء فى التكفير .. وذلك قياسًا على أن الخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة .. ولأن يفلت من العدالة البشرية ألف مذنب خير من أن يعاقب برىء بدون ذنب .. وذلك تأسيسًا على أن العدالة الإلهية فى الآخرة لن يفلت منها أحد .. وما أجمل قول الإمام الشوكانى فى تفسيره :«والأدلة الدالة علي وجوب صيانة عرض المسلم واحترامه تدل بفحوى الخطاب على تجنب القدح فى دينه بأى قادح، فكيف إخراجه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفرية .. فإنَّ هذه جناية لا يعدلها جناية .. وجرأة لا تماثلها جرأة .. وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»(١) وقوله ﷺ : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»(٢)، وقوله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأَعراضكم عليكم حرام»(٣)(٤) أ.هـ

فما أجدر الشباب المسلم أن يحتاط لأمر دينه .. وأن ينأى بنفسه عن التورط فى تكفير أحد من المسلمين . وعلينا جميعًا أن نترك هذا الأمر لأهله القادرين على الخوض فى لجة هذا البحر العميق .. والذى لا يجيد السباحة فيه إلا العلماء الصادقون المخلصون .. الذين تسلحوا بالعلم الصحيح .. وتجردوا من نوازع الأهواء ورغبات النفوس.

(١) متفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) متفق عليه عن ابن مسعود رضى الله عنه.

(٣) متفق عليه عن أبى بكرة رضى الله عنه

(٤) السيل الجرار للشوكاني (٤ / ٥٨٥)، وانظر الروضة الندية لصديق حسن خان (٢/٢٩٠ ، ٢٩١)

﴿٧﴾ الإسلام يثبت بالشهادتين دون شروط زائدة

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الدخول فى الإسلام لا يكون إلا بالشهادتين .. وتواترت نصوص الوحى وأدلة الشرع على تقرير هذه الحقيقة .. فقد ثبت عن النبى ﷺ فى كثير من الأحاديث أنه كان يقبل إسلام من ينطق بالشهادتين أو ما فى معناهما .. أو بأى لفظ يدل على الدخول فى الإسلام .. ولم يكن النبى ﷺ يسأل ذلك الداخل فى الإسلام عن أى شروط زائدة غير التلفظ بالشهادتين .. ولم يكن يطلب منه أن يقيم على إسلامه الأدلة أو البراهين .. فها هى ذى الجارية التى ورد ذكرها فى حديث معاوية بن الحكم السلمى .. وحكم لها النبي ﷺ بالإيمان بعد أن سألها أين الله؟ قالت فى السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله فقال النبي ﷺ اعتقها فإنها مؤمنة[١] .. فلم يسألها النبي ﷺ عن أي شروط زائدة .. ولم يكلفها بإقامة أى أدلة أو براهين .. ولم يختبرها فى مسائل التوحيد كالحكم والولاء والنسك وإنما حكم لها بالإيمان بمجرد إقرارها بالشهادتين .. وتكرر ذلك الأمر مرارًا فى سيرة النبى ﷺ حتى بات واضحًا لكل ذى عينين.

فعن أبى هريرة- رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله»[٢] وهذا حديث صحيح صريح فى ثبوت حكم الإسلام لمن تلفظ بالشهادتين، وحقه فى إجراء أحكام الإسلام عليه .. قال الإمام النووى تعليقًا على هذا الحديث .. «وفيه صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه، ولو كان عند السيف»[٣] .. وروى الإمام مسلم أن عائشة - رضى الله عنها- قالت: انطلق النبى ﷺ تجاه مكة حتى نزل بشجرة ، فجاءه رجل يذكر منه نجدة وغيرة، فقال: جئت أقاتل وأصيب معك .. فقال النبي ﷺ :أتشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟ قال: لا، قال: ارجع فلن أستعين بمشرك على مشرك.. فانطلق حتى إذا كان بحمة الوبرة أتاه الرجل

---

(١) رواه مسلم وأبو داود عن معاوية بن الحكم - رضى الله عنه

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣) شرح صحيح مسلم (١/٢٤٤) ط . دار الحديث القاهرة.

فقال: مثل ما قال أول مرة، فقال النبى ﷺ: أتشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله؟ قال نعم، قال: «الحق بإخوانك»[1] .. فانظر كيف أثبت له النبى ﷺ - الإسلام وأخوة الإيمان بمجرد قوله: نعم، والتى يفهم منها إقراره بالشهادتين .. ثم ألحقه مباشرة بركب المجاهدين، ولم ينقل أنه ﷺ - سأله عن أى شروط، أو اختبره فى أى مسائل أو قضايا.

ومثل ذلك حديث أسامة بن زيد - رضى الله عنه - حين قتل رجلاً فى المعركة بعد أن علاه بالسيف فقال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله فلما بلغ ذلك النبى ﷺ - عنفه تعنيفًا شديدًا، وقال له: فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة، يقول أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، وذلك من شدة توبيخ النبى - ﷺ - له على صنيعه .. ويعلق الإمام ابن رجب الحنبلى - رحمه الله - على هذا الحديث قائلاً: (ومن المعلوم بالضرورة أن النبى -ﷺ - كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه.[2].

كل تلك الشواهد السابقة تؤكد لنا بوضوح أن النطق بالشهادتين كافٍ لثبوت إسلام صاحبه فى الدنيا دون أى شروط زائدة .. وما أجمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يلخص لنا هذه الحقيقة فيقول: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .فبذلك يصير الكافر مسلمًا والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال .. ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل فى الإيمان .. وإن قال بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان)[3].

وهنا يثور تساؤل مهم: إذا كان النطق بالشهادتين كافيًا لإثبات حكم الإسلام الظاهر لصاحبه، وعصمة دمه وماله .. فما معنى تلك الشروط السبعة[4] التى وضعها العلماء لكلمة التوحيد، وأخبروا أن كلمة لا إله إلا الله لا تنفع صاحبها بغير استكماله لتلك الشروط؟

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها. (٢) جامع العلوم والحكم.

(٣) نقلا عن فتح المجيد. باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

(٤) هذه الشروط هى: العلم، اليقين، القبول، الانقياد، الصدق، الإخلاص، المحبة، وجمعها حافظ حكمى فى منظومته فقال:

العلم واليقين والقبول .. والانقياد فادر ما أقول .. والصدق والإخلاص والمحبة .. وفقك الله لما أحبه.

والحقيقة أن هذه المسألة من المسائل الهامة الدقيقة، والتى تحتاج إلى مزيد توضيح وبيان فقد اضطرب بعض الشباب فى فهم هذه الشروط، وإدراك المقصود منها، فجعلوها محلاً لاختبار أهل الإسلام فى دينهم .. واعتبروها شروطًا لصحة إسلام الناس فى الدنيا وإجراء أحكام الدين عليهم، فخالفوا بذلك هدى النبى - ﷺ - الذى كان يكتفى بالنطق بالشهادتين لإثبات عقد الإسلام لصاحبه، ولم يكن يسأله عن أى شروط أخرى غير ذلك.

وللإجابة عن ذلك التساؤل السابق نقول: إن شروط لا إله إلا الله السبعة والتى وضعها العلماء فى كتبهم ليست شروطًا فى قبول الإسلام الظاهر فى الدنيا .. كما أنها لا تصلح معيارًا لاختبار الناس فى صدق إسلامهم .. وإنما هى شروط فى انتفاع المسلم بكلمة التوحيد فى الآخرة لا فى الدنيا - وليس لها أى علاقة بإجراء أحكام الإسلام الظاهر فى الدنيا ، والذى هو منوط بالنطق بالشهادتين .. فمن أتى بأصل هذه الشروط يوم القيامة، وتحقق فى قلبه أصل العلم واليقين والإخلاص والصدق وغيرها نجا من الخلود فى النار وكان من أهل الجنة .. ثم هو يرتقى بعد ذلك فى درجات الجنة بحسب درجة تحققه بهذه الشروط زيادة ونقصانًا .. ومن هنا يتفاوت الناس فى الدرجات يوم القيامة بحسب درجة إتيانهم بهذه الشروط فمستقل ومستكثر.

ومن تتبع أدلة الشرع التى استقرأ العلماء منها هذه الشروط فلن يعجز عن ملاحظة هذه الحقيقة السابقة من أن محل الانتفاع بهذه الشروط إنما هو فى الآخرة لا فى الدنيا .. فقد استقرأ العلماء شرط الصدق مثلاً من قوله - ﷺ :- ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار»[١] أما شرط اليقين فمن قوله - ﷺ -: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة[٢] وشرط الإخلاص من حديث النبى - ﷺ -:«فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»[٣]، وهكذا بالنسبة لباقى الشروط - وتأمل فى الأحاديث السابقة قوله - ﷺ - مرة

(١) رواه البخارى ومسلم عن معاذ رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى ومسلم عن عتبان بن مالك - رضى الله عنه.

(حرمه الله على النار) ومرة (دخل الجنة) ومرة (حرمه على النار) ستجد أن النبى - ﷺ - علق الانتفاع بهذه الشروط على الآخرة .. وهذه ملاحظة أولى على تلك الشروط السبعة.

أما الملاحظة الثانية: فهى أن هذه الشروط هى فى معظمها - إن لم تكن كلها - قلبية ولا يملك الاطلاع على القلوب إلا الله - عز وجل - فكيف يصلح أمر قلبى أن يكون معيارًا للحكم على صحة إسلام الناس؟! .. وأما ما كان متعلقًا بالظاهر من هذه الشروط كالأعمال والأقوال الظاهرة، فلا يصلح أيضا ليكون معيارًا للحكم على صحة الإسلام وثبوت أصله .. إذ أن انتفاء الأعمال الظاهرة هو دليل ضعف الإيمان الشديد لا على ذهاب الإيمان بالكلية(١).

والملاحظة الثالثة : هى أن المراد من هذه الشروط - كما ذكر العلماء - أن يتخلق بها المسلم وأن تكون موفورة في قلبه .. وليس لزامًا عليه أن يحفظها أو يعد ألفاظها ويعرفها بلسانه .. فالمقصود أن يعرفها بقلبه، ويلتزمها فى نفسه .. وفى ذلك المعنى قول الشيخ حافظ الحكمى صاحب كتاب معارج القبول: (ومعنى استكمالها - أى الشروط السبعة - اجتماعها فى العبد، والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشىء منها .. وليس المراد من ذلك عد ألفاظها، وحفظها .. فكم من عامىّ اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له: اعددها، لم يحسن ذلك .. وكم حافظ ألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها ، والتوفيق بيد الله، والله المستعان)(٢).. وصدق والله هذا العالم .. فها هم أولاء أمهاتنا وعوام بلادنا من العجائز والمسنين إذا تحدثت إليهم ورأيت أحوالهم وجدت قلوبهم تفيض ثقة بالله وتوكلاً عليه، ويقينًا فيما عنده، وغير ذلك من المعانى الإيمانية القلبية، ولو سألت أحدهم عن معنى اليقين أو التوكل لم يحسن التعبير عنه والإفصاح عن معناه الذى امتلأ به قلبه .. فى حين تجد البعض من الفلاسفة مثلاً أو أهل الكلام يتفنن فى تعريف هذه المعانى ويتشدق لسانه بها، وربما لم يذق قلبه طعمها يومًا ولم يشم لها رائحة.

ويتبين من كل ما سبق أن شروط لا إله إلا الله إنما تنفع صاحبها يوم القيامة فتنجيه من النيران وترفعه فى درجات الجنان .. أما فى الدنيا، فالنطق بالشهادتين هو باب الدخول فى الإسلام ..

---

(١) ويستثنى من هذه الأعمال ترك أركان الإسلام .. ماعدا الشهادتين ففى تكفير تارك أركان الإسلام الأربعة خلاف سائغ بين أهل السنة والجماعة .. وسيأتي مزيد تفصيل لهذه النقطة فى مقدمة مستقلة.

(٢) معارج القبول جـ ١ ص ٣٢٧ ط. دار الحديث - القاهرة

وليس لأحد من الناس كائنًا من كان أن يحكم بعد ذلك بكفر من أقر بهما، ولم يصدر منه ما ينقضهما أو ينقض أحدهما.

ولعل مغزى اكتفاء الشريعة بالشهادتين لدخول الإسلام هو أن شهادة أن لا إله إلا الله فى حد ذاتها تنقض جميع التصورات والاعتقادات الباطلة عن الله - عز وجل - فى ربوبيته وأولوهيته وفى أسمائه وصفاته .. فيكون النطق بها بمثابة إعلان براءة من جميع الاعتقادات الباطلة حول الله سبحانه وتعالى .. وكذلك الحال بالنسبة لشهادة أن محمدًا رسول الله فلا عجب إذن أن جعلت الشريعة النطق بالشهادتين هو مفتاح الدخول فى دين الإسلام.

﴿٨﴾ ترك واجبات الدين .. عصيان لا كفران

كان اختلاف الناس قديماً وحديثًا فى حقيقة الإيمان سببًا فى ظهور بعض الفرق التى تبنت بدعة تكفير المسلمين .. فقد ثار التساؤل حول حقيقة الإيمان، وعلاقته بالعمل (أى أداء واجبات الدين أو تركها) .. وتعددت الإجابات حول أسئلة من قبيل: هل الإيمان حقيقة كلية لا تتجزأ؟أم أنه يزيد وينقص، ويتفاوت قدره فى قلوب الناس؟ وما هو الحد الأدنى من الإيمان، والذى يثبت به إسلام صاحبه؟

فمن قائل: إن الإيمان كل لا يتجزأ، والعمل جزء من حقيقته .. وبالتالى لو أن مسلمًا ترك شيئًا من الواجبات، فقد ضاع إيمانه بالكلية .. ودخل فى دائرة الكفر .. وهذا قول الخوارج الذين يكفرون أهل الإسلام بترك أى واجب من الواجبات ولا يخفى ما فى هذا القول من غلو واضح يأباه منطق الإسلام وعدله ورحمته.

ومن قائل: إن الإيمان كل لا يتجزأ، والعمل خارج عنه ومنفصل تمامًا عن حقيقته وبالتالى لو أن مسلمًا زنى أو سرق أو أكل الربا أو ترك فرائض الدين فهو مؤمن كامل الإيمان وهذا قول المرجئة الذين يرفعون شعار: (إيمان أفسق الفاسقين كإيمان الأنبياء والمرسلين) وهو قول باطل وضلال مبين يرفضه كل ذى عقل سديد وقلب سليم.

وبين هؤلاء ، وأولئك هدى الله علماء السلف وأهل السنة لما اختلف الناس فيه من الحق بإذنه .. فقالوا : الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح والأركان .. والإيمان حقيقة متفاوتة يزيد وينقص فى قلوب المؤمنين .. يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .. والأعمال شرط فى كمال الإيمان لا فى صحته .. فمن قصر أو تهاون فى أداء الواجبات الشرعية .. فلا نقول إنه كافر، ولا نقول إنه مؤمن كامل الإيمان .. ولكن نقول إنه مؤمن ناقص الإيمان .. بحسب ما ترك من الواجبات[١].

---

(١) راجع اعتقاد أهل السنة والجماعة فى كتب السلف المعروفة مثل : الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية – شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى. معارج القبول لحافظ الحكمى

وهذا البيان الناصع الذى قرره سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين هو أصدق تعبير عن عظمة الإسلام .. ورعايته لطبيعة النفس البشرية التى جبلت على النقص وفطرت على القصور والخطأ. فالمسلم بشر ليس معصومًا .. ويتصور فى حقه القصور والتهاون والتفريط .. فلو أن الإسلام جعل كل من يترك شيئًا من فرائضه كافرًا، لما بقى مسلم على وجه الأرض .. فمن من المسلمين - مهما كان ورعه وتقواه - يأتى جميع الواجبات وينتهى عن جميع المعاصى والذنوب والمخالفات؟!

وقد ضرب القرآن مثلاً بديعًا لشجرة الإيمان فى قلب المؤمن .. وهذا المثل - لمن تأمله - يؤكد ما ذكرناه من أن ترك شيء من الواجبات ينقص الإيمان ولا ينقضه .. يقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.. فشبه القرآن الإيمان بشجرة أصلها ضارب بجذوره فى أرض القلب .. وفروعها التى تحمل الأوراق والثمار من أعمال الإيمان وأقواله باسقة فى السماء .. فتبين لنا أن للإيمان أصلاً يزول عن المسلم وصف الإسلام بزواله .. وفرع لا يزول بغيابه اسم الإيمان والإسلام، ولكن يكون إيمان صاحبه ناقصًا .. فهل أعمال الإسلام من الواجبات الشرعية داخلة فى أصل الإيمان أم فى فرعه؟ وهل ترك هذه الأعمال يذهب بأصل الإيمان بالكلية، أم يكون سببًا فى نقصان كماله؟ .. ويجيبنا الإمام ابن حزم - رحمه الله - بقوله (... فأما الإيمان الذى يكون الكفر ضدًا له، فهو العقد بالقلب (أى اعتقاد التوحيد)، والإقرار باللسان (أى النطق بالشهادتين) فإن الكفر ضد لهذا الإيمان .. وأما الإيمان الذى يكون الفسق ضدًا له - لا الكفر - فهو ما كان من الأعمال فرضًا، فإن تركه (أى ترك الواجبات الشرعية) ضد للعمل، وهو فسق لا كفر»(١).

إذن فقد تقرر أن المسلم لا يكفر بترك شيء من الواجبات مادام مقرًا بالتوحيد بقلبه، وناطقًا للشهادتين بلسانه .. ومادام فى تركه لهذه الواجبات غير جاحد لوجوبها ولا مستحل لتركها .. وعلى هذا اتفق علماء أهل السنة قديمًا وحديثًا ولم يختلف فى ذلك إلا ما ورد في خلافهم فيمن ترك مبانى الإسلام الأربعة (وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج) حيث حكم بعضهم بكفره، ولكن

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٣ / ١١٨ / ١١٩) ط. مكتبة السلام العالمية

جمهورهم على عدم تكفير تارك أى عمل من أعمال الإسلام مادام غير مستحل لتركه ولا جاحد لوجوبه .. وهذا هو الرأى الراجح فى المسألة.

وقد يسأل سائل ويقول: كيف يكفر من ترك القول :(أى النطق بالشهادتين) بينما لا يحكم بكفر من ترك العمل؟! أو ليس تارك العمل أولى بالكفر من تارك القول؟ ويجيب الإمام ابن حزم عن ذلك فيقول: (... وإنما لم يكفر من ترك العمل (أى الواجبات) وكفر من ترك القول (أى الشهادتين) لأن رسول الله ﷺ - حكم بالكفر على من أبى القول وإن كان عالمًا بصحة الإيمان بقلبه، وحكم بالخروج من النار لمن آمن بقلبه وقال بلسانه، وإن لم يعمل خيرًا قط»[1].

وبتطبيق هذه القاعدة على أرض الواقع يمكننا أن نقول ما يلى:

- تارك الصلاة - علي الراجح من أقوال أهل العلم - لا يكفر إذا تركها كسلاً أو تهاونًا ، مادام مقرًا بوجوبها، وغير مستحل لتركها.

- وكذلك تارك الزكاة والصيام والحج لا يكفر إلا إذا استحل ترك هذه الواجبات أو كان جاحدًا لوجوبها.

- والحكم بما أنزل الله واجب من الواجبات الشرعية - لا على الحكام فحسب ، بل على كل راع ولاه الله أمر أحد من الناس - وتارك الحكم بما أنزل الله لا يكفر بتركه هذا الواجب إلا إذا كان جاحدًا لوجوبه أو مستحلاً لتركه .. أما لو ترك الحكم بما أنزل الله بين رعيته كسلاً أو تهاونًا وهو مقر بوجوب هذا الحكم فهو عاصٍ وليس بكافر وعلى ذلك تظاهرت أقوال أهل العلم من المفسرين والفقهاء.

قال ابن عباس - رضى الله عنه - فى تفسير قوله تعالى .. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»[2] ومن جحد ما أنزل الله فقد كفر .. ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق » وقال أيضًا «ليس بالكفر الذى تذهبون إليه، وقال ابن طاووس.. «وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله».

---

(١) قراءة نقدية والرد، د. ياسر برهامى ص ٣٤ نقلاً عن كتاب «الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم».

(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير ابن كثير (٣/٨٨) ط. المكتبة التوفيقية.

وقال الإمام العز بن عبد السلام: من لم يحكم به جاحدًا كفر .. وإن كان غير جاحد ظلم وفسق».

وقال الإمام القرطبي في تفسيره: «.. أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن وجحدًا لقول الرسول - ﷺ - فهو كافر .. قاله ابن عباس ومجاهد»..

وقال الإمام ابن حزم - رحمه الله - «الحكم عمل من الأعمال . فإن كان الحاكم يجحد حكم الله فقد كفر، حتى ولو لم ينفذ الحكم بغير ما أنزل الله .. وإن كان منفذًا فقط للأمر المخالف، أو أمر بتنفيذ الحكم علي خلاف حكم الله - ولكنه لم يجحد حكم الله - فهو من العصاة ولا يعد مرتداً عن الإسلام[1].

وهذه الأقوال جميعها تؤكد أن مجرد الحكم بغير ما أنزل الله لا يعد كفرًا من فاعله - رغم أنه ترك لواجب من واجبات الدين - إلا إذا اقترن بهذا الفعل جحود لوجوب الحكم بما أنزل الله، أو استحلال لتركه .. ولعل الدافع إلى الاستطراد فى هذه النقطه هو ظن البعض أن أى حكم بغير ما أنزل الله هو كفر، والحاكم به كافر حتى وإن لم يقترن به جحود ولا استحلال .. ولو كان ذلك صحيحًا لدخل كثير من المسلمين تحت طائلة الكفر .. فكثير من مسلمى اليوم لا يحكمون ببعض ما شرع الله تعالى فى أسرهم وبيوتهم وأماكن عملهم، ويحيدون عن شرع الله فى قليل أو كثير من أمور حياتهم[2].. وذلك مع قدرتهم على تحكيم شرع الله فى هذه الأمور، وعدم عجزهم عن ذلك ولكنهم عدلوا عنه إما تكاسلاً، أو اتباعًا للهوى، أو تغليبًا لمصالح دنيوية .. إلخ. ولم يفعلوا ذلك جحودًا منهم لشريعة الإسلام، ولا استحلالاً لتركها .. فلم يقل أحد من علماء الأمة الثقات فى عصرنا هذا بكفرهم - لسبب بسيط هو أن هذا الفعل منهم معصية، وأن أهل الإسلام لا يكفرون بالمعاصى .. ولو كان تركهم للحكم بشريعة الإسلام جحودًا لوجوبها أو استحلالا لتركها لكان هذا الفعل كفرًا أكبر مخرجًا من ملة الإسلام.

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/٤٩).

(٢) شاع فى كثير من القرى والأرياف ظاهرة منع الإناث من إرثهم، وفى هذا مخالفة صريحة لشرع الله .. كما أن كثيرًا من الأسر تمنع بناتها أحيانًا من ارتداء الحجاب حتى لا يعوقها عن الزواج وهذا أيضًا انحراف عن شرع الله .. ولكن هذه المخالفات لم يقم أصحابها جحودًا لشرع الله أو استحلالاً لتركه .. وإنما لهوى فى النفوس .. لذلك لم يقل أحد من علماء الإسلام الثقات بكفرهم.

وغنى عن الذكر أن القول بعدم كفر من يترك شيئًا من الواجبات ليس معناه أن هذا الترك لا يضر بدينه .. ولا يقدح فى كمال إيمانه .. أو أنه مع تركه لذلك الواجب مؤمن كامل الإيمان .. حاشا وكلا، فهذا الترك حتمًا ينقص من إيمان صاحبه بقدر ما ترك من واجبات الدين، بل إن تركه لشىء من الواجبات هو فى حد ذاته معصية قد ترقى إلى مرتبة الكبائر .. ولكنها لا تكون كفرًا بحال من الأحوال إلا إذا استحل ترك ذلك الواجب أو كان جاحدًا لوجوبه .. وعلي هذا استقرت عقيدة أهل السنة والجماعة .. فلله ما أعظم شريعة الإسلام .. تلك الشريعة الربانية العادلة .. والتى شرفها المولى - عز وجل - بأن جعلها وسطًا بين الشرائع .. ووضع عن أتباعها الآصار والأغلال التى حملت على من كان قبلهم.

﴿٩﴾ وإن زنى وإن سرق .. رغم أنف أبى ذر

كانت مسألة تكفير المسلمين بالذنوب والمعاصى هي حجر الزاوية فى فكر أهل التكفير قديمًا من الخوارج وغيرهم .. ولا زالت تلك المسألة هى الأساس الذى ينطلق من خلاله الكثيرون ممن زلت أقدامهم فى هوة التكفير حديثًا .. فالذين يكفرون المسلمين بالمعاصى والكبائر لا تتصور نفوسهم التسامح مع العصاة والمذنبين.. ولا تقبل عقولهم أن يدخل الجنة صاحب كبيرة من الكبائر .. ولاسيما إن كان مصرًا عليها .. ومقيمًا على فعلها .. وهذه النظرة الغير متسامحة مع أصحاب الكبائر والذنوب قد تنشأ أساسًا من غيرة شديدة على الدين .. ومن تعظيم شديد لقدر الله عز وجل .. ولكن مع غياب التصور الصحيح لحقيقة الإيمان .. وعدم التفريق بين ما ينقص كمال هذا الإيمان، وبين ما ينقضه من أساسه.

إن الفرق بين نواقص الإيمان ونواقض الإيمان هو فرق إملائى بسيط .. فهو تلك النقطة اليتيمة فوق حرف الصاد .. ولكن الخطأ فى الوضع الصحيح لهذه النقطة ينعكس آثارًا وخيمة فى الواقع والتفكير .. لقد قررت الشريعة بنصوصها المتواترة أن الكبائر والذنوب لا تنقض إيمان صاحبها بالكلية .. ولكنها تنقص من كمال إيمانه بقدرها .. كما أن المعاصى مهما عظمت لا تحجب صاحبها عن الجنة ولا تحكم له بالخلود فى النار .. حتى ولو مات مصرًا على فعلها .. فهو حينئذ فى مشيئة الله عز وجل إن شاء عفا عنه وهو الغفور الرحيم .. وإن شاء عذبه بها وهو العزيز الحكيم .. ثم يخرج من النار طاهرًا مطهرًا إلى الجنة .. وذلك مادام قد لقى ربه على التوحيد لا يشرك به شيئًا.

روى البخارى ومسلم عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبي - ﷺ - قال: أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت (يعنى أبا ذر) وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق .. فكررها ثلاثًا، حتى قال فى الثالثة: على رغم أنف أبى ذر»[(١)]

فهذا أبو ذر رضى الله عنه، قد ظن أن الكبائر تحول دون دخول صاحبها الجنة حتى ولو أتى بالتوحيد .. ولكن النبى ﷺ بين له خطأ هذا الظن .. ويؤكد له ثلاث مرات أن من مات على

(١) متفق عليه من حديث أبى - ذرّ رضى الله عنه.

التوحيد دخل الجنة وإن أصاب من المعاصى والذنوب ما أصاب .. فإن كان ممن عصمهم الله تعالى من اقتراف الكبائر فهو فى أول الداخلين .. وإن مات مصراً على كبيرة منها فهو فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ما يتطهر من ذنوبه ثم أدخله الجنة .. فإن القلب إذا استنار بنور التوحيد .. وأشرق الإيمان فى أركانه .. فمحال أن يخرج من دائرة الإسلام .. أو أن يحكم على صاحبه بالخلود في النار مهما اقترف من المعاصى أو ارتكب من الذنوب.

وقد روى البخارى فى هذا المعنى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن شعيرة من خير .. ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير»(١).

وتأمل بقلبك هذا الموقف النبوى الكريم .. والذى يؤكد فيه ﷺ أن الكبائر لا تنقض إيمان صاحبها ولا تؤدى إلى زواله بالكلية .. بل قد يجتمع فى قلب ذلك العاصى مع ارتكابه لكبيرته شئ من محبة الله ورسوله .. فقد روى البخارى عن عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» أن رجلاً على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب (حمارًا)، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب (أى إدمان شرب الخمر) .. فأتى به يومًا فجلده .. فقال رجل من القوم: «اللهم العنه .. ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبى ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»(٢) .. فما أعظم هذه الرحمة المهداة، وما أرقى ذلك الأدب النبوى الكريم .. وفى هذا الحديث دلالة على أن الكبائر لا تخرج صاحبها من الإسلام .. وأن ارتكاب النهى لا يعنى غياب محبة الله ورسوله من قلب العاصى فى جميع الأحيان .. وهذا الحديث يفسر لنا المقصود من نفى الإيمان فى قوله ﷺ فى حديث آخر: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»(٣) فالمقصود من النفى هنا نفى كمال الإيمان لا نفى وجوده وأصله .. فما أجدر الشباب المسلم بأن يقتدى بأخلاق المصطفى ﷺ .. فلا يطلق لسانه فى أحد من أهل الكبائر من المسلمين بحجة أنه فاسق، وأنه لا

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه.
(٢) رواه البخارى عن أسلم مولى عمر رضى الله عنه
(٣) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمرو رضى الله عنهما.

غيبة لفاسق .. فلربما كان هذا العاصى محبًا لله ورسوله أو كان له من الطاعات الخفية والحسنات المستورة ما تطيش أمامه كل تلك الذنوب.

لقد أثبت القرآن صفة الإسلام والإيمان لأهل الكبائر والذنوب .. ولم يجعل قيامهم بتلك المعاصى سبيلا إلى نزع الإيمان عنهم، فقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[(١)] فأثبت لهم الإيمان مع قتال بعضهم بعضًا .. ومعلوم أن قتال المسلم من الكبائر، بل سماه النبى ﷺ فى بعض حديثه كفرًا، تغليظاً له، ومبالغة فى التنفير منه، فقال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[(٢)] ومع ذلك لم يحل ذلك القتال دون وصفهم بصفة الإسلام والإيمان .. فمن قال بكفر من قاتل المسلمين وهو كبيرة من الكبائر فقد ناقض صريح القرآن وخالف صريح السنة النبوية .. وقد يجره القول بذلك إلى تكفير صحابة النبى ﷺ الكرام الذين وقع القتال بينهم من أمثال على ومعاوية وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهم جميعًا وكلهم مبشرون بالجنة .. فهل يقول بذلك عاقل؟ فضلا عن مسلم صحيح الإسلام؟!

ألم يقل النبى ﷺ عن الحسن بن على رضى الله عنهما إن ابنى هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين عظيمتين[(٣)] .فلم يقل ﷺ : بين فئة مسلمة وأخرى كافرة، أو بين فئتين كافرتين .. وإنما أثبت الإسلام لكل منهما رغم اقتتالهم الذى هو من كبائر الذنوب.

إن القول بتكفير المسلمين بالذنوب والمعاصى .. فضلا عن مجافاته للشرع الحنيف نصًا وروحًا .. فهو مخالف لأبسط قواعد العقل والواقع .. فلو أن الذنوب والمعاصى تكفر المسلم وتخرجه من الإسلام، لما بقى على وجه الأرض مسلم .. ولخرج جميع المسلمين من دينهم .. فهل هناك مسلم لم يكذب فى حياته قط، أو لم يغتب أحدًا من المسلمين؟! .. وهل هناك مسلم لم يخلف الوعد مرة؟! .. أو لم يخن الأمانة يومًا؟! .. بل إن أصحاب هذا القول أنفسهم ممن يكفرون الناس

---

(١) سورة الحجرات.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه

(٣) رواه البخارى عن أبى بكر رضى الله عنه.

بالمعصية لا يخلو أحدهم من الوقوع فى الذنوب والمعاصى .. إذ لا عصمة لأحد من البشر اللهم إلا أنبياء الله ورسله .. فتجد هؤلاء كلما عصى أحدهم أو أذنب ذنبًا قام فاغتسل ونطق بالشهادتين، ولربما تكرر ذلك منه فى اليوم الواحد مرات ومرات .. فأى عقل وأى رشد ذلك الذى يدعو صاحبه لمثل هذه الأفعال؟!

إن أخطر ما فى تلك الدعوى الآثمة - تكفير المسلمين بالمعصية - أنها لا تقتصر على تكفير عوام المسلمين وخواصهم فحسب .. بل إنها تتعداهم لما هو أبعد من ذلك .. وقد تصل بصاحبها إلى تكفير الصحابة الأجلاء .. بل إلى تكفير الأنبياء والمرسلين والعياذ بالله .. ألم يقل الله - عز وجل - فى كتابه :«وعصى آدم ربه فغوى»(١) .. فهل كفر آدم عليه السلام حين أزله الشيطان فأكل من الشجرة؟! .. وهل كفر نبى الله يونس عليه السلام حين عصى ربه وترك دعوة قومه بدون إذن من الله تعالى؟!.. لا يقول بهذا عاقل.

ونختم بذلك القول الرائع للإمام النووى - رحمه الله - والذى يلخص فيه مذهب أهل السنة فى تلك المسألة حيث يقول: «واعلم أن مذهب أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال .. وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو فى مشيئة الله تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذى يريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة، فلا يخلد فى النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصى ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من البر ما عمل .. هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق فى هذه المسألة»(٢).

---

(١) سورة طه (١٢١)

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى (١/١٩٢)

﴿١٠﴾ شريعة الرحمن .. لا مؤاخذة بغير علم

ليس أحد أحب إليه العذر من الله .. ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب .. وبعث أنبياءه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .. فرحمته الواسعة تأبى أن تعاقب أحدًا بما يجهل .. وحكمه العادل يتنزه عن مؤاخذة شخص بشئ لم يبلغ ولم يحط به علمًا .. ولما كان الله عز وجل - وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين - ليعاجل بعقوبته قومًا لم تبلغهم دعوة الرسل .. ولم يصل إلى مسامعهم إعذار ولا إنذار .. فهذا يتناقض مع واسع رحمته التى سبقت غضبه ووسعت جميع خلقه.

وإذا كانت تلك هى صفات المولى تبارك وتعالى .. فما بال أقوام لا تنهض نفوسهم للاتصاف بهذه الصفات .. ولا ترنو أبصارهم للتخلق بما يحبه الله ويرضاه من الأخلاق .. فإذا بهم أقل حبًا للعذر من خالقهم ومولاهم .. وأشح نفوسًا برحمة الله الواسعة على خلق الله عز وجل .. وصدق المولى حين قال : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لأَّمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانَ قَتوراً﴾[(١)]

إن العذر بالجهل[(٢)] فى أمور التوحيد ومسائل الاعتقاد، هو مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده .. وجانب من جوانب عدله، وحكمته .. فليس من المقبول شرعًا ولا عقلاً أن يعاقب إنسان على شيء لم يبلغه، أو يؤاخذ بأمر لم يصل إليه علمه .. ولو كان ذلك مقبولاً لما أرسل الله تعالى رسله إلى الخلق تترى .. ولما أنزل عليهم كتبًا يقرأونها .. ولاكتفى سبحانه بما فطر عليه خلقه من فطرة التوحيد والإيمان .. أو بما ركب لهم من عقول تميل بطبعها إلى الخير والحق والعدل، وتؤثره عما سواه

---

(١) سورة الإسراء آية ١٠٠

(٢) المقصود بالجهل هنا ليس عدم إتقان القراءة والكتابة أو عدم العلم بأمور الحياة .. وإنما هول الجهل ببعض المسائل الشرعية والأمور الاعتقادية .. وهذه المسائل لا يقتصر الجهل بها على عوام المسلمين فحسب - بل قد يجهلها بعض المتخصصين فى العلوم الدنيوية كالأطباء والمهندسين والسياسيين وغيرهم، وهؤلاء جميعًا ينطبق عليهم مبدأ العذر بالجهل كما ينطبق على غيرهم من عوام المسلمين.

.. ولكنه سبحانه لم يجعل من كل ذلك حجة يؤاخذ بها الخلق .. بل جعل رسله وأنبياءه هم الحجة البالغة الواضحة، كما قال سبحانه فى كتابه: «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» .. ومبالغة فى إعذار خلقه لم يجعل أمة بغير رسول، «وإن من أمة إلاخلا فيها نذير» فتوالت أنبياء الله ورسله كل على إثر أخيه وصاحبه .. ينبهون الخلق إلى حجج الله .. وينذرونهم عذابه يوم القيامة .. ولئلا يقول أحد من الناس : «ما جاءنا من بشير ولا نذير».

وقد تواترت نصوص القرآن والسنة لتقرير مسألة العذر بالجهل فى أصول الدين وفروعه .. وتأكيد كون الجاهل معذورًا بجهله إذا وقع فيما تعتبره الشريعة فعلاً من أفعال الكفر .. أو غاب عن علمه تفاصيل ما ينبغى أن يعلمه المسلم .. وهذا العذر بالجهل لا يعفى صاحبه من إثم التقصير فى تحصيل العلم الشرعى الصحيح - وخاصة فيما لا يسع المسلم جهله . ولكنه يمنع من إطلاق وصف الكفر عليه إذا أتى ما يستوجب التكفير مادام جاهلاً به .. وهكذا كانت عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم .. وهو أيضًا عين ما نطقت به آيات القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ﷺ.

يقول المولى عز وجل مؤكدًا هذه المسألة : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ .. فانظر كيف جعل المولى عز وجل استحقاق العقاب لمن يشاقق رسوله ﷺ ويتبع غير سبيل المؤمنين مشروطًا بتبين الهدى وظهور الحق لصاحبه .. وكأنه يقول سبحانه إن من يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين من قبل أن يتبين له الهدى والحق، فإنه لا يكون حينئذ مستحقًا للعقوبة، حتى يتبين له الحق فى هذه المسأله..

وهذا الإمام ابن كثير رحمه الله يزيد المعنى وضوحًا .. ويقول فى تفسير هذه الأيه: «أى: ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ فصار فى شق، والشرع فى شق .. وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له، واتضح له»(1). فتأمل تلك القيود المتتابعة التى وضعها ابن كثير لكى يستحق المشاقق العقوبة إذ لا يكفى مجرد مخالفته للنبى ﷺ .. بل لابد أن تكون هذه

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٠٣) ط. المكتبة التوفيقية.

المخالفة عن عمد منه وقصد .. وأن تكون بعد بيان الحق له ووضوحه له .. وظهوره له .. فهل يستقيم القول بعد ذلك بأن الجاهل مستحق للعقوبة؟! وتأمل أيضًا كيف كرر ابن كثير لفظ «له» ثلاث مرات فى قوله «بعد ما ظهر له الحق، وتبين له .. واتضح له «ومن قبل ذكرته الآيه الكريمة .. وهذا يدل على ضرورة وضوح الحق وبيانه لذلك الشخص المفارق للشريعة بنفسه وبذاته .. فلا يكفى أن يكون الحق واضحًا لأمثاله .. أو لأقرانه، أو لمن هم فى مثل سنه أوقدره أو كذا أو كذا .. فذلك كله لا يكفى لثبوت العقاب فى حقه مادام هو نفسه جاهلاً .. فكما لا يؤاخذ العالم بجهل غيره. فكذلك لا يصح أن يحاسب الجاهل على علم غيره .. إذ لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولعل هذه الآية هى أبلغ رد على من يعتبر أن الحجة قد قامت على كل الناس بمجرد بعثة الرسول حتى ولو خفى على بعض الناس شىء من تفاصيل الشريعة، فإنهم لا يعذرون بجهلهم بعد مبعث الرسول ﷺ ولو كان هذا الادعاء صحيحًا لكان يكفى البشرية إرسال رسول واحد، وإنزال كتاب واحد تقوم بهما الحجة ... ولكن تعدد الرسل والكتب فيه دليل على أن العلة المقصودة هى انتفاء الجهل، وحصول العلم لكل أحد .. فلو وجد الجهل وانتفى العلم لكان صاحبه معذورًا حتى وإن كان يعيش فى مدينة رسول الله ﷺ.

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى أرست مبدأ العذر بالجهل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .. وفى تفسيرها يقول ابن كثير إنها: «إخبار عن عدله تعالى، وأنه لايعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه»[1] .. وحتى لا يتوهم البعض أن العذاب المنفى فى هذه الآية هو عذاب الآخرة فقط، وأن أحكام الدنيا وعقوباتها لا تحتاج لإنذار ولا بيان .. يعالج الإمام الشنقيطى هذه النقطة فى تفسيره لنفس الآية ويقول: ظاهر هذه الآية الكريمة أن الله جل وعلا لا يعذب أحدًا من خلقه، لا فى الدنيا، ولا فى الآخرة حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذره .. فيعصى ذلك الرسول ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار»[2] أ.هـ فهذا هو الذى يستحق العذاب .. إذ بلغه صوت الحق، ووصلته رسالة السماء نفسه .. ثم أصر على عصيانه وكفره .. ولم يستجب للإنذار والإعذار .. أما إذا لم يبلغه الحق .. أو بلغ غيره فإنه لا يؤاخذ لجهله .. ولا يقع عليه العذاب من الله عز وجل.

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤١) ط. المكتبة التوفيقية

(٢) أضواء البيان للشنقيطى (٣/٤٢٩)

وكذلك قول المولى عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.. يقول فيه الشوكانى رحمه الله: «أى أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم للإسلام، والقيام بشرائعه، ما لم يقدموا على شيء من المحرمات بعد أن يتبين لهم أنه محرم .. أما قبل أن يتبين لهم ذلك فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به»[(١)].

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق بعد ذكر هذه الآية: «فقرر سبحانه وتعالى فى ختام هذا الحكم هذه القاعدة الشرعية العظيمة، وهى أن المؤاخذة دائماً بعد العلم، وهذا من فضل الله ورحمته فله الحمد» [(٢)] أ.هـ

إن عدم العذر بالجهل هو الخطوة الأولى نحو الانزلاق فى هاوية التكفير .. لا تكفير عوام المسلمين فحسب .. بل تكفير الأمة كلها بما فيها صحابة رسول الله ﷺ وأفضل الخلق بعد المصطفى ﷺ .. فليس هناك مسلم لا يجهل شيئًا من أمور الدين أصوله وفروعه [(٣)] .. حتى بعض كبار الصحابة الذين عاشوا على عهد النبي ﷺ خفى عنهم بعض تفاصيل الشريعة .. فقد ثبت أن أبا بكر رضى الله عنه .. كان يجهل أن للجدة السدس من الميراث ولم يحكم لها بذلك حتى شهد له المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة بأن النبى ﷺ جعل لها السدس .. وكان عمر رضى الله عنه .. يجهل ما قاله النبى ﷺ فى شأن الطاعون، حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .. بذلك.

ولو قلنا بكفر من يجهل شيئًا عن أصول الدين، فلن يسلم من سيف التكفير أحد حتى خيرة الصحابة وأكابرهم على حد هذا القول المجانب للرشد والصواب .. وللتأكد من ذلك فتعالوا بنا

---

(١) فتح القدير (٢ / ٤١٢)

(٢) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٧٢

(٣) كثير من الناس ممن تبوأوا مناصب علمية عالية فى تخصصاتهم كالطب والهندسة والفيزياء وغيرها يحبون الدين، ويحبون أحكامه وشرائعه .. ولكنهم قد يجهلون بعض هذه الشرائع .. وقد يخفى عليهم بعض مسائل التوحيد والعقيدة .. وذلك لانشغالهم الشديد بتخصصاتهم واتقانهم لها .. فهؤلاء وأمثالهم حين يقعون فى شئ مما تعده الشريعة كفرًا أو تجاوزًا عن غير عمد منهم، بل عن جهل بحكم هذه المسائل .. فهم أولى بأن يعذروا بجهلهم، وألا يؤاخذوا بما خفى عنهم .. فعاطفتهم الدينية المتوهجة تخبر بأنهم لو علموا حكم ما وقعوا فيه لتجنبوه وابتعدوا عنه.

نعش قليلاً مع الرعيل الأول فى مدينة النبى ﷺ لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يعذر الجاهل بشىء من أصول الدين من صحبه الكرام ولا يحكم عليه بكفر مادام جاهلاً.

فهاهو معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أعلم الأمة بالحرام والحلال - يجهل حكم السجود لغير الله . ويجهل كون ذلك كفرًا .. فيسجد للنبى ﷺ [1] .. ومع ذلك لا يحكم النبى ﷺ عليه بالكفر لأنه جاهل بهذا الحكم.

قال الشوكانى: «وفى هذا الحديث دليل على أن من سجد جاهلاً لغير الله لم يكفر»[2].

وها هى عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وقد ظنت أن الله تعالى لا يعلم خفايا النفوس ومكنونات الصدور .. وجهلت أن الله عز وجل يعلم السر وأخفى .. ومع ذلك لم يكفرها النبى ﷺ رغم جهلها بصفة من صفات الله تعالى .. فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده فى حديث طويل أن السيدة عائشة سألت النبى ﷺ وقالت : «مهما يكتم الناس يعلمه الله؟ قال : نعم».

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه عائشة أم المؤمنين. سألت النبى ﷺ : هل يعلم الله ما يكتم الناس؟ فقال لها النبى ﷺ : نعم .. وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم بذلك .. ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شىء يكتمه الناس كافرة .. وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان .. وإنكار علمه بكل شىء كإنكار قدرته على كل شىء.. فقد تبين أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التى يكفر تاركها»[3].

وعن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة[4] يعكفون عندها وينوطون (يعلقون) بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا

---

(١) أخرجه البزار بسند رجاله ثقات: قال الهيثمى في مجموع الزوائد (٤ / ٣٠٩) : «رواه بتمامه البزار، وأحمد باختصار، ورجاله رجال الصحيح، وكذلك طريق من طرق أحمد، وروى الطبرانى بعضه أيضًا». وقال الشوكانى، وأخرج قصة معاذ المذكورة فى الباب البزار باسناد رجاله رجال الصحيح.

(٢) نيل الأوطار (٦ / ٣٦٣)

(٣) مجموع الفتاوى (١١ / ٤١١ - ٤١٣)

(٤) السدرة : هى شجرة النبق المعروفة فى مصر.

بسدرة فقلنا يا رسول الله .. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .. فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر إنها السنن، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون» لتركبن سنن من قبلكم»(١) .. فهؤلاء نفر من أصحاب النبى ﷺ قد خرجوا معه إلى الجهاد وهم يجهلون حكمًا من أحكام العقيدة .. فطلبوا منه شجرة يتبركون بها ويعكفون عليها .. وذلك اعتقادًا منهم بأن هذه الشجرة تأتى بالنصر .. وفى هذا التصرف مخالفة صريحة لتمام توحيد الله عز وجل .. والعلم بأسمائه وصفاته، بل جعله النبى ﷺ مشابهًا لقول بنى إسرائيل حين قالوا لنبيهم «﴿ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾»(٢) فهل كفرهم النبى ﷺ وطلب منهم تجديد الإسلام؟ أم عذرهم بجهلهم وعدم علمهم بكون هذا السؤال شركًا؟!

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق تعليقًا على هذه الحادثة: «والشاهد أن الرسول ﷺ لم يقل لهم كفرتم، وأبطلتم إسلامكم السابق، ولابد لكم من إسلام جديد .. وإنما يبين لهم أن هذا العمل شرك، وذلك ليحذروا منه مستقبلاً(٣).

وبعد تلك الشواهد السابقة التى تقطع باعتبار الشريعة للجهل كمانع من موانع التكفير والمؤاخذة فى الدنيا والآخرة .. قد يذكر لنا البعض قول الله تعالى :﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٤) .. ويقول إن الله عز وجل يحكى لنا فى كتابه أنه أخذ هذا الميثاق على جميع الخلق وهم فى ظهور أبائهم .. وأشهدهم على توحيده فأقروا بذلك .. إذن فهذا الميثاق حجة على الناس جميعًا، ولا عذر لهم بجهل بعد الإقرار به.

والحقيقة أن هذا القول خاطئ من وجوه ..

---

(١) أخرجه الترمذى، وقال : حسن صحيح .. وأحمد والنسائى وحسنه الألبانى.

(٢) سورة الأعراف ١٣٨

(٣) الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ص ٧٢

(٤) سورة الأعراف ١٧٢

الوجه الأول

أن هذا الميثاق لو كان يصلح حجة كافية بنفسه لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل، وإنزال الكتب .. ولكن الله عز وجل صرح فى كتابه بأن الذى تقوم به الحجة على الناس .. وينقطع به عذرهم، هو إرسال الرسل وإنزال الكتب.. قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1] .. ولم يقل حتى ننصب الأدلة العقلية والكونية على توحيد الله .. أو نغرس الإقرار بربوبيته وألوهيته فى الفطر البشرية.

الوجه الثانى

أن هذا الميثاق كان إقرارًا مجملاً بتوحيد الله فى ربوبيته وخلقه .. ولم يكن إشهادًا على العلم بتفاصيل الشريعة، ومسائل العقيدة .. فلم يتضمن هذا الميثاق مثلاً بيان ما يكفر به العبد من الأفعال والأقوال وغيرها مما ورد فى ميثاق الرسل .. وبهذا يكون ميثاق الرسل بتفصيله أولى بكونه حجة على الخلق من ميثاق الإشهاد العام المجمل.

الوجه الثالث

لو كان هذا الميثاق حجة على الخلق لكان احتجاج الكافرين بعدم إرسال رسول لهم من قبيل العبث .. ولكان رد القرآن عليهم بهذا الميثاق لا بإرسال الرسل .. ولكن الحاصل فى القرآن غير ذلك .. فجميع آيات القرآن التى تحدثت عن عذاب المشركين احتجت عليهم بإرسال الرسل لا بميثاق الإشهاد ولا الفطرة .. قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾[2] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ﴾[3] فتبين من هذه الآيات وغيرها أن الحجة القاطعة إنما هى بإرسال الرسل لا بميثاق الإشهاد والفطرة.

---

(١) سورة الإسراء ١٥

(٢) سورة طه ١٣٤

(٣) سورة القصص ٤٧

الوجه الرابع

نقول لمن ذهب إلى أن الحجة قامت بميثاق الفطرة والإشهاد: هل تذكر أنت هذا الميثاق؟ فإن قال: نعم، فقد كذب .. وإن قال لا، قلنا له: فمن الذى ذكرك به؟ .. فإن قال: القرآن الذى نزل على الرسول ﷺ .. قلنا: إذن فالعبرة والحجة بميثاق الرسالة، لا ميثاق الفطرة والإشهاد [1] إذ كيف يكون الإشهاد حجة وحده ولم يعلم به أحد، ولم يتذكره أحد إلا حينما جاء به القرآن؟!

والخلاصة

أن أحب شئ إلى الله تعالى هو العذر .. وأن الله قضى بواسع رحمته وعظيم عدله وحكمته ألا يؤاخذ أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة إليه بنفسه، واتضاح الحق له .. وظهوره واضحًا أمام عينيه.

وتعالوا نعش بقلوبنا مع قصة ذلك الرجل الذى شك فى قدرة الله تعالى جاهلا فعذره الله ولم يعاقبه لجهله وخشيته .. عن حذيفة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله، إذا أنا مت فاجمعوا لى حطبًا كثيرًا، وأوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت[2]، فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا (أى شديد الريح) فاذروه فى اليم: ففعلوا، فجمعه الله فقال له: لم فعلت ذلك. قال: من خشيتك فغفر الله له» [3].

قال شيخ الإسلام بن تيمية: «فهذا الرجل شك فى قدرة الله، وفى إعادته إذا ذرى (أى تفرق) بل اعتقد أنه لا يعاد .. وهذا كفر باتفاق المسلمين .. لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك .. وكان مؤمنا يخاف الله أن يعاقبه فغفر الله له بذلك»[4].

---

(١) ميثاق الإشهاد لا يقيم الحجة وحده .. ولكنه ينفع من مات قبل البلوغ: لانه يكون حينئذ قد مات على الفطرة. ومات مقرًا بهذا الميثاق، فى حين أنه لم يبلغ بعد حد التكليف ليكون مسئولا عن ميثاق الرسالة.

(٢) أى تفحمت

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٣١)

فما أوسع رحمتك يا رب .. وما أعظم حلمك على عبادك .. وحرى بكل مسلم أن يكون له نصيب من هذه الرحمة .. وأن يسعى جاهدًا للتخلق بما يحب الله تعالى من الأخلاق والصفات .. فإذا كان العذر أحب شئ إلى الله .. أفلا يليق بكل مؤمن أن يكون كذلك؟ وأن يسعه ما وسع عفو الله تعالى.

فهيا شباب الإسلام نحلم على المخطئ .. ونلتمس العذر للجاهل .. ونسعى فى تعليمه وإزالة الجهل عنه .. فذاك أولى وأحب إلى الله تعالى من العجلة فى تكفيره .. والتسرع فى إخراجه من دائرة الإسلام .. فإن ذلك لن يفيدكم شيئًا .. ولن يفيد الإسلام فى شىء.

﴿١١﴾ إقامة الحجة .. تعليم للجاهل وتذكير للناسى.

لقد حرص الإسلام حرصًا شديدًا على حفظ حرمة المسلم .. واهتم اهتمامًا بالغًا بصيانة كافة حقوقه الدينية والدنيوية .. فليس من طبيعة الإسلام أن يتصيد الأخطاء للناس ، أو يتتبع عثراتهم وزلاتهم فإذا ما وقع أحدهم فى زلة عاجله بالحكم الرادع، والعقوبة القاسية..

ولأن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإحسان .. فهو يقدم التماس العذر دائمًا على الأخذ بالتهم والظنون .. وليس أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل، من أجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب .. ولذلك فرقت الشريعة بين الكفر وبين فاعله .. وقررت أن الفعل قد يكون فى نفسه كفرًا، ولكن لا يسمح بتكفير صاحبه إلا بعد إقامة الحجه عليه .. وبيان الحكم الشرعى لما فعله بيانًا شافيًا كافيًا لا يلتبس على مثله ..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين - وإن أخطأ وغلط - حتى تقام عليه الحجة، ويبين له المحجة.. ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك .. بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة».(١)

إن الإسلام يفترض فيمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه، وذاق حلاوته ألا يدير ظهره لهذا الدين أو يتنكر له إلا لعذر .. إذ من المستبعد أن يعمد المسلم إلى الكفر قاصدًا مختارًا بعد أن عاش فى كنف الإسلام ردحًا من الزمن .. لذا تمهلت الشريعة فى إطلاق حكم الكفر، وسلب شرف الإيمان من صاحبه .. ومنحته فرصة أخيرة يراجع فيها نفسه .. فجعلت من إقامة الحجة شرطًا لإصدار حكم الكفر وذلك حتى تكون الحجة تعليمًا للجاهل .. وتذكيرًا للناسى .. وتنبيهًا للمخطىء وكشفًا لشبهة المتأول .. «﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ٤٦٦)

(٢) سورة الأنفال ٤٢

ولكن .. ما هى صفة تلك الحجة؟ وما هى شروط من يقيمها؟ وهل يصلح لإقامة الحجة أى أحد؟ وإذا لم يصلح لها أى أحد .. فما هى المؤهلات التى يجب توافرها فيمن يقيم الحجة؟! لاسيما والآثار المترتبة عليها من الخطورة بمكان .. فإقامة الحجة تعنى خروج مسلم من دينه .. ونزع ربقة الإسلام عن عنقه .. ذلك إذا أصر على فعل الكفر بعد إقامة الحجة التى يكفر تاركها .. فأى مواصفات تلك التى يجب أن يتحلى بها أصحاب مهمة عسيرة كهذه المهمة؟!

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية .. فقد كفانا وكفى الأمة عبء التفكير فى إجابة تلك الأسئلة بقوله العظيم : «وينبغى أن يقيمها من يحسن القيام بذلك من سلطان مطاع أو عالم متبوع .. ولا يترك أمر القيام بها لمن لا يحسن ذلك حتى لا يزيد أهل الباطل تمسكا بباطلهم»(١).

إذن، فليس كل أحد مخولا بإقامة الحجة .. ولا يصلح لها أى شخص ولا يكتفى فيها بمجرد العلم وطلاقة اللسان .. بل لابد فيمن يقيم الحجة من هيبة وسلطان بين الناس يجعل لبيانه منزلة، ولعلمه مكانة .. ويجعل لكلامه من القوة والسطوة ما يجعل السامع له يحمله على محمل الجد..

والعالم المهاب، والسلطان المطاع لهما من تلك المهابة والسطوة ما يؤهلهما لإقامة الحجة .. فالأول حاز بعلمه الواسع مكانة فى قلوب الخلق .. وتبوأ فى نفوسهم منزلة كريمة .. فلا يقطعون أمرًا دونه .. ولا يمضون شأنًا بغير الرجوع إليه.

والثانى – أى السلطان المطاع .. فله من سطوة الحكم .. ونفوذ السلطان ما يحمل الناس على طاعة أمره .. والنزول على رأيه .. كما أن للسلطان بينهم من المكانة ما يجعل قوله مطاعًا وزجره نافذًا.

فليس المقصود من إقامة الحجة هو مجرد سرد الأدلة .. وبيان الأحكام الشرعية ، بل لابد من أن يكون ذلك كله بصورة تحمل السامع على قبول ذلك البيان .. وتدفعه إلى الإذعان له والاقتناع به .. ولا يتحقق ذلك إلا بأن يقيم عليه الحجة من هو أرفع منه قدرًا وأعلى مكانة.

فأستاذ الجامعة مثلا لا يصلح لإقامة الحجة عليه من هو أقل منه شأنًا، وأدنى منه منزلة، كأن يكون مثلاً طالبًا من طلابه الذين يتتلمذون على يديه .. فهو لن يقبل من مثل هؤلاء ابتداءً أن

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية

يقيموا عليه حجة .. لأنه لا يرى لأحدهم عليه ميزة.. بل يرى أنه أعلى منهم منزلة ومكانة .. هذا فضلا عن أن يقبل إقامة الحجة من صاحب مؤهل متوسط مثلا أو شخص غير متعلم حتى ولو كان أكثر منه علمًا فى أمور الشرع .. فهو ابتداءً لم يقبل ذلك الشخص فكيف يقبل كلامه ؟! .. فإذا كان أستاذ الجامعة وهو أقل شأنًا واعتزازًا بنفسه من الحاكم، لا يقبل ذلك، أى لا يقبل إقامة الحجة ممن هو أدنى منه .. فكيف يظن البعض أن أى أحد حتى ولو كان من شباب الحركة الإسلامية يصلح لإقامة الحجة على الحكام .. أو إلزام الحكام الحجة .. فضلاً عن إطلاق الأحكام عليهم بناءً على ما ألزمهم به..

فلا بد من التناسب فى إقامة الحجة .. وذلك بأن يقيمها من هو أعلى مكانة وأرفع قدرًا .. والأصل فى إقامة الحجة فى دولة الإسلام كما قرر الفقهاء هو أن يقيمها القاضى على من له شبهة فى أصول الدين .. وقد يستدعى القاضى طائفة من العلماء ليستعين بهم فى ذلك .. وهذا القاضى المنوط به إقامة الحجة لا يمتلك من العلم ما يؤهله لتلك المهمة فحسب .. بل لديه من السلطان والقوة والمهابة ما يجعله قادرًا على إقناع ذلك الشخص بالحجة وإلزامه إياها أولاً .. وقادرًا على إنفاذ الأحكام الشرعية التى سيصدرها بدءًا من السجن إلى ما فوقه ثانيا.

والأصل فى الحجة أن تكون مباشرة وأن تتم إقامة الحجة وجهًا لوجه بغير واسطة بين من يقيمها ومن تقام عليه .. فذلك أرجى لقبولها .. وأدعى لوضوحها .. وأقدر على إزالتها لأى شبهة وبيانها بيانًا شافيًا لا يلتبس على مثل صاحبها .. ولا تصلح إقامة الحجة من خلال خطبة يلقيها داعية فى أحد المساجد، وتطبع فى شريط من الأشرطة .. كما لا تصلح إقامة الحجة من خلال بيان يوزع هنا وهناك أو كتاب يطبع هنا وهناك.

وبعض الدعاة حين يقوم بإلقاء خطبة فى أحد المساجد .. أو يؤلف كتابًا أو يطبع رسالة يظن أنه بذلك قد أقام الحجة، وأزال عن الناس الشبهة .. مع أن كثيرًا من الناس ربما لم يعرفوه ولم يسمعوا خطبته .. ولم يقرأوا كتابه بل ربما لم يروه أصلاً.

وقد تأخذ الحماسة بعض الشباب إلى أبعد من ذلك .. فيرى أن هذه الخطب أو تلك المقالات كافية لإقامة الحجة حتى على الحكام، وإلزامهم بها .. ثم يسمح لنفسه بإطلاق أحكام الكفر

والفسق والنفاق تأسيسًا على هذا الظن الخاطئ .. وبناء على تلك الحجة المتوهمة .. وربما غاب عن هؤلاء الشباب أن الحاكم قد لا يسمع عن ذلك كله شيئًا، ولا يشعر به .. وحتى لو سمع عنه فلن يلقى له بالاً فى خضم أعباء الحكم ومشاغله .. فضلا عن كون تلك الصورة لا تعبر عن الحجة الصحيحة التى تكلم عنها العلماء .. ورسموا حدودها .. وبينوا شروط من يؤهل لإقامتها..

إن إقامة الحجة شىء .. والدعوة إلى الله شىء آخر .. نعم، قد تندرج تلك الخطب والكتابات تحت باب الدعوة إلى الله تعالى .. وعلي ذلك يكون قيام المسلم بها أداءًا لواجب النصيحة .. وسعيا إلى مرضاة الله عز وجل .. ولا يترتب عليها إطلاق أحكام الكفر والفسق على الناس .. كما لا ينتج عنها أى آثار شرعية من إهدار الدم والمال ..

أما إقامة الحجة فلها شأن آخر .. ولا يصلح لإقامتها أىٌ أحدٍ .. كما أنه لا يترتب عليها آثار وأحكام شرعية لا يقوى عليها إلا صاحب نفوذ وسلطان بين الخلق .. فليلزم الدعاة إلى الله حدود دعوتهم .. ولا يحطوا رحالهم فى غير أرضهم .. حتى لا تضيع الدعوة ويفسد الدين.

وليدعوا أمر الحكم على الناس لأهله المختصين به .. وإن لم يفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

﴿١٢﴾ المعلوم من الدين بالضرورة .. حدوده وضوابطه

اتفق أهل السنة على أنَّ من جحدَ معلومًا من الدين بالضرورة كفر ولم يعذر بجهله .. هذه قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، طالما سمعناها على ألسنة العلماء، وكثيرا ما قرأناها فى كتبهم .. وتفيد تلك القاعدة كفر من يجحد أمرًا معلومًا من دين الله بالضرورة .. وهو ذلك الأمر الذى شاع علمه بين الناس، وانتشر ذكره فيهم بحيث صار معلومًا للعامة قبل الخاصة .. وللصغار قبل الكبار، فوضوحه بين الناس كوضوح الشمس فى وسط النهار لا يخفى ضوؤها على أحد.

ولعل المغزى الدقيق فى اعتبار الجحود كفرًا هو أن الجحود فى حد ذاته يعد اعتراضًا على أمر الله عز وجل .. ومناقضة صريحة لما شرعه سبحانه وارتضاه لعباده .. فأساس الإسلام وحقيقته هى الاستسلام لله عز وجل، والإقرار بكل ما شرعه .. والجحود والإنكار ينافى ذلك الإستسلام ويناقضه ومحال أن يجتمع الجحود والاستسلام فى قلب إنسانٍ إلا إذا اجتمع النور والظلام فى آن واحد.

ومما يلفت الأنظار فى تلك القاعدة أنَّ الشريعة قد علقت حكم الكفر على جحد المعلوم من الدين بالضرورة لا على الترك أو التقصير فى أدائه .. فمجرد ترك أمر من أمور الدين أو التقصير فيه لا يخرج صاحبه من الإسلام .. ولا يدخله فى دائرة الكفر .. وذلك مادام مقرًا بوجوب ما ترك .. ومعرفاً فى قرارة نفسه بتقصيره فى جنب الله عز وجل .. أما لو جحد فريضة من فرائض الإسلام وأنكر وجوبها فى دين الله تعالى .. فإن ذلك يكون كافيا لخروج صاحبه من دائرة الإسلام حتى ولو كان قائماً بهذا الواجب مؤديًا له .. إذ لا ينفعه فعل الجوارح مع إنكار القلب وجحوده.

وكثيرًا ما يتساءل الشباب عن ماهية الأمور المعلومة من الدين بالضرورة ويقول فى نفسه .. ما هو معنى المعلوم بالضرورة؟ .. ومالمقصود به؟ . . وما هى حدوده وضوابطه؟ وتلك أسئلة وجيهة، وإجابتها غاية فى الأهمية .. ولكننا قبل الشروع فى الإجابة عنها نتوقف قليلاً مع استثناء مهم وضعه العلماء لهذه القاعدة .. فقد اســـتثنى العلماء منها صنفين من الناس .. واعتبروا جهلهم

بالمعلوم من الدين بالضرورة عذرًا مقبولا يحول دون إطلاق حكم الكفر عليهم.

أما الصنف الأول: فهو حديث العهد بالإسلام .. وهو ذلك الشخص الذى دخل الإسلام حديثًا .. فلا شك فى احتمال خفاء كثير من أحكام الإسلام عليه .. وجهله بالعديد من شرائعه المعروفة .. فلو أنكر مثل هذا الشخص شيئًا مما هو معلوم بالضرورة من دين الله تعالى ، فإنه لا يكفر بهذا الجحود والإنكار .. بل يقوم المسلمون بتعليمه وبيان ما خفى عليه .. فلو افترضنا مثلاً أن أحد الأمريكيين أو الفرنسيين أو غيرهم اعتنق الإسلام حديثًا .. وكان هذا الشخص يجهل تحريم شرب الخمر فى شريعة الإسلام .. أو لا يعلم بحرمة أكل لحم الخنزير .. أو كان جاهلا بوجوب صيام شهر رمضان .. ثم جحد شيئًا من ذلك كله فهو معذور بجهله .. ولا يكفر لأنه حديث عهد بالإسلام.

وأما الصنف الثانى .. فهم أولئك الذين نشأوا فى بادية بعيدة، أى فى أرض نائية عن بلاد الإسلام .. ولبعدهم عن ديار المسلمين فهم لا يعرفون شيئًا عن أحكام الإسلام وشرائعه .. فأمثال هؤلاء لو دخلوا فى دين الله تعالى ثم أنكروا ما هو معلوم منه بالضرورة فإنهم يعذرون بجهلهم ويجب على إخوانهم من المسلمين تعليمهم

ومن طالع أحوال البلاد التى استقلت عن الاتحاد السوفيتى عقب انهياره أو تلك التى عاشت ردحًا من الزمن تحت نير الحكم الشيوعى كألبانيا .. والبوسنة والهرسك مثلاً، فسيجد أن أغلب المسلمين فى تلك البلاد .. حتى وقت قصير .. كانوا لا يعرفون كثيرًا من شرائع الإسلام .. وكانوا لا يعلمون شيئًا عن القرآن الكريم .. بل ربما عاش أحدهم عمره كله دون أن يشاهد مصحفاً .. فقد كانت الشيوعية تحكم بالإعدام على من يضبط لديه ورقة من أوراق المصحف .. بل إن كثيرًا من نساء البوسنة - حتى وقت قريب - كن يجهلن حرمة زواج المسلمة من غير المسلم .. فكان الكثيرات منهن يقبلن الزواج من الصرب أو الكروات .. فأمثال هؤلاء ممن نشأوا فى غير أرض الإسلام .. فكيف يحكم عليهم بالكفر لو أنكروا شيئاً من شرائع الدين وأحكامه؟!

ومن عجيب ما ذكره أحد الدعاة الرحالة .. وكان قد زار بعض بلاد أفريقيا .. أنه فوجئ برجال بعض القبائل يجمعون فى عصمتهم أكثر من أربع زوجات بل وصل الحال بأحدهم أن جمع بين عشرين زوجة فى وقت واحد.. فلما كلمهم فى ذلك الأمر اكتشف مفاجأة غريبة .. وهى أنهم لا يعلمون بحرمة الجمع بين أكثر من أربع زوجات .. وهؤلاء مسلمون يحبون الإسلام .. ويؤمنون برسالته .. ورغم ذلك يجهلون فى بلادهم هذا الحكم من أحكام الإسلام .. والذى يعرفه فى بلادنا المسلمة صغار أبناء المسلمين بل وغير المسلمين ممن يعيشون بيننا.

ونعود ثانية إلى سؤالنا السابق .. ونشرع فى الإجابة عليه من كلام العلماء .. وذلك لتحديد ما هية المعلوم من الدين بالضرورة .. وبيان حدوده وضوابطه .. ويمكننا ببساطة أن نعرف المعلوم من الدين بالضرورة فنقول .. هى تلك الأمور التى شاع وانتشر علمها بين الناس جميعًا بحيث صار يعرفها جميع المسلمين ولا فرق فيها بين صغير وكبير ، وعامى ومختص .. فهى واضحة وضوح الشمس فى وسط النهار.

وعرفها الإمام النووى رحمه الله قائلاً: «هى ما انتشر العلم به ..وكان مجمعًا عليه».(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «هى الواجبات الظاهرة المتواترة .. والمحرمات الظاهرة المتواترة»(٢).

وعنها يقول أيضا الدكتور/ يوسف القرضاوى : «وهى التى ثبتت ثبوتا قطعياً وأصبحت من الأحكام اليقينية التى لا يتطرق إليها ريب ولا شبهة أنها من دين الله»(٣) أ. هـ

وواضح من مجموع التعريفات السابقة أن لها شروطًا ثلاثة:

الشرط الأول: أن تنقل إلينا بالتواتر: كالقرآن الكريم مثلاً، وكالفرائض الخمسة وغير ذلك من العقائد والأحكام المتواترة . وبذلك لا يعد معلومًا من الدين بالضرورة ما نقل بطريق الآحاد.

الشرط الثانى : أن يكون مجمعًا عليها : أى يتفق عليها علماء الأمة فى أى عصر من العصور بعد وفاة النبى ﷺ .. وبذلك لا يعد معلومًا بالضرورة ما اختلف فيه العلماء.

(١) شرح صحيح مسلم (٢) مجموع الفتاوى (٣) فتاوى معاصرة

الشرط الثالث: أن ينتشر العلم بها ويصل إلى كافة المسلمين.

وهذه الأمور المعلومة من الدين بالضرورة قد سماها الإمام الشافعى رحمه الله «علم العامة». وضرب لها أمثلة فى رسالته فقال: مثل الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان .. وحج البيت إن استطاعوه، وزكاة فى أموالهم .. وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر، وما كان فى معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعلموه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم .. وأن يكفوا عنه مما حرم عليهم منه»[1] أ.هـ

فليس كل واجبات الدين داخلاً ضمن المعلوم بالضرورة .. وليس كل المحرمات أيضًا كذلك. ويمكننا أن نقول إن حد المعلوم بالضرورة هو ما استفاض علمه وانتشر بين الناس من تلك الواجبات أو المحرمات بحيث صار معلومًا لعوام المسلمين جميعًا، فهناك من أحكام الشرع، بل من واجباته ومحرماته ما يخفى علمه عن كثير من المسلمين .. وربما لا يعلمه إلا المتخصصون من العلماء .. فمثل هذا لا يصح أن يدخل ضمن المعلوم بالضرورة .. فكثير من الناس مثلاً لا يعرف حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها فى أمر الزواج .. رغم أن هذا الحكم يعتبر من المحرمات المتواترة القطعية .. ولكنه افتقد أهم شروط المعلوم من الدين بالضرورة .. ألا وهو أن يكون مما شاع علمه وانتشر بين الناس.

وإن حرمة الخمر معلومة بالضرورة من دين الله تعالى .. فقد استفاض العلم بحرمتها بين المسلمين .. ولكن العقوبة الشرعية لشارب الخمر لم تحدد تحديدًا صريحًا .. بل وقع الخلاف فيها بين العلماء ما بين أربعين أو ثمانين جلدة .. فلا يصح أن تدخل عقوبة شارب الخمر ضمن المعلوم من الدين بالضرورة .. ولو جحدها مسلم لم يكفر بذلك الجحود .. وذلك لكونها ليست من المعلوم من الدين بالضرورة .. وكذلك الحال فى غيرها من واجبات الدين وأحكامه مما خفى علمها على كثير من الناس، ولم يحط بها علمًا إلا المتخصصون من أهل العلم.

وهنا قول الإمام النووى رحمه الله يزيد الأمر توضيحاً.

يقول النووى: فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض فى المسلمين علم الزكاة حتى

---

(١) الرسالة للإمام الشافعى

عرفها العام والخاص، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله فى إنكارها .. وكذلك الأمر فى كل من أنكر شيئًا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام. إلا أن يكون رجلاً حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده .. فإنه إن أنكر شيئًا منها جهلاً به لم يكفر .. وكان سبيله سبيل أولئك القوم فى بقاء اسم الدين عليه .. فأما ما كان الإجماع فيه عن طريق علم الخاصة (أى المتخصصين) كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .. وأن القاتل عمدًا لا يرث .. وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام ، فإن من أنكرها لا يكفر، بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها فى العامة[1].أ.هـ

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأمور المعلومة من الدين بالضرورة يختلف العلم بها وشيوعها بين الناس بحسب الزمان والمكان .. فقد يقل العلم بها فى مكان دون مكان، بحسب انتشار الإسلام وقوته، فالمعلوم من الدين بالضرورة فى بلد كمصر أو السعودية، هو بلا شك أوسع دائرة منه فى بلاد كألبانيا وأوزبكستان .. وكذلك الحال بالنسبة للزمان . فقد يزيد العلم بها فى عصر من العصور، ويقل فى عصر آخر، بل قد روى فى أحاديث آخر الزمان أن كثيرًا من شعائر الإسلام ستندثر وتطمس معالمها قبل قيام الساعة .. فلا يعرف الناس من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله، ويدخلون بذلك الجنة لأن هذا هو مبلغ علمهم فى ذلك الوقت .. فما أوسع رحمة الله بعباده .. وما أعظم سماحة هذا الدين الخاتم .. وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«بعثت بالحنيفية السمحة».

(١) شرح صحيح مسلم للنووى (١ / ١٨٣)

﴿١٣﴾ مخالقة مشروعة .. لا موالاة ممنوعة

فرق كبير بين الموالاة الممنوعة .. وبين المخالقة المشروعة .. فالموالاة الممنوعة المحرمة هى محبة غير المسلمين لأجل دينهم وعقيدتهم .. وهي نصرة غير المسلمين ومؤازرتهم على السوء والباطل باليد أو بالقلب أو باللسان .. وهذه الموالاة هى التى قد تنقض إيمان صاحبها فتخرج به من دائرة الإيمان والإسلام .. وقد تكون سببًا فى نقصان إيمانه، والقدح فى كمال دينه وتمامه.

أما المخالقة المشروعة فهى تعنى الاقتداء بهدى المصطفى - ﷺ - فى معاملة الناس كل الناس مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم .. ومن ذلك حسن الخلق معهم جميعًا «وخَالق الناس بخلق حسن»[(١)] ولين القول لهم «وقولوا للناس حسنًا» .. والتعامل مع جميع الخلق بالفضل والإحسان، وإن لم يكن فبالعدل والقسطاس المستقيم.

وقد يظن البعض أن حسن التعامل مع النصرانى أو اليهودى أو غير المسلم عمومًا هو نوع من الموالاة الممنوعة المحرمة فلو شاهد مسلمًا يبش فى وجوه الناس مسلمهم وكافرهم أو يبذل لغير المسلمين شيئًا من المعروف والإحسان .. فيزور هذا فى فرحه وحزنه .. ويعود ذاك فى مرضه .. ويهدى النصرانى هدية أو يقبل منه مثلها .. ويهنىء جارًا غير مسلم بإنجاب ذرية، أو نجاح فى كلية، أو زواج أو قدوم من سفر .. فهذا المسلم عنده لا يفهم حقيقة الولاء والبراء .. ولا يدرك جيدًا معنى الموالاة والمعاداة في الله بل قد يكون فى نظره رقيق الدين متميع الاعتقاد .. وتلك نظرة خاطئة اختلطت فيها المفاهيم .. والتبست فيها معانى الموالاة المحرمة بمعانى المخالقة المشروعة الجائزة .. رغم ما بينهما من فجوة هائلة وبون عظيم.

إن الإسلام جاء - حين جاء - بأعظم الأخلاق وأسماها وأشرفها .. ورسول الله ﷺ - إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق .. كما أخبر هو عن نفسه ﷺ إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(٢)] وقد فرق الشرع الحنيف بين ما يعد موالاة ممنوعة للكفار ، وبين ما لا يعد من قبيل الموالاة لهم ..

(١) رواه أحمد والترمذى عن معاذ رضى الله عنه. وقال: حديث حسن.

(٢) رواه أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه.

والموالاة الممنوعة شرعًا تشمل معان كثيرة .. منها محبة الكافرين، أو محبة دينهم أو نصرة مذهبهم وشريعتهم، أو التجسس على دولة الإسلام لصالحهم، أو تفضيل دينهم على دين المسلمين ، أو معاونتهم على هزيمة المسلمين، أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

أما المخالقة المشروعة التى أجازها الإسلام .. فإن نظرة واحدة على أخلاق المصطفى ﷺ تكفى لتوضيحها وبيانها .. فقد حفلت حياة النبى ﷺ بأرقى صور التعامل الإنسانى مع غير المسلمين .. ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان يعامل الخلق كلهم بالفضل والإحسان؟!. ألا تراه يعود اليهودى المريض فى بيته وهو رئيس الدولة وإمام الدين؟ ألا تراه يجيب دعوة يهودى على إهالة سنخة(١) فلم يستنكف أن يأكل من هذا الطعام الردىء فى وقت جمعت له فيه رئاسة الدين والدنيا- ألا تراه يجيب دعوة امرأة يهودية على شاة؟! .. ألا تراه يقبل هدية المقوقس عظيم القبط فى مصر، وهو يومئذ مشرك؟ وقد كان ﷺ يقبل الهدايا من المسلم والكافر، واليهودي والنصرانى، ألا تراه قد أوصى أسماء بنت أبى بكر أن تصل أمها المشركة؟! مع أن معنى الصلة معنى عميق، فهو شامل للبر والاستضافة والإكرام والإهداء، كما تصل الإبنة أمها والأم ابنتها. وقد استغاث مشركو قريش برسول الله ﷺ - لما أصابتهم المجاعة، فأرسل إليهم قوافل الطعام دون منّ ولا أذى. ولما منع ثمامة بن أثال بعد إسلامه الميرة (أى الحبوب والطعام) عن قريش .. وناشد مشركوا قريش برسول الله ﷺ الله والرحم أن يثنيه عن ذلك.. فأمره ﷺ أن يعيد الميرة إليهم، ويعطيهم ما كان يعطيهم إياه من قبل .. رغم حربهم الشعواء على الإسلام والمسلمين.

فهذه الأفعال وغيرها من رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء إنما تدخل فى باب المخالقة الحسنة التى كان للمسلمين الأوائل النصيب الأوفر فيها مع كل الخلائق .. وذلك اتباعاً للتوجيه القرآنى الكريم «وقولوا للنَاس حسنًا» وتطبيقا للمبدأ النبوى العظيم «وخالق الناس بخلق حسن» فلم يقل النبى - ﷺ - وخالق المسلمين أو المؤمنين فقط .. ولم يقل المولى عز وجل .. وقولوا لأهل الإسلام أو الايمان فحسب . . وإنما قال للناس كل الناس .. المؤمن والكافر، المسلم والنصرانى ، البعيد والقريب ، من معك ومن ليس معك .. فأى فضيلة فى ملة من الملل أعظم من هذه الفضيلة .. وأى أدب فى دين من الأديان أرفع وأرقى من هذا الأدب.

---

(١) إهالة سنخة: الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث.

وتعالوا بنا نستعرض بعضًا من صور المخالقة الحسنة الجائزة مع غير المسلمين والتى قد يظنها البعض - على سبيل الخطأ - من صور الموالاة المحرمة . مع أنها ليست كذلك فمن صور المخالقة الحسنة الجائزة : عيادة المرضى من غير المسلمين فى مرضهم .. وقد فعله النبى ﷺ مع الغلام اليهودى ومع غيره.

ومنها : جواز تهنئة غير المسلم من النصارى واليهود وغيرهم بالزواج أو بإنجاب الأولاد والذرية أو بالعودة من السفر، أو الشفاء من المرض، أو ما شابه ذلك من الأمور الدنيوية المباحة فى جميع الأديان.

ومنها: وجوب إنفاق المسلم على قرابته من أهل الذمة من يهودى ونصرانى ممن تجب عليه نفقتهم .. والندب إلى ذلك لمن لا تجب عليه نفقتهم من باب الإحسان وصلة الرحم .. فصلة الرحم واجبة وإن كانت لغير المسلمين.

ومنها: جواز تشييع المسلم لجنازة غير المسلمين، والوقوف إذا مرت جنائزهم كما فعل النبى - ﷺ - وقد علل ذلك بقوله : «أليست نفسًا» جوابًا لمن قال له : إنها جنازة يهودى[(١)].

ومنها: جواز تعزية غير المسلمين بما لا يخالف الشرع، ولا يكون فى مكان عبادتهم.

ومنها: جواز مشاركتهم فى العمل المباح كالبيع والشراء والرهن والاقتراض وغير ذلك من المعاملات الجائزة كالمضاربة والمشاركة فى التجارة وغيرها.

ومنها : قبول هديتهم، والإهداء لهم

ومنها: استئجارهم . وكذلك استئجار المسلم نفسه عندهم مادام هذا الاستئجار لا يتضمن انتهاكا لدين المسلم أو اخلالاً بواجباته تجاه دينه وربه.

ومنها: جواز الزواج من النساء المحصنات من أهل الكتاب كاليهود والنصارى .

هذه الصور السابقة، وغيرها من صور المخالقة الحسنة المشروعة كانت سببًا فى مد جسور التواصل بين المسلمين، وبين غيرهم من أبناء الديانات الأخرى .. فقد سهلت هذه المعاملات إقامة شبكة من العلاقات الاجتماعية القوية .. مما أتاح لغير المسلمين فرصة التعرف عى محاسن الإسلام عن قرب .. ومن ثم، فقد دخل الكثير منهم فى دين الله أفواجًا.

---

(١) رواه مسلم عن قيس بن سعد وسهل بن حنيف - رضى الله عنهما.

والواقع أن هذا النوع من المخالقة الحسنة المشروعة .. بعكس ما يتصور البعض إنما ينفع الإسلام ولا يضره .. ويقوى شوكة الدين ولا يضعفه .. ويفتح له آفاقًا جديدة للنمو والانتشار .. فهو بمثابة السفير المشرف لهذا الدين العظيم .. ولنا أن نسأل أنفسنا: هل كان للإسلام أن يسود وينتشر فى مصر حتى توافد أقباط مصر النصارى سراعًا إلى الإسلام دون تلك الصور الراقية من أخلاق المسلمين ؟! وهل كان لبلاد الهند وجزر أندونيسيا، وغيرها من البلاد التى وطئتها أقدام تجار المسلمين أن تدخل فى الإسلام بغير هذه المخالقة المشروعة؟! كيف يكون الحال، لو أن مسلمًا قد عقد العزم على دعوة نفر من غير المسلمين للدخول فى الإسلام .. وهو مع ذلك لا يهنئوهم بأفراحهم .. ولا يعزيهم فى مصابهم، ولا يعودهم فى مرضهم .. ويمتنع عن تلبية دعوتهم أو قبول هديتهم .. ويأنف من مؤاكلتهم ومشاربتهم .. ثم كلما لقيهم فى طريق أو قابلهم فى مكان تجده عبوسًا مكفهر الوجه منقبض النفس .. فأنى لمثل هذا أن يدعوهم إلى الإسلام؟! وبأى وسيلة سيبلغهم رسالة السماء؟! وهل ستصغى قلوبهم لنداء الحق الذى يسوقه إليهم بعدما شيد بينه وبينهم من حواجز وسدود؟!

إن الحكمة الربانية من إباحة هذه الصور من مخالقة غير المسلمين – والله أعلم – تتلخص فى أن الإسلام دين قوى منفتح .. وهو لا يخشى شيئًا من الانفتاح على الآخرين والتعامل معهم .. والمسلم لا يخشى كذلك من الانفتاح على أهل الأديان الأخرى .. فهو قادر على أن يعطيهم النافع من دينه ودنياه، ويأخذ منهم الصالح من أمور دنياهم .. لذلك فهو يقترب منهم دون وجل مادام هو القوى بعقيدته وشريعته .. يحسن إليهم فى المعاملة ويخالقهم أفضل مخالقة .. يعرفون عظمة الإسلام من خلال سلوكه وتصرفه ويحببهم فى الدين بعمله قبل أن يتحدث عن مبادئه .. ويرون فيه أعظم قدوة، وأحسن أسوة للأدب الراقى، والخلق النبيل، وأمانة الكلمة، وصدق العهد.

إن الإسلام لا يميل إلى العزلة .. ولا يحب الانطواء ولا الإنزواء .. إذ هو غير اليهودية على سبيل المثال .. فاليهود ينعزلون على أنفسهم .. لا يتزوجون من أحد، ولا يزوجون أحدًا .. قد حصروا أنفسهم داخل الجيتو اليهودى .. ولذلك تجدهم منبوذين مكروهين من الجميع عادة .. وقد لا تسمع أبداً أن أحدًا يعتنق اليهودية .. لأن العزلة تعنى التراجع والتقلص فالجمود والانحسار .. وفى النهاية الذبول ثم الوفاة والإسلام ليس كذلك..

فالإسلام بطبيعته دين ديناميكى متحرك .. يتفاعل مع الآخرين .. يأخذ منهم ويعطى .. ويتفاعل دومًا مع الحياة .. فشريعته المتميزة تكسبه البهاء والنضارة وتجعله غضًا طريًا عبر القرون والأزمان .. فحرى بالشباب المسلم أن يفقه طبيعة دينه .. وأن يطرح جانباً وساوس القلق والتوجس من الانفتاح على غير المسلمين .. وليعش بروحه وفكره مع أعظم الخلق إحساناً إلى الخلق محمد ﷺ فيسير بين الناس كل الناس كما سار حبيبه وقدوته ﷺ بالكلمة الطيبة والخلق الجميل ليكون خير عنوان لخير دين.

﴿١٤﴾ هل كل محبة لغير المسلم موالاة محرمة؟

طالعتنا إحدى الصحف العربية ذات يوم بهذا الخبر:

- أقدم أمريكى مسيحى من أصل بورتوريكى فى الثالثة والخمسين من عمره - بدعم من زوجته وأصدقائه وأهله، وخاصة والده - على التبرع بكليته لزميله السودانى المسلم فى هيئة التدريس بإحدى الجامعات الأمريكية(١).

- وهنا نطرح سؤالاً نقول فيه: لو أن هذا الرجل المسلم شعر بنوع من الحب والامتنان تجاه زميله المسيحى لقيامه بهذا الموقف النبيل الذى كان سببًا فى إنقاذ حياته وتخفيف معاناته الشديدة .. فما حكم هذا الرجل؟

- وهل يعد حبه لهذا المسيحى موالاة للكافرين تخرج به عن دائرة الإسلام؟

- وماذا لو أن جراحًا مثل د. مجدى يعقوب - أشهر جراح للقلب فى العالم - أنقذ حياة مريض مسلم، وأجرى له جراحة نادرة فى القلب قام على إثرها سليما معافى بعد أن كان طريح الفراش .. ثم تنازل هذا الجراح المسيحى الديانة عن أتعاب العملية الجراحية .. ماذا لو أحس ذلك المسلم من داخله بنوع من المحبة لهذا الطبيب الذى كتب الله له على يديه عمرًا جديدًا.. هل ينبغي عليه حينئذ أن يراجع قلبه، ويتفقد إيمانه؟

وهل يعد هذا الشعور منه نوعًا من الخلل فى الاعتقاد؟ وصورة من صور الولاء لغير المسلمين؟

- وبطريقة أخرى، نعيد طرح الأسئلة السابقة ونقول: من المعلوم أن المحبة هى إحدى المعاني القلبية التى يتضمنها مفهوم الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين .. وأنه لا ينبغى صرف هذا الولاء لغير المسلمين ..

- فهل معنى ذلك أنه يحرم بذل أى نوع من أنواع المحبة لغير أهل الإسلام؟

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ١٧/٧/٢٠٠٤م صفحة ١٨ .

- وهل الحب على إطلاقه، من صور الموالاة المحرمة؟ أم أن فى المسألة تفصيلاً؟ وأن الحب المحرم الممنوع - والذى يعد من قبيل موالاة الكافرين - هو حب غير المسلم لأجل شىء من دينه وعقيدته؟

- وهل لو كانت هذه المحبة لموقف نبيل أو خلق كريم أو طبع من الطباع الشريفة الفاضلة، بعيدًا عن الدين والاعتقاد .. فهل تكون تلك المحبة مباحة جائزة؟

- إن هذه التساؤلات الدقيقة، وما يلحق بها من إجابات تثير قضية حساسة وشائكة، ربما لم يتعرض لها أحد من قبل بالتفصيل، وإن كان تناولها بصورة مجملة أمرًا شائعًا فى كثير من كتب الاعتقاد، مع مسيس الحاجة لشرحها حتى لا تلتبس على الأذهان .. ولعل الضرورة الملحة لتفصيل القول فيها كانت هى السبب الأساسى فى إثارتها ومناقشتها خلال هذه الصفحات .. فقد استقر فى أذهان قطاع كبير من الشباب المسلم أن أى لون من ألوان المحبة لغير المسلمين هو فى حقيقة الأمر موالاة صريحة لأهل الكفر .. بل قد يعنى ذلك ارتداد صاحبه وخروجه عن الإسلام .. مع أن هذه المحبة قد لا يقصد بها مطلقًا محبة دين غير المسلم وشريعته..

بل يكون الدافع لها أمرًا فطريًا دنيويًا محضًا، مثل موقف انسانى نبيل .. أو شيمة من شيم الرجولة والمروءة .. أو معنى شريف أقرته كل الأديان كالكرم والعفاف والنجدة وغيرها.

والضابط الدقيق فى هذه المسألة: لو أن مسلمًا قال: إننى أحب فلان اليهودى أو النصرانى أو غير المسلم، فإننا نسأله: **ما هو الدافع وراء هذه المحبة؟**

(١) فإن كان هذا الحب نتيجة إحسان منه .. أو خلق طيب كريم لمسه فيه .. أو كرم ونجدة وشجاعة .. أو غير ذلك مما تحبه النفوس الشريفة .. وتميل إليه بفطرتها وطبيعتها .. فلا شيء فى هذه المحبة مادامت خارجة عن أمر دينه وشريعته .. ومادامت لن تؤدى إلى ترك واجب أو ارتكاب محرم .. ومثل هذه المحبة لا تنكرها الشريعة .. فالشريعة لا تصادم خصائص الفطرة البشرية.

(٢) وإن كانت هذه المحبة متوجهة نحو دينه واعتقاده .. ومتعلقة بملته وشريعته التى يدين بها .. فهذا هو عين الخلل فى الاعتقاد .. وهو عين الموالاة المحرمة المذمومة لغير المسلمين .. وهذه المحبة هى التى يخضع صاحبها لأحكام الموالاة المذكورة فى كتب السلف والخلف.

وقد يستغرب البعض هذا التفصيل .. ولكننا قبل أن نشرع فى سرد الأدلة المؤكدة لضرورة التمييز فى المحبة القلبية بين ما هو فطرى، وما هو اعتقادى .. نحيل القارئ لبعض العبادات القلبية - غير المحبة - والتى فصَّل العلماء فيها على النحو السابق .. ما يدل على أن تقسيم المحبة القلبية إلى فطرية واعتقادية ليس بدعًا من القول.

- فعبادة الخوف: فصَّل العلماء فى شأنها .. فتحدثوا عن الخوف الفطرى، كخوف الإنسان من الوحوش والحيوانات المؤذية، وغير ذلك مما يخاف منه الإنسان الطبيعى عادة .. وذكروا أن هذا الخوف لا شىء فيه، ولا يعد نوعًا من أنواع الشرك .. إذ ليس هو المقصود من إفراد الله تعالى بالخوف .. كما تحدثوا عن الخوف الاعتقادي الذى يجب أن يكون لله وحده .. وهو المقرون باعتقاد قدرة الله سبحانه على جلب المنافع ودفع المضار .. والمقصود أنه ليس كل خوف من غير الله يعتبر شركًا.

وكذلك الحال فى أمر الرجاء .. فليس كل رجاء لغير الله من الشرك. فقد يرجو المسلم إنسانًا فيما يقدر على فعله .. ولا يقدح ذلك فى إيمانه .. أما الرجاء التعبدى الاعتقادي .. فضابطه : ألا يرجو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده .. كرجاء دخول الجنة والنجاة من النار ورجاء مغفرة الذنوب فى الآخرة.

- والحاصل أن مثل هذه المعانى القلبية فيها تفصيل .. وهذا ينطبق بتمامه على أمر المحبة .. فليس كل محبة لغير المسلمين محمولة على الموالاة المذمومة المحرمة.

ألا ترى أن الإسلام قد أباح للمسلم الزواج من المرأة اليهودية أو النصرانية .. ومعلوم أن أى زوج سوى يحب زوجته، ويبالغ فى إظهار هذا الحب.. أم يا ترى سيبغضها بعد أن تزوج منها؟!

وهل سيكون مطلوبا منه أن يبدى لها العداوة والبغضاء ليل نهار حتى يسلم دينه ويصح اعتقاده؟!

إذن فلماذا تزوجها ابتداءً ما دام يكرهها، بل ويوجب عليه دينه عدم محبتها؟

- وهل يعقل - وهى زوجته وأم أولاده - أن يقول لها كل يوم أنا أكرهك ولا أحبك؟! .. ولو فعل ذلك لن تستقيم الحياة الزوجية.

أم هل يعقل أن ينهاه الإسلام عن حب زوجته التى سمح له ابتداءً بالارتباط بها، وهو يعلم أن من سمات الفطرة السوية أن يحب الرجل زوجته؟!

- ولو فعلها الإسلام لكان نوعًا من العبث .. تعالى الله عن ذلك .. وتنزهت شريعته عن اللغو والعبث.

إن هذا الرجل المسلم حين يبالغ فى إظهار حب زوجته غير المسلمة .. ويلقى على مسامعها كلمات الحب ليل نهار .. فهو لا يفعل ذلك فى العادة حبًا فى دينها، أو رضا بعقيدتها الفاسدة .. وإنما حبًا لها كأنثى وزوجة وأم لأولاده .. وحبا لما جعل الله بين الرجل وزوجته من سكن ورحمة ومودة لا علاقة لها بالدين ولا بالاعتقاد.

ثم ما هو مصير الأبناء فى هذه الحالة؟!

فتلك المرأة المسيحية أو اليهودية ستصير أمًا لأبنائه .. ومادامت هى أمهم فمن الطبيعى أن يحبوها .. بل ربما يفوق حبهم لها حب أبيهم المسلم .. وهذا شعور فطرى وميل طبيعى لا تكلف فيه ولا تصنع .. فهل ستنهاهم شريعة الإسلام عن حب أمهم؟!

وهل من المعقول أن يأمر الإسلام ولدًا ببغض أمه التى حملته وأرضعته وسهرت على راحته السنين الطوال .. بل واختلط دمها بدمه فكانت هى سر وجوده في هذه الحياة؟!

إن هذا المثال يوضح بجلاء أن من الحب ما هو فطرى طبيعى لا شيء فيه .. ولا تثريب على من بذله لغير المسلمين .. فشريعة الإسلام لا تؤاخذ عليه لأنها شريعة الفطرة الإنسانية السوية .. ومن الحب ما هو اعتقادى تعبدى لا ينبغى أن يكون لغير المسلم، وإنما هو لله ولرسوله وللمؤمنين .. فهو متعلق بالدين والملة والشريعة .. ولو توجه هذا الحب لغير المسلم فهو نوع من موالاة الكافرين.

وأحيانًا نسمع من بعض المسلمين من يبدى حبه وإعجابه لشخص «حاتم الطائى» أكرم من عرفته العرب .. بل كثيرًا ما يوصف أهل الكرم فى زماننا بأنه كحاتم الطائى، وليس هناك أحد من ذوى العقول السليمة يعتبر ذلك الوصف مذمة أو عيبًا .. بل على العكس يعتبرونه مصدر زهو وافتخار رغم أن حاتم الطائى كان كافرًا..

فهل يقال عمَّن يصنع ذلك من المسلمين إنه يوالى أعداء الله؟! أو أن لديه خللاً فى الاعتقاد؟!

مع أنه من المستبعد تمامًا أن يحبه لأجل كفره وشركه بالله عز وجل .. ولكن المتبادر إلى الذهن أنه يحب كرمه وجوده وسخاءه وبذله.

وما الدافع الذى حدا بنبى الله نوح عليه السلام أن يرفع صوته بنداء ولده؟! ويصرخ فيه صرخة الوالد الشفوق أن يركب السفينة حتى لا يدركه الغرق؟!، وهو يعلم أن ابنه مصر على الشرك والكفر .. وتأمل تصوير القرآن لذلك الموقف المهيب تجده يفيض بحرارة العاطفة الأبوية، وإشفاق الوالد على فلذة كبده الذى تتناوشه سهام الهلاك أمام عينيه «ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» .. ولم يصبر قلب الوالد الحنون بعد هلاك ولده على الكفر حتى ناشد ربه مستشفعًا: «فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين». ولكن الله عز وجل نهاه عن ذلك إذ لا شفاعة لمشرك.

ومع ذلك لم يعتب عليه سبحانه فى أمر عاطفة الأبوة التى لا يملك لها والد دفعًا .. حتى ولو كان ابنه على الكفر المبين .. فأى عاطفة وأى مشاعر تلك التى دفعت نبى الله نوحًا ليفعل ذلك؟!

أو ليست فطرة الله في حب الوالد لولده وفلذة كبده أيًا كان دينه وعقيدته؟!

إن الله عز وجل لم ينه نوحًا عليه السلام عن محبة ابنه .. ولكن نهاه عن الدعاء له بالنجاة والمغفرة، لأن الله تعالى قضى ألا يغفر لمشرك وهذا لا علاقة له بما فطر الله عليه الآباء من حب الأبناء.

فلو أن الإسلام أمر كل أب أن يكره ولده الكافر أو الفاجر كرهًا شخصيًا فطريًا لتعذر علي العباد فعل ذلك .. إذ النفوس مفطورة على عكسه ونقيضه .. ومحال أن يأمر الإسلام بما يناقض الفطرة .. ولكن الإسلام أمر الوالد المسلم أن يكره فى ولده الكفر والفسق والعصيان .. ولا حرج بعدئذ أن يحبه لأنه من صلبه ومن نسله، ولما فيه من خصال خير وبر إن كانت موجودة، ولكن تلك المحبة مهما بلغت فلا يصح أبدًا أن تفوق محبة الولد المسلم الطائع.

وأى عاطفة تلك التى دفعت رسول الله ﷺ وصحبه الكرام إلى طلب المغفرة لآبائهم وذويهم رغم كونهم مشركين؟!

أو ليس دافع الحب الفطرى هو الذى حركهم للدعاء لهم؟! واختصاصهم بطلب المغفرة دون غيرهم؟!

ورغم نهى القرآن عن طلب المغفرة للمشركين ولو كانوا أولى قربى إلا أننا لم نلحظ من القرآن نهيًا عن هذه العاطفة التى حركت المؤمنين لذلك الطلب، وإنما اقتصر النهى على طلب المغفرة ذاته .. يقول الله عز وجل: ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾(١).

وتأمل جيدًا موقف المرأة المؤمنة أم حكيم بنت الحارث بن هشام .. وما فعلته مع زوجها الكافر وقتئذ «عكرمة بن أبى جهل». ألد أعداء الإسلام فى مكة، وأحد الذين أهدر دمهم النبى ﷺ.

ما هو الدافع القوى الذى حرك تلك المرأة المؤمنة الصالحة لتذهب إلى رسول الله ﷺ حتى تطلب الأمان لزوجها بعد فتح مكة. ثم تخرج وحدها فى رحلة شاقة تقطع الصحارى والقفار .. وتصل الليل بالنهار باحثة عن زوجها حتى وجدته فى اليمن .. فلم تزل به تدعوه وتلاطفه وترقق قلبه وتغريه بأمان رسول الله ﷺ حتى عاد معها إلى مكة .. وهناك أعلن إسلامه بين يدى النبى ﷺ.. أليست تلك هى عاطفة المحبة الفطرية بين المرأة وزوجها؟!

أم أنها فعلت ذلك كله لأنها تكره زوجها؟! وتكن له العداوة والبغضاء فى صدرها؟!

وأعجب من ذلك ما قام بقلب زينب بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها. لما أسر زوجها العاص بن الربيع فى بدر .. وكان يومئذ مشركًا وهى على الإسلام .. وقد خرج فى قومه لملاقاة رسول الله ﷺ وقتاله .. فلما وقع فى الأسر أرسلت زينب - رضى الله عنها - بقلادة ورثتها عن أمها خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - لتفديه بها .. وكانت هذه القلادة أعز ما تملك زينب.. فلما رآها

س(١) مما يدل على تقدير الشرع الحنيف لتلك المشاعر الفطرية حتى مع الأقارب من المشركين وأن النبى ﷺ لما أمر بإلقاء جيف المشركين فى قليب بدر، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه أبى حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: يا أبا حذيفة لعلك دخلك من شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا مصرعه ولكننى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا». الرحيق المختوم ص ٢١٤ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة.

رسول الله ﷺ عرفها .. فرق لها قلبة رقة شديدة .. وقال لأصحابه :«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا».. قالوا: نعم يا رسول الله .. فأطلقوه ، وردوا عليها الذى لها(١) .

- فأى عاطفة تلك التى قامت بقلبها تجاه زوجها الكافر . والذى خرج لقتال النبى ﷺ؟!

- وما الذى دفعها لأن تفديه بأغلى وأثمن ما تملك .. بقلادة أمها خديجة .. رضى الله عنها؟!

- أو ليس هو الحب الفطرى الذى أودعه الله عز وجل فى قلب كل امرأة تجاه زوجها؟!

- وهل كان ذلك الميل الشديد من زينب - رضى الله عنها - تجاه زوجها نوعًا من الموالاة المحرمة؟ اللهم لا، ما دام خارجًا عن أمر دينه وعقيدته.

والمقصود أن المحبة ليست على إطلاقها من صور الموالاة التى لا يصح صرفها لغير المؤمنين.

فهناك حب القلب وحب القالب، كما ذكر بعض العلماء .. ومنهم الشيخ متولى الشعراوى رحمه الله - فحب القالب هو الحب الفطرى الإنساني الذى تميل فيه النفس البشرية للغير بطبيعتها وسجيتها، كحب الزوجات والأمهات والآباء والأبناء والأقارب .. وكذلك حب كل من أسدى إليك معروفًا، أو فرج عنك كربة، أو أنقذك من هلكة، ولا علاقة له بالتعبد والعقيدة شريطة ألا يصرف عن واجب أو يوقع فى محظور.

وأما حب القلب: فهو ما اصطلح العلماء على تسميته بالمحبة الإيمانية، وهذا الحب أمر تعبدى يجب توجيهه لله ولرسوله وللمؤمنين .. ولا يجوز صرفه لغير المسلمين، فهو متعلق بالدين والطاعة .. وهذا النوع من المحبة يتبعض ويتجزأ ويوجه لكل مسلم حسب طاعته .. فالعاصى والفاسق مثلاً يجتمع في حقه الحب والبغض .. فهو يحب من وجه ويبغض من وجه .. يحب من جهة إسلامه ويبغض من جهة عصيانه .. فالعاصى لا يبغض كإنسان ولا كمسلم .. وإنما يبغض ما فيه من فسوق وعصيان بقدره . وإن كان فيه خصلة صالحة أو سجية كريمة فلا حرج فى حبه لأجل هذه الخصلة بعينها مع بغض ما فيه من مخالفة وبعد عن الشرع. وهذا المعنى دقيق للغاية يكاد يكون خافيًا على كثير من الناس.

وقد يقول قائل: فماذا تصنعون بقول الله عز وجل: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٣٠٩) ط . مكتبة الإيمان . المنصورة.

يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾؟!

وكيف تجمعون بينه وبين قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾.

ففي حين تنهى الآية الأولى عن مودة غير المسلمين حتى ولو كانوا أقرب الأقربين .. فإن الآية الثانية تبيح للمسلم برهم والإحسان إليهم .. فكيف يستقيم البر والإحسان مع عدم المودة؟!

ونقول: إن الآية الأولى توضح للمؤمنين أسلوب التعامل مع غير المسلمين في حال الحرب والقتال، وتنهاهم نهيًا صريحًا عن مودة أعدائهم حال صدهم عن سبيل الله وإعلانهم الحرب على الإسلام والمسلمين .. وهذا متوافق مع الطبائع السوية إذ كيف يتوجه القلب بالحب والمودة لمن يبذل وسعه في تخريب الديار، وانتهاك الحرمات. وسفك الدماء حتى ولو كان أقرب الأقربين .. بل إن القلوب في تلك اللحظة تفقد ما كان فيها من بقية حب ومودة حين يصل الأمر إلى حد تهديد العقيدة واستهداف الدين.

أما الآية الثانية .. فتتحدث عن حال السلم والاستقرار .. وفي تلك الحالة لا حرج على أهل الإيمان أن يبذلوا البر (وهو جماع أعمال الخير) والإحسان لغير المسلمين .. بل إن هذا هو عين ما يأمرهم به دينهم وتمليه عليهم ضمائرهم .. والبر معنى شامل لجميع أبواب الخير والفضل والإحسان.

وبذلك لا يكون هناك تعارض بين الآيتين بل كلتاهما مكملة للأخرى .

وما أروع أن نختم مقالنا بتلك الكلمات الرقيقة لصاحب الظلال في تفسير آيات من سورة الممتحنة حيث يقول: «إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين .. وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله .. فأما إذا سالموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة، ولا متطوع بها كذلك!. وهو - حتى في حالة الخصومة - يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع»(1) أ. هـ

(1) في ظلال القرآن (٦/٣٥٤٤) ط. الخامسة والعشرون - دار الشروق

الفصل الثانى

«حاكمية الخالق لا تعنى تكفير الخلائق»

﴿١﴾ العبرة بالمقاصد والمعانى .. لا بالألفاظ والمبانى

إن التحديد الدقيق لمدلولات الألفاظ .. والبيان الشافي لمقصود المصطلحات يعد مدخلا لا غنى عنه فى الحديث عن مصطلح ما .. ولا سيما إذا كان هذا المصطلح شرعيا وذلك لتكوين تصور صحيح وفهم سليم لهذا المصطلح .. وحذرًا من الإجمال والغموض الذى يعترى بعض المصطلحات المستحدثه .. والذى يؤدى إلى نوع من الخلط والالتباس فى ذهن القارىء أو السامع .. وتلك نتيجة طبيعية لعدم الوضوح، وتحميل الألفاظ من المعانى والدلالات مالا تحتمل .. وتتأكد الحاجة لهذا التحديد حين يكون المصطلح - محل البحث والمناقشة - من المصطلحات الشائعة المشهورة .. والتى يتداولها قطاعات واسعة من الناس .. ويرددون ذكرها بين ثنايا حديثهم .. ثم تتأكد الحاجة أكثر إذا كان يترتب علي وقوع الخلل فى تصوره، وعدم الإحاطه بمدلوله حدوث كثير من المفاسد الدينية، والدنيوية.

كل ما سبق من إشارات ينطبق بدرجة كبيرة على مصطلح «الحاكمية» والذى نال شهرة واسعة فى أوساط الشباب المسلم .. على الرغم من حداثته .. وخاصة بعد أن تناوله الشيخ سيد قطب رحمه الله فى أشهر كتاباته : «فى ظلال القرآن» و «معالم فى الطريق» .. فقد انتشر هذا المصطلح بين الشباب المسلم، وتداولته أجيالهم جيلا بعد جيل، فمنهم من أحسن فهم مقصوده وأتقن ضبط مدلولاته فوقف به عند حدوده الشرعية .. وكثير أولئك الذين التبست عليهم الأمور .. وحادوا فى فهمه عن جادة الصواب.

وفى حين سعى الشيخ «سيد قطب» رحمه الله - من وراء حديثه عن الحاكمية - إلى إبراز حقيقة إيمانية مجردة، وبيان قضية من قضايا التوحيد التى ينبغى أن تستقر فى قلب كل مسلم .. وهى حق الله عز وجل فى أن يضع لعباده من القواعد والتشريعات ما تصلح به دنياهم وآخرتهم .. فقد ذهب البعض بمفهوم الحاكمية إلى أبعد من ذلك .. فخلطوا بين حاكمية الله عز وجل التى لا ينازع فيها مسلم، وبين حق البشر فى التشريع لأنفسهم فى حدود ما أذن الله تعالى لهم به وفى ضوء قواعد الإسلام الكلية ومبادئه العامة .. واتخذ هؤلاء من «الحاكمية» محور ارتكاز فكرى، ينطلقون من خلاله إلى الصدام مع مجتمعاتهم المسلمة،واطلاق أوصاف الكفر والجاهلية عليها.

وإزاء هذا الموقف الذى يتسم بنوع من الغلو قام فريق آخر منكرًا لمفهوم «الحاكمية» وذلك في رد فعل منه لكثير من الويلات الفكرية والسلوكية التى عانت منها مجتمعاتنا والتى نشأت عن سوء الفهم لمفهوم الحاكمية .. وعدم وضوح الرؤية تجاه مضمونه ودلالاته .. وبذلك ثار الجدل حول هذا المصطلح وتعددت الآراء ما بين القبول والرفض .. والأخذ والرد .. مما أوجب على مفكرى الإسلام وعلمائه المخلصين الصادقين أن يراجعوا مفهوم الحاكمية .. وأن يقفوا أمامه وقفة تحليلية متأنية سعيًا إلى تحديد مدلوله وبيانًا لحقيقة مضمونه بعيدًا عن غلو المغالين وتقصير المقصرين .. وما أحوج أمتنا اليوم لمثل تلك الوقفة حماية لأفهام شبابها من خلط والتباس قد يفضى – والعياذ بالله – إلى التردى فى هوة التكفير، أو الجرأة على وصم المجتمعات الإسلامية بصفة الجاهلية.

والحقيقة أن لفظ «الحاكمية» هو لفظ مستحدث لم يكن له وجود فى كتابات السلف رحمهم الله .. ولم تظهر هذه الكلمة إلا فى القرن العشرين على يد الأستاذ/ أبى الأعلى المودودى – رحمه الله – ثم نقلها عنه الشيخ سيد قطب رحمه الله، وأفاض الحديث عنها فى كتبه، ومن هنا ذاعت واشتهرت ، وتداولها الشباب المسلم جيلا بعد جيل في كل مكانٍ.

وليس معنى قولنا إن لفظ «الحاكمية» من الألفاظ المستحدثه أنه يسوغ لنا إنكاره أو رفضه لمجرد كونه مستحدثًا.. فمن حق علماء الإسلام ومفكريه فى كل عصر أن يستحدثوا من المصطلحات والألفاظ ما يتناسب مع ظروفهم ويلبى حاجات عصرهم .. وذلك تأسيسًا علي القاعدة الشرعية التى قررها العلماء من أنه «لا مشاحة فى الاصطلاح» .. ولكن ذلك مشروط بأن يضبط هذا المصطلح ضبطًا علميًا دقيقًا .. وأن يوضح مقصوده ويحدد مضمونه تحديدًا يكشف اللبس، وينفى الغموض .. وهذا هو المنهج الإسلامى الصحيح فى التعامل مع المصطلحات .. فلا حرج على المسلم فى استحداث مصطلح ما إذا كان مضمونه منضبطًا بالشرع .. وإذا تحدد مدلوله تحديدًا واضحًا .. فالعبرة بالحقائق والمضامين لا الأسماء والعناوين .. وليس المعيار الصحيح لقبول مصطلح ما أن يكون قديمًا أو حديثا .. وإنما المعيار هو موافقة مضمونه للشرع[1]، فما وافق الشرع منه قبلناه وإن نبت اسمه وعنوانه فى غير أرضنا، وما خالف الشرع رددناه على من جاء به ولو كان واحدًا منا

(١) ومن هذه القاعدة يتضح خطأ من يصفون مصطلحًا كالديمقراطية مثلاً بأنه كفر بواح على وجه الإجمال .. وذلك لمجرد كون هذا المصطلح مستوردًا من الغرب .. ودون النظر إلى مضمونه الذى يحتوى أمورًا توافق الإسلام وأمورًا أخرى تخالفه

ومن بنى قومنا.

وتلك قاعدة جليلة فى التعامل مع المصطلحات وتقييمها حبذا لو انتبه لها الشباب المسلم ووضعوها نصب أعينهم.

﴿٢﴾ حاكمية الخالق لا تعنى تكفير الخلائق

لو أردنا الحديث عن معنى الحاكمية .. وتحديد تصور دقيق لدلالته ومضمونه فسوف يلزمنا - بداية - أن نتوقف قليلا عند أصل هذه الكلمة، ومصدر اشتقاقها ..

و«الحاكمية» فى اللغة : كلمة مشتقة من الحكم، وهو القضاء، وأصله المنع .. يقال : حُكم فلان: أى قضاؤه بأمر، والمنع من مخالفته .. ولذلك سمى الحاكم حاكمًا لأنه يمنع الظالم عن ظلمه.

ومن تتبع معنى الحاكمية الذى ورد ذكره فى كتابات الشيخ سيد قطب، ومن قبله أبى الأعلى المودودى رحمهما الله .. فسيجد أن معناها يدور حول تقرير ربوبية الله عز وجل من خلال الاعتقاد الجازم بانفراده سبحانه بحق التشريع لعباده، أى التحليل والتحريم لهم .. وتقرير ألوهيته عز وجل من خلال اعتقاد الخلق بوجوب التحاكم إليه، والتزام شريعته.

و «الحاكمية» - بهذا المعنى - تمثل جزءًا من عقيدة الإسلام التى ينبغى أن تستقر فى قلب كل مسلم .. وقضية من قضايا التوحيد التى يشملها - بصورة تلقائية، الإيمان المجمل بالله عز وجل ربًا وإلهًا .. أما المردود العملى لذلك الاعتقاد على أرض الواقع، فيتمثل فى كون شريعة الله تعالى هي المرجعية العليا فى دنيا البشر، والسياج الربانى الذى يحدد مسارهم فى الحياة لينالوا خيرى الدنيا والآخرة .. ولا يمنعهم فى الوقت ذاته من التحليق فى آفاق الإبداع والتجديد والابتكار مالم يخرقوا هذا السياج وينتهكوا حرمته .. إن الحاكمية ببساطة تعنى وجوب الحكم بما أنزل الله وبما شرع الله، وأن يحل الحلال الذى أحله الله، وأن يحرم الحرام الذى حرمه الله. وينبغى على كل مسلم أن يؤمن بهذا الوجوب كما يؤمن بوجوب فريضة الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر واجبات الإسلام .. فالحاكمية ليست لوغارتيماً يحتار المسلم فى فك شفرته أو فهمه كما يحب البعض أن يوهمنا بذلك.

والحاكمية تعنى أيضا ببساطة أن تكون المرجعية العليا فى الحكم وفى كل الأمور لله وللرسول ﷺ .. ولا يعنى ذلك أن كل حكم أو أمر دنيوى لابد وأن يكون منصوصًا عليه فى هذين

المصدرين .. كلا إن ذلك مستحيل لأن أحكام القرآن والسنة محدودة ، وقضايا العباد والبلاد غير محدودة.

ولكن المقصود بهذه المرجعية أن لا تصطدم الأحكام والاجتهادات والقوانين بثوابت الشريعة الإسلامية .. وأن تكون فى إطار قواعدها الكلية وأن تكون خادمة لمصالح البلاد والعباد.

إذن فقد بات واضحًا أن الحاكمية مفهوم اعتقادى .. ومردود عملى يتمثل فى الالتزام بقطعيات الدين وعدم خرق ثوابته .. وأنها بذلك المعنى لا مجال فيها للأخذ والرد .. ولا محل فيها للمنازعة .. والملاحظة الأهم هنا أنها لا علاقة لها بالحكم على الأشخاص بكفر أو نفاق أو غيره .. ذلك أن تنزيل هذه الأحكام على أصحابها هو من قبيل الاجتهاد الذى يقبل الصواب والخطأ .. ويحتمل الأخذ والرد، والقبول والرفض .. فهو حكم بشرى، وأفعال البشر وأحكامهم غير معصومة.

إن البعض لم يفهم من معنى الحاكمية شيئًا سوى أن الحاكم فلان كافر، والحاكم فلان كافر، هذا كل ما يفهمه البعض من معنى الحاكمية .. وهذا لا يمت لمعنى الحاكمية بصلة من قريب أو بعيد .. فما علاقة تكفير المعين حاكمًا أو محكومًا بمعنى الحاكمية.

وكثيرًا ما يختلف أهل الاجتهاد فى الحكم على شخص من الأشخاص . ولا يعد ذلك قدحًا فى إيمان أحد منهم، ولا طعنا فى سلامة عقيدته .. وليس أحدهم أولى بالصواب من غيره .. فهم بشر تتفاوت أنظارهم .. وتختلف رؤاهم .. وكلهم مأجور مثاب .. مخطئًا كان أم مصيبًا .. ولئن ساغ الخلاف فى تطبيق الحكم على الواقع، فلا يسوغ الخلاف فى الحكم القطعى المجرد نفسه.

وإذا شئنا سحب هذا الكلام السابق على مفهوم «الحاكمية» فسنقول: إن الحاكمية – من حيث هى قضية اعتقادية ، ومسألة من مسائل التوحيد – لا مجال فيها للأخذ والرد .. ولا يقبل من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر إنكارها وجحودها. إذ هى – من هذه الزاوية – إحدى مقتضيات ربوبية الله عز وجل .. ولازم من لوازم ألوهيته سبحانه.

أما الحكم على الناس إذا لم يلتزموا أحكام الإسلام، ولم يتحاكموا إلى شريعته .. فذاك أمر آخر لا يصح إلحاقه بالحاكمية .. ولا ينبغى ربطه بها وهو منوط بأهل الاجتهاد، مشروط بإقامة

الحجة، مسموح فيه بالخلاف وتعدد الآراء.

نقول هذا الكلام لأن نفرًا من الشباب المسلم غلا فى مفهوم الحاكمية لله عز وجل .. وسعى جاهدًا لربطه بمسألة الحكم على الأشخاص فوقع فى الخلط بين ما هو ثابت قطعى، وبين ما هو من الأمور الاجتهادية .. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد .. بل اتخذ من الحاكمية قوسًا يطلق منه سهام الكفر على الناس حكامًا ومحكومين، ومن لم يوافقه فى تكفير فلان، أو عارضه فى الحكم عليه بالكفر، فهو لم يعرف معنى الحاكمية حق المعرفة، ولم يؤمن بها حق الإيمان .. وهكذا ينفرط عقد الإيمان .. وتتناثر حباته .. وتبدأ أحكام الكفر فى التسلسل إلى مالا نهاية فالحاكمون كفار لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله .. والمحكومون كذلك كفار لأنهم رضوا بالتحاكم إلى غير شرع الله .. والعلماء والدعاة وغيرهم من الأخيار والصالحين كفار أيضًا لأنهم امتنعوا عن الحكم بالكفر على هؤلاء ، وهلم جرا.

وهكذا تكون نتيجة الخلط فى المفاهيم وعاقبة التخبط فى فهم أحكام الشرع وعدم التمييز فيها بين القطعيات والظنيات.

إن هناك فرقًا شاسعًا بين الإيمان بحاكمية الله عز وجل .. وبين الحكم على الناس بالكفر .. فالأول واجب على كل مسلم ، والثانى مختص بالمجتهدين فقط .. الأول قطعى يقينى، والثانى اجتهادى ظنى . . الأول لا مجال للاختلاف فيه ، والثانى فيه مجال كبير للاختلاف.

فلا عجب إذن أن ينشأ الفساد والاضطراب من الخلط بين الأمرين فالهوة بينهما واسعة .. والشقة بينهما بعيدة.

وحين يمضى بنا الحديث عن الحاكمية .. فإن من حقنا أن نسأل ونقول: لماذا يوجه الحديث فى الحاكمية إلى الحكام خصوصًا؟!..

وهل الإيمان بحاكمية الله تعالى واجب على الحكام فقط دون غيرهم؟!.

والحقيقة أنَّ الإيمان بحاكمية الله لا يختص بالحكام فحسب .. فكل مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يجب عليه الخضوع لشريعة الله فى جميع شئونه .. ويجب عليه الاحتكام لدين الله فى شتى مناحى حياته .. ولا سيما إذا كان راعيًا لغيره. كالرجل فى بيته .. والمدير فى

مصنعه أو شركته .. والقائد فى سريته وبين جنوده .. كل هؤلاء عليهم أن يسيروا فى رعيتهم ومن ولاهم الله أمرهم بما شرع الله عز وجل وإن كثيرًا من القرى فى مصر قد شاع بين أهلها مسألة حرمان الإناث من الميراث ، وفى هذا مخالفة واضحة وصريحة لحاكمية الله تعالى .. والتى تقضى بحق الإناث فى الميراث وفق ما قرره الشارع الحكيم فإن ذلك مما يدعونا إلى تصحيح مفهومنا نحو الحاكمية وإلى إعادة قراءة معناها قراءة سليمة تجعل من الإيمان بحاكمية الله تعالى واجبًا على كل مسلم لا على الحكام فقط .. وتدعو إلى إقرار مفهوم الحاكمية فى واقع الناس، وميادين حياتهم الثقافية والسياسية والفكرية والاجتماعية .. وفى غيرها من مجالات الحياة.

﴿٣﴾ أحكام العقيدة لا تفرق بين حاكم أو محكوم

بالعدل قامت السموات والأرض .. ومن أجله أرسلت الرسل .. وبه أنزلت الكتب .. وجاءت شريعة الإسلام بالعدل والقسطاس المستقيم.

ومن أبرز مظاهر هذا العدل فى شريعة الإسلام: أن الناس جميعًا سواسية أمام قانون الله تعالى .. لا فرق فيهم بين غنى وفقير، أو شريف وحقير، أو حاكم وحكوم، أو رجل وامرأة .. فليس بين الله تعالى وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب .. وإنما الكل موكول إلى عمله، ومأخوذ بما كسبت يداه .. فمن أحسن كوفىء بإحسانه .. ومن أساء فعليه إساءته يقول الله عز وجل: ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به﴾ ويقول سبحانه وتعالى عن نفسه ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ فالله تعالى لا يحابى أحدًا من خلقه .. وشريعة الإسلام ليست شريعة انتقائية، تكيل للناس بمكيالين، فتتجاوز عن هذا ما لا تتجاوزه عن ذاك .. أو تكرم هذه الفئة دون تلك بغير استحقاق .. نعم، قد يكون ذلك معهودًا أو معروفًا فى قوانين البشر .. أما شريعة الإسلام فهى شريعة ربانية، تعامل الخلق جميعًا دون محاباة أو تمييز . ولو كان لشريعة الله أن تحابى أحدًا لكان أكرم الخلق محمد ﷺ - أولى الناس بهذه المحاباة .. ولكن الله عز وجل لم يحابه - ﷺ - على غيره من الخلق ويجعل له ميزة إذا قارف الشرك فقال له ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ .. وحاشا لرسول الله - ﷺ- وهو أعلم الخلق بربه أن يعرف للشرك طريقًا أو يكون للشرك فى قلبه موضعًا.

وكما أن شريعة الإسلام لم تأت بمحاباة أحد والتساهل معه دون سائر الناس فكذلك لم تأت بالتشديد على أحد دون غيره .. فلم تجعل من مكانة الإنسان أو لونه أو جنسه أو حتى وظيفته سببًا لتشديد الأحكام عليه .. بحيث يؤاخذ الحاكم مثلاً بما لا يؤاخذ عليه المحكوم .. أو يعاقب الرجل بما لا تعاقب به المرأة .. أو يقام الحد على الشريف والغنى فيما لا يقام فيه على الفقير الوضيع .. فأحكام الدين مطلقة كما قال الخطابى - رحمه الله - لا تختص بطائفة من المسلمين دون طائفة - ولا ينبغى تقييد هذه الأحكام إلا بدليل.

نقول هذا لأن نفراً من الشباب المسلم ظن أن شريعة الإسلام جاءت بالتشديد على الحكام وولاة الأمور .. وأنها جعلت لهم أحكامًا خاصة بهم أغلظ من غيرهم لاسيما فى أمور الاعتقاد، ومسائل الكفر والإيمان .. فظنوا أن الحاكم قد يكفر - لمجرد كونه حاكما .. إذا ارتكب ما يعد عصياناً فى حق المحكوم .. فما دام هو الحاكم .. ومادام قد تحمل أمانة الرعية .. فالمعصية فى حقه كفر، والصغيرة منه تعتبر كبيرة .. ألم يقل النبى - ﷺ -«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»؟![1] أو ليس صلاح الأمة من صلاح حكامها وفسادها من فسادهم؟!

والحقيقة أن هذا الكلام فيه شىء من الخطأ وشىء من الصواب .. فأما كون الحاكم ليس كغيره من الناس، وأن فى صلاحه صلاح الأمة والعكس، فهذا كلام صحيح .. ولكنه لا يعنى التغليظ عليه فى مسائل الإيمان والكفر .. فغاية الأمر أن ذلك متعلق بموضوع الثواب والعقاب .. فالحاكم حين يكون صالحًا فإنه يستحق عند ربه مضاعفة الثواب وزيادة الأجر لأنه رأس الناس وقدوتهم، وكثير من رعيته يتابعونه ويقلدون سيرته .. وحين يكون فاسدًا، سىء الخلق مذموم السيرة، فإنه أيضًا يضاعف له العقاب بما قلده الناس فى فساده وتابعوه على سوء أخلاقه .. وهذا كله فى مسائل العمل وما يترتب عليها من ثواب وعقاب .. وإذا كان الحاكم يعاقب بتفريطه فى الأمانة .. فكل راع كذلك مؤتمن على رعيته ومعاقب بتفريطه .. فالرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته .. والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها فهؤلاء جميعًا مسئولون عن رعيتهم وهم ليسوا أقل مؤاخذة إذا فرطوا فى أماناتهم كل بقدر أمانته .. وما الحاكم فيهم إلا كواحد منهم غير أن الله تعالى جعله أثقلهم أمانة.

وأما بالنسبة لأمور الاعتقاد ومسائل الكفر والإيمان .. فمن الخطأ الظن بأن الحاكم قد اختص فيها بأحكام دون سائر الناس .. ويستوى فى هذا الظن الخاطئ من اعتقد أن الشريعة قد جاءت بالتشديد فى حقهم فاعتبرت أن ما هو ذنب عند عامة الناس يعد كفرًا إذا جاء من الحكام، وأن ما يعذر فيه المحكومون ليس للحاكم فيه عذر .. وكذلك من اعتقد أن الشريعة جاءت بمحاباتهم دون غيرهم من عوام المسلمين، فاعتبرت ما هو مذمومًا لدى عامة الناس ممدوحًا إذا كان من الحكام ..

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وأن ما يكفر به عامة المسلمين فليس على الحكام من حرج إذا أتوا به. . نعم ، للحاكم واجبات تختلف عن واجبات المحكومين، وله من المهام ما ليس لهم .. ولكن أحكام الكفر والإيمان واحدة لا خصوصية فيها لحاكم دون محكوم ولا لمحكوم دون حاكم..

- فالطاعة طاعة سواء صدرت من حاكم أو محكوم.

- والمعصية معصية سواء كانت من حاكم أو محكوم.

- فلا يقال أن المعصية من المحكوم معصية .. بينما إذا صدرت نفس المعصية من الحاكم فإنها تصير كفرًا.

- إن الناظر المتأمل فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - وكذلك فى كتب أسلافنا الصالحين الذين تناولوا مسائل التوحيد والاعتقاد لن يجد في شيء منها قواعد أو أبوابًا خاصة بالحكام فى أمور الاعتقاد ومسائل الكفر والإيمان .. وإنما هناك قواعد عامة تشمل جميع المسلمين حكامًا ومحكومين .. فمن ذلك ما ذكره صاحب العقيدة الطحاوية مثلاً فى قوله : (ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبى - ﷺ - معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر به مصدقين) وقوله (ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) فهذه القواعد وغيرها من قواعد الاعتقاد تشمل كل مسلم حاكمًا كان أو محكومًا غنيًا كان أو فقيرًا .. رجلاً كان أو امرأة وكلها توضح بجلاء أن أحكام الكفر والإيمان هى أحكام عامة لكل مسلم، ولا فرق فيها بين حاكم ومحكوم لا تشديدًا ولا تخفيفًا.

وتوضيحًا لهذا الكلام نضرب بعض الأمثلة:

- قررت الشريعة أن مفتاح الدخول إلى الإسلام هو النطق بالشهادتين .. فمن نطق بلا إله إلا الله محمد رسول الله صار مسلمًا سواء كان حاكمًا أو محكومًا .. ولا يصح إخراجه من الإسلام إلا إذا أتى كفرًا بواحًا بشروطه.

- أجمعت الأمة على أن من ارتكب معصية من المعاصى فلا يحكم عليه بالكفر، حتى ولو تكررت منه وحتى لو مات مصرًا على فعلها .. ولا فرق فى ذلك بين الحاكم والمحكوم.

- من أتى عملاً من أعمال الكفر الظاهرة، فلا يجوز الحكم عليه بالكفر إلا بعد إقامة الحجة

عليه بشروطها التى قررها العلماء .. وهذا الأمر يشمل كل من أتى الكفر حاكما كان أو محكومًا.

- من ترك شيئًا من واجبات الإسلام فهو مؤمن ناقص الإيمان .. ولا يكفر بترك هذه الواجبات إلا إذا كان مستحلاً لتركها أو جاحدًا لوجوبها .. وهذه مسألة يشترك فيها الحاكم والمحكوم سواء بسواء.

- وهكذا الحال فى جميع مسائل الاعتقاد إذ أن المسائل كلها منوطة بالمسلم مادام مسلمًا بغض النظر عن لونه أو جنسه أو قدره أو عمله .. فكل تلك الأمور خارجة عن أوصاف الكفر والإيمان والتى هى أحكام مجردة وقواعد عامة ثابتة للمسلمين كل المسلمين فى كل زمان ومكان.

﴿٤﴾ تكفير الحكام أشد خطرًا من تكفير العوام

يتعجب المرء أحيانا عندما يرى البعض يتوخى الحذر والورع الشديد فى تكفير عوام المسلمين، ثم هو فى الوقت ذاته يطلق لسانه فى تكفير الحكام دون تمهُّل أو رويَّة .. وكأن تكفير الحكام لا يحتاج من التدقيق والتثبت ما يحتاجه تكفير غيرهم من المحكومين.

وحسنًا يفعل هؤلاء حين يتورعون عن إطلاق حكم الكفر على عوام المسلمين .. فذاك دليل على حياة القلب وخشية الله عز وجل .. ولكن أليس التورع والتمهل فى إطلاق هذا الحكم على الحكام مطلوبًا من باب أولى؟!

إن إجابة هذا السؤال ستكون حتمًا بالإيجاب.

فمما لا شك فيه ولا جدال أن تكفير الحكام أشد ضررًا وأعظم خطورة من تكفير عوام المسلمين .. ولئن كانت آثار تكفير آحاد المسلمين تقتصر عليهم، وعلى الدائرة الضيقة من حولهم .. فإن تكفير الحكام تعم آثاره الأمة بأسرها .. وتطول نتائجه الأوطان بكاملها.

فتكفير الحكام ليس مجرد كلمة تلقى على عواهنها دون أن يكون لها صدى فى أرض الواقع .. ودون أن يكون لها أثر على الشعوب والأوطان .. بل إنها رغم استهانة البعض بها .. تحمل نتائج خطيرة، وآثارًا مروعة.

إن أمرًا بهذا الشأن، ومسألة بهذه الخطورة، تحتاج إلى درجة عالية من الاحتياط والتورع وإلى قدر كبير من التمهل والتدقيق والتعقل.

فإذا كان تكفير شخص من عوام المسلمين يعنى إهدار دمه وماله، وإخراجه من دائرة الدين بالكلية .. فتكفير الحكام يعنى ما هو أعظم وأشد .. فهو يعنى - فضلاً عما سبق - فسخ حكمه، وبطلان ولايته، ومن ثم الخروج عليه وقتاله.

ولك أن تحصى مقدار المفاسد الجمة المترتبة على الخروج على الحكام.

وكم عانت أمة الإسلام على مدار تاريخها الطويل أشد المعاناة من مسألة الخروج على الحكام .. والتى يعد تكفير الحكام بمثابة الشرارة الأولى فى اشتعالها دائما.

وكم من فتوى متسرعة أو خاطئة بتكفير حاكم كان لها ما بعدها .. وتلقفها الشباب المتحمس الحريص على تطبيق جميع أحكام الدين دون مراعاة الواقع وظروفه وملابساته.

وبها بدأت حلقات المسلسل الدامى للخروج على الحكام .. والذى لم تجن منه الأمة قديمًا وحديثًا غير الخسائر الفادحة من إراقة الدماء، وضياع الجهود، وتشتيت الطاقات، وتمزيق وحدة الوطن، وغياب الشعور بالأمان بين أبنائه، وهدم اقتصاد البلاد، وتوقف كل مشاريع التنمية، بل وتراجع معدلاتها إلى الوراء.

أضف إلى ذلك ما يتكبده الوطن من سقوط آلاف القتلى والجرحى وعشرات الآلاف من المعتقلين، وملايين الجنيهات من الخسائر، ناهيك عن الخسائر الاقتصادية الأخرى.

وباختصار تكون الحصيلة هى كل ما يمكن تخيله من مشاهد الخراب والدمار التى يكون المستفيد الوحيد منها هم أعداء الأمة وخصومها المتربصون بأوطان المسلمين شرًا.

وتكفى إطلالة سريعة على حصيلة المواجهات الدامية التى دارت ولا تزال تدور رحاها فى الجزائر لكى ترسم لنا أبلغ صورة لمفاسد الخروج على الحكام.

والحقيقة أن تكفير الحكام هو الخطوة الأولى والحقيقية للخروج عليهم وقتالهم، ومن ثم حدوث جميع المفاسد التى سبق ذكرها وغيرها كثير.

فعندما يقع التقاتل بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد ترحل جميع الخيرات، فتضيع الدعوة إلى الله، وينحسر دور الدين وتأثيره، وتتشوه صورة المتمسكين به وتضيع هيبتهم، ويحل الخوف والتشكك بين أبناء الوطن الواحد، وتفرض الأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية فى شتى البلاد.

فهل جنى الذين اختاروا الخروج على الحكام ما تصبو إليه نفوسهم من خير وصلاح؟!

أم أنهم غرسوا أشجار الفرقة والتمزق لتؤتى ثمارها صبرًا وعلقمًا وهم لا يشعرون؟!

ألا يستحق تكفير الحكام إذن لاحتياط شديد وإلى تأن عظيم؟!

أو ليس من الأولى أن نترك مثل هذه المسائل العويصة لأئمة الدين من الفقهاء والعلماء والمخضرمين؟!

فلديهم من الحكمة والأناة والتعقل والروية ما يعرفون به مصالح الدين والأوطان العليا .. وما يميزون به بين ما يجلب النفع والمصلحة للإسلام والمسلمين، وبين ما يجر عليهم أعظم الكوارث وأعتى المحن.

ولو تركت هذه المسائل لأهلها من العلماء المتخصصين فلسوف تحقن دماء المسلمين، ويتحقق الأمن والأمان فى أوطانهم .. ولسوف تنجو البلاد والأوطان المسلمة من موجات رهيبة كاسحة من الفوضى والفتن التى لا يعلم مداها إلا الله عز وجل.

لقد حذرت الشريعة أعظم تحذير من تكفير المسلمين بغير حق .. ووضعت لذلك شروطًا صارمة تتمثل فى استيفاء شروط، وإنتفاء موانع، وإلزام حجة على يد عالم مجتهد مهاب بين الناس.

بل إن الشريعة من فرط حرصها واحتياطها فى مثل هذه المسائل الدقيقة قررت أن الخطأ فى الأسلمة خير من الخطأ فى التكفير.

وأكدت أن الإنسان لا يدخل فى الكفر إلا بقصده واختياره تمامًا كما لا يدخل فى الإسلام إلا بقصده واختياره، وعلى ذلك لو وقع مسلم فى الكفر بغير قصد لهذا الكفر ولا اختيار له فهو مازال فى دائرة الإسلام حتى يختار الكفر ويؤثره ويفضله على الإسلام.

وكما قرر العلماء أن المسلم لو فعل أمرًا يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ويحتمل الإيمان من وجه واحد لحمل فعله على الإيمان لا على الكفر.

فالإيمان هو الأصل وهو اليقين .. ولا يصح أن ينتفى اليقين إلا بيقين مثله .. واليقين لا يزول بالشك، كما نصت على ذلك القواعد الفقهية التى اتفق عليها علماء الإسلام عامة قديمًا وحديثًا.

كل هذه القيود والاحترازات والضوابط الصارمة التى وضعتها شريعة الإسلام للحكم بالكفر على عوام المسلمين تنطبق وبصورة أشد صرامة فى حق الحكام. ليس محاباة لهم، أو تفضيلاً لهم على غيرهم من عوام المسلمين .. وإنما اعتبارًا للآثار الخطيرة الناجمة عن تكفيرهم .. واستشرافاً للعواقب الوخيمة من جراء إطلاق هذا الحكم عليهم.

وصمام الأمان الواقى للأمة من كل هذه الويلات والنكبات هم العلماء المخلصون الصادقون .. فعلى عاتقهم يقع عبء إرشاد شباب الأمة وتبصيرهم بأنفع المسالك وأصلحها للنهوض بأمتهم من كبوتها المعاصرة.

وجدير بالعلماء ألا يغفلوا عن طبيعة الشباب حين يستفتونهم فى مثل تلك المسائل الدقيقة .. وأن يتلمحوا عواقب فتواهم على أرض الواقع، وأين ستقع من فهم الشباب وتطبيقهم.

فالشباب المسلم يغلبه حب الدين، ويمتلىء قلبه حماسة له، وينطلق ساعيا لإحقاق الحق كله جملة واحدة، وتطبيق كل شىء فى الدين فى واقع صعب وعسير .. فهو ينظر إلى الواجب، ولا ينظر إلى الواقع .. ينظر إلى الحكم الشرعى، ولا ينظر إلى الواقع العملى الذى ينزل فيه هذا الحكم.

وقد تنسيه الحماسة المتقدة لنصرة الدين، أن تكفير المعين ليس من اختصاصه، وأن الآثار المترتبة على التكفير ليست منوطة به.

وقد تنسيه أيضًا أنواعًا من الفقه لا غنى عنها عند التعامل مع النص ومع الواقع .. فتنسيه فقه المصالح وحساب المفاسد، وفقه المآلات والنتائج، وفقه القدرة والاستطاعة، وفقه الضرورات .. وكلها عناصر مؤثرة فى الحكم الشرعى، وفى تنزيله على أرض الواقع تأثيرًا بالغًا.

ورحم الله ابن عباس - رضى الله عنه - حين علمنا وعلم أهل الفتيا والاجتهاد فى كل عصر ومصر أن يتفرسوا فى حال مستفتيهم، وأن يحسبوا أثر فتواهم على أرض الواقع .. فالمفتى موقع عن رب العالمين، وناطق باسم شريعته .. ومحال أن تأتى الشريعة لبث الفوضى ونشر الاضطراب

.. وهى التى سعت دومًا لتحقيق أعظم المصالح وأعلاها .. ودرء أعظم المفاسد وأعلاها.

فقد جاء رجل إلى ابن عباس - رضى الله عنه - وسأله قائلاً: هل للقاتل توبة؟ فقال: لا .. ورغم أن باب التوبة مفتوح لجميع الذنوب كبيرها وصغيرها .. إلا أن ابن عباس - رضى الله عنه - تفرس فى وجه الرجل، فرأى الغضب باديًا فى وجهه، والشرر يتطاير من عينيه .. فعلم أنه ما جاء سائلاً عن عفو الله وعن قبوله لتوبة عباده .. وإنما جاء ملتمسًا ذريعة لسفك دم مسلم بغير حق .. وطالبا من ابن عباس - رضى الله عنه - فتوى يوارى بها سوأة كبيرته التى ينتوى فعلها .. فأفتى له العالم الجليل - رضى الله عنه - بما يناسب حاله ومقصده، وبما يدرأ حدوث مفسدة عظيمة باسم الدين، وباسم فتوى ابن عباس - رضى الله عنه-.

وعلى نفس النهج سار التابعى الجليل أبو مجلز السدوسى .. فقد جاءه نفر من قومه من الخوارج الإباضية يسألونه عن حكام بنى أمية .. ويريدون أن ينتزعوا منه فتوى تبرر لهم الخروج على أولئك الحكام .. فأفتاهم أبو مجلز بما يناسب حالهم .. وبما يدرأ عن المسلمين مفاسد محققة كانت ستحدث على أيديهم.

فقد روى الطبرى عن عمران بن حدير، قال : أتى أبا مجلز ناس من بنى عمرو بن سدوس، فقالوا : يا أبا مجلز، أرأيت قول الله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». أحق هو؟، قال : نعم .. قالوا : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون». أحق هو؟ قال : نعم .. قال: فقالوا : يا أبا مجلز أفيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟! قال: هو دينهم الذى يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدعون. فإن هم تركوا شيئًا من ذلك عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا .. فقالوا : لا والله .. ولكنك تَفْرَقُ (أى تخاف) .. قال: أنتم أولى بهذا منى[1]، لا أرى، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تخرجون،

(١) بعض الشباب المتحمس حين يستفتى عالمًا من العلماء - وخاصة فى المسائل العامة أو السياسية - فيفتيه بما لا يوافق مراد نفسه ورغبته .. فإنه يسارع باتهام هذا العالم بالخوف أو الجبن والقعود أو موالاة الحكام ومجاملتهم على حساب الدين .. وقد يرميه البعض بالنفاق .. رغم أن هذه المسألة تكون مسألة فرعية فقهية أو اجتهادية .. ورغم أن هذا العالم مشهود له بالاجتهاد .. فلو أصاب فله أجران، أجر الصواب وأجر الاجتهاد ، ولو أخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد .. وأولى بنا وأجمل أن نأخذ بقوله إن رأينا فيه الصواب واستراحت نفوسنا له .. وإلا شكرناه وسألنا غيره .. وأما أن نهينه ونجرحه ونهيل عليه التراب، فلن يبقى لنا عالم مصون، ولسوف نهدم علماءنا بأنفسنا وذلك جرم عظيم .. ولعل فتواه التى لا تعجبنا يكون فيها الخير والنفع والصواب . ولعل ما تريده نفوسنا يكون فيه الضرر والأذى والمفسدة .. ولربما تمر السنون ثم نعود يومًا فنجد=

ولكنها أنزلت فى اليهود والنصارى وأهل الشرك[(١)].

ونتوقف عند آخر كلمات أبى مجلز، ونتساءل: هل كان هذا التابعى الجليل - وهو من علماء التابعين - يجهل أن خصوص السبب لا ينفى عموم الحكم واللفظ؟! بالطبع: لا .. فأصغر دارس لعلوم الشريعة لا يخفى عليه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. ولكنه قصر مدلول هذه الآيات على أهل الكتاب فى معرض رده على أسئلة الخوارج. وقد كانوا يريدون من فتواه لهم تكأة لتبرير الخروج على حكام بنى أمية بعد تكفيرهم.

ويفسر لنا الدكتور / يوسف القرضاوى بصورة أوضح منحى أبى مجلز وغيره من علماء التابعين الذين أفتوا بأن هذه الآيات إنما نزلت فى اليهود والنصارى.

فيقول: «إن السبب يكمن فى خوفهم من مسارعة بعض الناس إلى اتهام الأمراء والحكام بالكفر الأكبر بكل جور يحدث .. ولو كان سببه الهوى والمحاباة، ونحو ذلك مما لا يكاد يسلم منه أمير أو حاكم إلا من عصم ربك وقليل ما هم»[(٢)].

لقد فقه أولئك العلماء خطورة تكفير الحكام .. وعلموا ميل البعض نحو التشدد ونزوعهم إلى الحماسة والاندفاع، فتحرزوا من إطلاق الفتاوى دونما حساب لآثارها فى الواقع، ودونما تلمح لعواقبها وما قد تضيعه من مصالح أو تجلبه من مفاسد.

وهل أقدم بعض الغوغاء والسوقة على قتل عثمان - رضى الله عنه - إلا بعد أن أطلقت بعض الألسنة بالطعن فى دينه وسبه ولعنه زورًا وبهتاناً لهنات يسيرة مغفورة فى جوار حسناته؟!

وهل أقدم ابن ملجم على قتل علىّ - رضى الله عنه - إلا بعدما انطلقت ألسنة الخوارج بتكفيره؟!

= أن رأى هذا العالم كان أدق وأصوب .. وساعتها سنندم طويلا على سبه والطعن فيه .. فلنتعامل بأدب الإسلام مع علمائنا الكرام، ولنترك جانباً: هذا منافق، وهذا جبان، وهذا عالم سلطة .. فليس هذا من شيمة أصحاب الخلق الكريم.

(١) رواه الطبرى عن عمران بن حدير

(٢) من فقه الدولة فى الإسلام .. د. يوسف القرضاوى . ص ١٠٥ ط دار الشروق

وهل حاول الخوارج قتل معاوية - رضى الله عنه- إلا بعدما حكموا عليه بالكفر؟! ولو كان قتل لعمت الفوضى بلاد الإسلام فى ذلك الوقت.

إن تكفير الحكام - لمن يستهين به - ليس مجرد كلمة عابرة يطلقها الإنسان ثم يمضى إلى حال سبيله .. ولكنها كلمة لها ما بعدها من الآثار والنتائج ..

وهو حكم له ما بعده، فما قبل هذه الكلمة سهل ميسور .. وما بعدها صعب عسير.

- ما قبلها طمأنينة وأمن وأمان .. وما بعدها خوف ورعب وأشواك وأهوال.

- ما قبلها سعة للعاملين للدين فى دينهم ودنياهم .. وما بعدها ضيق وحرج ومواجهة للأهوال وغياب خلف الأسوار

- قبلها وحدة الأوطان وحصانتها من التدخل الأجنبى والاحتلال الخارجى.

- بعدها تكون الفرصة سانحة للعدو الرابض خلف الحدود المتربص بهذه الأوطان الآمنة.

بعدها تكون الذريعة جاهزة للاحتلال الأجنبى بحجة حماية الأقليات أو رعاية المصالح أو تأمين الرعايا الأجانب .. ومادارفور منا ببعيد.

كل هذه الأهوال والنكبات قد تبدأ بكلمة تكفير يطلقها صاحبها ولا يلقى لها بالاً، ولا يعمل لها حساباً .. ولا يعرف ساعتها أنه يدق المسمار الأخير فى استقرار الأوطان .. ويجهز على البقية الباقية من شرائع الإسلام الحية النابضة على أرضها.

فهل هناك قائد حكيم يقدم على نحر دعوته وأمته وبلده وأبناء شعبه؟!

- وهل هناك شاب مخلص صادق يقبل أن يكون سببا فى جلب الدمار والخراب لوطنه ولأمته، واستقدام أعداء الدين ليعيثوا فسادًا فى أرجاء البلاد؟!

ألا يحتاج مثل هذا الحكم الخطر إلى أشد درجات الحيطة والتأنى الدقيق؟!.

.. وإذا كان قطع يد إنسان فى حد من حدود الله يحتاج إلى دقة شديدة وتأكد عظيم .. كما أنه يسقط بأدنى شبهة أو شك .. إذا كان هذا فى مجرد قطع يدٍ، فكيف بمسألة تكفير الحكام

التى قد يترتب عليها قطع آلاف الأيدى والرقاب؟! بل قطع شريان الحياة عن أوطان الإسلام، وتركها بعد النزاعات الطويلة جثة هامدة لا حراك فيها.

إن وأد هذه الفتن جميعًا فى مهدها هو مهمة مشتركة بين العلماء والشباب.

فعلى الشباب أن يضبط الحماسة بالعقل .. وأن يجمع بين الواجب والواقع جمعًا حكيمًا .. وألا يشغل نفسه بمثل هذه المسائل العويصة التى يحار العلماء أنفسهم أحيانا فى حسمها.

- وعلى أهل العلم الفضلاء المخلصين أن يدققوا النظر فى حال مستفتيهم .. وأن يتلمحوا عواقب فتاواهم .. ويقيسوا ما يترتب على كلماتهم من مصالح ومفاسد .. فهم محرك هذه الأمة إلى ما فيه خيرها وصلاحها .. وهم العين البصيرة التى توجه المسيرة وتقود الجموع.

﴿٥﴾ الأنظمة الحاكمة» .. هل توصف بكفرٍ أو إيمان؟

ثمة مقولات عديدة شاعت فى أوساط الشباب المسلم .. وانتشرت زمنًا طويلا علي ألسنتهم، وتحتاج إلى وقفة جادة لمراجعتها وتقويمها .. وهذه المقولات من كثرة شيوعها وتردادها صارت أقرب ما تكون إلى المسلمات البدهية والحقائق المطلقة التى لا تحتمل الجدل، ولا تقبل النقاش .. وحين يصل الأمر إلى هذا الحد يصبح من الصعب والعسير وضع تلك المقولات على طاولة البحث والمناقشة .. فقد ظنها البعض – من طول استخدامها وتداولها –ثوابت فكرية وشرعية لا يجوز التعرض لها بالتمحيص والتحليل .. ولا يصح إثارة النقاش حولها فضلا عن إعادة النظر فى مضمونها ودلالتها.

ومن أوضح الأمثلة على تلك المقولات الشائعة فى أوساط الحركة الإسلامية .. والتى تحمل قدرًا كبيرًا من الغموض والإجمال .. مقولة «كفر النظام الحاكم» أو «تكفير الأنظمة الحاكمة» .. وهذا المصطلح الفضفاض هو اصطلاح مستحدث لم يظهر إلا فى منتصف القرن العشرين تقريبًا .. ولم ترد فى كتب السلف على الإطلاق مثل هذه اللفظة .. بل ليس لمقولة كفر أو إيمان النظام أى أصل فى كتب التوحيد المشهورة المعروفة عند السلف الصالح .. مع أن أصحاب هذه المقولة يعتبرونها تحمل دلالات عقائدية .. ويرتبون عليها تكفير القائمين على تلك الأنظمة، والعاملين عليها .. وذلك على خلاف بينهم حول دائرة هذا التكفير ما بين موسع ومضيق.

والحقيقة أن مقولة «كفر النظام الحاكم» أو «تكفير الأنظمة الحاكمة» كما يقول البعض تدفعنا إلى طرح العديد من الأسئلة، ومنها:

.. هل يصح بداية إلحاق وصف الكفر بالأنظمة والمؤسسات والهيئات رغم أنها جميعًا أشخاص اعتبارية[1] وليست أشخاصًا حقيقية مكلفة؟!

---

(١) الشخص الاعتبارى هو اسم يطلق على الهيئات والمؤسسات حيث أنها تشبه الأشخاص الطبيعية فى كونها تحمل بيانات متشابهة .. فالشركة مثلاً لها تاريخ ميلاد ولها عمر ولها عنوان ولها ذمة مستقلة ومن حقها أن تقاضى غيرها والعكس .. ولكنها تختلف عن الأشخاص الحقيقيين فى كونها غير مكلفة شرعًا ولا يلحقها ما يلحقهم من أوصاف شرعية كالكفر والإيمان وغيرها.

.. وهل حكم الكفر سيلحق بجدران تلك الأنظمة وأبنيتها ومكاتبها؟ أم سيلحق بالأشخاص القائمن عليها والعاملين بها؟!

وما هي حدود من ينطبق عليه وصف الكفر من الأنظمة؟ وعلى أى أساس؟

إن النقطة الجوهرية الغائبة عن أذهان القائلين بكفر الأنظمة الحاكمة، هى أن تلك المؤسسات والأنظمة هى أشخاص اعتبارية لا يلحق بها أوصاف الكفر والإيمان .. فهذه الأحكام والأوصاف لا تلحق إلا بالشخص المكلف شرعًا .. والذى يصح سؤاله عن أفعاله أمام الله عز وجل يوم القيامة .. وهو الشخص الحقيقى البالغ العاقل الراشد المختار (غير المكره) العالم بحكم ما يفعله شرعًا، ووصلته دعوة الإسلام من قبل .. فهل تنطبق هذه الأوصاف على المؤسسات أو الأنظمة الحاكمة؟!، بالطبع لا تنطبق عليها .. ومن ثم يمكننا القول بأن الأنظمة والمؤسسات لا يلحقها حكم مثل الإسلام أو الكفر، أو الطاعة أو المعصية .. أو غيرها من الأحكام التى يصح إطلاقها فى حق الأشخاص المكلفين شرعًا .. ولكن يمكن أن نقول: هذا الفعل من مؤسسة كذا يوافق الشرع فى كذا، أو يخالف الشرع فى كذا وكذا.

وقد يحتج علينا البعض قائلاً: «لا مشاحة فى الاصطلاح» .. ونقول نعم، ولكن بشرط أن يكون ذلك الاصطلاح منضبطًا بالشرع .. والقول بكفر النظام الحاكم هو قول مبهم وغير منضبط .. ويكفى لبيان ذلك أن نسأل القائلين به سؤالاً نقول فيه : ما تقصدون بالضبط بكلمة «النظام الحاكم» الذى تطلقون عليه وصف الكفر؟ هل المقصود به أبنية ذلك النظام ومؤسساته وجدرانه ومكاتبه؟. بالطبع سيقولون : لا نقصد ذلك، وإنما نقصد القائمين على أمر هذا النظام والعاملين فيه .. وهنا نقول لهم: إن أولئك القائمين على النظام والعاملين فيه ليسوا شخصًا واحدًا لكى ينحصر فيه وصف الكفر، بل قد يبلغ عددهم ستة ملايين موظف أو يزيد .. وهؤلاء جميعًا لهم وظائف مختلفة ومهام متعددة .. فأيهم تقصدون بذلك الحكم؟! .. فكلمة النظام الحاكم .. تشمل ما يبدأ بأعلى سلطة فى الدولة إلى أصغر موظف فى مصلحة من المصالح الحكومية .. ومن أرفع منصب فى الجيش والشرطة إلى أصغر جندى فى ضاحية من الضواحى .. كما يشمل النظام أيضًا أطيافًا متعددة من مستويات العمل الإدارى والتنظيمى .. فهناك الوزراء .. ووكلاء الوزراء .. ومديرى

العموم .. ومديرى الإدارات .. إلى آخر ذلك السلم التنظيمي بدرجاته المتعددة ..

فمن هو المقصود بالضبط من كل تلك الأطياف المتنوعة والأعداد الضخمة؟! وعند أى حد من هذه المستويات يمكننا أن نتوقف ليصدق عليه وصف النظام الحاكم؟!

ولعل الإجابة الصريحة على تلك الأسئلة توضح لنا مدى غموض هذا المصطلح وعدم دقته وانضباطه .. وهذا الغموض والإطلاق غير مقبول إطلاقًا فى مسائل التوحيد وأمور العقيدة.

ومن راجع أقوال السلف الصالح وكتاباتهم فى مسائل التوحيد والعقيدة سيرى مدى الدقة والانضباط الذى تميز به أسلوبهم .. فقد كانوا يدركون خطورة الغموض والإطلاق فى تلك المسائل بالذات .. ويعرفون مدى الآثار السلبية الوخيمة التى تنشأ من تناول مسائل التوحيد وقضاياه بلغة الأدب التى لا تعنى بتحديد مدلولات الألفاظ بدقة .. بل تهتم أساسًا بدغدغة العواطف واستثارة الخيال.

وينطبق ما ذكرناه سابقا علي الكثير من المقولات الغامضة والمصطلحات الفضفاضة التى شاعت بين الشباب المسلم .. وتسببت .. لأجل غموضها وعدم دقتها .. فى حدوث العديد والعديد من المفاسد الفكرية والواقعية ومن ذلك مصطلح «الجاهلية» .. وقول البعض بجاهلية المجتمعات المعاصرة، وأنها أسوأ حالاً من الجاهلية الأولى التى كانت قبل بعثة النبى ﷺ وفى هذا الكلام من الإطلاق والغموض ما تسبب فى وقوع خلل فى الفهم لدى الكثير من الشباب فظنوا أنه يعنى كفر هذه المجتمعات المسلمة وخروج أهلها من دائرة الإسلام.

إن وجود بعض المظالم والمعاصى فى المجتمع المسلم لا يبرر القول بجاهليته .. ولا يسوغ القول بتكفير أبنائه .. فلم يخل عصر من عصور الإسلام من مظالم .. ومع ذلك لم نسمع أن أحدًا من السلف ممن عاصروا تلك العصور أطلق القول بجاهلية المجتمع أو النظام .. فحقيقة الجاهلية هى عصيان أمر الله تعالى ومخالفته .. وكما قال ابن عباس -رضى الله عنهما- : «كل من عصى الله تعالى فهو جاهل» .. أى جاهل بالله عز وجل، لأنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يوقره توقيرًا يليق به سبحانه وتعالى..

والجاهلية بهذا المعنى لا علاقة لها بمسألة الكفر .. ولا يصح أن تستخدم لتكفير المجتمعات المسلمة لمجرد وجود بعض المعاصى أو المظالم فيها .. وإلا لقلنا بكفر كل المجتمعات المسلمة على مر عصور المسلمين.

وهذا ما لم يقل به أحد من علماء الأمة الثقات لا في القديم ولا فى الحديث.

إن مسائل العقيدة وأمور الكفر والإيمان لا تحتمل الغموض والإبهام .. ولا يصلح لها استخدام الألفاظ الموهمة والمصطلحات الفضفاضة .. بل لابد فى معالجتها من لغة واضحة محددة دقيقة حتى لا يقع الخلط ويحدث الالتباس.

﴿٦﴾ حقيقة الطاغوت .. بين اللغة والشرع

إن أسوأ ما يبتلى به بعض الناس أن يبدأوا مسيرة تفكيرهم بمقدمات سليمة شرعًا .. ولا جدال فى صحتها .. ثم ينتهى بهم النظر والتفكير إلى نتائج خاطئة .. وإجابات بعيدة كل البعد عن جادة الصواب .. ويزداد الأمر خطورة حين يمس جانب العقيدة، ويمت إليها بصلة .. فعندئذ تدخل المسألة حيز الكفر والإيمان وتدور فى فلك الحق والباطل .. وهنا يكون أمر التصحيح والمراجعة غاية فى الصعوبة ولكنه يكون يسيرًا على من آتاه الله نعمة التجرد للحق والابتعاد عن الهوى.

وقريب من هذا ما ابتلى به أولئك الذين سقطوا فى براثن التكفير .. فقد استخدموا مسألة «الكفر بالطاغوت» فى الحكم على كثير من المسلمين بالكفر والمروق من الدين .. وذلك تحت زعم أن هؤلاء لم يكفروا بالطاغوت .. ولم يتبرأوا منه ويعلنوا الحرب عليه .. وأحيانا كان يحدث أن يتقدم شاب ملتزم إلى فتاة ملتزمة يريد الزواج منها، فتعقد له تلك الفتاة امتحانًا للحكم على سلامة دينه وصحة اعتقاده .. ويكون السؤال الأهم فى هذا الامتحان هو : هل تكفر بالطاغوت؟!! ولئن سألتهم عن ذلك الطاغوت الذى يقصدونه .. والذى يريدون من الناس جميعًا أن يكفروا به لينجوا من الحكم عليه بالكفر، لوجدتهم يقصدون به حكام بلاد المسلمين بأشخاصهم وأعيانهم .. أو كل حاكم لم يطبق جميع أحكام الشريعة .. فكل من لم يكفر هذا الحاكم أو ذاك فهو كافر لا يصح له إسلام .. لأنه لم يكفر بالطاغوت .. ويطبقون هذا الكلام حتى على الرجل العامى .. والفلاح الأمى والعامل البسيط .. والمرأة القروية التى لا تعرف القراءة والكتابة .. بل وكذلك أمهاتنا وأخواتنا وجداتنا .. بل حتى أمهاتهم وأخواتهم وأقرباؤهم .. كل هؤلاء كفار لأنهم لا يكفرون بالطاغوت.

وبادئ ذى بدء .. نقول نعم لا يتم الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت .. فقد قال عز وجل : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية:«أى من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله»[1] .. ومن أجل ذلك جعل الشارع كلمة التوحيد هى الباب الذى يدخل الإنسان منه إلى الإسلام .. ويفارق على أعتابه طريق الكفر .. وكلمة «لا إله إلا الله». هى فى حد ذاتها تتضمن الكفر بالطاغوت لكل من أتى بكلمة التوحيد فإنه يعلن فى الوقت ذاته الكفر بالطاغوت، والبراءة من كل ما يعبد من دون الله تعالى .. أو ليست كلمة التوحيد تشتمل على نفى وإثبات، وكفر وإيمان؟! أو ليست تعنى نفيا لكل معبود سوى الله .. وإثبات العبودية لله عز وجل وحده .. والكفر بكل ما يعبد من دون الله كالطاغوت والأنداد والأرباب والآلهة.. والإيمان بالله وحده؟!

فمن أين إذن جاء الخلط الذى اعترى هؤلاء فى معنى الطاغوت وحقيقته؟! وجعلهم يظنون أنّه هو الحاكم الذى لا يحكم بكامل الشريعة؟! وما هو المعنى الحقيقى لكلمة الطاغوت؟! وما المقصود بالكفر به؟! وهل يصح تسمية حاكم بعينه طاغوتًا لأنه لم يحكم ببعض شرائع الإسلام؟

وللإجابة على ذلك نقول: إن السبب الجوهرى فى حدوث كل هذا اللبس والخلط فى معنى وحقيقة الطاغوت هو عدم التفريق بين المعنى اللغوى وبين المعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة .. واستخدام المعنى اللغوى فى مكان المعنى الاصطلاحى الذى قصده العلماء فى إنزالهم للأحكام الشرعية علي واقعها الصحيح .. فمعلوم لدى الكافة من العلماء أن التعامل مع أحكام الشريعة يعتمد على المعني الشرعى الاصطلاحى لا علي المعنى اللغوى .. وفرق كبير بين المعنيين فى كثير من الأحيان .. فعلى سبيل المثال نجد أن الردة فى اللغة هى الرجوع .. فكل من كان على أمر ورجع عنه صح تسميته مرتدًا .. وأما فى الاصطلاح الشرعى، فالردة هى الرجوع عن الإسلام بعد الدخول فيه .. فهى نوع مخصوص من الرجوع ، وليس مطلق الرجوع..

وكذلك الصيام .. هو فى اللغة: مطلق الإمساك .. فكل من أمسك عن أمر صار ممسكًا .. ولهذا قال تعالى عن مريم عليها السلام حين أمسكت عن الكلام:﴿ فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾[2] .. وأما فى الاصطلاح الشرعي،

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٠٨) ط. المكتبة التوفيقية.

(٢) سورة مريم ٢٦٠ .

فالصوم: هو إمساك مخصوص في وقت مخصوص بنية مخصوصة كما عرفه العلماء.

وكذلك الحال فى الصلاة (فى اللغة: الدعاء) .. وفى الزكاة (فى اللغة: النماء والزيادة) .. والحج (فى اللغة : القصد) .. والفكر (فى اللغة: التغطية والستر). ومن هنا ينبغى عدم الخلط بين المعنيين .. وعدم التزام المعنى اللغوى عند التعامل مع أحكام الشريعة..

معنى الطاغوت فى اللغة والاصطلاح

إذن .. فما هو معنى كلمة الطاغوت لغة .. واصطلاحًا؟ .. قال القرطبى رحمه الله : «الطاغوت: مؤنثة من طغى يطغى .. إذا جاوز الحد بزيادة عليه .. وقيل أصل الطاغوت فى اللغة مأخوذ من الطغيان»(١).

وأما فى الاصطلاح: فقد قال الجوهرى والطاغوت: الكاهن، والشيطان وكل رأس فى الضلال(٢).

وبذلك يتضح لنا أن المعنى اللغوى لكلمة الطاغوت يدور حول الطغيان وهو مجاوزة الحد .. ويدخل فى هذا المعنى كل متجاوز لحدود الله تعالى من العصاه المذنبين .. فالأب الذى لا يعدل بين أبنائه فى العطاء أو الميراث متجاوز لحدود الله .. والذى يقتل مسلمًا أو يأكل ماله بغير حق متجاوز لحدود الله .. والذى يعتدى على عرض مسلم أو ينتهك حرماته متجاوز لحدود الله .. وهؤلاء جميعًا لا ينطبق عليهم اسم الطاغوت إلا من جهة اللغة فحسب .. وأما من الناحية الشرعية فلا تصح تسميتهم بذلك .. ولا تنطبق عليهم أحكامه الشرعية.

وأما المعنى المقصود بكلمة الطاغوت فى الاصطلاح الشرعى .. فيوضحه لنا الإمام القرطبى بقوله : «اختلف أهل التأويل فى تأويل الجبت والطاغوت .. فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو العالية: الجبت : الساحر بلسان الحبشة .. والطاغوت: الكاهن .. وقال الفاروق عمر رضى الله عنه: الجبت: السحر، الطاغوت : الشيطان .. وقال ابن مسعود : الجبت والطاغوت ههنا: كعب بن الأشرف، وحيى بن أخطب .. وعكرمه: الجبت: حيى بن أخطب، والطاغوت : كعب بن

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٤٦)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٤٦)

الأشرف، دليله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾[1] .. وقتادة : الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن، وروى ابن مالك عن وهب عن مالك بن انس: الطاغوت ما عبد من دون الله .. قال: وسمعت من يقول: الجبت: الشيطان، ذكره النحاس .. وقيل هما كل معبود من دون الله»[2].

وفى كتب العقيدة عرف العلماء الطاغوت، بأنه: كل ما عبد من دون الله تعالى أو رشح للعبادة وهو راض عن ذلك .. هذا إن كان من العاقلين كالإنس والجن والملائكة .. وقد يكون غير العاقل طاغوتًا إذا عبد من دون الله كالأصنام والأوثان والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها .. ومن أمثلة طواغيت البشر: فرعون عليه لعنة الله: إذ قال لقومه ﴿ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[3] .. وقال: ﴿أنا ربكم الأعلى ﴾[4] وكذلك النمرود بن كنعان الذى ذكره الله عز وجل فى قوله تعالى : «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت»[5] .. وكان منهم كذلك الملك الذى ذكره النبى - ﷺ - فى حديث فتى الأخدود حين قال للغلام : «أو لك رب غيرى»[6] .. وعلى رأس هؤلاء جميعا إبليس عليه لعائن الله .. لأنه زين للناس الكفر والمروق من دين الله..

ولعل السر فى تسمية أمثال هؤلاء طواغيت أنهم تجاوزوا حدود العبودية التى أرادها الله منهم .. وتطلعوا إلى ما ليس من حقهم .. فأضفوا على أنفسهم من صفات الربوبية والألوهية ما اختص الله تعالى به نفسه .. فكان ذلك منهم طغيانًا ومجاوزة للحد .. ويتضح بذلك أن الطاغوت فى معناه الحقيقى هو ما ناقض التوحيد فى دعوته الناس إلى عبادته من دون الله .. أو رضى أن يعبد من دون الله .. وذلك كأن يكون رأسًا فى الكفر والضلال - كالشياطين والكهان والسحرة .. وكذلك من سماه القرآن بعينه طاغوتًا كحيى بن أخطب ، وكعب بن الأشرف .. فهذان الرجلان - فضلاً عن

(١) سورة النساء ٦٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (٣ / ٢٤٦)
(٣) سورة القصص ٣٨
(٤) سورة النازعات ٢٤
(٥) سورة البقرة ٢٥٨
(٦) رواه مسلم من حديث صهيب رضى الله عنه.

كفرهما وضلالهما وإعلانهما الحرب على الله ورسوله ﷺ - فقد كانا رأسى ضلال فى قومهما يأمران الناس بالرجوع إليهما والاحتكام لهما، وينهيانهما عن الرجوع إلى الله ورسوله .. بل ويجحدان المصطفى ﷺ نبيًا ورسولاً مع يقينهما بصدق دعوته ظلمًا وعلوًا .. فحيى بن أخطب كان يعرف النبى ﷺ بعلاماته الموجودة فى التوراة .. وكان على يقين من أنه مرسل من عند الله تعالى ومع ذلك جحد نبوته وأظهر له العداوة والبغضاء .. وتنقل السيدة صفية بنت حيى طرفًا من حوار دار بين أبيها وعمها حول حقيقة رسالة النبى ﷺ .. تقول السيدة صفية رضى الله عنها: «... فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى: أهو هو؟ قال : نعم والله! .. قال: أتعرفه بنعته وصفته؟. قال: نعم والله!. . قال: فماذا فى نفسك منه؟ .. قال: عداوته والله ما بقيت»(١).

ومن تأمل قليلا لماذا لم يطلق القرآن وصف الطاغوت أو يطلقه النبى ﷺ مثلا على غير هؤلاء من كبار كفار قريش ممن حاربوا دعوة الإسلام كأبى لهب وأبى سفيان بن حرب وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم .. فسيعلم أن وصف الطاغوت .. بمعناه الشرعى .. لا يطلق على أى إنسان لمجرد كفره .. بل ولا لقيامه ببعض المظالم تجاه المسلمين .. وإنما يطلق أساسًا على من طغى وتجاوز حدود العبودية .. فادعى لنفسه صفات الربوبية والألوهية .. ودعا الناس إلى عبادته من دون الله تعالى أو رضى منهم بهذه العبادة.

أما أن يطلق وصف الطاغوت على كل من طغى وتجاوز الحد .. ويقصد بذلك معناه الشرعى .. أو يطلق على حاكم من الحكام لأنه قد أتى ببعض المظالم .. أو امتنع عن بعض الشرائع فهذا خلط بين معنى الطاغوت لغةً وشرعًا .. وهذا قول لم يأت به سلف الأمة وعلماؤها العاملون .. فهذا الحجاج بن يوسف كان ظالمًا .. وقد ارتكب من المظالم فى حق الصحابة والآلاف من التابعين والعلماء مالا تحصيه الأقلام .. حتى قال فيه عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «لو جمعت ظلامات أهل الأرض ووزنت بظلامات الحجاج لرجحت ظلامات الحجاج» .. ومع ذلك لم يقل أحد من الصحابة أو التابعين .. وهم أصدع الناس بالحق .. إن الحجاج طاغوت يجب علي كل مسلم أن يكفر به حتى يصح إيمانه باللهتعالى .. وقد يحتج البعض بأن الحجاج رغم ظلمه لم يضيع شيئا من

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ٥٣٣)

شرائع الإسلام .. ونسأل هؤلاء : هل كان حبس علماء التابعين وتعذيبهم حكمًا بما أنزل الله؟! .. وهل كان قتل سعيد بن جبير وغيره من أفاضل التابعين حكمًا بما أنزل الله؟! .. وهل كان حبسه الآلاف دون وجه حق حكمًا بما أنزل الله؟! وهل؟ وهل؟ وهل ؟ .. هذه المظالم الفادحة التى سيحملها الحجاج على عاتقه يوم القيامة لم تجعل الصحابة والتابعين فى عصره، ولا فى العصور التالية يطلقون على الحجاج وصف الطاغوت ويطلبون من الآخرين الكفر به..

سيحتج البعض قائلاً: إن حكام اليوم يقننون ظلمهم وبعدهم عن شريعة الله فى قوانين مكتوبة .. وهذا لم يفعله الحجاج .. ونقول نعم، إن وجود قوانين مكتوبة تخالف الشريعة لا يرضينا .. ولا يرضى أى مسلم محب لدين الله .. ولكن أمثال الحجاج لم يكن فى زمانهم دساتير وقوانين مكتوبة ومسطرة .. ولو كان ذلك موجودًا فى أزمانهم لما كان مستبعدًا أن يقنن الحكام الظالمون كل ما قاموا به من مظالم بغرض تبرير ما فعلوه .. ولكن لكل زمن من الأزمان قواعد تقنن الحكم فيه وله سياسته التى تختلف اختلافًا كبيرًا عن غيره.

وفى عهد يزيد بن معاويه ، قتل الحسين بن على رضى الله عنه .. علي يد رجال يزيد .. وضربت الكعبة بالمنجنيق على يد ابن زياد (عامل يزيد على المدينة).. واستبيحت أعراض أهل المدينة من جنود يزيد لمدة ثلاثة أيام .. إلى غير ذلك من المظالم العظيمة التى لا يجرؤ كثير من حكام اليوم على ارتكابها، فهل قرأنا أو سمعنا أن أحدًا من السلف الصالح سمى يزيد طاغوتاً؟! ونادى الناس بالكفر به حتى يصح دينهم واعتقادهم؟!

إن علماء السلف لم يؤثر عنهم التوسع فى استخدام لفظ الطاغوت .. حتى عندما تحدثوا عن الكفر بالطاغوت كانوا يصفونه بصفاته العامة .. وأنه من دعا الناس إلى عبادة نفسه .. أو عبده الناس وهو راض بذلك .. أما إطلاق لفظ الطاغوت على حاكم بعينه لأنه لم يطبق شريعة الإسلام بكمالها .. أو على شخص بعينه لأنّه طغى وتجبر وارتكب من المظالم الكثير .. فلا يثبت عنهم ذلك مطلقًا فضلاً عن أن يختبروا إيمان الناس على محك الكفر بالطاغوت الذى هو فى عرفهم واعتقادهم الحاكم الفلانى أو غيره .. فليتعلم الشباب المسلم من أسلافه الصالحين .. وليكف عما كفوا عنه فى مسائل العقيدة بالذات .. فليس أحد منا مهما كان فضله وعلمه بأغير على دين الله من الصحابة والتابعين.

﴿٧﴾ كفر دون كفر
عبد الله بن عباس

كثيرًا ما تلتبس على الشباب المسلم بعض الألفاظ الشرعية مثل ألفاظ: الكفر والظلم والنفاق وغيرها .. لاسيما عند ابتداء سيره فى طريق الله – عز وجل – فحين يطالع هؤلاء الشباب آيات القرآن الكريم، وحديث المصطفى – ﷺ – تقع عينه على هذه الألفاظ ويتبادر إلى ذهنه أول ما يتبادر أن تلك الألفاظ جميعًا لا تحتمل سوى معنى واحد ألا وهو الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام أو الشرك الأكبر الذى يوجب لصاحبه الردة عن الدين، ومن ثم الخلود فى النار .. ولا يتصور هؤلاء الشباب أن هذه الكلمات قد تحمل معان أخرى .. وقد يقصد بها بعض الذنوب والمعاصى التى لا تخرج صاحبها من دائرة الإسلام .. ولا تنفى عنه مطلق الإيمان .. ولكن الشريعة أطلقت عليها أوصاف الكفر والشرك .. لا لكونها تخرج صاحبها عن الملة .. بل مبالغة فى التقبيح لها، والتنفير من فعلها والتغليظ على فاعليها.

إن خطورة غياب الفهم الدقيق لتلك الألفاظ يكمن فى وقوع الشباب المسلم ضحية الالتباس الناشىء حولها، .. ومن ثم، يصير فريسة سهلة لدعاة تكفير المسلمين .. والذين يوهمون الشباب بدورهم أن هذه الكلمات .. حيث وردت فى الكتاب والسنة .. لا تحتمل غير الخروج عن دائرة الإسلام، والمروق من دين الله تعالى..

ونظرًا لخطورة تلك المسألة .. فسوف نفرد لبيانها هذه المقدمة .. ونحاول من خلال استعراض عدد من نصوص الشريعة .. إزالة الالتباس الناشئ حول هذه الألفاظ .. فإن استقرت هذه القضية فى أذهان الشباب المسلم على وجهها الصحيح، لأحسنوا فهم كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ .. ولما التبست عليهم الأمور، ولما وقعوا فى كثير من الأخطاء الجسيمة التى وقع فيها غيرهم من جراء تكفير المسلمين بغير حق.

إن الحقيقة التى يجب توضيحها، والتى ينبغى أن تستقر فى ذهن كل مسلم أن ألفاظ الكفر، والشرك والظلم، والنفاق حين ترد فى نصوص الكتاب والسنة، فإنها لا تعنى فقط ما هو مخرج من

الملة .. بل تحتمل معنى آخر، وهو أن تكون معصية لا تنقض إيمان صاحبها، ولا تخرجه من الإسلام .. وفى هذا المعنى يقول صاحب كتاب معارج القبول: «.. فليس كل فسق يكون كفرًا .. ولا كل ما سمى كفرًا أو ظلمًا يكون مخرجًا من الملة حتى ينظر فى لوازمه وملزوماته .. وذلك لأن كلا من الكفر والظلم والفسوق والنفاق جاءت فى النصوص على قسمين: أكبر يخرج من الملة لمنافاته أصل الدين بالكلية وأصغر ينقص الإيمان وينافى كماله، ولا يخرج صاحبه منه .. فكفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، ونفاق دون نفاق»(١) .. وانطلاقًا من هذا القول الرائع نبحر سويًا فى رحلة قصيرة مع نصوص من كتاب الله تعالي وسنة نبيه - ﷺ - ونتناول من خلالها كل نوع من هذه الأنواع السابقة.

الكفر كفران

حين يطلق لفظ الكفر فى الكتاب والسنة .. فلا يصح حمله فى كل مواضعه على أنه الكفر الأكبر المخرج من ملة الإسلام .. إذ قد يراد به الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الإسلام وهذه بعض الأمثلة لكلا النوعين.

الكفر الأكبر: ويقصد به الأعمال والأقوال التى تخرج صاحبها من دائرة الإسلام، وتنقض الإيمان من أصله .. فتجعل صاحبها مستحقًا لأحكام المرتدين فى الدنيا ومستوجبًا للخلود في نار جهنم فى الأخرة، والعياذ بالله .. قال تعالى عن أصحاب هذا النوع من الكفر «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» وقال عز وجل : «والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور»

ويسمى الكفر الأكبر أيضًا بالكفر الاعتقادى، وهو يتمثل فى خمسة أنواع من الكفر كلها تقضى بخروج صاحبها من الإسلام وهى : كفر التكذيب، كفر الإباء والاستكبار ، كفر الإعراض، كفر الشك، كفر النفاق.

(١) معارج القبول (٢/٢٣٥)

ومن أمثلة الأفعال والأقوال التى تخرج صاحبها من الملة : السجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، الاستهزاء بالله أو رسوله أو شيء من آياته، والكفر بالجنة أو النار أو الحساب أو الرسل أو الملائكة أو سب الرسل .. إلخ.

الكفر الأصغر: وهى تلك المعاصى والذنوب التى أطلق القرآن والسنة عليها اسم الكفر .. لا لكونها تخرج صاحبها من دائرة الإسلام .. ولكن على سبيل التقبيح والتغليظ على مرتكبها .. ويسمى الكفر الأصغر أيضا بالكفر العملي، ويأتى فى نصوص القرآن والسنة بمعان متعددة ومنها على سبيل المثال:

(١) قد يأتى الكفر مقابلاً للشكر، فيكون معناه كفران النعمة، وعدم الاعتراف بالفضل لوليها .. وهذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن فى قوله تعالى :﴿قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . ومن شكر فإنما يشكر لنفسه. ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾وهو المتبادر أيضا فى قول الحق سبحانه ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾.

(٢) وقد يأتى الكفر بمعنى جحود الإحسان وإنكار الفضل من صاحبه -وهذا المعنى هو المقصود فى حديث النبى ﷺ - عن النساء حين قال لهن: (تكثرن اللعن وتكفرن العشير . إذا عاشت إحداكن مع بعلها (أى زوجها) دهرًا، ثم رأت منه شيئًا قالت، لم أر منك خيرًا قط)..[١] وإنكار فضل الزوج ليس من الكفر الأكبر قطعًا .. ولو كان كذلك لما نجت زوجة من الكفر إلا من رحم الله تعالى .. ولا يصدر هذا القول من عاقل.

(٣) وقد يأتى لفظ الكفر، ويقصد به بعض الذنوب تعظيمًا لقبحها وتغليظًا على مرتكبها .. ومن ذلك ما يلى:

قال النبى - ﷺ - (لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[٢] فالمقصود بالكفر هنا .. ليس الكفر الأكبر .. ولكن تغليظ حرمة اقتتال المسلمين ولو كان ذلك كفرًا لما سماهم الله

(١) رواه البخارى ومسلم عن حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما.

مؤمنين رغم اقتتالهم، وذلك فى قوله تعالى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ فوصفهم بالإيمان رغم اقتتالهم فدل ذلك على أن لفظ الكفر فى الحديث السابق يقصد به الكفر العملى الأصغر.

قال النبى - ﷺ -: «إذا قال: الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»[١] فأثبت لهما أخوة الإسلام والايمان رغم كون أحدهما يبوء باسم الكفر .. والكافر ليس أخًا للمؤمن .. فدل ذلك على أن لفظ الكفر فى الحديث السابق يقصد به الكفر الأصغر العملى.

قال النبى - ﷺ - (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٢].. وقد جعل النبى - ﷺ لهذا الحلف بغير الله كفارة وهى قول: لا إله إلا الله .. ولو كان الحلف بغير الله كفرًا أكبر مخرجا من الملة لما أجزأته الكفارة، ولكان لزامًا عليه أن يغتسل وينطق بالشهادتين مجددًا إسلامه، فلما جعل له النبى - ﷺ - كفارة دون ذلك دل على أن الكفر والشرك فى الحديث السابق يقصد بهما الكفر العملى الأصغر والشرك الأصغر الذى لا يخرج من الإسلام.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ -: (ثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب، والنياحة على الميت)[٣]. فهاتان المعصيتان لا تخرجان العبد من الدين .. ولم يقل بذلك أحد من العلماء .. ولكنهما ذنبان عظيمان سماهما النبى - ﷺ - كفرًا تقبيحًا لشأنهما وتنفيرًا من فعلهما .. فلفظ الكفر الوارد فى الحديث لا يعنى الكفر الأكبر المخرج من الملة، بل يقصد به الكفر الأصغر العملى.

قال الله عز وجل: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» قال ابن عباس - رضى الله عنه - فى تفسير هذه الآية: «هو بهم كفر (أى كفر عملى لا اعتقادى) وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله» .. وقال في رواية أخرى «كفر لا ينقل عن الملة، مثل الايمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه» .. وقال طاووس: «ليس بكفر ينقل عن الملة .. وقال: عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

فهذه الأقوال وغيرها تبين أن الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفرًا أكبر مخرجًا من ملة الإسلام .. وإنما هو معصية كبيرة سماها الله كفرًا تغليظًا لها .. وعلى ذلك يكون وصف الكفر الوارد فى هذه الآية الكريمة محمولاً على الكفر الأصغر العملى لا الكفر الأكبر الاعتقادى.

الشرك شركان أيضًا

وما يقال فى لفظ الكفر، يقال بتمامه فى لفظ الشرك الوارد فى نصوص القرآن والسنة .. إذ لا يقصد به فى كل مواضعه الشرك الأكبر المخرج عن الملة .. فهناك أيضا الشرك الأصغر الذى لا يخرج العبد من دائرة الإسلام.

فالشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام هو ذلك الشرك الذى عناه النبى ﷺ - بقوله فى الحديث الشريف : (أن تجعل لله ندًا، وهو خلقك)[1]. وهو الذى توعد الله عز وجل أصحابه بحبوط العمل، والخلود فى نار جهنم والعياذ بالله فقال تعالى: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ .. وقال عز من قائل: «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار». . ومثال هذا النوع من الشرك المخرج من الملة: الذبح والنذر لغير الله .. والاستعانة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، ونسبة الولد أو الزوجة أو البنات لله تعالى، والقول بالتثليث وأن الله ثالث ثلاثة .. الخ.

أما الشرك الأصغر: فهو الشرك الذي لا يخرج من الملة .. ويسمى شرك العمل كالرياء مثلاً أو الحلف بغير الله تعالى، فقد قال النبى - ﷺ - (من حلف بغير الله فقد أشرك)[2] فالحلف بغير الله لا يخرج صاحبه عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار .. وهذا النوع من الشرك الأصغر الذى قصده النبى - ﷺ - بقوله (الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل)[3].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) رواه ابو داود والترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣) رواه أبو يعلى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وصححه الألبانى

الظلم ظلمان .. والنفاق نفاقان

والظلم أيضا نوعان ظلم أكبر وهو الشرك والكفر .. وفيه قال الله عز وجل فى كتابه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾» وقال أيضا : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾وأى ظلم أعظم من أن يضع الإنسان عبادته فى غير موضعها الصحيح .. ويتوجه بقلبه إلى غير خالقه ومولاه عز وجل فيعبد غيره، ويشرك به أحداً فى عبادته وقد كان من عظيم فقه ابن عباس .. رضى الله عنه .. أنه قال: الحمد لله الذى قال فى كتابه «وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ» ولم يقل «والظالمون هم الكافرون» ورغم ذلك فإن أهل التكفير يخدعون الشاب بقولهم له: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيقول نعم فيقولون : إذاً الكافرون تساوى الظالمون .. إذاً كل كافر ظالم وكل ظالم كافر .. إذاً فلان الحاكم الظالم كافر .. فيسلم معهم الشباب بهذه الحقيقة الباطلة .. مع أن معنى الآية أن كل كافر ظالم .. وليس كل ظالم كافر .. ولو كان كل ظالم كافر لكفرت أمة الرسول - ﷺ - فى معظمها إذ أنه يندر ألا يظلم المسلم فى حياته مرة حتى وإن لم يظلم غيره ظلم نفسه وقد ورد فى حديث البخارى قول الصحابة رضوان الله عليهم «وأينا لا يظلم نفسه»[(١)] وذلك حينما نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ففسرها لهم رسول الله - ﷺ - فى حكمة عظيمة مختصرة: «ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل «إن الشرك لظلم عظيم».

وهناك ظلم أصغر لا يخرج صاحبه من الإسلام .. ومنه قول العبد الصالح يونس بن متى عليه السلام ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أو قول آدم وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ .. وقول كليم الله موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ .. فرغم أن لفظ الظلم واحد فى النصوص السابقة ولكن بين معناها فى نوعى الظلم بعد المشرقين .. وإلا .. فهل يقول أحد بكفر نبى الله يونس أو آدم أو موسى عليهم السلام لأنهم جميعًا قد وصفوا أنفسهم بالظلم .. سبحانك هذا بهتان عظيم !!!

وكذا النفاق أيضا نفاقان: نفاق اعتقاد وهو الأكبر الذى يخرج عن الملة وهو ذلك النفاق الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم بسببه الدرك الأسفل من النار فقال عز من قائل:

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

«إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا» وحقيقة النفاق الاعتقادى الأكبر هو أن يبطن صاحبه الكفر ويظهر الإيمان كما كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين على عهد النبى ﷺ - فقد كان هذا المنافق لا يؤمن أساسًا برسالة الإسلام، ويجحد نبوة المصطفى ﷺ وكل ذلك كان حسدًا منه للنبى - ﷺ - فقد جاء رسول الله ﷺ - إلى المدينة وأهلها ينظمون الخرز لابن سلول ليتوجوه ملكاً عليهم .. فانصرف الناس عنه إلى رسول الله - ﷺ - وأحسّ ابن سلول أن البساط قد سحب من تحت قدميه فأسر الكفر والبغضاء فى نفسه وأضمر العداوة لرسول الله - ﷺ - ولكنه أظهر إسلامه خوفًا من القتل.

وهناك نفاق عمل، وهو النفاق الأصغر الذى يجتمع مع أهل الإيمان، ولا يكون سببًا فى خروج صاحبه من دائرة الإسلام .. وهو الذى ذكره النبى - ﷺ - فى الحديث الصحيح : (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1]وفى الحديث الصحيح أيضًا «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان»[2] .. ومعلوم ان إخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والكذب فى الحديث، والفجر من الخصومة كلها ذنوب ومعاصى لا تخرج صاحبها من الإسلام ولا تحكم عليه بالكفر والمروق من الدين .. وإن سماها النبى - ﷺ - نفاقًا فبينها وبين نفاق عبد الله بن أبَى بن سلول وغيره من أهل النفاق الأكبر المخرج عن الملة بون شاسع.

وبالجملة .. فألفاظ الكفر، والشرك، والظلم، والفسق، والنفاق إذا وردت فى نصوص الكتاب والسنة .. فينبغى على الشباب ألا يحملها مباشرة على الخروج عن الملة، والمروق من الدين .. فكل لفظ من هذه الألفاظ يحتمل معانى متعددة .. فالكفر كفران .. والشرك شركان، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، والنفاق نفاقان .. وكلهم قد يكون مخرجًا عن الملة، وقد يكون ذنبًا ومعصية لا تخرج صاحبها من الإسلام .. فعلى الشباب المسلم أن يتروى فى تأويل هذه الكلمات وأن يدقق النظر فى المعنى المقصود من ورائها، حتى لايضل به فهمه .. ويزيغ عنه صوابه .. فتزل قدم بعد ثبوتها .. ويحدث من المفاسد الناتجة عن سوء الفهم لنصوص الكتاب والسنة مالا يحمد عقباه .. ولا يعلم مدى خطره إلا الله تعالى.

---

(١) رواه البخارى ومسلم (٢) رواه البخارى ومسلم

﴿٨﴾ من لم يكفر الكافر فهو كافر .. رؤية صحيحة

تظلم قواعد الشريعة ظلمًا عظيمًا حين يضعها البعض فى غير موضعها .. ويفهمونها على غير مرادها الشرعى الصحيح .. وحين يقع ذلك تشوه تلك القواعد وتصير عرضة للطعن والإنكار .. بل أحيانًا يكون هذا سبيل إلى الطعن فى ذات الشريعة وانتقاص قدرها .. فما من قاعدة من قواعد الشرع إلا وضع لها العلماء قيودًا وضوابط تضمن سلامة استخدامها وتحقق صحة إنزالها على أرض الواقع .. وهذه الضوابط - بما تتضمنه من استيفاء شروط وانتفاء موانع - هى التى تمنح قواعد الشريعة بريقها الوضاء .. وتجعل منها بحق مظهرًا من مظاهر عظمة الإسلام وسرًا من أسرار خلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان.

فمن قواعد الشريعة المعروفة مثلا ما أقره العلماء من أن: «**العادة محكّمة**».

وهذه القاعدة تقضى باعتبار أعراف الناس والرجوع إليها عند التنازع والاختلاف مع غياب نص من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس .. وقد وضع العلماء شروطًا لتلك القاعدة لا يصح استخدامها بدونها .. وإلا وقع الخلل وضاع المقصود فقد اشترطوا لكى يصح اعتبار العرف حجة ألا يخالف ذلك العرف نصًا شرعيًا .. وألا يؤدى إلى حدوث مفسدة راجحة .. فلو أن أهل بلدة من البلاد تعارفوا على تبرج نسائهم فى الشوارع والطرقات فلا يعتبر ذلك العرف حجة لمخالفته لنصوص الشرع الحنيف .. ولو تعارف أهل بلدة مثلاً على إباحة التدخين فى المواصلات العامة والأماكن المغلقة فلا يعتبر ذلك العرف أيضًا لكونه يؤدى إلى حدوث مفسدة راجحة على المدخن وعلى المتواجدين معه فى نفس المكان.

وهكذا الحال فى جميع القواعد الشرعية .. فلا بد من تحقيق شروطها وانتفاء موانعها لكى يصح إنزالها فى الواقع .. وحتى تثمر أطيب ثمارها من تحقيق مصالح العباد .. وجلب الخير والمنفعة لهم.

ومن القواعد الشرعية التى تعرضت للظلم والإجحاف .. والتى أساء البعض فهمها واستخدامها مما أدى إلى وقوع الخلل .. وحدوث كثير من المفاسد الفكرية والواقعية - قاعدة:

«من لم يكفر الكافر فهو كافر»..

فكثير ممن سقطوا فى هذا التكفير جانبهم الصواب فى فهم تلك القاعدة وفى تنزيلها على أرض الواقع .. فانطلقوا من خلالها نحو سلسلة غير متناهية من تكفير المسلمين بغير حق وصلت بهم فى نهاية المطاف إلى تكفير جميع المسلمين فى كل مكان ممن لم يوافقهم على مثل رأيهم . بل أدت بهم تلك السلسلة الجهنمية إلى القول بأن كل من على الأرض كفار إلا أفرادًا قلائل قد لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة .. وأولى حلقات تلك السلسلة تمثلت فى تكفير الحكام .. ثم انتقلت إلى تكفير من لم يكفر هؤلاء الحكام .. ثم تكفير من لم يكفر هؤلاء الذين لم يقولوا بكفر الحكام .. وهكذا ظلت دائرة التكفير تتسع شيئًا فشيئاً حتى التهمت بداخلها الشعب المسلم بأسره، بل وغيره من شعوب المسلمين، إلا من سار سيرهم وقال بمثل قولهم، وهم والحمد لله قليل جدًا.

ومن تتبع تاريخ نشأة هذه القاعدة .. فسيجد أنها ظهرت أولاً فى عهد الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .. ولكن مولدها الحقيقى وظهورها القوى كان على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب .. فقد ذكرها فى كثير من كتاباته .. واعتبرها ناقضا من نواقض الإسلام .. وعلى الرغم من انتشار كثير من الأعمال الكفرية فى عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب .. ولكن لم نسمع أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يطلق القول بتكفير من لم يكفر أصحاب هذه الأعمال .. وذلك لقلة العلم وغلبة الجهل فى تلك العصور .. ولكون من توقف فى تكفير أصحاب هذه الأفعال الكفرية لم يفعل ذلك رضًا منه بالكفر، ولا إقرارًا له . وإنما لعدم وضوح الأمر لديه .. فالعلة الحقيقية فى تكفير من لم يكفر الكافر هى رضاه بالكفر وإقراره له مع تيقنه من أن هذا الفعل كفر صريح.

ولو عدنا سريعًا إلى أزماننا ونظرنا فى الأمس القريب، فسنجد أن الفهم السقيم لتلك القاعدة. والاستخدام الخاطئ لها كان هو الأساس الذى بنى عليه فكر التكفير فى الستينيات من القرن الماضى .. فبعد حرب عام ١٩٦٧، وبينما كان الإخوان فى السجون المصرية، قامت طائفة منهم بكتابة ورقة تأييد للرئيس جمال عبد الناصر، ضد إسرائيل ووقعوا عليها باسم جميع المعتقلين .. فاعترضت فئة من الشباب على تلك الورقة ، وأعلنت أمام الجميع كفر رئيس البلاد، وقالوا بجاهلية النظام المصرى .. فتم عزل تلك الفئة فى أماكن خاصة لفترة من الوقت .. ثم عادوا واختلطوا ببقية

معتقلى الإخوان .. ولكنهم اعتزلوهم فى الصلاة .. وقامت تلك الفئة بتكفير هؤلاء الذين أيدوا جمال عبد الناصر .. ثم رفعوا لواء هذه القاعدة «من لم يكفر الكافر فهو كافر» .. ومن ثم بدأت دائرة التكفير تتسع حتى وصلت فى النهاية إلى تكفير الشعب المصرى كله.

إن قاعدة «من لم يكفر الكافر فهو كافر» .. كغيرها من قواعد الشريعة لا يحسن فهمها ولا يصح استعمالها إلاّ إذا وضعت فى إطارها الصحيح .. ويتمثل هذا الإطار فى مجموعة الضوابط والقيود التى أحاط بها العلماء وتلك القاعدة وقد اشترط أهل العلم عدة شروط لكى يصح تنزيلها على أرض الواقع من هذه الشروط:

الشرط الأول

أن يكون ذلك الكافر مجمعًا على كفره ومقطوعًا بعدم إسلامه

وذلك كأن يكون كافرًا أصليا كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم فلا يجوز لمسلم أن يشك فى كفر هؤلاء، أو يتردد فى عدم إسلامهم .. وقد جاءت نصوص القرآن صريحة فى بيان حكمهم، فقد قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(١) وقال عز وجل : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾(٢)

وكذلك من جحد معلومًا من دين الله بالضرورة ، ولم يكن حديث عهد بإسلام أو من نشأ فى بادية بعيدة يخفى عن أهلها العلم بشرائع الإسلام .. وغير هؤلاء ممن أجمع العلماء على كفرهم، فلا يصح من مسلم بحال أن يقول بعدم كفرهم ..

أما لو اختلف العلماء فى تكفير شخص من الأشخاص .. أو تكفير طائفة من الطوائف فلا يجوز فى هذه الحالة تطبيق تلك القاعدة .. ولا يصح مطلقًا القول بكفر من لم يكفر هذا الذى اختلف العلماء فى كفره .. وهنا مصدر الخلل لدى الكثيرين ممن يتعاملون مع هذه القاعدة.

(١) سورة المائدة ١٧ (٢) سورة المائدة ٧٨

لقد اختلف علماء الأمة فى تكفير بعض الطوائف من أهل البدع والأهواء كالخوارج وغيرهم .. فمنهم من قال بكفرهم ومنهم من قال بغير ذلك .. بل وقع الخلاف فيهم داخل المذهب الواحد .. فقد ورد للحنابلة قولان فى هذه المسألة .. فهل سمعنا أحدًا ممن قال بكفر الخوارج قد حكم بالكفر علي الفريق الآخر الذى ذهب إلى عدم تكفيرهم بدعوى أن «من لم يكفر الكافر فهو كافر» .. وهل كفر الحنابلة بعضهم بعضًا بناءً على ذلك؟!.

واختلفت الأمة أيضًا فى حكم من ترك الصلاة تكاسلاً .. فذهب بعض الحنابلة إلى تكفيره .. وذهب جمهور العلماء من الشافعية والمالكية والأحناف إلى عدم القول بكفره مالم يجحد وجوب الصلاة أو يستحل تركها.. فهل قال أحد من الحنابلة بكفر جمهور علماء الأمة لأنهم لم يكفروا تارك الصلاة؟! وهل رفعوا لواء تلك القاعدة - من لم يكفر الكافر فهو كافر- وقاموا بتكفير كل مخالفيهم فى هذه المسألة؟! بالطبع لم يحدث ذلك .. ولم يقل أحد بذلك؟!

إذن فما بال أولئك الذين ركبوا موجة التكفير، يكفرون أمة الإسلام بأسرها لأنها لم توافقهم فيما ذهبوا إليه من تكفير الحكام أو غيرهم .. على الرغم من أن هؤلاء الذين حكموا عليهم بالكفر ليس مجمعًا على كفرهم، بل قد يكون الراجح أصلا عدم تكفيرهم .. كما يقول بهذا أكثر علماء المسلمين فى العصر الحديث.

الشرط الثانى

استفاضة العلم بكفر هذا الكافر

ولا يكفى لصحة تطبيق هذه القاعدة أن يكون الكافر مجمعًا على كفره فقط .. بل لابد أيضا من استفاضة العلم بكفر هذا الكافر .. وشيوع ذلك بين الناس بحيث لا يجهل كفره أحد .. فهناك طوائف من أهل الكفر كالقاديانية والبهائية ، والبوذية مثلا لا يعرف كثير من بسطاء المسلمين عنها شيئًا .. مع أن هذه الطوائف أجمع العلماء على كفرها، ولكن ذلك يخفى على كثير من عوام المسلمين .. ولذلك لا يصح القول بتكفير أحد منهم لأنه لم يكفر هذه الطوائف فهو لم يسمع عنها من قبل .. ولا يعرف شيئًا عن عقيدتها وحقيقة أمرها ..

ولنا أن نتساءل : كم من أهل مصر البسطاء يعرف معنى الإلحاد مثلا، حتى نقول له : هل تكفر الملحد؟ .. فإن قال : لا ، كفرناه..

وكم شخصًا يعرف حقيقة البهائية والقاديانية حتى نسأله عن رأيه فى البهائيين والقاديانيين . فإن لم يكفرهم حكمنا عليه بالكفر؟

إن من الضرورى انتشار العلم بكفر هذا الكافر حتى يصح تطبيق هذه القاعدة فى واقع المسلمين.

وبناءً على ما تقدم نستطيع أن نقول : إن هذه القاعدة لكى تكون صحيحة فى فهمها وتطبيقها على أرض الواقع ينبغى أن تفهم كما يلى:

من لم يكفر الكافر (المجمع على كفره، عالمًا مستيقنًا بأنه كافر، لا شبهة فى ذلك لديه ولا شك، مع رضاه بهذا الكفر .. وكونه قاصدًا مختارًا له .. وبعد أن بين له أدلة كفره بما لا يدع مجالاً للشك) فهو كافر.

وبغير هذه الضوابط المتعددة والقيود المتتابعة لا يصح تطبيق تلك القاعدة فى واقع المسلمين .. ولا يصلح محاكمة الناس إليها .. فليلزم كل مسلم حدود الشرع، وليتقيد بقيوده وضوابطه .. ففيها الهداية إلى طريق الحق .. والنجاة من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

﴿٩﴾ لا تكليف إلا بمقدور .. وإن كان حاكمًا

من أخطر الآفات التى تصيب العقل والتفكير، فتشل حركته، وتعوق رؤيته : آفة السطحية .. والتى يعد من أبرز مظاهرها تبسيط الأمور تبسيطًا فيه نوع من الإخلال .. والنظر المتعجل إلى القضايا المتشابكة .. وتكمن خطورة هذه الآفة فى كونها لا تتيح لصاحبها فرصة التأمل الهادئ .. والتفكير العميق كما أنها تخفى عنه وجه الحق .. وتنأى برؤيته عن جادة الصواب .. ذلك لأنه لم يجهد نفسه لسبر أغوار الحقيقة .. والوقوف على ملابسات الأمور وخلفياتها.

وقد أرسى الإسلام فى نفوس أبنائه أسس التفكير العلمى السليم وأرشدهم إلى العناية بالمقدمات . والنظر إلى الأمور نظرة موضوعية متوازنة لا تجمح نحو المثاليات الحالمة أو العاطفيات الغارقة .. لذلك كان المسلم صاحب بصيرة متأنية .. لا يحيد برؤيته نحو التبسيط المخل . ولا تقف به عند ظواهر الأمور وتغفل عن إدراك كنهها.

وقد شاع بين شباب الحركة الإسلامية تصور هو إلى المثالية أقرب منه إلى الواقعية .. وقناعة هى إلى السطحية أقرب منها إلى العمق والموضوعية .. تتمثل هذه القناعة فى أن الحاكم .. ما دام حاكما .. لا يعجزه شئ من الأمور .. ولا يصعب عليه إقرار شأن فى حكمه .. فمقاليد الأمور كلها بيديه .. ومفاتيح الحكم والسلطات كلها تحت تصرفه .. أو ليس صاحب أعلى سلطة تنفيذية فى الدولة؟! إذن فهو قادر على إصلاح جميع الأوضاع المعوجة .. وإنفاذ كل القرارات المرجوة .. كما أنه ليس متصورًا أن يعجز عن إلزام دولته وشعبه بشريعة الإسلام .. فهو يستطيع تطبيقها فيهم بين عشية وضحاها .. وما عليه فى كل ذلك إلا أن يصدر به أمرًا أو يوقع على قرار .. فالكل رهن إشارته .. والجميع طوع أمره .. مستعد لتنفيذ رغبته .. وليس على الساحة قوة تستطيع إعاقته فى إقرار ما يريد.

والحقيقة أن هذه الرؤية تحمل قدرًا كبيرًا من التبسيط .. وتتجاهل فى الوقت ذاته كثيرًا من تعقيدات الواقع وتشابكاته .. كما أنها لا تقيم وزنًا لأى من القوى الداخلية والخارجية التى قد تشكل عقبة كئودًا فى وجه كثير من القرارات والرغبات .. ولعل اطلاعنا على بعض نماذج الواقع

وشواهد التاريخ سوف يؤكد لنا تلك الحقيقة .. ولكن .. قبل أن نبدأ فى سردها قد يقول شاب متحمس : أو تقصدون بهذه الكلمات أن تدافعوا عن تقصير الحكام وتلتمسوا الأعذار لهم؟ ألا يعد ذلك الكلام تبريرًا لبعض ذوى الحكم والسلطان ممن ماطلوا كثيرًا فى تنفيذ أحكام الإسلام وإقامة شرعه؟

ونقول لهذا القائل: مهلاً فتى الإسلام .. لا تحملنك حماستك للحق على أن تعجل باتهام جائر .. فهذا الكلام ليس دفاعًا عن أحد .. ولا تبريرًا لأخطاء أحد .. إنما هو دعوة للموضوعية والتعقل وسبر أغوار الأمور .. ولئن دافعنا عن مخطئ وجادلنا عنه فى هذه الحياة الدنيا. فمن يجادل الله عنه يوم القيامة؟ أمن يكون عليه وكيلا؟ فأمانة الحكم عظيمة .. وأعباء السلطة جسيمة .. وحتى لو تظاهر أحد فى الدنيا بما يدفع عنه سخط الناس .. فبم يتظاهر أمام الله عز وجل؟ ولو استطاع الهروب من عقوبة الدنيا .. فأين المفر من الله؟ وهو سبحانه القائل عن نفسه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(١).

إن كلامنا هنا موجه لشباب الإسلام فلا يليق بهم وهم العاملون لهذا الدين. الرافعون لواءه أن يقعوا فى مثل هذا التبسيط المخل للأمور .. أو تستهويهم تلك النظرات السطحية .. إن الحاكم فى العصر الحديث خاصة وفى كل عصر عامة - مهما بلغ سلطانه واتسعت صلاحياته - له قيود تحكم حركته وتضبط قراراته .. فهو لا يعيش وحده فى بلده .. بل يشاركه الوجود قوى داخلية وخارجية ليس شرطًا أن تتفق مع توجهاته أو تشاركه أفكاره .. وهذه القوى الموجودة فى كل عصر ومصر، وإن تعددت أشكالها وتبدلت صورها لها من النفوذ والفاعلية ما يمكنها من تنفيذ برامجها ورؤاها فضلاً عن أن تعرقل جهود غيرها وتحبط مساعيه .. والحاكم لا يملك عصا سحرية يصلح بها الأوضاع، ويحل المشكلات .. فللواقع ضروراته .. وللضغوط الداخلية والخارجية أحكامها ألم يمتنع النبى ﷺ عن قتل عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين مراعاة لضرورات الواقع، وحتى لايتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟! .. ورغم علم النبى ﷺ بما يكيده ابن سلول للإسلام والمسلمين، وبأنه يستحق القتل ليستريح الناس من شره وفساده؟! ألم يمتنع النبى ﷺ عن فعل ما يراه حقًا من هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام خشية ارتداد الناس عن

---

(١) سورة غافر (١٩)

الدين؟ .. هذا هو رسول الله .. ورئيس الدولة ، وصاحب المنزلة والمكانة فى قلوب المسلمين .. فكيف بغيره، وبمن هو أقل منزلة ومكانة منه؟!! بل وصل الأمر بحاكم إلى أن يسر بإسلامه خوفًا من قومه .. فقد أسلم نجاشي الحبشة على يد الفئة المهاجرة إليه من الصحابة .. ولم يستطع أن يعلن إسلامه فى قومه فضلا عن أن يقيم فيهم أحكام الإسلام .. بل اضطر إلى التورية عليهم عندما شك بطارقته فى إسلامه وألبوا عليه الناس .. حتى قامت ثورة كادت تطيح به .. وتقضى عليه وعلى الفئة المؤمنة المحتمية بحماه .. فكتب كلمة التوحيد فى رقعة ووضعها تحت إبطه، ثم خرج إلى الناس وقال لهم: ماذا تقولون فى عيسى، قالوا : هو ربنا وإلهنا .. فوضع يده على الرقعة وقال : والله إن هذا لهو الحق - يعنى ما فى الرقعة من توحيد الله - فاطمأن الناس على دين ملكهم وانصرفوا .. هذا مع ما كان لحكام تلك العصور من صلاحيات تفوق تلك الممنوحة لأمثالهم فى هذا الزمان.

إن الحاكم قد يلقى أثناء حكمه من صعوبات الواقع ما يحول دون تنفيذه لما يريد من خير وصلاح على الوجه الذى ينبغى، بل قد يضطره إلى الرضا بالممكن قدر المستطاع، وإعمال قاعدة : «ما لا يدرك كله لا يترك جله» وقد يلجأ إلى طرق منها سياسة الناس والتحايل عليهم حتى يتسلل الإيمان إلى نفوسهم دون أن يبدو منهم النفور.

وتأمل فى ذلك قول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز لولده المتحمس «عبد الملك» والذى هاله ما الناس فيه من فساد وانحراف فانطلق نحو أبيه مخوفًا ومذكرًا، وقال كلمته المشهوره محفزًا والده على الإسراع فى تقويم الاعوجاج : «وددت لو غلت بى وبك القدور فى الله تعالى » .. فرد عليه الوالد الحكيم الذى عركته السنون وصقلته التجارب .. ردًا واقعيًا قال فيه: «أخشى يا بنى أن أحملهم على الحق جملة فيتركوه جملة .. فتلك أمور شب فيها الصغير .. وشاب فيها الكبير .. أوما يرضيك ألا يمر يوم إلا وقد أحييت فيهم سنة وأمت بدعة؟».

فهذا قول خليفة المسلمين فى زمن قريب العهد بالنبوة، والتابعون فيه كثيرون، ومن الصحابة من لازال على قيد الحياة .. فكيف يكون الحال مع تباعد الزمان .. وقلة الأعوان على الخير؟!.

وقد يرى الحاكم بعينه من الاعوجاج ما يعجز عن إصلاحه جملة واحدة ومن الانحراف مالا يستطيع تقويمه بين يوم وليلة .. وإلا انفلت زمام الأمر من يديه .. وانقلب سعيه ضد ما كان يبغى من خير وصلاح.

وإذا عبرنا دروب الماضى مسرعين نحو الحاضر القريب فسوف نطالع العديد من نماذج الواقع التى تشهد لتلك الحقيقة، فبالأمس فى بلاد الترك ومهد الخلافة الإسلامية سابقًا .. وعندما فاز حزب الرفاة الإسلامى على خصومه وتبوأ زعيمه «نجم الدين أربكان» منصب رئاسة الوزراء .. ورغم أن هذا المنصب تفوق صلاحيته صلاحيات رئيس الدولة فى تركيا، إلا أن «أربكان» لم يستطع تنفيذ كثير مما كان يصبو إليه .. ولم يقدر حتى على خلخلة جذور العلمانية الضاربة بجذورها هناك .. بل اضطر راغمًا ألا يصرح بتوجهه الإسلامي بصورة تستفز الجيش التركى الذى نصب من نفسه حاميًا لمبادئ أتاتورك .. وفشل أربكان فى تغيير القانون الذى يقضى بطرد أى موظفة محجبة من وظيفتها .. وفشل كذلك فى عدم حرمان المحجبات من دخول المدارس والجامعات .. وبعد أن ظهر توجهه الإسلامى تربص الجيش به، وأطاح به من منصبه .. بل ومنعه من العمل السياسى بحجة غريبة ألا وهى: أن أربكان عقد فى شهر رمضان عدة إفطارات جماعية(١) مما اعتبره الجيش تهديدًا صريحًا لمبادئ أتاتورك العلمانية.

وها هو السودان الشقيق خير شاهد على ذلك .. فهناك قامت الحركة الإسلامية بثورة الإنقاذ على أمل السعى لتطبيق الشريعة، وتنفيذ أحكام الإسلام .. ونجحت الثورة .. ووصل أصحابها إلى سدة الحكم .. وصارت مقاليد الأمور بأيديهم .. فما الذى حدث بعد ذلك؟!

جاءت الريح بما لا تشتهى السفن .. وتوالت الضغوط من كل مكان خارجيًا وداخليًا .. ما بين حصار وتضييق .. واشتعل التمرد فى الجنوب حتى كاد الوطن الواحد تتمزق أوصاله .. واضطرت السودان تحت وطأة ما حدث إلى اتفاق السلام الذى أطاح بكثير من الأمانى السابقة والآمال القديمة وقدمت مصلحة وحدة أراضى السودان، والحفاظ عليه على تمزقه وقضم أطرافه قطعة قطعة.

وكل ما سبق من شواهد التاريخ وحقائق الواقع تدعو الشباب المسلم إلى مزيد من الواقعية فى طريقة تفكيره . وإلى التحلى بالنظرة الموضوعية للأحداث والواقع من حوله .. فما أسهل اتهام الغير

(١) يقوم أثرياء المسلمين من عامة الشعب فى مصر بعمل موائد رحمن للفقراء والصائمين بل ويقوم بعض أثرياء النصارى بذلك دون أدنى مشكلة .. وذلك يبين مدى الحرية الدينية وتفاوتها الشديد بين الدول الإسلامية المختلفة

بالتقصير والمزايدة على أفعاله ومواقفه ومطالبته بما هو مستحيل أو غير واقعى [١] .. وهذا الأسلوب قد يرضى الشباب المتحمس العاطفى .. ويدغدغ مشاعره .. ولكنه أسلوب يفتقد الصدق والأمانة ولا يحترم عقول هؤلاء الشباب .. كما أنه يثير استهجان العقلاء فيزدرون صاحبه .. ويفقدون احترامهم له .. ولا يصح ذلك من صاحب مبدأ وحامل دين.

إن الحقيقة التى ينبغى على الشباب أن يفهمها، أن التربع على قمة السلطة والوصول إلى سدة الحكم لا يعنى انتهاء جميع المشكلات .. ولا امتلاك العصا السحرية التى بلمسة منها يتغير وجه الواقع .. وتعود كل الأمور إلى نصابها الصحيح.

إننا لا نقول ذلك دفاعًا عن تقصير الحكام فى الدول الإسلامية فى تطبيق الإسلام فى دولهم سلوكًا وعملاً.

لأننا ببساطة لا ندافع إلا عن الحق والصدق .. ونحن عشنا دومًا ندافع عن الإسلام والدين ولا نخشى فى الله لومة لائم، وولاؤنا دائما لله وللرسول ﷺ وللإسلام والحقيقة .. وكذلك لأن الحكام لا يحتاجون لدفاع أمثالنا عنهم، فهم يملكون كل أدوات الإعلام .. ولديهم الكثير ممن يدافع عنهم ..

ولكننا نقول ذلك لأن هذا هو الحق وأن هذا هو ما نعتقده ونعتقد صحته .. والكثيرون الذين يتصورون أنهم لو حكموا أى دولة من الدول الإسلامية لاستطاعوا فى فترة وجيزة تحرير الأقصى وفلسطين .. وتوحيد الدول العربية والإسلامية .. وإصلاح مجتمعاتهم .. وتطبيق كامل الشريعة .. والدفاع عن الأقليات الإسلامية فى كل مكان .. وقضايا الإسلام فى كل مكان .. وتطبيق الحدود ... إلخ.

كل هؤلاء يبسطون الأمور تبسيطًا مخلاً، ولا يعملون أى حساب للقوى المضادة لهذه الإصلاحات فى داخل البلاد الإسلامية نفسها .. (وأولها الأقليات غير المسلمة، والقوى العلمانية

(١) ومثال ذلك ما يتنادى به بعض القوى الوطنية والإسلامية فى المظاهرات من فتح باب الجهاد ضد إسرائيل وذلك رغم إدراكهم باستحالة ذلك واقعيًا فى هذه الظروف لأسباب داخلية وخارجية .. بل حتى لو امتلكوا هم انفسهم زمام الأمور لعجزوا عن تنفيذ ما يتنادون به، وعجزوا عن إعلان الحرب على إسرائيل فى الوقت الحالى، والظروف الحالية التي يعرفها كل من يفهم ألف باء فى السياسة والاستراتيجية والتوازن العسكرى بين الدول.

المتطرفة)، وكذلك لا يعملون حسابًا للقوى الخارجية التى ظهرت فى أجلى صورها فى العصر الحديث فى العولمة وعالم القطب الواحد.

وفى الختام نقول:

لكل من يتصدر لقيادة الشعوب أن يسعى فى تطبيق الإسلام تدريجيًا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .. متمثلاً قول الله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾(1).

وإذا علم الله منهم تلك النوايا الطيبة هيأ لهم من الأسباب الداخلية والخارجية ما يعينهم على ذلك .. وسخر لهم من الأعوان ومن الصالحين ما يعينهم على الصلاح ويشد أزرهم فيه.

ونقول أيضًا : لا يفهمن أحد من كلامنا أن الحكام لا يستطيعون شيئًا ولا يقدرون على شىء .. فهذا ما لم نقله ولا نقصده أبدًا .. ولكن ما نقصده هو تصحيح التصور الشائع عند كثيرمن شباب الحركة الإسلامية .. أن حكام الدول الإسلامية قادرون على كل شىء بين عشية وضحاها .. وأنه لا ينقص لإصلاح الأمور فى الدول الإسلامية والعربية سوى قرار من الحكام بتنفيذ هذا الإصلاح لكل أوجه الخلل فى شتى مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والدينية والتربوية.

---

(١) سورة التغابن

﴿١٠﴾ الإسلام منهج حياة أشمل من الحدود

الإسلام فى حقيقته منهج شامل لكل جوانب الحياة .. وهو عقيدة وشريعة .. عقيدة ربانية تمنح المسلم التصور الصحيح لحقائق الإيمان والكون .. وتقيه الوقوع فى التصورات المنحرفة الباطلة التى ينأى عنها العقل السليم .. وشريعة متكاملة تحكم علاقة المسلم بالله تعالى[(١)] والمجتمع، وبالكون من حوله .. وتضبط حركة الحياة فى كافة الميادين..

ففى ميدان علاقة المسلم بربه وخالقه : شرعت العبادات المختلفة والواجبات الدينية، كالصلاة والصيام وغيرها.

وفى ميدان علاقة المسلم بغيره: شرعت الأخوة والمودة والتراحم مع أهل الإسلام وشرع العدل والإحسان والإنصاف مع غير المسلمين.

وفى ميدان علاقة المسلم بمجتمعه : شرعت كافة المعاملات الاقتصادية والقوانين المدنية والجنائية والتجارية وغيرها.

وفى ميدان علاقته بالكون والحياة: شرع البحث والتفكير والتأمل، واستكشاف أسرار الكون، والسعى بجد واجتهاد لعمارة الأرض وإصلاحها.

إذن، فشريعة الله رحبة فى مجالاتها .. متنوعة فى جوانبها .. متسعة فى آفاقها .. وهى أرحب من أن يحدها مجال من المجالات، أو يحصرها ميدان من ميادين الحياة .. وإذا حاولنا أن نستكشف بعض جوانب الإسلام العظيمة .. فسوف نجد مثلاً مجال العقيدة وتصور الإنسان لربه وخالقه، ومدى معرفته بأسمائه الحسنى وصفاته العلى .. ومجال الأخلاق والخصال الكريمة من شجاعة

---

(١) هناك قواعد ثلاثة تضبط علاقة المسلم بربه، وبغيره من الناس، وبنفسه وهى:
- عش مع الحق بغير خلق: وهى تضبط علاقة الإنسان بربه عن طريق الإخلاص ومراقبة الله تعالى.
- عش مع الخلق بغير نفس: وهى تضبط علاقة الإنسان بالناس عن طريق العدل والإحسان والمخالقة الكريمة الحسنة.
- عش مع النفس بالمراقبة والمحاسبة: وهى تضبط علاقة الإنسان بنفسه عن طريق محاسبتها ومراقبتها فى جميع أعمالها.
- وهناك قاعدة رابعة تضبط علاقة المسلم بغير المسلمين وهى قوله ﷺ : «وخالق الناس بخلق حسن».

ومروءة وحياء وعفة وتواضع ووفاء وغيرها .. ومجال العبادات من صلاة وصوم وزكاة .. ومجال المعاملات المتعددة اجتماعياً واقتصاديًا وسياسيًا ودوليًا.

وإزاء مثل هذا الدين الثرى .. فإنه يكون من الظلم البين، والذنب الكبير فى حق الإسلام اختزال سعته ورحابته فى مجال واحد من مجالاته .. فكل جانب من هذه الجوانب المشرقة هو جزء لا يتجزأ من الإسلام .. وهو مع ذلك - على رفعة شأنه وعظيم قدره - لا يعبر عن الإسلام بمفرده.

وعلى الرغم من بداهة هذه الحقيقة .. فإنها قد تخفى على كثير من الناس .. وآية ذلك حين يذكر مصطلح «إقامة الدين» أو «تطبيق الشريعة» فإن المتبادر إلى أذهان الكثيرين يكون إقامة الحدود الشرعية .. بل إن بعض الشباب المسلم نفسه حين يطالب بتطبيق الشريعة ويدعو إليها ينصرف ذهنه مباشرة نحو الحدود والعقوبات الشرعية .. وكأن الشريعة هى الحدود فقط فلو طبقت الحدود الشرعية فقد أقيم الدين، وطبقت شريعة الإسلام .. حتى وإن غابت الأخلاق من حياة الناس وماتت ضمائرهم، وكانت معانى الإيمان هزيلة فى قلوبهم .. ولو عطلت الحدود ولم تنفذ، فقد نحيت الشريعة الإسلامية .. وغابت شمس الدين من حياة الناس.

ولا ريب أن إقامة الحدود واجب شرعى من واجبات الدين .. فهى جزء لا يتجزأ من شريعة الإسلام .. وهى صمام الأمن والأمان فى المجتمع المسلم .. وبدونها لن يسود الأمن ولن يعم الصلاح .. فبها يرتدع العصاة وأصحاب الكبائر، والخارجون عن النظام العام للدولة إن لم يردعهم داعى التقى والصلاح من داخل نفوسهم .. وكما ورد فى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: «إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحًا»(١).

ولكن مع أهمية الحدود ومنزلتها فى الدين لا يصح مطلقًا أن يختزل الإسلام كله فيها .. ولا ينبغى اختصار الشريعة بما تشمله من عبادات ومعاملات متنوعه فى مجموعة القوانين الخاصة بالعقوبات .. تماماً كما لا يصح اختزال الدين أو الشريعة فى مجموعة الشعائر التعبدية سواءً بسواء.

---

(١) أخرجه ابن حبّان والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إذن، فما هو الإسلام؟! وماذا يقصد بالشريعة الإسلامية؟! وما هو الموقع الصحيح للحدود والعقوبات من الشريعة ومن الإسلام؟!

إن الإسلام فى حقيقته يتلخص فى ثلاث كلمات .. فهو عقيدة، وشريعة، ومنهاج حياة .. هذه الكلمات الثلاث الموجزة تشتمل من ذاتها على جوانب كثيرة من جوانب الإسلام التى فصلها العلماء كالتالى:

أولا: الإسلام عقيدة

والعقيدة فى الإسلام هى الأساس الذى تبنى عليه الشريعة .. وهى الأصل الذى يتفرع عنه كل شرائع الدين .. لذا كانت العقيدة حجر الزاوية فى بناء الرعيل الأول .. وبها بدأ النبى ﷺ .. مسيرة التربية الطويلة لأصحابه على امتداد ثلاثة عشر عامًا فى جنبات مكة .. ويخطئ من يظن أن العقيدة التى ربى عليها النبى ﷺ - أصحابه هى ما تحويه كتب العقيدة من أحكام التوحيد، ومسائل الكفر والإيمان، واختلاف الفرق فى قضية الأسماء والصفات فهذه الأحكام والقضايا التى يمكن تسميتها بـ «فقه العقيدة» إن صح التعبير ،لا تحتاج لتلك السنين الطوال .. بل يمكن تدريسها خلال شهر أو شهرين .. أما المعنى الحقيقى للعقيدة التى ربى النبى ﷺ عليها أصحابه، وغرسها فى قلوبهم هو معرفة الله تعالى .. وما يتضمنه من معانى الإيمان ومقاماته كالصدق والإخلاص، واليقين ، والتوكل والخشية، والإخبات والزهد والمحبة وغيرها .. وقد سلك النبى ﷺ فى سبيل إقرار تلك المعانى فى قلوب أصحابه وسائل شتى من الترغيب والترهيب، والحث والتذكير، حتى استلانت القلوب وأسلمت القياد لخالقها - عز وجل - وفى هذا تقول عائشة - رضى الله عنها : «إنما نزل أول ما نزل سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام .. ولو نزل أول شىء : لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا .. ولو نزل: لا تزنوا لقالوا : «لا ندع الزنا أبدًا»[1].

ثانيًا : الإسلام أخلاقًا

ومكارم الأخلاق والعادات هى ما ابتعث لأجله النبى - ﷺ - حيث قال: «إنما بعثت لأتمم

(١) رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها.

مكارم الأخلاق)[١] ويشمل ذلك كل خلق حسن، وصفة كريمة ينبغى على المسلم التحلى بها مع نفسه، ومع غيره من الناس قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم .. وبمثل هذه الأخلاق تطيب الحياة، ويهنأ العيش، ويسود الوئام، ويرفرف الأمن والاستقرار في ربوع المجتمع.. ومن هذه الأخلاق الكريمة: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار والرحمة بالضعيف، والإحسان إلى الناس، والرفق بهم، والتيسير على المعسر، وغير ذلك مما يعده الشرع من قبيل الخلق الحسن، والطبع الكريم.

ثالثاً: الإسلام شريعة

ويقصد بالشريعة هنا، مجموعة النظم التى شرعها الله - عز وجل - لعباده، وأنزلها عليهم ليلتزموها ويعملوا بها فى كافة ميادين الحياة .. وتنقسم الشريعة إلى قسمين:

الأول: قسم العبادات: أو ما يسمى «شعائر الدين التعبدية»، وقد شرعت هذه الشعائر لتنظيم العلاقة بين العبد وربه .. ومنها : الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها من العبادات بمفهومها الشامل .. والذى يجمع كل قول أو عمل يحبه الله تعالى ويرضاه ظاهرًا كان أو باطنًا.

الثانى: قسم المعاملات : وهو يشمل الأحكام التى يراد منها تنظيم علاقة الإنسان بغيره .. وبيان ما له من حقوق، وما عليه من التزامات .. ويمكننا تصنيف المعاملات التى جاءت بها شريعة الإسلام على النحو التالى:

(١) **الأحكام المتعلقة بالأسرة**: أو ما يسمى اليوم «قانون الأحوال الشخصية، وترمى إلى الحفاظ على كيان الأسرة المسلمة، والتعريف بحقوق وواجبات كل فرد من أفرادها .. وتشتمل على أحكام الزواج والطلاق والنسب والمواريث، والنفقة والخلع وغيرها .. وقد نزل فى شأن هذه الأحكام فى كتاب الله تعالى فقط سبعون آية هذا غير ما ورد منها فى سنة رسول الله ﷺ.

(٢) **أحكام المعاملات المالية**: وترمى إلى تنظيم المعاملات المالية بين الناس بما يضمن لكل واحد حقوقه فى مسائل البيع والشراء والمضاربة، والقروض، والوقف، والرهن وغيرها على مستوى الأفراد .. وكذلك طرق الإنفاق فى الدولة وتنظيم أعمال الهيئات الاقتصادية كالشركات التجارية

(١)رواه أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - بلفظ «صالح الأخلاق».

والبنوك والمصارف إلى غير ذلك من أحكام الشئون الاقتصادية للدولة المسلمة.

(٣) **الأحكام المتعلقة بالقضاء والشهادات**: كأحكام الشهادة واليمين، وإجراءات التقاضى وغيرها مما يكفل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس جميعًا أمام القانون.

(٤) **الأحكام المتعلقة بالجرائم والعقوبات**: وهى القوانين التى تهدف إلى حفظ الأمن الداخلى فى المجتمع المسلم .. وردع أهل الفساد وأرباب الجرائم عن غيهم .. ومن أجل ذلك شرعت الحدود، وجاءت فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ مفصلة واضحة.

(٥) **أحكام العلاقات الدولية**: وهى المواثيق التى تحكم العلاقات الخارجية بين الدول أو ما يسمى اليوم بـ «القانون الدولى» بشقيه العام والخاص .. وتشمل أحكام المعاهدات الدولية كمعاهدات الصلح والهدنة، وكذلك علاقات الدول فى حالة الحرب والسلم .. وأحكام الأسرى، وعقود الأمان لغير المسلمين، وحقوق المستأمنين وواجباتهم فى الدول المسلمة وغيرها من الأحكام .. ولقد كان لحضارة الإسلام إسهامات فذة فى هذا المجال .. ولعل أول كتاب عالمى يتحدث عن القانون الدولى من منظور إسلامى كان كتاب «السير الكبير» للإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان – رضى الله عنه – وتكريمًا لهذا العالم المسلم، واعترافًا بجهده، فقد أنشأت جامعة الدول العربية من سنوات عديدة جمعية «ابن الحسن الشيبانى للقانون الدولى» وقامت بطبع كتابه «السير الكبير» فى طبعة فاخرة .. ومن الجدير بالذكر أن هناك جمعية بنفس الاسم أيضا فى باريس.

(٦) **الأحكام المتعلقة بشئون الحكم والإمامة**: وهو ما سمى قديمًا بـ «الأحكام السلطانية» واصطلح على تسميته فى العصر الحديث بـ «القانون الدستورى» وهو ما ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويبين حقوق وواجبات كل منهما .. كما يشمل طرق اختيار الحاكم وتحديد وظائفه، وغير ذلك من الأحكام.

هذا هو الإسلام .. وتلك هى آفاقه الرحبة الواسعة .. أو ليس من الظلم لهذا الدين الشامل أن يختزل فى أحد جوانبه؟! وهل يليق بمسلم عمومًا .. وبالدعاة وحملة الدين خصوصًا أن يحصروه فى مجال واحد من مجالاته المتعددة؟! بالطبع لا يصح ذلك .. ولا ينبغى لمسلم أن ينظر

إلى سعة الإسلام وشموله من زاوية حقيقية لا ترى منه غير الشعائر التعبدية حينًا والحدود والعقوبات الشرعية حينًا آخر.

إن الحدود والعقوبات الشرعية جزء من جانب المعاملات، الذى هو بدوره أحد الجوانب المهمة فى شريعة الإسلام وهذا الجزء من شريعة الإسلام لا يسع أحدًا من المسلمين جحوده أو إنكاره .. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه: هل معنى ذلك أن الحدود بمفردها هى الشريعة الإسلامية كما يظن البعض؟! أم أن للشريعة مفهومًا أشمل وأوسع من أن يقتصر على جانب الحدود والعقوبات فحسب؟!

والحق يقال إن هناك جوانب متعددة للشريعة الإسلامية لا يصح إهمالها .. فغرس العقيدة الصحيحة ومعانى الإيمان فى نفوس الناس جزء من شريعة الإسلام .. ونشر الفضائل ومكارم الأخلاق بين الناس جزء من شريعة الإسلام .. وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والتزام شعائر الدين التعبدية جزء من شريعة الإسلام .. وبناء الأسرة المسلمة على خلق الإسلام، والتزام أحكامه فى مسائل الزواج والطلاق والمواريث وغيرها جزء من شريعة الإسلام وكذلك تنفيذ الحدود الشرعية، والتقيد بالعقوبات المقررة فى الشرع جزء من شريعة الإسلام .. هذه الأمور وغيرها مجتمعة هى ما يطلق عليه الشريعة الإسلامية .. لا تصح تسمية جزء منها بذلك دون غيرها .. إذ ليس أحدها أولى بمصطلح «الشريعة الإسلامية» من باقى الأمور.

ولقد أصاب بعض المفكرين حين قال: «إن المعنى الشائع لتعبير الشريعة الإسلامية ينصرف إلى القوانين التى تحكم المعاملات وحدها .. وصياغة القوانين قد يكون أمرًا ميسورًا وهى مشكلة الفقهاء ورجال القانون وحدهم، إذا توفرت أمامهم الإرادة والرغبة .. لكن تنشئة جيل مؤمن ومسلم هى امتحان بالغ الصعوبة لكل راع فى الدولة .. سواءً كان مسئولاً سياسيًا، أم فقيهًا، أم موجهًا فكريًا، أم معلمًا، أم رب أسرة فى بيته[1].

وبهذه النظرة الشاملة لمفهوم الشريعة الإسلامية تتفتح آفاق واسعة للعاملين للإسلام يسعون من خلالها نحو غايتهم المنشودة .. ولا يحصرون أنفسهم فى إطار ضيق من بعض جوانب الشريعة

(١) القرآن والسلطان، فهمى هويدى ص ١١٠ ط - دار الشروق.

ويهملون غيرها .. فلن يعدموا سبيلاً للسعى نحو إقامة الإسلام فى واقع حياتهم ولو تعذر عليهم تطبيق جانب من جوانبه، فبين أيديهم جوانب أخرى لن يعجزوا عنها حتى يأذن الله بأن تعم شريعته ربوع الأرض.

وما أحوج العاملين للدين - من خلال هذه النظرة - إلى إعادة تقييم ما هو موجود من شريعة الإسلام، وما هو مفقود منها فى حياتها .. وذلك لكى يعملوا جاهدين للحفاظ على الموجود من الشريعة .. والسعى بحكمة وأناة لجلب المفقود منها متحلين بالصبر الجميل والجهد المخلص البناء.

إن الحقيقة التى ينبغى علينا الاعتراف بها أن غياب جزء من شريعة الإسلام يعد مشكلة كبيرة .. ولكنه ليس هو المشكلة كلها .. إن المشكلة الأكبر هى غياب الضمير الحى الذى ينقاد صاحبه طوعًا لشريعة الإسلام .. والذى يمنع صاحبه من التحايل على القانون السماوى والروغان منه .. وليس خافيًا أن لدينا من القوانين ما يوافق الشريعة الإسلامية مثل قوانين الأحوال الشخصية وغيرها .. وهذه القوانين مطبقة ومعمول بها طبق شرع الله تعالى .. ولكن تجد الكثير من الناس اليوم يسلكون الطرق الملتوية إزاءها .. ويسعون قدر جهدهم فى الالتفاف حولها والتحايل على تنفيذها .. وتلك هى المأساة التى نحياها بسبب فساد الذمم، وغياب الضمائر الحية فى نفوس الكثيرين.

ليس هذا تهوينًا من شأن الحدود، ولا انتقاصًا من قدرها أو قدر غيرها من شرائع الإسلام .. وحاشا لله أن يجرؤ على ذلك مسلم صحيح الإسلام .. فقد يعلم الله كم ترنو نفوسنا لأن ترفرف شريعة الإسلام كاملة فى ربوع بلاد المسلمين ولأن تكون بلاد المسلمين جميعًا أعظم البلاد عملاً بالإسلام ، وتطبيقاً لشريعته الغراء نصًا وروحًا، وعيشًا فى ظلاله الوارفة التى تفيض دومًا بالخير والبركات .. ولكن، ما جدوى القوانين حين تفسد الذمم وتموت الضمائر؟! وماذا تصنع الحدود والعقوبات أمام من يسلك سبيل المراوغة والتحايل على الشريعة، والالتفاف حول نصوصها؟!

ولقد أحسن الرسول - ﷺ - صنعًا - وهو المؤيد بالوحى من ربه - حين بدأ مسيرة دعوته الطويلة بالتربية والتزكية .. وبذل سنوات عديدة من الجهد المتواصل لغرس معانى الإيمان فى القلوب .. فحين قارف البعض من أصحابه حدًا من حدود الله .. وطبيعته البشرية كان يهرع إلى رسول الله - ﷺ - ليطهرهم بإقامة الحد .. وذلك رغم أنه لم يكن هناك شرطة أو عيون تفتش عن

المذنبين، ولكنها القلوب السليمة والضمائر الحية التى تقود أصحابها طوعًا نحو العقاب الدنيوى .. وتجعلهم يؤثرون عذاب الدنيا على عذاب الآخرة.

ولا يصح أن يتخذ من هذا الكلام ذريعة لتأخير العمل ببعض شرائع الدين .. أو تكأة للاستهانة بشئ من حدود الله تعالى .. ولكن هذه الكلمات ربما تلفت الأنظار إلى جوانب أخرى مهمة من شريعة الإسلام قد غابت عن أذهان الكثيرين مع مسيس الحاجة إليها .. فشريعة الإسلام هى منظومة متكاملة لا تقبل التجزئة ولا تحتمل التفرقة أو التمييز.

فعلى الشباب المسلم أن ينظر للمجتمعات المسلمة اليوم ككل ليحدد جوانب النقص وجوانب الخير، ويحدد الإيجابيات والسلبيات .. ولسوف يلاحظ بوضوح أن جوانب الخير أكبر بكثير من جوانب النقص والشر .. وأن الإيجابيات أعظم بكثير من السلبيات وعليه ألا ينظر دومًا إلى نصف الكوب الفارغ، ويغض بصره عن نصفه المملوء .. فليس ذلك من العدل والإنصاف .. وبدلاً من إطلاق اللسان فى السب والشتم لكل من نتصور أنه مسئول عن نصف الكوب الفارغ .. فمن الأجدى والأنفع أن نسعى فى حكمة وتؤدة لملء هذا الفراغ وزيادة مقدار الخير الموجود.

وقد قالوا قديمًا .. «بدلاً من أن تلعن الظلام، أوقد شمعة» ولو أننا جميعاً عملنا بهذه الحكمة الجميلة .. وسعى كل واحد منا جاهدًا فى إيقاد شمعة .. فسيعم النور أرجاء الكون دون صخب أو ضجيج .. وسيتحول الليل المظلم إلى نهار مشرق جميل وسيزداد الخير حتى يعم البشرية بأسرها .. فلعن الظلام لن يفيد شيئًا .. ولن يغير من الواقع شيئًا .. وكل ما سيفعله أن يشعر صاحبه بنشوة زائفة لأنه سيظن بذلك اللعن أنه قدم شيئًا .. وهو فى الحقيقة لم يخفف من وطأة الظلام، بل قد يزيده حلكة وظلامًا.

فيا شباب الإسلام المخلص الصادق .. لا تكونوا كمن سار فى الصحراء فعرضت له صخرة عظيمة فى طريقة .. فبدلاً من أن يجاوزها ويترك مهمة إزاحتها لمن هو أقدر على ذلك منه.. إذا به يصمم على إزاحتها أو السير فى مواجهتها وهو لا يستطيع ذلك .. وسرعان ما تخور قواه وتصاب قدماه، فلا هو أزاح الصخرة ولا هو أكمل المسير بل تعطل فى طريقه، وتأخر عن بلوغ هدفه ونيل مراده.

وأنتم يا شباب الإسلام .. إذا عجزتم عن الإصلاح فى مجال من مجالات الشريعة .. ولم تستطيعوا التغيير فيه إلى الأحسن والأفضل .. فدعوه، واعمدوا إلى غيره ، فلن تعدموا سبيلاً للإصلاح .. وتمثلوا قول القائل :

- إذا لم تستطع شيئًا فدعه .. وجاوزه إلى ما تستطيع

فلو تعثرت فى طريق، فدعه واسلك غيره لتصل إلى الخير الذى تنشده .. ولا تصمم على هذا الطريق ، فيضيع منك الوقت والجهد فى إزالة أشواكه وعثراته .. ولربما عجزت عن ذلك فى نهاية المطاف.

﴿١١﴾ الإكراه يلحق بالدول كما يلحق بالأفراد

لقد كان من تمام رحمة الله تعالى بعباده وخلقه أن رفع عنهم الحرج فى حال الضرورة .. وعفا عنهم فيما استكرهوا عليه .. وبذلك أخبر على لسان نبيه ﷺ حين قال : (إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)(١) ولذلك أرست شريعة الإسلام قاعدة مفادها أن الضرورات تبيح المحظورات فجعلت من حالة الإكراه والضرورة عذرًا مقبولاً يمنع من لحوق الذم والعقاب بصاحبه إذا اضطر إلى إتيان محرم أو محظور.

وإذا كانت الشريعة قد اعتبرت حالة الإكراه فى حق الأفراد .. فاعتبارها لإكراه الدول من باب أولى .. فالفرد مهما بلغت درجة الإكراه الواقعة عليه فهو فى النهاية فرد يتحمل مسئولية نفسه، ولا يحمل عبء غيره على عاتقه .. أما الدول فتحمل على عاتقها مصائر ملايين البشر .. وإن جاز للفرد .. فى وقت من الأوقات أن يأخذ بالعزيمة، ويحتسب الأجر فيما يلقاه من ضرر .. فلا يستساغ مثل هذا فى حق الدول .. إذ يسع الفرد ما لا يسع الجماعة، ويسع الفرد والجماعة مالا يسع الدولة.

إن البعض لا يتصور وقوع حالة الإكراه فى حق الدول .. ويظن ذلك قاصرًا على الأفراد فحسب .. وصحيح أن كتب الفقه والأصول أفاضت الحديث عن إكراه الفرد وشروطه وصوره وأحكامه .. ولم تتحدث عن إكراه الدول مع أن إكراه الدول متصور فى الشرع والواقع من باب أولى(٢) .. فإذا كان الإسلام قد أباح للفرد المضطر أكل الميتة وشرب الخمر - رغم حرمتهما - دفعًا لما هو أعظم مفسدة من هلاك النفس والبدن .. فكيف بالدولة إذا هددت بالقصف الجوي العنيف بأفتك أنواع القنابل الضخمة .. وهددت بتدمير بنيتها التحتية المدنية والعسكرية، وبقتل الآلاف من أبناء شعبها وهى لا تستطيع دفعًا لكل ذلك .. ألا يعد هذا إكراهًا أعظم بمراحل من إكراه الأفراد؟! .. وإذا كان الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - يقول عنه نفسه :

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما .. وصححه الألبانى.
(٢) تحدث د. وهبة الزحيلى فى كتابه «نظرية الضرورة الشرعية» عن حالة الضرورة العامة والتى تتعرض الدولة فيها للخطر إذا لم تأخذ بمقتضى الضرورة وقال : بتصرف .. (وبناء عليه تسامح بعض الفقهاء فى شئون العلاقات الخارجية أو التجارة الدولية .. فأجازوا مثلاً للدولة فى تعاملها مع الأجانب أن تدفع إتاوات سنوية لدفع خطر الأعداء، أو من أجل المحافظة على كيان البلاد كما أجازوا دفع فوائد ربوية عن قروض خارجية تمس إليها حاجة الدولة العامة) أ.هـ.

«إن أمرًا يدرأ عنى سوطين، فليس علىّ فى فعله حرج» فماذا تقول الدول حين يتم فرض الحصار الاقتصادى سنوات عليها، فلا تجد لأبنائها القوت والدواء والوقود؟![1] ألا يعد ذلك صورة من صور الإكراه التى قد تمارس ضد الدول؟!

إن الدول تكره تمامًا كما يكره الأفراد .. وتتعرض أحيانًا لحالات من الضرورة أشد وأقسى بكثير من تلك التى يتعرض لها الفرد .. وتتعدد صور الإكراه الواقع على الدول فى عصرنا هذا، كما تتدرج تلك الصور من حيث قسوتها وعنفها .. فهناك الإكراه السياسى والدبلوماسى المتمثل فى عزل الدولة عن العالم الخارجى وقطع صلاتها الدبلوماسية بغيرها من الدول أو تحجيم تمثيلها الدبلوماسى، وهذا النوع من الإكراه بمثابة قطع لتلك الشرايين النابضة التى تضخ فى عروق الدولة دماء الحياة، وهناك الإكراه الاقتصادى المتمثل فى فرض الحصار الاقتصادى، وقطع المعونات الخارجية وتجميد حركة الاستيراد والتصدير من وإلى الدولة المستهدفة مما يهدد بحدوث مجاعة على المدى البعيد ويؤدى إلى نقص الاحتياجات الضرورية من الغذاء والدواء، وبالتالى إلى موت الآلاف من المواطنين.

وتبلغ قمة الإكراه ذروتها ومداها حين يكون التهديد بالإحتلال العسكرى المصحوب بالقصف الجوى وما ينتج عنه من تدمير كل مظاهر الحياة فى تلك الدولة، والعودة بها إلى الوراء لعشرات السنين .. ألا يعد ذلك كله تجسيدًا حيًا وواقعيًا لمعنى الإكراه الواقع على الدول؟!

وحقائق التاريخ قديمًا وحديثًا هى أبلغ شاهد على حدوث الإكراه فى حق الدول فها هى دولة الإسلام الأولى على أرض المدينة تتعرض لصورة شرسة من صور الإكراه الملجئ .. وذلك فى غزوة الأحزاب حين زحفت جحافل الكفر نحو المدينة .. وفرضت عليها حصارًا عسكريًا بجيش من الأحزاب قوامه عشرة آلاف رجل .. وهنا وجد النبى ﷺ .. دولة الإسلام فى وضع اضطرار لا تحسد عليه .. فالأحزاب يحيطون بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم .. واليهود فى أطراف المدينة

---

(١) قتل الآلاف من أطفال العراق فى فترة الحظر الاقتصادى المفروض على الدولة منذ عام ١٩٩١ وحتى احتلال العراق بسبب عدم توافر الغذاء والعلاج .. هذا غير الشيوخ، والنساء، والمرضى الذين ماتوا لعدم توافر الأدوية اللازمة لأمثالهم، هذا مع أن العراق أصلا من الدول القوية والغنية بالإمكانات والموارد فكيف لو حدث هذا الحصار فى دولة فقيرة الموارد والإمكانات وما هو حجم الكوارث المتوقعة لأبناء شعبها؟!

يبيتون الخيانة بليل .. والخوف والهلع يملأ القلوب، ويصوره القرآن أبلغ تصوير فى قوله تعالى: «وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا» .. وفى خضم هذه المحنة العاتية ينجم النفاق، ويطل أهله برؤوسهم مخذلين أهل الإيمان فيقول قائلهم مستهزئًا: (إن محمدًا يعدنا بكنوز كسرى وقيصر .. وأحدنا لا يأمن على نفسه الغائط(أى قضاء الحاجة).

ماذا يفعل النبى - ﷺ - بحكمته المعهودة وبصيرته النافذة لحل تلك الأزمة ولمحاولة كسر هذا الطوق المضروب حول المدينة .. لقد هم النبى - ﷺ - أن يدفع لغطفان ثلث ثمار المدينة كل عام على أن تنسحب من هذا التحالف .. وذلك فى محاولة منه - ﷺ - لتفتيت الأحزاب وشق صفهم .. والذى يتأمل بدقة هذا الحال يدرك مدى صعوبة الموقف الذى كانت دولة الإسلام تواجهه حينذاك .. فالنبى - ﷺ - يهم بدفع ثلث الدخل القومى لدولته .. ليس لعام واحد فقط .. بل كل عام فيما يشبه الجزية المفروضة .. وليس مقابل رد جميع الأحزاب .. بل فقط لمحاولة تحييد جزء منهم، وخلخلة هذا التجمع المعادى لدولة الإسلام .. إنها ملامح واضحة لا تخطئها العين لحالة الإكراه الملجئ ضد دولة من الدول .. لقد أراد النبى - ﷺ - أن يضحى بثلث ثمار الدولة ليحفظ الدين والأرض والعرض بدلاً من أن تستأصل شأفة الدين، وتضيع الدولة بأكملها بأرضها وثمارها .. ومن قبل ذلك دينها وأبناء شعبها .. وهكذا يعلمنا النبى ﷺ . درسًا بليغًا فى فقه الموازنات ، وفى القياس الصحيح بين المصالح والمفاسد.

وفى العصر الحديث .. قد تتعرض دولة من الدول لمثل ما تعرضت له دولة الإسلام من قبل .. وتجد نفسها مضطرة لدفع ما يشبه الجزية درءًا لمخاطر محققة قد تحيق بها .. لا بالصورة التقليدية للجزية .. ولكن بصور أخرى مستحدثة هى أشد تعقيدًا وخفاءً من ذى قبل .. كأن تسمح مثلاً للدولة القوية بنوع من النفوذ الاقتصادى المحدود فى بلادها .. أو احتكار شئ من الاستثمارات والعقود فى بعض المجالات .. وهذا فى مقابل تأمين بلادها .. والحفاظ على دينها وهويتها .. والإبقاء على أرواح الآلاف من أبناء شعبها.

وربما تساءل البعض متعجبًا .. كيف يعطى النبى - ﷺ - لطائفة من الكفار ثلث ثمار المدينة؟! وهل يجوز ذلك؟! ألا يعد هذا تقوية لجانب المشركين، وإعانة لهم على كفرهم؟! والحق

يقال .. إن صاحب النظرة القصيرة هو الذى تحيك فى نفسه مثل هذه التساؤلات .. لأنه ينظر للأمور نظرة سطحية لا تتجاوز قشرتها، ولا تنفذ نحو لبابها .. ولو كان فعل النبى ﷺ فى ظاهره قد يظن منه معاونة لهؤلاء المشركين على إثمهم .. إلا أنه فى حقيقته دفع لما هو أعظم إثمًا وأشد مفسدة .. وفى هذا يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام .. (وقد تجوز المعاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان، لا من جهة كونه معصية، بل من جهة كونه وسيلة إلى مصلحة وله أمثلة منها: ما يبذل فى افتكاك الأسارى (أى تحريرهم) فإنه حرام على آخذيه مباح لباذليه - إلى أن قال- وليس هذا على التحقيق معاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان، وإنما هو إعانة على درء المفاسد .. فكانت المعاونة على الإثم والعدوان، والفسوق والعصيان فيها تبعًا، لا مقصودًا)[1] وقد تكون صورة العمل واحدة، ولكن يختلف الحكم تبعًا لمقصود العامل نفسه، فالقاعدة أن الأعمال بمقاصدها .. وهنا فى موقف الأحزاب نقول أنه لا يستوى عند الله من دفع ماله إلى كافر ليخذل به عن المسلمين، أو ليفتدى به أسراهم كما فعل الرسول ﷺ ومن دفعه إليه موالاة له من دون المؤمنين، أو إعانة له على المسلمين .. على الرغم من أن صورة الدفع فى الحالتين واحدة ولكن شتان ما بينهما.

وفى الأمس القريب .. تعرضت دولة اليابان لحالة قاسية من حالات الإكراه الملجئ جعلتها تتجرع السم، وتقبل على مضض أمورًا ما كانت لتقبل بها لولا ذلك الإكراه ففى الحرب العالمية الثانية قصفت مدن اليابان بالقنابل الذرية .. وقتل فى ظرف ساعات معدودة ما يزيد على أربعين ألف يابانى غير الجرحى والمعاقين .. وكان هذا هو قمة الإكراه المادى الذى تعرضت له اليابان فى تاريخها .. وهو ما حدا بالامبراطور اليابانى أن يوقع رغم أنفه وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط .. وتعهدت اليابان بالالتزام بكل ما تضمنته الوثيقة من بنود مجحفة .. ومن أبرز هذه البنود: تحديد مهام الجيش اليابانى وعدد قواته، مع احتفاظ أمريكا بقواعد عسكرية دائمة على الأرض اليابانية ومازالت تلك القواعد موجودة هناك بعد أكثر من نصف قرن على الحرب العالمية الثانية وكل هذا كان نتيجة لون من ألوان الإكراه المادى الذى تعرضت له اليابان..

(١) قواعد الأحكام (١ / ١٢٩)

ومن أراد التعرف على صورة أخرى من صور الإكراه للدول .. فلينظر إلى يوغوسلافيا وما حل بها على أيدى قوات حلف شمال الأطلسى .. فقد تعرضت الدولة اليوغوسلافية إلى قصف عنيف متواصل دمر بنيتها التحتية .. وكان من نتائج ذلك القصف والضغط الخارجى أن تغير نظام الدولة .. وانسلخت يوغوسلافيا من المنظومة الشرقية الشيوعية لتدور فى فلك المنظومة الغربية .. ثم قامت الحكومة الجديدة بتسليم رئيس البلاد السابق إلى محكمة جرائم الحرب ليحاكم فيها كمجرم من مجرمى الحرب .. فهذا لون من ألوان الإكراه الملجئ الذى تضطر الدولة إزاءه للقيام بكثير مما قد لا تشتهيه ولا ترغب فيه.

إن الدول حين تتعرض لحالة الإكراه .. وتئن تحت وطأة الضرورة تتغير حساباتها ويباح لها حينئذ مالا يباح فى وقت آخر .. وليس من المنطقى ولا من المعقول أن يحكم علي تصرفات دولة تمر بحالة إكراه .. كما يحكم على دولة فى ظروفها الطبيعية .. إن حالات الضرورة التى تمر بها الدول أحيانًا تضعها أمام خيارات أحلاها مر .. وليس فيها خيار قادر على تحقيق المصالح الخالصة .. فحينئذ لا يكون أمامها سوى أن توازن بين المصالح والمفاسد .. وتقيس المضار والمنافع .. فتسعى لتحقيق أعلى المصلحتين بتفويت أقلها، ودفع أكبر المفسدتين بارتكاب أخفهما .. وشعارها فى ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية «ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر .. ولكن العاقل هو الذى يعرف خير الخيرين وشر الشرين».

وفى مثل تلك الحالة قد تضطر الدولة للقيام بمنكر أو إثم ظاهر .. لا من باب مفسدة .. وحينئذ يلتبس الأمر على صاحب النظر القصير، والحكم العجول .. فلا تقوى بصيرته على النفاذ من خلال تلك المخالفات الظاهرة، والمنكرات الجزئية لكى تدرك ما يختفى وراءها من دفع ما هو أعظم ضررًا وأعم مفسدة .. وشريعة الإسلام لا تفرق بين متماثلين، كما لا تجمع بين متناقضين .. فإن كانت تبيح للأفراد ارتكاب بعض المحظورات فى حالة الضرورة والإكراه فإنها تجيز ذلك فى حق الدول من باب أولى إذا تعرضت لظروف إكراه .. فمصلحة فرد واحد ليست بأولى من مصلحة ملايين الناس .. وحياة فرد واحد ليست بأولى من حماية أمة أو شعب بكامله.

وقد يقول البعض: إن الكلام فى هذه المسألة قد يتخذ ذريعة من جانب الدول لارتكاب المحرمات، وأخذ أموال الناس بالباطل، والاعتداء على حريات المواطنين وحقوقهم بدعوى أن

الدولة تمر بحالة ضرورة، وتعيش فى ظل إكراه.

ونقول لهؤلاء .. إن الذى يرتكب كل هذه المخالفات لا يحتاج أساسًا إلى ذريعة تبرر أفعاله .. ولا يفتقر إلى حكم شرعى يتكئ عليه لبلوغ مآربه .. ولو سلكنا هذا المسلك باستمرار لوجب علينا أن نلغى كل أحكام الرخص للمرضى والمسافرين في الصلاة والصيام وغيرها من الأحكام المشابهة حتى لا يتخذها أحد من هؤلاء ذريعة للتحلل من واجبات الدين .. ولم يكن ذلك أبدًا منهج القرآن .. فالقرآن الكريم لم يمتنع عن ذكر حالات الاستثناء والضرورة لكونها قد تتخذ ذريعة من قبل غير المتقين .. ولكنه تحدث عنها .. وذكر أحكامها ثم وضع لها الضوابط التي تعد بمثابة السياج الواقى من سوء استخدام هذه الرخص .. وكذلك الأمر فى مسألة إكراه الدول .. ففى شريعة الإسلام ضوابط صارمة تضبط حالة الإكراه، ومن هذه الضوابط: أن الضرورة تقدر بقدرها .. وبالتالى لا يجوز للدولة أن تستمرئ حالة الضرورة لتتوسع فى الرخص والمخالفات فوق القدر المطلوب بل عليها أن تكتفى بأقل قدر ممكن من ذلك .. وهذا الأمر يحتاج إلى نوع من التقوى والصلاح ومراقبة الله - عز وجل - كما يحتاج وبشدة إلى وعي وإدراك من الشعوب وقيام بواجب النصح، ومسئولية المراقبة والمحاسبة.

وقد لخص القرآن الكريم ضوابط الضرورة فى كلمات قليلة .. وذلك فى قوله تعالى «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه .. إن الله غفور رحيم» فضابط استعمال الضرورة ألا تكون للنفس فيها شهوة ومحبة .. وألا تتعدى الحد الأدنى أو تتجاوز القدر المطلوب وهذا الضابط وإن كان شخصيًا فى حالة الإكراه الفردى .. ولكنه ليس كذلك فى حق الدول .. إذ يقوم على مراقبة تنفيذه وأدائه جميع الأمة ممثلة فى نوابها ومفكريها وعلمائها ومثقفيها.

إن إخفاء أحكام الضرورة والإكراه، والامتناع عن ذكرها كى لا تكون ذريعة لبعض ضعاف النفوس، وضعاف الدين للتحلل من أوامر الشرع إنما يضر بالشريعة فى المقام الأول، ويجعلها فى صورة العاجز عن إيجاد حل لمثل هذه المعضلات التى تجرى على أرض الواقع .. بل قد تتهم الشريعة بالقصور .. وعدم الواقعية حين تبدو وكأنها قد أغفلت الحالات الاستثنائية للفرد والدولة، ولم تتحدث إلا عن حكم الشرع فى الظروف الطبيعية .. وهنا لا يكون الأمثل هو عدم تناول أحكام الضرورة والإكراه خوفًا من سوء استخدامها .. بل فى تناولها بطريقة سليمة وذكر أحكامها

مع وضع الضوابط والضمانات التى تكفل لها الاستخدام الصحيح.

إن تعرض الدول لحالات الضرورة والإكراه ليس أمرًا نادر الحدوث .. ولا سيما إذا كانت هذه الدول واقعة فى مناطق الصراعات كمنطقة الشرق الأوسط .. والتى يقع فى القلب منها عالمنا العربى والإسلامى .. ولا يصح أن تنتظر الدولة حتى يقع عليها الإكراه الذى لا تستطيع دفعه .. بل عليها أن تقرأ بوادر هذه الحالة قبل أن تلوح فى الأفق .. وتتخذ كل ما من شأنه أن ينأى بها عن الوقوع فى حالة الضرورة قبل أن تتدهور الأحوال، ويقطع فى وجهها خط الرجعة .. وقبل أن تضيع البلاد والعباد تحت وقع أقدام المحتل الخارجى .. وهذه المهمة منوطة بأصحاب الفكر والرأى من أبناء الأمة الشرفاء المخلصين حكامًا كانوا أو مفكرين أو علماء مثقفين ولنا فى أزمة دارفور على أرض السودان الشقيق عبرة.

﴿١٢﴾ عزلة الدول .. انتحار وفناء

حين قامت دولة الإسلام الأولى فى المدينة، لم تكن تلك الدولة تعيش فى فراغ من الدول .. ولم تكن تحيا كجزيرة منعزلة عن بلاد العالم من حولها .. فقد أدرك النبى ﷺ - رئيس الدولة الإسلامية .. منذ اللحظة الأولى ضرورة التواصل مع مختلف الممالك المحيطة .. وسعى لتكوين شبكة من العلاقات الدولية لتسهيل مهام الدعوة، وتحقيق مصالح الإسلام والمسلمين .. وهذه الدول والممالك التى تواصلت معها دولة الإسلام لم تكن أسلمت بعد .. بل كان بعضها يجهر بالعداء لهذا الدين الجديد .. ولكن ذلك كله لم يحل دون التواصل معهم .. وإرسال الوفود إليهم، وتلقى الرسائل منهم .. مادام فى ذلك كله مصلحة شرعية.

واليوم فى ظل تلك المتغيرات الدولية .. وبعد أن أضحى العالم - على اتساعه - قرية صغيرة .. لا يسوغ لأى دولة أن تعيش فى عزلة عن باقى الدول .. فذلك يعنى ببساطة أنها تحكم بالإعدام على نفسها، وتحفر قبرها بيديها، ولا سيما إن كانت هى الأضعف والأقل شأنًا، والأكثر احتياجًا لغيرها .. فإنها حينئذ لن يمكنها الاستغناء عن مثل تلك العلاقات .. إذن فقد صارت العلاقات الدولية ضرورة من ضرورات الحياة فى حق الدول .. ولم تعد قوة الدولة تقاس بمدى تسلحها العسكرى، وإمكاناتها الاقتصادية فحسب .. بل - وهو الأهم - بمدى فاعليتها السياسية، واتساع رقعة دبلوماسيتها، وقوة علاقاتها الخارجية.

وبعض الشباب المسلم - نظرًا لنقص خبرته بشؤون السياسة وعلاقات الدول - قد يستهين بمسألة العلاقات الخارجية لدولة الإسلام .. ويعتقد عدم جواز إقامة علاقات دولية مع الدول غير المسلمة - خاصة تلك الدول التى تكن العداء للإسلام والمسلمين - بل قد يعتبر أن إقامة علاقات حسنة مع دول غير مسلمة نوع من الخيانة وضرب من ضروب العمالة .. وشكل من أشكال موالاة الكافرين .. مع أن السيرة النبوية توضح لنا كيف أن النبى ﷺ كانت له علاقات مع معظم القبائل المشركة فى جزيرة العرب .. فكان يستقبل وفودهم، ويلتقى زعماءهم ويكرم

وفادتهم .. وكان يلقاهم فى مواسم الحج فيدعوهم إلى الإسلام .. ويعرض عليهم أن ينصروه ويؤوه وينصروا دعوته .. وقد قابله الكثير منهم بالرفض، فلم يمنعه ذلك من تكرار المحاولة .. حتى التقى ﷺ وفد يثرب وكانوا حينئذ مشركين .. فما لبثوا - حين كلمهم النبى ﷺ - أن شرح الله صدورهم للحق.

وبعد أن مكن الله للإسلام فى المدينة، وصارت له دولة، أقام النبى ﷺ علاقات متعددة مع مختلف الدول والممالك .. وراسل كثيرًا من الملوك والرؤساء .. وكان منهم هرقل رئيس دولة الروم .. وكسرى رئيس دولة الفرس .. والمقوقس (قيرس) حاكم مصر من قبل الرومان .. كما استقبل ﷺ العديد من الوفود[1]، كوفد نصارى نجران الذى قدم المدينة، فأكرمهم النبى ﷺ واستقبلهم فى مسجده، وأحسن ضيافتهم.

ولنا أن نتأمل موقف النبى ﷺ حين جاءه عدى بن حاتم الطائى .. وعدى لا يزال على النصرانية .. فدخل على النبى ﷺ وقد علق الصليب فى رقبته .. واستقبله النبى ﷺ فى بيته (وهو قصر الرئاسة بلغة عصرنا الحديث) .. ليس ذلك فحسب، بل زيادة فى إكرامه أجلسه النبى ﷺ على وسادته، وجلس هو ﷺ على الأرض .. ولو فعلها حاكم من حكام المسلمين اليوم لاعتبر ذلك نوعًا من الذلة والمهانة .. بل قد يعد كفرًا وموالاة لأعداء الله عز وجل .. ولكنه ﷺ يعلمنا أن إقامة العلاقات الطيبة مع غير المسلمين على مستوى الأفراد أو الدول ليس من قبيل الموالاة المحرمة الممنوعة .. بل هو من باب المخالقة المشروعة طالما كان ذلك سعيًا لتحقيق مصالح الإسلام والمسلمين.

وقد يقال: إن هذه العلاقات التى أقامها النبى ﷺ كان الهدف منها هو الدعوة إلى الله .. وحكام المسلمين اليوم لا يقومون بواجب الدعوة، فلا مبرر لإقامة مثل هذه العلاقات .. والحقيقة، إن مجرد إقامة العلاقات الخارجية الطيبة بين الدولة المسلمة وبين غيرها من الدول هو دعوة فى حد

---

(١) ومن هذه الوفود: وفد بنى عامر، ووفد عبد القيس، ووفد بنى حنيفة، ووفد طىء، ووفد كنده، ووفد الأشعريين، ووفد الأزد، ووفد همدان، ووفد مزينة، ووفد دوس، ووفد تجيب، ووفد بنى فزارة، ووفد بنى أسد وغيرها كثير.. ورغم أن هذه الوفود كانت تمثل قبائل وبلادًا صغيرة وضعيفة بالمقارنة لدولة الإسلام فى هذا الوقت .. ولكن ذلك لم يمنع النبى ﷺ من مقابلتها وإكرامها مما كان سببا فى إسلام الكثير من هذه الوفود - «الرحيق المختوم» ص ٤٢٨ - ٤٣٨ .

ذاته .. فهو يتيح الفرصة لاحتكاك المسلمين بغيرهم فيتعرف الناس على الإسلام .. كما يؤمن حركة المسلمين فى تلك البلاد، ويضمن لهم حقوقهم فى ممارسة شعائر دينهم، بل والدعوة إليه بحرية بين أبناء وشعوب تلك الدول ولولا العلاقات التى بينها وبين الدول المسلمة فلربما لم تسمح بذلك .. بل وقد تمنع المسلمين أصلاً من دخول أراضيها(١).

إن حيوية العلاقات الدولية التى تميزت بها دولة الإسلام الأولى تبعث لنا برسالة واضحة مفادها أنه لابد لأى دولة من أن تكون لها علاقات مع غيرها من الدول، وبخاصة مع الدول الكبرى فى عصرها - فهذه الدول شئنا أم أبينا - هى التى تقود المنظومة الدولية استراتيجيًا وعسكريًا واقتصاديًا وتكنولوجيًا .. ولا يقدح فى دين الدولة المسلمة، ولا فى وطنية حكامها أن يقيموا العلاقات مع الدول غير المسلمة .. أو مع الدول المسلمة التى لا تطبق شريعة الإسلام كاملة، مادام هؤلاء الحكام يسخرون تلك العلاقات لتحقيق أعظم المصالح، ودرء أعظم المفاسد عن دينهم وأوطانهم وشعوبهم.

ونستطيع أن نقول: إن تأسيس العلاقات الخارجية بين الدول المسلمة وبين غيرها من الدول - حتى وإن صدر منها نوع اضطهاد للإسلام والمسلمين - ليس محرمًا شرعًا .. بل إنه مباح وقد يرقى إلى الوجوب فى ظل الأوضاع الدولية المعقدة فى هذا الزمان .. أما المحرم شرعًا فهو الدوران فى فلك تلك الدول غير المسلمة .. وتقديم مصالحها على مصالح ديننا وأوطاننا .. أو التنازل والتخلى عن حقوقنا ومصالحنا لحساب مصالحها .. أو التبعية الذليلة والانقياد الأعمى خلفها دون ضابط من عقل أو وازع من دين .. ولكن التواصل معها ومع غيرها من أجل تحقيق مصالح ديننا وبلادنا هو عين الواجب الشرعى الذى يدعو إليه الإسلام .. ويلزم به حكام المسلمين.

والفيصل فى مشروعية تلك العلاقات الدولية الخارجية يكمن فى إجابة هذا السؤال: مع أى مصلحة يدور حكام المسلمين فى هذه العلاقات؟

(١) يختزل البعض معنى الدعوة فى العلاقات الدولية .. ويجعله قاصرًا على دعوة رئيس الدولة من خلال رسالة واضحة يكون فيها: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .. والواقع أن مفهوم الدعوة أوسع من ذلك بكثير .. فتبادل الخبراء فى مختلف المجالات دعوة .. واحتكاك المسلمين بأهل تلك البلاد دعوة، والسماح للعلماء والدعاة بزيارة أراضيها دعوة - وحرية المسلمين فى اظهار شعائر دينهم دعوة - وهذا كله من الأمور الطبيعية ما دامت العلاقات قائمة.

فإن كان الدوران مع مصالح الإسلام وأوطانه وشعوبه، فهذا أمر مشروع، بل واجب وهو الخير كل الخير للإسلام والمسلمين.

وإن كان الدوران مع الآخرين ومصالحهم على حساب مصالح الأمة وأوطان المسلمين فلعمرى، تلك هى الخيانة بعينها .. ولا نظن حاكمًا عاقلاً .. أو لديه مسحة من دين .. أو حتى شهامة ومروءة ووطنية يقبل أن يفعل ذلك .. لأنه بذلك يهدم نفسه قبل أن يهدم وطنه .. ويسود صفحات تاريخه ومجده .. بل ويلطخ سمعته التى يحرص عليها كل وطنى مخلص، فضلاً عن المسلم المتدين.

إن إقامة الدول المسلمة لنوع من العلاقات الدولية ليست محل اختيار، أو موضع نظر وتفكير .. بل هى أمر لا محيص عنه ولا مفر منه .. هذا إن أرادت تلك الدول أن تجد لها موطئ قدم فى عالم اليوم .. ومن الأمور الغريبة ما نسمعه من دعاوى لقطع العلاقات مع هذه الدولة أو تلك إذا صدر منها انتهاك لحقوق بعض المسلمين .. دون إدراك لحجم الآثار الخطيرة التى قد تترتب على مثل هذا السلوك .. وكأن قطع الدول المسلمة لعلاقاتها الدولية فى هذا العصر من السهولة بمكان .. مع أن هذا الأسلوب ليس هو الحل الأمثل لمثل هذه الانتهاكات .. إذ إنه فى الغالب الأعم لا يجلب مصلحة، ولا يدرأ مفسدة .. ولا يعنى هذا الكلام أن تتخلى دول الإسلام عن هؤلاء المضطهدين، أو أن تقعد عن نصرتهم والدفاع عنهم .. فهذا غير مقصود على الإطلاق والذى نعنيه هو أن تختار الدول المسلمة أنسب الوسائل لنصرة هؤلاء المستضعفين شريطة أن تكون فى مقدورها وفى طاقتها .. وألا تكون سببًا فى جلب المفاسد لا على الدول المسلمة ، ولا على أولئك المضطهدين المستضعفين.

ولو أننا طالبنا بلادنا بقطع علاقاتها مع روسيا لأنها دولة ملحدة تضطهد مسلمى الشيشان .. ومع فرنسا لأنها دولة صليبية تمنع المسلمات من ارتداء الحجاب .. ومع بريطانيا لتحالفها مع أمريكا وإصدارها وعد بلفور قديمًا لمصلحة اليهود .. ومع أمريكا لأنها تحتل أفغانستان والعراق، ولدعمها الكامل لإسرائيل .. ومع الهند لأنها تحتل كشمير المسلمة .. ومع الصين لأنها تضطهد مسلمي تركستان الشرقية. - ومع - ومع - ومع .. فهل ستوقف تلك الدول هذه الانتهاكات؟! ومن سيكون الطرف الخاسر فى حالة قطع العلاقات؟! ومع من ستتعامل الدول المسلمة؟! هل سيقتصر

تعاملها مع دول العالم الهامشية الصغيرة التى لا وزن لها ولا ثقل؟! وليس لها أى دور أو فاعلية على المسرح الدولى؟!

والإجابة فى ذلك كله واضحة .. فالخاسر الأكبر فى النهاية هو دولنا العربية والإسلامية التى ستكون قد لفت حبل العزلة حول رقبتها .. فلا هى حققت المصلحة لدينها وشعوبها وأوطانها .. ولا هى استطاعت رفع الظلم الواقع على المسلمين فى كل مكان.

إن عزلة الدول، وانكفاءها على ذاتها إنما هو في الحقيقة نوع من الانتحار .. هذا ما شهدت به تجارب العزلة فى عالمنا المعاصر .. فلقد كان الستار الحديدى الذى ضربته دول الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية حول نفسها سببًا رئيسيًا فى تخلف تلك الدول، مما أدى إلى انهيارها وسقوطها .. لقد كانت هذه العزلة الرهيبة والحصار القاسى عاملاً مهمًا من عوامل اتساع الفجوة بين دول أوربا الشرقية ومن نظيرتها الغربية.. لا فى المجال العلمى والتكنولوجى والعسكرى فحسب .. بل حتى فى الجوانب الاجتماعية والإنسانية كمناخ الحريات والممارسات الديمقراطية وتحقيق رفاهية الشعوب.

وتكرر نفس السيناريو فى ألبانيا .. ولكن بصورة أشد وأعمق .. وذلك حين فرض عليها حاكمها «أنور خوجة» طوقًا من العزلة الشديدة حتى صارت ألبانيا شيوعية أكثر من الشيوعيين أنفسهم .. وتحول المسلمون فيها إلى الشيوعية تحت ضغط القهر والإكراه .. وفى الوقت الذى كان أهلها يظنون بلادهم أعظم الدول وأقواها، وأكثرها تقدمًا ورفاهية ، كانت ألبانيا مثالا صارخًا للفقر والجوع والتخلف والقهر والديكتاتورية .. وظلت متمسكة بمبادئ الشيوعية البائدة حتى بعدما انهارت تلك المبادئ فى عقر دارها .. كل هذه المساوئ كانت نتيجة حتمية وطبيعية لحالة العزلة التى فرضتها ألبانيا على نفسها.

وهذه دولة طالبان الإسلامية[1] .. وقد كانت العزلة والحصار أيضًا عاملا جوهريا فى زوالها ..

(١) ليس هذا الكلام هجومًا على دولة طالبان أو طعنًا فى أصحابها .. ولكنه توصيف لحالة واقعية ينبغى على الحركة الإسلامية أن تقف أمامها وتلتمس منها العبر والعظات منعًا من تكرار الأخطاء .. وهناك فرق كبير بين الوصف وبين القدح .. وللأسف هناك حساسية كبيرة لدى بعض الإسلاميين من أى نقد ذاتى أو تقييم موضوعى حيث يعدون ذلك هجومًا وقدحًا .. وهو ما يجعلنا دائمًا لا نستفيد من أخطائنا ونهدر الكثير من تجاربنا بسبب هذه الهواجس والمخاوف.

فمنذ أن قامت دولة طالبان - وحتى سقوطها - لم تعترف بها سوى ثلاث دول هي باكستان، والسعودية، والإمارات .. وكان ذلك موقفا طيبًا من هذه الدول راعت فيه مصالح الإسلام والمسلمين فى المقام الأول .. ولكن طالبان لم تنتهز هذه الفرصة، وتسعى لترسيخ علاقاتها مع هذه الدول .. ولم تنجح فى توسيع رقعة دبلوماسيتها لتشمل غيرها من دول العالم .. وحتى هذه الدول الثلاث فقدت طالبان تعاطفها واحدة بعد الأخرى حتى اضطرت جميعها لقطع علاقتها بطالبان بسبب الضغوط الأمريكية الهائلة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

والمقصود أن واقع الدول الحديثة يختلف اختلافًا جذريًا عن واقع دول الإسلام السابقة كالدولة الأموية أو العباسية .. سواء من حيث قدرات الدولة ذاتها .. ومن حيث شكل العلاقات الدولية .. وكذلك من حيث موازين القوى وطبيعة النظام الدولى قديمًا وحديثًا .. ولذلك ينبغى أن يكون الشباب المسلم واقعيًا فى تصوراته وأحكامه وفى طريقة تفكيره .. وليس من الواقعية، ولا من العقل، والإنصاف فى شيء أن نطالب دول الإسلام اليوم بما كانت تفعله دولة الإسلام فى عصر الأمويين أو العباسيين .. أو تحاسبها بموازين عصور مضت وانقضت .. ومقاييس أوضاع دولية تغيرت وتبدلت من النقيض إلى النقيض .. إن الدول لها قدرات وإمكانيات لا تستطيع تجاوزها .. تمامًا كالأفراد - مع اختلاف درجات القدرة بين هذه وتلك .. ومن رام من هذه الدول أو من حكامها فوق طاقاتهم وطاقات بلادهم فقد رام المستحيل .. وفى هذه الحالة إما أن تدخل هذه الدول فى مغامرات تفوق طاقتها فتهلك وتضيع ويسدل عليها الستار .. وإما ألا تستجيب لتلك المغامرات .. فتوصف بالتقاعس والتخاذل والقعود عن نصرة الإسلام والمسلمين.

وحين يقرأ بعضنا فى التاريخ الإسلامي أن امرأة فى عصر المعتصم قد أهينت فى «عمورية»، فصرخت قائلة : وامعتصماه .. فجهز لها المعتصم جيشًا أوله عندها وآخره عنده .. فمن حقنا حين نقرأ ذلك وأمثاله أن نتحسر على زمان مضى كانت شمس العزة تشرق فيه على بلاد العرب والمسلمين .. ولكن هل من الصدق مع أنفسنا وهل من الإنصاف مع غيرنا أن نطالب حكام المسلمين اليوم بمثل ما فعل المعتصم؟! .. وذلك حين يترامى إلى مسامعنا خبر اضطهاد بعض المسلمين فى روسيا .. أو مقتل بعض المسلمين فى الهند .. أو تعذيب بعض المسلمين فى الصين .. وهل من المنطقى والمعقول أن نطالب دولنا العربية والإسلامية أن تحارب كل تلك الدول مع

غياب القدرة على ذلك .. بل حتى مع غياب الملائمة لذلك داخليا وخارجيًا؟!.

إن هذه المرأة حين قالت «وامعتصماه» كانت تدرك قدرات المعتصم جيدًا .. والمعتصم حين لبى نداءها كان قادرًا على ذلك سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا وكانت الأوضاع الدولية فى عصره تؤهله لتنفيذ ما يريد .. ولو قصر يومئذ أو تباطأ فى استنقاذها لكان ملومًا مقصرًا .. أما أن يطلب ذلك من حكام المسلمين اليوم .. فهو طلب المستحيل .. حيث أن قدرات هذه الدول لا تحتمل ذلك ولا تقوى عليه .. بل لا تقوى على مجرد إعلان الحرب علي واحدة من تلك الدول فضلاً عن أن تسعى فى خوضها .. أليس هذا هو الواقع؟! أم أننا نتحدث فى عالم الخيال؟!

فما كان يصلح فى زمان المعتصم، وهارون الرشيد، والوليد بن عبد الملك لا يمكن بالضرورة فعله فى زماننا .. فهؤلاء الخلفاء وأمثالهم كانوا يحكمون نصف الكرة الأرضية .. ويستطيعون بكل يسر وسهولة قتال النصف الآخر، بل هزيمته ودحره .. كما أن المنظومة الدولية ، وموازين القوى الاستراتيجية كانت مختلفة تمامًا فى زمنهم، فمن رام فعلهم من حكام اليوم فقد رام المستحيل.

وإذا كانت السياسة فى عرف أهلها – هى فن تحقيق الممكن.. فإن أحكام الشريعة تكلمت عن هذا الفن وأرست قواعده قبل أن يعرفه الساسة .. فتحقيق الممكن ليس مبدأً قاصرًا على السياسة فحسب، وإنما هو قاعدة من قواعد الشريعة تكلم عنها القرآن فقال: «فاتقوا الله ما استطعتم» وقال أيضًا : «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها» .. وأكدها النبى ﷺ فى قوله فى الحديث الشريف: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١).. فالقدرة مناط التكليف أساسًا .. فإن عدمت القدرة سقط التكليف .. إذ لا تكليف إلا بمقدور .. وإذا كان الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها .. فكذلك لا يكلف سبحانه حاكمًا ولا دولة إلا وسعها، وما فى مقدورها .. ومعلوم بداهة أن أى حاكم لأى دولة مسلمة كانت أو غير مسلمة يرى من نفسه قدرة على أن يسود العالم بأسره فلن يتوانى عن ذلك أو يقصر فيه .. إن لم يكن من أجل دينه وعقيدته .. فمن أجل جاهه وشرفه ومكانته

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فعلى دعاة الإسلام وغيرهم أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع الناس .. وألا يزايدوا على الدول العربية والإسلامية وعلي قدراتها وإمكانتها وألا يضيعوا الممكن فى طلب المستحيل .. فحالة الضعف والتردى التى وصلت إليها أمتنا لم تعد خافية على أحد .. وليحذر دعاة الإسلام من تبسيط مثل هذه الأمور المعقدة .. فإن مثل هذا التبسيط المخل فى مجال العلاقات الدولية يضر بالحركة الإسلامية، ويضر بعقول شبابها الذى تعجبه البطولة الفذة .. وتستهويه الدعوات الحماسية لقطع العلاقات الدولية .. وإنقاذ الجيوش الجرارة من أجل محاربة كل دولة تنتهك حرمة من حرمات الله . أو تمس شعرة من مسلم متدين أو تنتهك عرض امرأة مسلمة.

ومثل هذه الدعوات الحماسية المجافية للواقع قد تدغدغ عواطف الشباب .. وترضى تطلعاته ومشاعره .. ولكنها فى الحقيقة تخدعه وتدلس عليه .. وترسم له صورة مزيفة للواقع ليست هى الصورة الحقيقية .. وإنما صورته كما تتمنى نفسه، وكما يتخيل عقله .. وذلك كله يدفع بالشباب إلى أن يعيش فى عالم غير عالمه .. ويحيا فى واقع غير واقعه .. فإما أن ينفصل بفكره وعقله عن الواقع، ويعيش فى عالم من الأمانى والأحلام والخيالات..

وإما أن يصطدم بحقائق الواقع المرير .. فيصيبه الإحباط واليأس ويفقد كل أمل فى الخير والإصلاح .. وقد تكون النهاية المأساوية حين ينقلب على عقيبه تاركًا كل ما يمت للدين بصلة.

الباب الثانى

بين حاكمية الله
وحاكمية البشر

بين يدى الباب

- ثمة مقولات عديدة وقناعات مختلفة شاعت زمنًا طويلاً فى أوساط الحركة الإسلامية .. هذه القناعات والمقولات تحتاج كل حين من الزمن إلى اختبارها وإعادة النظر فيها .. وإلى طرحها على بساط البحث والمناقشة. فلربما كانت فى الأساس مجانبة للصواب .. ولعلها كانت مناسبة لواقع دون آخر.. وقد تكون صحيحة لا غبار عليها.

وعلى كل الأحوال لن يعدم المراجع لها خيرًا .. فهو - من خلال بحثه لها، وإعادته للنظر فيها - دائر بين إحدى الحسنيين .. إما اكتشاف الخلل ومعاينة النقص .. ومن ثم تصويب الفكرة وتقويم السلوك .. وإما اطمئنان القلب لصحتها وصوابها .. فيكون الثبات وزيادة اليقين.

وليس اختبار القناعات السائدة ونقد المقولات الشائعة بالأمر السهل اليسير .. فالنفوس تميل بطبيعتها إلى الثبات على القديم وإن كان خطأ .. وتتوجس من كل جديد عليها غير معهود بالنسبة لها، وإن كان يحمل فى جعبته الحق والصواب.

ولذا كانت هذه المهمة تحتاج إلى قدر من الجرأة والشجاعة والتحرر من قيد المألوف .. والتخفف من ثقل الأراء السابقة والقناعات الجاهزة .. والتى تحجب أنوار الرؤية الصحيحة الموضوعية المتوازنة .. وتميل بصاحبها نحو مراد نفسه ومرتجى هواه.

وفى هذا الباب الذى هو بعنوان «بين حاكمية الله وحاكمية البشر» عمدنا إلى طرح شىء من المقولات الشائعة على بساط البحث والمناقشة وذلك لاختبار مدى صحتها وصوابها .. وسعينا إلى تمحيص بعض القناعات التى رسخت فى أذهان البعض ولاسيما دعاة التكفير، وناقشنا كل ذلك مناقشة موضوعية عميقة .. وأجبنا عن كثير من التساؤلات المهمة فى ثنايا هذا الباب، ومن خلال فصوله المتتابعة.

فقد تعرضت فى الفصل الأول من الباب والذى هو بعنوان «جنكيزخان .. وحكام المسلمين : قياس مغلوط» إلى نقد بعض المقولات الشائعة فى أوساط الشباب المسلم من أن حكام المسلمين اليوم يشبهون فى فعلهم وأحكامهم جنكيز خان وغيره من حكام التتار .. وأن حال المسلمين اليوم

هو أسوأ من حال التتار، وأشد ظلمًا وظلامًا منه.

وللتحقق من هذه الدعوى الغريبة .. عقدت مقارنة موضوعية بين مسلمى اليوم حكامًا ومحكومين وبين التتار .. وقد اتضح من خلال هذه المقارنة مدى الإجحاف والتحامل الذى ناءت بحمله هذه المقولات.

وفى الفصل الثانى الذى حمل عنوان «دراسة موضوعية لآيات الحاكمية» تناولت بالرد والتفنيد جانبًا مهمًا من جوانب الأساس الفكرى الذى قامت عليه دعوة التكفير .. والذى نتج عن سوء فهم لكتاب الله، ولا سيما آيات الحاكمية الواردة فى سورة المائدة .. فقد اعتمد دعاة التكفير على هذه الآيات فى إطلاق حكم الكفر على كل حاكم يترك شيئًا من شرائع الإسلام .. وذلك دونما تفريق بين كونه جاحدًا لحكم الله مستحلاً لتركه، وبين كونه مقرًا به.

فكان لابد من تناول هذه الآيات الثلاث فى دراسة شاملة وافية تستضىء بحديث النبى صلى الله عليه وسلم .. وتسترشد بتفسير أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء العاملين .. وذلك بغرض الوصول إلى قول فصل فى هذه الآيات التى ثار حولها الكثير والكثير من الجدل.

وأما الفصل الثالث .. وهو بعنوان «الحاكمية فى القرآن: شبهات وردود» .. فقد جاء استكمالاً للفصل الذى سبقه فى نقض الأساس الفكرى لدعاة التكفير .. حيث احتوى هذا الفصل على مناقشة علمية وشرعية لبعض الآيات التى انطلق من خلالها دعاة التكفير فى وصم عوام المسلمين وجماهيرهم بالكفر ..

ومنها قول الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله».

وقد احتوى هذا الفصل على خلاصة القول فى قضية الطاعة والاتباع .. وكذلك تفصيل الحديث حول أحكام الجاهلية .. ومتى يكفر المتحاكم إليها والعامل بها.

ثم كان مسك الختام لهذا الباب المهم بفصل دقيق وذى أهمية بالغة .. ألا وهو «حاكمية الله .. ثم حاكمية البشر: توافق لا تعارض».

هذا الفصل يسلط الضوء على قضية من أهم وأخطر القضايا فى الفكر الإسلامى المعاصر .. وهى قضية حق البشر فى التشريع .. وحدود هذا الحق وضوابطه ..

- أو بمعنى آخر: هل هناك ما يسمى بـ «حاكمية البشر»؟

- وهل هذه الحاكمية تتعارض مع حاكمية الله تعالى؟

- ومن أين أتت مشروعية حاكمية البشر؟

- وما هى حدود حق البشر فى التشريع؟

- ومتى تكون حاكمية البشر صالحة وراشدة؟

كل هذه التساؤلات سيجد القارىء لها فى هذا الفصل إجابة شافية وافية عميقة تنهى ذلك الجدل الدائر المتواصل حول حق البشر فى التشريع، وتفض الاشتباك المفتعل من قبل البعض بين حاكمية الله وبين حاكمية البشر فى ظل شريعة الله تعالى.

- وبعد .. أخى الحبيب:

- فها هو جسد الأمة الإسلامية كما ترى مثخن بالجراح .. ومثقل بالهموم والآلام .. ولم يعد جسد أمتنا يحتمل المزيد من الطعنات والضربات .. لاسيما إن كانت هذه الطعنات على يد نفر من أبنائها .. وليس هناك أخطر على وحدة الأمة وترابطها فى هذه الظروف العصيبة من خنجر التكفير المسموم .. والذى ما إن نشب فى أمة إلا مزق أوصالها وشتت شمل أبنائها.

فلتعش - أخى الحبيب - بقلبك وعقلك وفكرك مع معانى هذا الباب .. تمعن النظر فيها .. وتعيد قراءتها مرة بعد أخرى .. فلسوف تلقى فى رحابها ما يطمئن قلبك ويزيل همك .. شريطة أن تكون ذا قلب محب للخير، متجرد للحق، ساع إلى معرفة الصواب بكل سبيل .. وأحسبك كذلك وخيرًا منه.

لذا استبيحك عذرًا أن أفارقك على أعتاب هذا الباب لتدلف إليه صافى الذهن مستجمع القلب والعقل.

- أسأل الله العلى القدير أن يلهمنى وإياك الصواب والرشد ..وأن يقينا الضلال والزيغ ..وأن ينفع بنا أمة خيرة طالما اشتاقت من أبنائها لسواعد تبنى ولا تهدم .. وعقول تصلح ولا تفسد .. وهم كأمثال الجبال، تقيل العثرة وتمهد السبيل نحو غد أفضل لديننا وأمتنا وأوطاننا.

الفصل الأول

جنكيز خان وحكام المسلمين
قياس مغلوط

* رحم الله رجلاً عرف زمانه، فاستقامت طريقته.

نعم، لن يستقيم الطريق بغير معرفة بالزمان .. ولن يرشد المسير إلا ببصيرة واعية بحقيقة الواقع.. وما أحوج العاملين للإسلام إلى تلك البصيرة الواعية .. وما أرشد خطوات سيرهم حين يحيطون علمًا بشريعتهم وبالواقع من حولهم.

فالعاملون للإسلام لا يفتقرون إلى الصدق والإخلاص والجدية، بقدر افتقارهم إلى الوعى السليم، والفهم الدقيق للواقع المحيط.

إن مما يحزن القلب ويدمى الفؤاد أن يخطئ الشباب المسلم في تحليل مكونات واقعه .. وأن يعجز عن تحديد ملامح الواقع الذى يعيش فيه كما هو على الحقيقة ..

فحينئذ تتبعثر الجهود، وتذهب الطاقات العظيمة أدراج الرياح .. والسبب أن أصحابها رسموا للواقع صورة مغايرة .. ومن ثم فقد تعاملوا معه بطريقة أخرى غير التى تصلح له ..

تمامًا كما يغرس الفلاح غراسه فى أرض لم يعرف حقيقتها .. ولم يدرس خصوبتها أو يحدد درجة ملوحتها .. فهو يضنى نفسه فى وضع البذور، ويتعهدها بالسقاية والرعاية .. ثم يفاجأ بذبول غرسه فى النهاية .. ولو أنه تعرف على تلك الأرض التى سيزرعها أولاً لما حدث ما حدث . ولكان ذلك أوفر لجهده ووقته وطاقته.

وفى محاوله لتحديد الواقع الذى نحياه .. فقد شاع بين بعض الشباب المسلم مقارنة أحوال المسلمين اليوم بحال التتار.

وذهبوا إلى تشبيه حكام المسلمين اليوم بهولاكو وجنكيزخان.

وكذلك تشبيه القوانين المعمول بها فى الدول العربية والإسلامية بالياسق.

وقد عضد أصحاب هذا الرأى رأيهم ببعض الفتاوى القديمة نسبيًا، والتى أصدرها علماء أجلاء مثل فضيلة الشيخ أحمد شاكر ، والأستاذ يوسف العظم رحمهما الله وغيرهما ..

ففى معرض حديثه عن القوانين المعمول بها فى بلاد المسلمين فى عصره، وصفها الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - بـ «الياسق العصرى» . كما وصف حال المسلمين فى زمانه بأنه : «أسوأ حالاً، وأشد ظلمًا وظلامًا من التتار»[1].

أما الأستاذ يوسف العظم - رحمه الله - فقد قال معلقا على كلام الإمام ابن كثير عن التتار، وعن كتاب الياسق مامعناه : «.. ألا يصور هذا واقع ديار المسلمين اليوم، فكم من ياسق فيها وكم من جينكزخان .. حيث وضع كل قائد شرعة، واتخذ كل بلد ميثاقًا».

* ومع عظيم تقديرنا واحترامنا لهؤلاء العلماء .. ولجميع علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، فهذه الفتاوى هى اجتهاد بشرى غير معصوم ولا مقدس.

كما أنها صدرت فى زمان سابق لزماننا، ربما كانت له ظروفه وملابساته.

وليس لأحد من المسلمين أن يجعل من اجتهاد عالم - أيًّا كان فضله ومنزلته - حاكمًا على الشريعة .. أو ينصبه قيمًا على الواقع المتغير.

وليس معنى صحة الفتوى فى زمانها أنها تصح لكل زمان ومكان.

والمهم أننا الآن أمام مقارنة بين واقعين فى زمنين مختلفين .. واقع التتار، وواقع المسلمين فى هذه الأيام .. ويراد منا قياس أحد الواقعين على الآخر.

وقد ذكر علماء الأصول شروطًا للقياس لا يصح القياس بدونها .. فمن هذه الشروط: توفر العلة الجامعة بين الحالين أو الواقعين، والتى تصلح لأن تكون سببًا مقبولاً لقياس أحدهما على الآخر .. ولا يكفى توفر أى علة للقياس حتى تكون علة مؤثرة .. وهى التى لأجلها كان هذا الحكم .. فلو توفرت العلة الجامعة المؤثرة بين المقيس وبين المقيس عليه، فقد صح القياس والضبط .. وإلا، فهو قياس خاطئ مغلوط، أو ما يسميه العلماء: «قياسًا مع الفارق».

(١) عمدة التفسير (٤/١٧١) .. وينبغى ملاحظة أن هذا الكلام صدر عن الشيخ أحمد شاكر فى أواسط الخمسينيات من القرن الماضى .. أى قبل ما يزيد علي نصف قرن من الآن .. ولا شك أن هذا الفارق الزمنى الكبير نسبيًا يطرح التساؤل حول صحة تنزيل هذه الفتوى على واقعنا اليوم.

وحين يريد البعض نقل الفتاوى التى قيلت فى التتار إلى واقعنا، لا يمكننا موافقته إلا إذا حدث تطابق بين الواقعين .. وإلا وضعت الفتوى فى غير محلها .. ونزلت أحكام الشريعة على غير أهلها.

فتعالوا بنا نعقد مقارنة موضوعية بين الواقعين .. ونتجرد قدر الإمكان من قناعاتنا المطلقة، وأحكامنا المسبقة فى هذه القضية .. ونترك القول الفصل لإجابة هذه التساؤلات.

هل حقًا ما يردده البعض من أن حكام بلاد المسلمين اليوم مثل جنكيز خان وهولاكو، وغيرهم من طغاة ملوك التتار؟!

وهل حقًا أن القوانين التى تحكم بلاد المسلمين اليوم، والدساتير الموجودة فى دولتهم تشبه الياسق الذى وضعه جنكيزخان لأتباعه ليكون شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهل حقًا واقع المسلمين اليوم وحال جيوشهم وجنودهم أشبه ما يكون بأحوال التتار وجنودهم ومعسكرهم الذى وصفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؟!

ولكننا قبل الإجابة عن هذه الأسئلة نود تأكيد حقيقتين مهمتين:

الأولى: أننا نعتقد وجود كثير من جوانب الخلل والقصور فى واقع المسلمين اليوم .. سواءً على مستوى الأفراد والجماعات أو على مستوى الدول والحكومات .. هذه حقيقة بدهية لا نظن أحدًا ممن يحمل هموم أمته ودينه ووطنه يجادل فيها.

كما نعتقد أن هناك مفقودًا من شرائع الإسلام، نسأل الله تعالى أن يمنّ على المسلمين بعودته وتحقيقه .. وأن يجند له جهود المخلصين من أبناء الأمة حكامًا ومحكومين.

هذا المفقود من شرائع الدين يحتاج إلى صبر وأناة .. ويفتقر إلى حكمة تحمل أصحابها على الحفاظ على الموجود من شرائع الدين بقدر سعيهم إلى تحقيق المفقود منها.

وبناءً على ذلك يخطئ من يظن أننا - حين نعقد تلك المقارنة - راضون بأى قصور فى تنفيذ أوامر الله أو تطبيق شرائعه .. فنحن نبرأ إلى الله من هذا القصور، لا في حق الحكومات فحسب ..

بل فى حق المحكومين أيضًا أفرادًا وجماعات.

الثانية: أن ديننا قد علمنا العدل .. وغرس فى نفوسنا الإنصاف كمسلمين .. وهو يأمرنا دومًا بالتزام الموضوعية والتوازن عند الحكم في أي قضية ويحثنا على أن نبدأ طريق البحث من أوله لا من آخره .. من المقدمات السليمة والمعطيات الدقيقة نحو الوصول للحكم السديد فى نهاية المطاف.. بحيث ترتكز القناعات والتصورات على أساس راسخ من البحث العلمي المتزن.

أما أن تؤسس الأحكام على العواطف الجياشة وإن كانت مخلصة .. أو تبنى التصورات على الحماسة الملتهبة وإن كانت صادقة ..

فسرعان ما سينكشف ضعفها وعدم رسوخها مع أول اختبار .. وقد تسقط وتنهار على بساط البحث والمناقشة.

.. بين جنكيز خان .. وحكام اليوم.

*ولكى يتضح لنا مدى دقة قياس حكام اليوم على جنكيزخان ملك التتار .. فلسوف نبدأ إجابتنا بعرض تاريخى موجز لأحوال ذلك الطاغية كما ذكرها الإمام ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية[1] .. وملخصها كالتالى:

كان جنكيزخان هو السلطان الأعظم عند التتار، وكان ملكًا كافرًا مشركًا بالله لم يدخل يومًا فى دين الإسلام .. بل كان يزعم، وتزعم أمه أنها حملته من شعاع الشمس .. وكان يزعم أتباعه أنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا..

وضع جنكيزخان لأتباعه شريعة تسمى الياسا (الياسق) يتحاكمون إليها، ويحكمون بها . . وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه .. وهي شىء اقترحه من عند نفسه، وتبعه التتار فى ذلك.

كان جنكيزخان يزعم أن الوحى ينزل عليه، وكان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مرارًا حتى يعيى ويقع مغشيًّا عليه .. ويأمر من عنده ان يكتب ما يلقى على لسانه حينئذ.

كان يستحسن من أتباعه ورعيته أن يعرضوا عليه الفتيات الجميلات قبل أن يتزوجن .. فيختار لنفسه ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن ليرتكب هو وحاشيته الفاحشة معهن.

كان مشهورًا بالخيانة والغدر الشديد فى حروبه .. وكان كثيرًا ما يمنح أهل بلدة الأمان حتى يدخلها ثم يغدر بأهلها، ويقتل من فيها من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم.

كان يعتمد فى حروبه نظرية «الإبادة الجماعية» .. فكان يأمر جنوده بقتل جميع سكان البلاد التى يدخلونها .. ولم يكن يكتفى بالمقاتلين فقط .. بل يقتل المدنيين المسالمين أيضًا من الشيوخ والأطفال والنساء.

وبالجملة فقد ارتكب جنكيزخان من الأهوال والفظائع ما تقشعر له الأبدان .. ويشيب لهوله الولدان .. وقتل على يديه وأيدى جنوده ملايين المسلمين .. ونحسب أن هذا الطاغية العتيد لو

(١) من أراد المزيد من أحوال التتار وملوكهم .. راجع البداية والنهاية جـ ١٣ أحداث الفترة (٦١٦ هـ - ٦٥٨ هـ) ط. مكتبة الإيمان بمصر.

امتلك من أسلحة الدمار ما تملكه أصغر دول العالم اليوم لما أبقى على ظهر الأرض رجلاً يسجد لله سجدة .. ولا امرأة تسبح لرب العالمين .. ولا طفلاً يتلو آية من آيات القرآن الكريم.

- ولم يكن «هولاكو» الحفيد بأحسن حالاً من جده الطاغية .. فقد كان أعظم منه بغيًا وعدوانًا.. ويكفى ما أورده ابن كثير - رحمه الله - فى وصفه حيث قال: «وقد كان هولاكو ملكًا جبارًا فاجراً كفارًا لعنه الله .. قتل من المسلمين شرقاً وغربًا ما لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم .. وسيجازيه على ذلك شر الجزاء .. وكان لا يتقيد بدين من الأديان[1].

فهذا غيض من فيض طغيان ملوك التتار .. ونبذة مختصرة عن بطشهم بالعباد والبلاد .. وكفرهم الشديد برب الأرض والسماوات ..

وهنا يحق لنا أن نتساءل :

هل من الإنصاف والعدل قياس حكام بلاد المسلمين اليوم على أمثال هؤلاء ممن لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً .. ولم ير العالم لجبروتهم وطغيانهم نظيرًا؟!

وهل هناك حاكم من حكام المسلمين اليوم لا يتقيد بدين من الأديان؟! أو يزعم أن الوحى يتنزل عليه من السماء؟!

ومن منهم قد ادعى أنه ابن الله - والعياذ بالله - ؟! أو اعتاد أن يصطفى لنفسه من نساء المسلمين أبكارهم ليرتكب معهن الفاحشة؟!

بل أى حكام المسلمين اليوم قد وضع للناس شريعة من مجرد نظره وهواه لا تمت للدين بصلة وألزمهم بالتحاكم إليها ورد ما عداها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟!

وهل منهم - أى حكام المسلمين اليوم - من يضفى على أحكامه صفات العصمة، ويحيطها بهالات من التقديس بزعم أنها من وحي السماء .. وأنه لا يحق لأحد من شعبه أن يخالف منها أمرًا، أو يبدى عليها اعتراضًا؟!

---

(١) البداية والنهاية (٢٣١/٣٣) ط مكتبة الإيمان.

إن إجابة هذه التساؤلات السابقة كفيلة ببيان فساد هذا القياس ..

فحكام المسلمين اليوم - رغم ما يعتريهم من تفريط وقصور - لا وجه لمقارنتهم بحكام التتار أصلاً .. فضلا عن تشبيههم بجنكيزخان وهولاكو وغيرهما من طغاة التتار.

.. هل قوانين بلادنا تشبه ياسق التتار؟!

ونأتى إلى الحديث عن قوانين البلاد العربية والإسلامية .. والدساتير المعمول بها فى بلادنا .. حتى نعرف علاقتها بياسق التتار.

يلزمنا أولاً أن نتعرف على الياسق .. وأن نقتبس شيئًا من نصوصه .. ولذلك نعود إلى العلامة ابن كثير رحمه الله[1] .. ونستخلص من حديثه عن الياسق النقاط التالية:

الياسق عبارة عن كتاب مجموع من خليط من الشرائع والأحكام، وضعه جنكيزخان من مجرد نظره وهواه وما توارد على خاطره .. فصار فى أتباعه شرعًا متبعًا مقدمًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

معظم الأحكام الواردة فى الياسق من عند جنكيزخان من محض تأليفه واختراعه .. وقليل من هذه الأحكام استقاه من الملل الأخرى كاليهودية والنصرانية والإسلام دون أن يعمد إليها قصدًا .. فهو لا يؤمن أساسًا بأى دين .. وإنما جاءت اتفاقًا[2].

كان جنكيزخان يوهم أتباعه أن الوحى ينزل عليه من السماء، وأنه هو الذى يلقى على لسانه أحكام الياسق، فكان يأمر أتباعه أن يكتبوا ما يملى عليهم.

النصوص الواردة فى الياسق لا ضابط لها ولا رابط .. وهى إلى التخاريف أقرب منها إلى القواعد والنصوص القانونية .. ومن قرأ بعض هذه النصوص دون أن يعلم مصدرها ظنها بعض كلمات الطغاة الجبارين الذين لا عقل لهم ولا حكمة عندهم، أو أقوال بعض البلهاء والمجانين.

* ومن هذه النصوص مثلاً :

---

(١) راجع البداية والنهاية (١٣/١١٤) وتفسير ابن كثير

(٢) كان وضع جنكيزخان لبعض أحكام الشرائع السابقة فى كتابه الياسق تأثرًا طبيعيًا منه بثقافات هذه الأديان التى وجدت فى عصره .. فهو لم يضعها فى الياسق تعظيمًا لها، أو تعبدًا لله بها .. ولكنها وردت على ذهنه وخاطره إذ كانت أحكامها شائعة ومشهورة بين الناس.

- من تعمد الكذب قتل.

- من دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل.

- من بال فى الماء الواقف قتل، ومن انغمس فيه قتل.

- من أطعم أسيرًا قتل .. ومن رمى إلى أحدٍ شيئًا من المأكول قتل، بل يناوله من يده إلى يده.

- من أطعم أحدًا شيئًا فليأكل منه أولاً، ولو كان المطعوم أميرًا لا أسيرًا.

- من أكل ولم يطعم من عنده قتل.

- من ذبح حيوانًا ذبح مثله .. بل يشق جوفه ويناول قلبه بيده، يستخرجه من جوفه أولاً.

هذا بعض ما جاء فى كتاب الياسق الذى اتخذ التتار منه شريعة حاكمة وقانونًا معصومًا مقدسًا .. فما كان أحدهم ليجرؤ على مخالفته، أو يملك حق معارضته.

فهل للقوانين الموجودة فى بلادنا اليوم أدنى صلة بهذا الهراء؟!

إن قوانين اليوم لم يزعم أصحابها أنها مقدسة أو معصومة .. بل كثيرًا ما تخضع للتبديل والتغيير والتطوير .. ولا يجد أحد غضاضة فى نقدها والطعن فى صلاحيتها، بل والمطالبة أحيانًا بتعديلها.

فأين تلك القوانين من قوانين الياسق المعصومة، التى يزعم أصحابها أنها نزلت من السماء؟!

إن من لديه أدنى معرفة بدساتير بلاد المسلمين اليوم، والقوانين المطبقة فى أرضهم، سيدرك بكل سهولة مدى اختلافها عن ياسق التتار .. ولن يصعب عليه ملاحظة البون الشاسع بينها وبين تخاريف الياسق المذكورة سابقًا.

وهذا يجعل من قياسها على الياسق وتسميتها باسمه أمرًا مجانبا للصواب .. وبعيدًا عن الموضوعية والإنصاف.

ولماذا نذهب بعيدًا .. فلنضرب مثالاً حيًّا من واقعنا .. ولنأخذ الدستور المصرى مثالاً لدساتير بلاد المسلمين اليوم .. فتعالوا بنا نلقى الضوء على بعض مواده .. ونعقب الحديث عنه بمطالعة

بعض نصوص القانون المصرى .. لنرى الفرق الهائل بينها وبين الياسق مع ما فيها من قصور وابتعاد فى بعض جوانبها عن شريعة الله.

وأول ما يطالعنا من ذلك، ما ينص عليه الدستور المصرى[1] في المادة الثانية منه أن:

الإسلام هو دين الدولة .. واللغة العربية لغتها الرسمية .. والشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع.

ولعل الكثيرين لا يدركون أهمية هذا النص .. ولا يدركون مغزى كلماته ومرمى معانيه .. مع أن هذا النص من أهم وأعظم نصوص الدستور المصرى ..

فهو يجعل من الدين الإسلامى عنوان الدولة.

ومن اللغة العربية – لغة القرآن ولغة أهل الجنة – رمز هويتها المحفوظة المصونة.

أما كون الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .. فهو يحتم على المشرع فى حال وضعه لأى قانون بعد هذا التعديل (أى منذ عام ١٩٨٠م) أن يقف عند حدود ثوابت الشريعة الإسلامية .. وأن يعمل فى إطار مبادئها العامة ولا يتعداها فى المسائل القطعية بالذات .

ويكفى أن هذا النص الدستورى يكفل الحق فى الطعن دستوريا فى أى قانون يصدر بعد هذا التاريخ ويكون مخالفًا للشريعة الإسلامية .. كما يقضى بسقوطه ومنع تنفيذه.

وهذه المعلومات ربما تكون خافيه على الكثير من الشباب المسلم .. ولكنها جد مهمة لأنها تساعد فى رسم الصورة الحقيقية للواقع دون تهويل أو تهوين.

إذا كان هذا هو ما ينص عليه الدستور المصرى .. ويقرر بموجبه اعتبار الشريعة الإسلامية هى مرجعية التشريع فى الدولة .. فأى وجه للشبه بين هذا الدستور وبين الياسق؟!

---

(١) يقول فقهاء القانون : إن القاعدة الدستورية المتضمنة فى مواد الدستور تسمو على التشريع الصادر من البرلمان، بل تسمو على كل القوانين المعمول بها فى البلاد .. كما يعتبرون الدستور هو الأساس الذى يقوم عليه بناء الحكومة كلها، لأنه أسمى التشريعات.

وهل كان الياسق يعتبر الإسلام دين الدولة .. ويجعل من الشريعة الإسلامية مصدرًا -ولو هامشيًّا أو متأخرا - للتشريع؟!

وكيف تصح التسوية بين دستور يعلن صراحة التزامه بشريعة الإسلام وبين آخر لا يعرف أى دين من الأديان له طريقًا - فضلاً عن دين الإسلام؟!

ومن اللافت للنظر أن هذا النص السابق من الدستور المصرى قد انعكس أثره على بقية القوانين ..

ففى المادة الرابعة من قانون الأحزاب المصري .. وهى المادة التى تحدثت عن شروط تأسيس الأحزاب المصرية - كان أول شرط للسماح بتأسيس حزب من الأحزاب السياسية هو عدم تعارض مقومات الحزب أو مبادئه أو أهدافه أو برامجه أو سياساته. أو أساليبه فى ممارسة نشاطه مع مبادئ الشريعة الإسلامية باعتبارها المصدر الرئيسى للتشريع(١).

أى أن هذا النص يكفل للمجتمع ثبات قيمه ومبادئه والحفاظ على هويته وتوجهه .. وعدم السماح لأى حزب من الأحزاب بالإخلال بتلك الثوابت المنبثقة من مبادئ الشريعة الإسلامية.

فهل كان الياسق مهتمًا بذلك؟!

وهل كانت نصوصه قائمة على حراسة الهوية الإسلامية، وتجريم ومعاقبة كل من يخرق ثوابت الدين؟!

بل إن هناك نصوصًا فى قانون العقوبات المصرى - الذى يخالف أكثره الشريعة - تجرم الطعن فى العقيدة الإسلامية .. أو الاستهزاء بشىء من شعائر الدين بل وتحكم بالسجن على كل من يدعى النبوة مثلاً، أو يطعن فى القرآن الكريم.

وإذا كانت نصوص الياسق لم تلتفت للدين أصلاً، ولم تعر حرمته أى اهتمام .. فبأى وجه إذن صحت مقارنته بقوانين بلاد المسلمين اليوم؟!

---

(١) وهذا لا يعنى ضرورة أن تكون الأحزاب السياسية أحزابًا دينية كما قد يظن البعض ، ولكن المقصود أن تكون أحزابًا سياسية تلتزم بثوابت الدين وقطعياته .. ولاتتناقض مع دين البلاد ودين الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى.

إن ما يجهله كثير من الشباب المسلم - بل وقد يستغربه - رغم كونه من حقائق الواقع أن القوانين المعمول بها فى مصر - باستثناء قانون العقوبات - تتفق فى معظمها مع شريعة الإسلام .. وأنه لم يعد بإمكان أحد المشرعين - أيًا كانت مكانته - استصدار قانون مخالف للشريعة منذ عام ١٩٨٠م .. وبعد التعديل الدستورى للمادة الثانية من الدستور.

ولكى تتضح الصورة أكثر يمكننا القول بأن القوانين المصرية تنقسم من حيث اتفاقها مع الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام(١).

القسم الأول : قوانين منبثقة من الشريعة الإسلامية .. مثل قوانين الأسرة، وقوانين الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والخلع والنفقة والميراث وغيرها.

القسم الثانى: قوانين متفقة مع الشريعة الإسلامية .. مثل القوانين المدنية، والجوية والبحرية، وجميع القوانين المنظمة لشئون الحياة مثل قوانين الإدارة المحلية، وقوانين الجامعات والمرور وغيرها.

وهذان القسمان يشكلان أغلبية القوانين المصرية.

القسم الثالث: وهو المخالف للشريعة .. ويشتمل على الحدود والجنايات - أو ما يسمى بقانون العقوبات - وهذا القانون رغم مخالفته للشرع إلا أنه يتفق مع الشريعة فى تجريم المحرمات القطعية التى جرمها الإسلام(٢) ، كالقتل، والسرقة، والخمر والمخدرات والقمار .. وإن كان لم يلتزم بالعقوبات المقدرة شرعًا لتلك المحرمات.

فهل يصح بعد ذلك قياس تلك القوانين على الياسق الذى هو محض أهواء وضعها طاغية لا يلتزم بشريعة و لا يتقيد بدين؟!

---

(١) هذا التفسيم هو مجرد توصيف موضوعى لواقع القوانين فى مصر كما هى على الحقيقة: وهو يبين خطأ القول بمخالفة كل القوانين لشريعة الإسلام .. وهذا القول فيه منافاة للعدل والإنصاف .. كما أنه يجافى الواقع والحقيقة.

(٢) للأسف لم يستثن من ذلك إلا الزنا .. فرغم كونه من المحرمات القطعية .. ولكن القانون المصرى لا يجرمه فى جميع حالاته، بل يجرمه فى بعض حالاته فقط ونسأل الله تعالى أن ييسر للمخلصين من أهل التشريع تعديل هذا النص وغيره من النصوص القانونية لتكون موافقة للشريعة الإسلامية جملة وتفصيلاً.

إن العاطفة الدينية فى بلادنا لا تخطئها العين المتأملة .. وتعظيم الناس فى أوطاننا للشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية سمة غالبة لا يضل عنها البصر الثاقب .. حتى أن هذه السمات قد صبغت البروتوكول الرسمى لبلاد المسلمين اليوم بصبغتها المميزة.

فنجد مثلاً فى مصر أن البروتوكول يلزم رئيس الدولة بحضور صلاة العيدين وغيرهما من المناسبات الإسلامية . مثل ذكرى غزوة بدر الكبرى، وذكرى الهجرة النبوية، والمولد النبوى، وذكرى الإسراء والمعراج .. وغيرها من المناسبات التى تبقى على الروح الإسلامية حية فى ضمير الأمة ووجدانها .. وفى هذه المناسبات يحضر رئيس الدولة بنفسه، أو ينيب عنه من يحضر بدلاً منه.

قد يستهين البعض بمثل هذه الأمور .. ويعتبرها مظاهر شكلية فارغة من المضمون .. بل يعتبر - بنظرة سطحية - وجودها مثل عدمها لا فرق بين الحالين.

ونقول ، حتى ولو كانت تلك الأمور من قبيل المظاهر، فوجودها بلا شك أولى من عدمها .. مع أن المضمون والجوهر أهم وأولى .. ولكن: ما لا يدرك كله لا يترك جله .. وإن عدمنا الجوهر والمضمون، فلا أقل من المحافظة على الشكل والمظهر حتى حين.

ولو لم يكن لذلك المظهر من فائدة سوى إظهار هوية الدولة وتعزيز روح الإسلام فيها لكفى .. ولكن آثارًا خطيرة قد تترتب على غياب تلك المظاهر والأشكال.

إننا ندعو من يستهين بتلك المظاهر لإلقاء نظرة على بلد مثل تركيا .. فسوف يرى بعينه أثر غياب الشكل بعد افتقاد المضمون .. وسيطالع بنفسه غربة الدين فى شعب مسلم عريق .. ولكن عندما أفل نجم كثير من المظاهر الإسلامية فى سمائه، لم يعد هناك ما يذكر بأمجاده .. وصارت معالم دينه وعقيدته غريبة فى حسه، ومجافية لمشاعره.

فهل ذلك خير .. أم بقاء تلك المظاهر على الأقل حية فى نفوس المسلمين؟!

فلعلها تشدهم وتحدوا أرواحهم نحو تاريخ أمتهم وسابق عزتهم كل وقت وحين

* وبعد ذلك كله يحق لنا أن نتساءل:

هل كل زعماء التتار يحرصون على تلك المعانى ويضعونها فى بؤرة اهتمامهم؟!

وهل كانت دولة التتار تفسح مجالاً لمثل هذه البروتوكولات؟

وإذا كانت قوانين بلاد المسلمين ودساتيرهم فى هذا الزمان تختلف اختلافًا جذريًا عن الياسق .. سواءً فى الأسس والمنطلقات، أو فى المصادر والمرجعيات، بل حتى شكلاً وموضوعًا.

فبأى علة جامعة صح قياسها على ياسق التتار؟

ألا يحتاج مثل هذا القياس الغريب إلى وقفة متأنية وإعادة النظر فيه؟!

.. أحوال المسلمين اليوم .. هل تقارن بحال التتار؟

ونواصل الرحلة سويًا عبر الزمان .. ونتوقف فى محطة جديدة من محطات المقارنة بيننا وبين التتار.

ونطرح سؤالنا ونقول:

ما مدى التشابه بين حال التتار، وبين حال المسلمين فى هذه الأيام؟

وهل قياس جنود المسلمين وجيوش بلادهم اليوم على جند التتار ومعسكرهم قياس صحيح؟

سنترك الإجابة على ذلك لحقائق التاريخ، وشواهد الواقع .. فهى التى ستفصل لنا هذه المسألة ..وتبين لنا فيها وجه الصواب.

ونبدأ بحقائق التاريخ نستعرض من خلالها سريعًا أحوال التتار، جندًا، وشعوبًا، ومعسكرًا.. ومن مجمل الأوصاف التى ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن كثير .. نلخص فيما يلى أحوال التتار(١):

عندما دخل التتار بلاد الشام لأول مرة عام ٦٩٩ هـ أعطوا الناس الأمان، وقرئ على المنبر بدمشق .. إلا أنهم نقضوا العهد، وسبوا(٢) من ذراري المسلمين ما زاد عن مائة ألف.

وفعلوا ببيت المقدس ونابلس وحمص وغيرها مالا يعلمه إلا الله حتى قيل إنهم فجروا بخيار نساء المسلمين فى المساجد كالأقصى والأموى وغيرهما.. كما هدموا بعض المساجد.

ليس فى معسكرهم مؤذن ولا إمام ..وهم فى بلادهم لا يحجون البيت الحرام ..والغالب على المسلمين منهم عدم الصلاة، وعدم أداء الزكاة.

ليس معهم فى دولتهم إلا من كان شر الخلق .. إما زنديق منافق لا يعتنق دين الإسلام فى الباطن .. أو هو من شر البدع كالرافضة والجهمية والاتحادية .. وإما من هو من أفجر الناس وأفسقهم.

---

(١) راجع البداية والنهاية (جـ ١٣)، وكتاب: فتوى التتار - دراسة وتحليل للمؤلف.

(٢) أى أسروا نساء المسلمين وأطفالهم.

يسوون بين رسول الله ﷺ وهو أكرم الخلق على الله تعالى .. وبين جنكيزخان رغم أنه ملك كافر مشرك من أعظم المشركين كفرًا وفسادًا وعدوانًا.

يقاتلون عن ملك جنكيزخان .. فمن دخل فى طاعته جعلوه ولياً لهم وإن كان كافرًا .. ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوًا لهم، ولو كان من خيار المسلمين .. ولا يقاتلون عن الإسلام.

ويعظمون ما سنه لهم هذا الملك الكافر .. وما شرعه بظنه وهواه .. حتى أنهم يقولون لما عندهم من المال: هذا رزق جنكيزخان .. ويشكرونه على أكلهم

يجعلون دين الإسلام كدين اليهود والنصارى .. وأن هذه كلها طرق إلى الله بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين .. بل إن منهم من يرجح دين اليهود أو دين النصارى .. وإن كان هناك من يرجح دين الإسلام.

وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت .. ولا يحرمون شيئًا .. ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات.

لم يدخلوا بلدًا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلين والرجال .. وكثيرًا من النساء والأطفال .. وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه .. وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه .. حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيشعلون فيه النار وهم ينظرون إليه..

ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه .. وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع.

وكانوا يتخذون من أسارى المسلمين فى حروبهم دروعًا بشرية .. فكانوا يقاتلون بهم، ويحاصرون بهم .. وإن لم ينصحوا (أى يدلوهم على عورات المسلمين ونقاط ضعفهم) فى القتال قتلوهم.

وكانوا يفجرون بنساء المسلمين، ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن على الأجنة.

وبالجملة فما من نفاق وزندقة وإلحاد إلا وهى داخلة فى أتباع التتار .. لأنهم من أجهل الخلق وأقلهم معرفة بالدين، وأبعدهم عن اتباعه .. وهم من أعظم الخلق اتباعًا للظن وما تهوى الأنفس.

وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن كثير فى وصفهم .. فقد كانوا بالفعل قومًا جهالاً

متخلفين .. لم يعرفوا معنى الحضارة والتقدم .. بل كان أكثر ما يناصبونه العداء: العلم والعلماء، والكتب العلمية.

فقد أحرقوا عند دخولهم بغداد أعظم مكتبة على وجه الأرض حينئذ .. وألقوا بالكتب فى نهر دجلة .. فأضاعوا على المسلمين تراثًا ضخمًا من علومهم ومعارفهم .. وربما كان ذلك سببًا فى حالة الركود العلمي والجمود الذى خيم على الأمة الإسلامية بعدها زمنًا طويلاً.

ونختم هذه النبذة من سيرتهم الخبيثة بذكر طرف من نازلة النوازل التى حلت بساحة المسلمين على أيديهم .. وهى دخولهم بغداد، وانهيار دولة الخلافة العباسية تحت سنابك خيولهم بقيادة ملكهم هولاكو.

يقول ابن كثير رحمه الله : «ووصل - أى هولاكو - بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ... ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان .. وقد اختلف الناس فى عدد من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة .. فقيل: ثمانمائة ألف .. وقيل : ألف ألف وثمانمائة ألف (أى مليون وثمانمائة ألف) .. وقيل : بلغت القتلى ألفى ألف نفس (أى مليونين) .. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .. وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم .. ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا .. وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات عدة شهور ببغداد»[1].

وقد سجل العلامة ابن الأثير خبرهم فى كتابه «الكامل» .. وهو فى غاية التأثر بهذا الحدث المروع .. حيث قال : «هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الليالى والأيام عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين.. فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم، وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا .. ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج .. وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك

(١) البداية والنهاية(١٣/١٨٧-١٨٨) ط - دار الإيمان.

من خالفه .. وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة .. وتالله لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد، ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها».

والآن .. وبعد هذا العرض المحزن الأليم لحال التتار .. والذى هيج فى النفس الشجون والأحزان.. لابد أن الصورة قد اتضحت .. وأنه لا وجه مطلقًا لمقارنة المسلمين اليوم بالتتار شعوبًا وجنودًا وحكامًا .. فبين الحالين من الاختلاف ما بين السماء والأرض.

فأى جيوش المسلمين اليوم ذاك الذى يستبيح أفراده هدم دور العبادة من مساجد وغيرها؟! . أو الزنا بنساء المسلمين فى أطهر بقاع الأرض وهى بيوت الله؟!

ومن منهم يعتمد فى حروبه سياسة الإبادة الجماعية؟! أو يستخدم أسراه دروعًا بشرية؟! أو يسعى لقتل المدنيين عمدًا من شيوخ ونساء وأطفال؟!

إن جيوش العالم اليوم بأسرها مهما بلغ طغيانها لا تجرؤ على مثل هذه القبائح - لا جيوش المسلمين فحسب - ولو قام بعض جنودها بمثل هذه الأفعال فإن ذلك يكون خفية وعلى استحياء وحذر من أن توصف بانتهاك حقوق البشر وإهدار آدميتهم .. أو تدان بمخالفة الأعراف الدولية، والإخلال بمواثيق جنيف لمعاملة أسرى الحرب .. وحتى بعد أن تثبت هذه التهم ضد إحدى الدول، فإنها تسعى جاهدة للتنصل منها، والتبرؤ ممن قام بارتكابها(١).

رغم أن هذه الانتهاكات قد لا تساوى شيئًا بجوار ما ارتكبه التتار من فظائع وأهوال.

وهل جيوش المسلمين اليوم ليس فى معسكرهم مؤذن ولا إمام كما كانت كذلك جيوش التتار؟!

أو أن مسلمى اليوم يغلب عليهم عدم الصلاة، وعدم أداء الزكاة؟!

---

(١) كتبت هذه الكلمات فى خضم تفاعلات فضيحة سجن أبى غريب بالعراق .. والذى ارتكب فيه عدد من الجنود الأمريكيين انتهاكات سافرة بحق المعتقلين .. ورغم ذلك تحاول أمريكا نفى هذه الأعمال والتنصل من فاعليها قدر الإمكان .. كما تقوم بمحاكمة بعضهم ممن ثبت تورطه حتى لا يدينها العالم بممارسة التعذيب .. وذلك كله رغم أنها أقوى دولة فى العالم، ولا تجرؤ أى دولة على محاسبتها أو معاقبتها.

أو أن أكثرهم لا يحجون البيت الحرام؟!

إن واقع جيوش بلادنا اليوم ينطق بعكس ذلك تمامًا .. فلا تكاد سرية أو وحدة من وحدات الجيش تخلو من مكان للصلاة .. وقد خصص له من الجنود من يرفع الأذان ومن يؤم بقية الأفراد.

بل يمكننا القول إنه ما من موقع عمل رسمى فى الدولة اليوم إلا وقد خصص فيه مكان لأداء الصلاة .. ومساجد البلاد تعج بالراكعين الساجدين ولله الحمد.

كما أن تمسك ضباط وجنود أكثر البلاد العربية والإسلامية بدينهم وإسلامهم أمر مشاهد ومعلوم .. والعاطفة الدينية لا تزال تتأجج فى صدور معظمهم .. ولعل صيحة «الله أكبر» التى دوت فى سماء سيناء يوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ مازالت تتردد فى جنبات بلادنا.. وما زالت تذكر بانتصار جيش عربى مسلم قد سرت روح الإيمان فى عروق أفراده دفاقة قوية.

فأين هؤلاء الليوث الضوارى من أتباع جيش فاجر كافر، لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؟![١]

وحتى أولئك العصاة المقصرون من أبناء بلادنا يحبون دينهم وعقيدتهم .. وترى الواحد منهم مقيمًا على المعصية . ومع ذلك فقد يكون رقيق القلب، سريع الأوبة إن بلغه نصح مخلص صادق .. وترى مشاعر أمثال هؤلاء فياضة تجاه دينهم، وعواطفهم جياشة بحب الله وحب رسوله ﷺ، وتعظيم شعائر الدين ، اللهم إلا النذر اليسير النادر .. والنادر لا حكم له.

وتأمل كيف يعظم كل مسلم فى بلادنا رسول الله ﷺ .. وكيف يهيج الشوق والحنين بقلبه كلما تذكره ﷺ، فتجده لا يقدم عليه أحدًا من البشر .. بل حتى عوام المسلمين تفيض نفوسهم للنبى ﷺ تعظيمًا وإجلالاً .. وينشدون فى مدحه القصائد .. ويشدون إلى مسجده الرحال .. فشتان بين مسلمى اليوم وبين التتار الذين كانوا يسوون رسول الله ﷺ بملكهم الكافر الفاجر جنكيزخان.

إن روح التدين التى تسرى فى نفوس أبناء الشعب المصرى هى جزء لا يتجزأ من تكوينهم ..

(١) لم تسجل محاضر الشرطة فى مصر أى حادث سرقة مطلقا خلال فترة حرب أكتوبر .. فهل هذه صفات شعب يشبه التتار؟!!

وملمح بارز من ملامح شخصيتهم .. كما أنها سجية تلقائية لا تكلف فيها ولا افتعال .. ولو تحدثت مع أى مصرى ستجد كلمات الحمد والشكر لله تتردد على لسانه وفى ثنايا حديثه بصورة طبيعية .. وستجد قلبه دائمًا متعلق بربه فى أفراحه وأحزانه، وفى مسراته وابتلاءاته.

ولعل من الأمثلة القريبة إلى الأذهان ما كان يفعله معظم الرياضيين المصريين الذين فازوا ببعض المراكز المتقدمة فى أولمبياد أثينا ٢٠٠٤م. إذ كانت قاعات الألعاب الرياضية ترتج بصيحات الحمد والتكبير [(١)] .. وكان مدربوهم ينسبون الفضل دائمًا في توفيقهم لله تعالى قبل كل شيء.

حتى عائلات أولئك الرياضيين حين تتحدث عن أخلاقهم وأسباب نجاحهم دائمًا ما تعزو ذلك إلى تدينهم واستقامتهم وابتعادهم عن الوقوع فى المحرمات.

فهذه شريحة من المجتمع المصرى المتدين بطبعه وسجيته، وبفطرته السليمة النقية التى تنفر من الوقوع فيما حرم الله تعالى، وتهرع إلى الله دائمًا، لا سيما فى أوقات الشدائد والأزمات.

ولعل من النعم العظيمة التى حبا الله عز وجل بها العالم الإسلامى عمومًا ومصر خصوصًا، ذلك الصرح الدينى الشامخ على مر العصور .. والمتمثل فى الأزهر الشريف، الذى يعتبر أضخم موسسة إسلامية سنية فى العالم كله .. وهو ما يعطى بلادنا ثقلاً دينياً كبيرًا ..ويجعلها بحق منارة تهدى الحائرين إلى وسطية الإسلام وعظمته ما أولت الأزهر الشريف اهتمامها وعنايتها فى جميع المجالات.

إن القول بأن حال المسلمين اليوم يشبه حال التتار قول بينه وبين الحقيقة بعد المشرقين..

فهل مسلمو اليوم يسجدون للشمس إذا طلعت؟!

وهل يأكل أحد منهم الميتة أو ينهى عن ذبح الحيوان المأكول؟!

وهل فى المسلمين أحد يهوى الدمار والتخريب مثل التتار؟!

---

(١) ولعل من المشاهد التى لا تنسى : مشهد فوز المصارع المصرى «كرم جابر» بالميدالية الذهبية حيث خر ساجدًا لله بعد إعلان النتيجة .. وارتجت قاعة المصارعة بصوت تكبيره .. وقد تناقلت هذه الصورة جميع وسائل الإعلام فى جميع أنحاء العالم .. كذلك فعل غيره من الفائزين المصريين، ولانكون مبالغين إذا قلنا: إن الرياضيين المصريين هم الذين علموا غيرهم هذه اللفتة الإيمانية الطيبة.

أو يطأ بقدميه أخلاق الإسلام فى الحرب والقتال كما كان يفعل التتار؟!

إن العالم بأسره ليشهد للمسلمين بطهارة اليد، وسمو المعاملة .. وقد سجلت وقائع التاريخ بين المسلمين وأعدائهم كيف كان لسيوف المسلمين أخلاق أيما أخلاق .. وكيف امتزج قتالهم بالرحمة.. واستقامت طريقتهم بالعدل .. ومازال المسلمون كذلك .. ومازالت شريعتهم تدعوهم لمثل هذه الأخلاق الرفيعة السامية.

فهل يستوى أصحاب هذه السجايا مع أولئك الرعاع القتلة من التتار الذين لم يرعوا لله حرمة .. ولم يرقبوا فى المسلمين إلاً ولاذمة؟!

والذى نخلص إليه بعد هذه المقارنة التفصيلية أن قياس المسلمين اليوم على التتار هو قياس خاطئ.

وتشبيه حكام المسلمين اليوم بجنكيزخان هو تشبيه غير صحيح.

كما أن المقارنة بين القوانين المعمول بها اليوم فى ديار المسلمين وبين الياسق مقارنة مغلوطة، وبعيدة كل البعد عن جادة الصواب.

نقول هذا ونؤكده بكل قوة، رغم أن البعض قد يسئ بنا الظن .. وقد يقول على لساننا ما لم نقله .. وقد يدعى أننا نقر ونرضى ما فى قوانين اليوم من قصور .. أو أننا نبرر لحكام المسلمين اليوم أى مخالفة أو تقصير.

أو أننا نقول: إن مسلمى اليوم فى أحسن أحوالهم .. وإنهم قد بلغوا درجة الكمال ، وإنه ليس فى الإمكان أفضل مما كان.

وعلم الله أننا ما قصدنا شيئًا من ذلك كله، ولا أردناه .. وما كانت تلك الظنون لتمنعنا عن إبلاغ حق نعتقده ونراه.

فقد تعودنا - والحمد لله - منذ أمد بعيد على أن نصدع بما نراه حقًا دون أن نخشى فى الله لومة لائم.

وتعودنا ألا نكتم قناعتنا إرضاءً لأحد ولا ابتغاء مدح من أحد .. لا حاكما ولا محكومًا.

إننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن هذا القياس إنما هو قياس باطل مغلوط .. وهو قياس يضر بالحركة الإسلامية أشد الضرر . ويشوه وجه الحقيقة فى عيون أبنائها ..

ومن أجل ذلك تحدثنا عنه غير مبالين أرضىَ عنا الناس أم سخطوا.

تحدثنا عنه نصحًا للشباب المسلم الصادق .. وحرصًا عليه، وحبًّا له..

وحدبًا وإشفاقًا على بذله وعطائه أن ينفق فى غير فائدة .. أو يبذل فى غير ميدان.

لم نكتب هذه الكلمات مجاملة لأحدمن الحكام .. فالحكام يتغيرون ويتبدلون، ودين الله باق لا يتغير ولا يتبدل.

ونحن لا ننتظر من أحد من الناس شيئًا .. فالناس لا يملكون لأنفسهم شيئاً فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم .. وإنما ننتظر مرضاة الله وحده.

.. وختامًا.

يا شباب الإسلام، وحملة لوائه .. هذه موعظة مشفق محب .. ومقالة ناصح أمين .. يهفو قلبه إليكم .. وتغار نفسه على جهودكم أن تضيع سدى.

فمهلاً أيها الشباب المخلص الصادق .. فلا تحملنكم محبة الحق والغيرة على الدين على أن تجوروا فى أحكامكم .. ولا يجرمنكم تقصير أحد فى إقامة دين الله على ألا تعدلوا فى تحليل واقعكم. .. اعدلوا هو أقرب للتقوى.

واعلموا أن الخير كل الخير فى التجرد والإنصاف مع النفس ومع الآخرين ..

فلتدرسوا واقعكم دراسة واقعية بكل صدق وأمانة .. ولترسموا له صورته الحقيقية دون تهوين أو مبالغة .. فذاك خير وأجدى من تخيل صورة للواقع على غير حقيقته .. ثم الاشتباك معها، ومناصبتها العداء دون ضرورة شرعية..

ومن ثم تنفق الجهود والأعمار فى غير مجالها.

ولو وقفتم مع أنفسكم وقفة .. وحددتم معالم واقعكم لكان خيرًا لكم .. ولكان لجهودكم أوفر .. ولدينكم وأوطانكم أجدى وأنفع.

الفصل الثاني

دراسة موضوعية
لآيات الحاكمية

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون».

لم تنل آيات من كتاب الله تعالى من الاهتمام البالغ فى أوساط الحركة الإسلامية قدر ما نالت آيات الحاكمية عمومًا .. وهذه الآيات الثلاث من سورة المائدة على وجه الخصوص.

فما أكثر ما ثار النقاش الطويل فى هذه الآيات .. وما أشد ما احتدم حولها من جدل .. ولطالما تعددت حولها الرؤى، وتباينت التفسيرات بين مختلف فصائل الحركة الإسلامية.

ولا نكون مبالغين لو قلنا إن هذه الآيات السابقة .. وما تحمله من معان ودلالات .. كانت هى الشغل الشاغل لكثير من أبناء الحركة الإسلامية فى مصر، والعالم العربى .. بل وفى العالم بأسره منذ ستينيات القرن الماضى تقريباً(١) إلى يومنا هذا.

كما طال بشأنها الأخذ والرد بين أهل العلم، وكذلك جميع المهتمين بأمور العمل الإسلامى ومسائل السياسة الشرعية.

أما عن الأسباب التى دعت لذلك الاهتمام البالغ، وهذا الجدل الطويل حول آيات سورة المائدة خصوصًا فهى كثيرة .. إلاّ أنّ أبرز هذه الأسباب ما يلى:

أولاً: هذه الآيات الثلاث تعد من أوضح الآيات دلالة فى مسألة الحكم بما أنزل الله .. فقد أشارت بصريح العبارة إلى تحريم الحكم بغير ما أنزل الله، ورتبت الذم والوعيد على من فعل ذلك.

ولذلك فإن هذه الآيات الثلاث تعتبر قطعية الدلالة فى وجوب الحكم بما أنزل الله.

---

(١) بدأ الحديث يكثر عن قضية الحاكمية، ويتزايد الجدل حول الآيات المتعلقة بها مع تناول الشيخ / أبو الأعلى المودودي لها فى كتاباته .. وقد نالت شهرة أوسع بعد أن نقلها عنه الشيخ سيد قطب رحمه الله وتناولهابتفصيل أكثر فى معظم كتبه التى ألفها فى أواخر حياته.

ثانياً: هذه الآيات تحدد بدرجة كبيرة الأحكام الشرعية لمن ترك الحكم بما أنزل الله من الحكام .. وإن كان ذلك بصورة غير قطعية .. وما قد يترتب على ذلك من مسائل عملية، لعل من أشدها خطورة مسألة الخروج المسلح على الحكام.

ولذلك فإن هذه الآيات لا تعتبر قطعية الدلالة فى حكم من ترك الحكم بما أنزل الله .. ولكنها ظنية الدلالة فى ذلك، وسوف يأتى تفصيل ذلك لاحقًا.

ثالثاً: هذه الآيات تعددت فيها الأقوال والتفسيرات .. ورغم تعارض القول فيها أحياناً من النقيض إلى النقيض، إلاَّ أن كل فريق كان يجعلها عمدة أدلته وأقوى براهينه.

ومن ثم، فلا عجب أن تنال هذه الآيات ذلك القدر الوافر من التركيز والاهتمام .. ولا عجب أيضًا أن نفرد لها وحدها هذا الفصل بكامله .. وسوف نسعى خلال هذه الورقات إلى تقديم دراسة موضوعية وافية حول دلالتها ومقصودها مستعينين بالله عز وجل .. ومقتحمين أسوار تلك المسألة الشائكة - مسألة الحكم بغير ما أنزل الله - راجين المولى عز وجل أن يلهمنا التوفيق والسداد .. وأن يرشدنا إلى الفهم السديد لهذه القضية دونما إفراط ولا تفريط.

ولعل الله سبحانه يمن علينا، ويجعل من كلماتنا المتواضعة بلسمًا يشفى الجراح ونورًا يضىء الدرب ويهدى الحائرين .. ويدًا حانية تربت على قلوب المخلصين الصادقين .. وتسبغ السكينة والطمأنينة على نفوس طالما تاقت إلى الوصول لبر الأمان ومعرفة القول الصحيح فى هذه المسألة الدقيقة.

أسباب النزول .. خطوة على طريق الفهم

ويجدر بنا ونحن على مشارف رحلتنا المباركة أن نقف قليلاً أمام محطة «أسباب النزول» لنتزود منها وقودًا ينير لنا طريق الفهم السليم لهذه الآيات.

فمعرفة أسباب النزول تختصر للدارس مسافات طويلة نحو الفهم الصحيح لمعانى الآيات والإلمام بتفسيرها.

وكم من باحث فى تفسير القرآن الكريم قد ضل فهمه، وقصر علمه حين تجاهل أسباب النزول وأدار لها ظهره.

ولذا كان من الضرورى ونحن نطلب فهم كتاب الله كما أراده سبحانه أن نتعرض لأسباب نزول هذه الآيات(١).

وقد ورد فى أسباب نزول آيات سورة المائدة التى نحن بصددها ما يلي:(٢)

..روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا - فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون فى التوراة فى شأن المحصن إذا زنى» فقالوا: نفضحهم ويجلدون .. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوارة فأتوا بالتوارة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا هى آية الرجم .. فقالوا : صدقت يا محمد، فيها آية الرجم .. فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما».

وفى لفظ للبخارى: «فقال لليهود: ما تصنعون بهما؟. قالوا : نسخّم وجوههما (أى نلطخها) ونخزيهما .. قال: «فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين».. فجاءوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه .. فقال : ارفع يدك، فرفع، فإذا هى آية الرجم تلوح.. قال يا محمد: إن فيها آية الرجم، ولكنا نتكاتمه بيننا .. فأمر بهما فرجما».

.. وروى مسلم فى صحيحه قريباً مما روى البخارى.

---

(١) من الأمثلة الواضحة فى ضرورة معرفة أسباب النزول للوصول إلى الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى .. ما ورد عن عروة بن الزبير - رضى الله عنه - حين قرأ قول الله تعالى : «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما». فظن عروة أن نفى الجناح فى الآيه معناه جواز ترك السعى بين الصفا والمروة وعدم وجوبه .. فأنكرت عليه عائشة - رضى الله عنها - ذلك الفهم، وذكرت له سبب نزول الآية: أن الأنصار كانوا يسعون فى الجاهلية بين صنمى الصفا والمروة، فتحرجوا من السعى بعد إسلامهم، فنزلت هذه الآية لترفع عنهم الحرج فى السعى بين الصفا والمروة، لا فى ترك السعى كما ظن عروة.

فانظر إلى الفرق الشاسع بين الفهمين بسبب عدم معرفته بأسباب النزول.

(٢) انظر هذه الروايات جميعًا فى تفسير ابن كثير (٣ / ٨٤) ط. المكتبة التوفيقية.

وقال الزهرى: سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند سعيد بن المسيب .. عن أبى هريرة . رضى الله عنه .. قال: زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبى فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله. قلنا : فتيا نبى من أنبيائك. قال: فأتوا النبى ﷺ وهو جالس فى المسجد فى أصحابه.. فقالوا : يا أبا القاسم: ما تقول فى رجل وامرأة زنيا؟ فلم يكلمهم بكلمة حتى أتى بيت مدارسهم (أى علمائهم)، فقام على الباب، فقال: «أنشدكم بالله الذى أنزل التوارة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا يحمم ويجبه (أى يجعل على حمار وظهره لظهر من زنى بها ويطاف بهما) ويجلد. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، ألظ به رسول الله ﷺ النشدة (أى ألح عليه فى المناشدة) فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد فى التوراة الرجم .. فقال النبى ﷺ: «فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم .. ثم زنى رجل فى إثره من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجئ بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم .. فقال النبى ﷺ: «فإنى أحكم بما فى التوراة ، فأمر بهما فرجما»(١).

ومن الواضح فى الروايات السابقة أن هذه الآيات نزلت فى اليهود عندما زنى رجل منهم بامرأة .. وأنهم ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يستفتونه فى شأنهما .. فلما سألهم عن حكم الزانى المحصن عندهم فى التوارة كتموا حكم الله، وجحدوه .. وادعوا على الله حكمًا آخر غير حكمه . ونسبوا هذا الحكم الجديد زورًا وبهتانًا إلى التوراة .. وأنهم لم يعترفوا بحكم الله الموجود لديهم إلا بعد أن ضيق عليهم رسول الله ﷺ الخناق .. فاعترفوا بحكم الرجم كرهًا أو على مضض.

هذا ملخص ما ورد من أسباب النزول فى هذه الآيات

وفى الحقيقة، لا يفوتنا أن نسجل عدة ملاحظات مهمة قبل مغادرتنا لأسباب النزول.

ومن هذه الملاحظات:

أولاً: أن اليهود الذين نزلت فيهم هذه الآيات الكريمة قد ارتكبوا جملة مخالفات خطيرة تكفى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه وابن جرير عن أبى هريرة.

كل واحدة منها لأن يحل عليهم سخط الله تعالى وعقابه.

ويمكننا تلخيص هذه المخالفات فيما يلي:

(١) أنهم كذبوا على الله تعالى، وتقولوا عليه سبحانه ما لم يقل فى شأن حد الزنا، فبدلوا حكم الله ثم ادعوا زورًا أن ما جاءوا به من عند أنفسهم هو حكم الله الذى أنزله فى التوراة

(٢) أنهم كذبوا على رسول الله ﷺ، وحاولوا خداعه والتدليس عليه بإخفاء حكم الله عنه وتغطيته بأيديهم حتى لا يراه.

(٣) أنهم جحدوا[١] حكمًا من أحكام الله تعالى، وهو حكم الرجم فأنكروا وجوده فى التوراة أصلاً، وتواطئوا على هذا الإنكار والجحود أزمنة طويلة.

(٤) أنهم أرادوا التحايل على شرع الله، فبدلاً من أن ينفذوا حكم التوراة فى الزانيين، ذهبوا إلى النبى ﷺ لعلهم يجدون عنده حكمًا أخف من حكم التوراة وبذلك يضربون عصفورين بحجر واحد .. فمن ناحية يتخلصون من حكم الرجم الموجود فى التوراة .. ومن ناحية أخرى يحتجون بهذه الفتيا من رسول الله ﷺ عند الله يوم القيامة، ويقولون : فتيا نبى من أنبيائك.

ثانياً: أن السبب الأساسى والعلة الجوهرية التى من أجلها وصمهم القرآن فى الآية بلفظ «فأولئك هم الكافرون» كان جحودهم وإنكارهم الصريح لحكم من أحكام الله تعالى، لا مجرد ترك هذا الحكم مع الإقرار.

وقد صرح بذلك الإمام ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية .. وذكر علة قول الله تعالى فيهم «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». قال رحمه الله :«لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا أو عمدًا»[٢] .. كما صرح أيضا بأن هذه الآيات إنما نزلت فيهم لتبديلهم حكم الله وتحريفهم لكتابه، لا لمجرد تركهم الحكم ببعض ما أنزل عليهم .. فلو فعلوا ذلك لكان أهون

(١) ويتضح جحودهم لحكم التوارة جليا فى لفظ: «ولكننا نتكاتمه بيننا» فهو صريح في تواطئهم على إنكار حكم الله وجحوده .. كما أن وضع أحدهم يده على آية الرجم في التوراة مما يدل كذلك على محاولة إنكار هذا الحكم.

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٨) ط المكتبة التوفيقية.

وأخف، ولكنهم أبوا إلاّ أن ينكروا هذا الحكم ويصطلحوا فيما بينهم على حكم غيره، ثم ينسبوه للتورارة دون وجه حق.

يقول ابن كثير رحمه الله: «والصحيح أنها نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين»(١)..

وهذا الذى فعلوه من جحد حكم الله تعالى لا شك كافٍ لكفرهم ومروقهم من الدين.. فمن المعلوم أن من جحد حرفًا من كتاب الله عز وجل يكفر بهذا الجحود حتى وإن كان مؤديًا لجميع الواجبات.

ثالثاً: مما يلفت الأنظار فى هذه الآيات أنها نزلت في قوم من عوام اليهود وعلمائهم .. وأنها لم تنزل أساسًا فى الحكام كما يظن كثير من المسلمين اليوم.

فقد نزلت كما أوضحنا سابقًا فى واقعة خاصة، وهى حادثة الزنا التى ارتكبها اثنين من عوام اليهود .. ثم تواطأ بعضهم على التحايل لتخفيف حد الزنا عنهما .. وهؤلاء المتواطئون .. فى أغلب الظن لهم علاقة من قريب أو من بعيد بمرتكبى الحادثة.. فهم غالبًا من تكون له المصلحة المباشرة فى تخفيف الحد أو إلغائه إما لقرابة أو غيرها.

وهذه الملاحظة الأخيرة جديرة بأن توضع فى الاعتبار، وأن تكون ماثلة فى الأذهان حين نتكلم اليوم عن قضية الحكم بغير ما أنزل الله. ذلك أن المتبادر إلى ذهن الكثيرين اليوم أن هذه الآيات نزلت فى الحكام، وأنها قاصرة عليهم فقط إن حادوا عن الحكم بما أنزل الله .. أما عوام المسلمين فهم غير مخاطبين أصلاً بهذه الآيات وغيرها..

وهذا ظن خاطئ بعيد عن الصواب .. قد كشفت أسباب نزول هذه الآيات خطأه وعدم استقامته.

وبعد هذه الوقفة المتأنية مع أسباب نزول آيات سورة المائدة .. يواجهنا سؤال يطرح نفسه، وهو:

إذا كانت هذه الآيات قد نزلت أساسًا فى اليهود، فما شأننا بها نحن المسلمين؟!

وهل نحن أيضا مخاطبون بهذه الآيات؟!

أم أنها قاصرة على أهل الكتاب؟

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٣) ط. المكتبة التوفيقية

العبرة بعموم اللفظ .. أم بخصوص السبب؟

ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآيات نزلت فى أهل الكتاب.

فقد ذكر ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لها قال: «قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مجلز، وأبو رجاء العطاردى، وعكرمة، وعبيد الله بن عبد الله، والحسن البصرى، وغيرهم: نزلت فى أهل الكتاب»(١).

كما روى الطبرى عن عمران بن حدير قصة التابعى الجليل أبى مجلز السدوسى، حين جاءه نفر من الخوارج من بنى سدوس يسألونه عن آيات سورة المائدة .. ويستفتونه فى الخروج على حكام بنى أميه استدلالاً بها .. فكان مما قاله لهم أبو مجلز: «إنما أنزلت هذه الآيات فى اليهود والنصارى»(٢).

وعلى أن الواضح من سياق هذا الخبر أنَّ أبا مجلز رحمه الله لم يكن يقصد قصر أحكام هذه الآيات على أهل الكتاب فحسب .. فمثله لا يخفى عليه أن خصوص السبب لا ينفى عموم الحكم واللفظ .. ولكنه كان ثاقب النظر بعيد الرؤية فأراد أن يدفع عن هذه الثلة من الخوارج القول بتكفير أمرائهم .. ومن ثم تبرير قتالهم والخروج عليهم بناءً على فتواه لهم .. لأنه رأى مفسدة الخروج عظيمة من كل الوجوه.

والحقيقة التى لا مراء فيها بالنسبة لتلك المسألة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. وهذا قول جماهير أهل العلم.

فهذه الآيات، وإن كانت نزلت فى أهل الكتاب من اليهود علي عهد النبى ﷺ وفى واقعة بعينها .. إلا أن أحكامها تعم غيرهم من المسلمين فى جميع العصور، وعلى اختلاف الوقائع وتنوع الحوادث.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٧) ط. المكتبة التوفيقية.

(٢) رواه الطبرى عن عمران بن حدير.

ولعل المتأمل فى لفظة «من» التى وردت فى كل آية من الآيات الثلاث سوف يدرك بكل سهولة صحة هذا العموم .. فهذه اللفظة من الألفاظ الدالة على العموم .. والتى تعنى دخول كل عاقل تحت مظلة هذا الحكم مسلمًا كان أو غير مسلم.

ولو أننا - على سبيل الجدل - تركنا الاستدلال بهذه القاعدة : «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» .. فلن نعدم دليلاً آخر لا يقل عنها قوة ويسمح فى ذات الوقت بتعميم هذا الحكم.

أو ليس القياس دليلاً من أدلة الأحكام؟!

إذن، فما دام هذا الحكم قد نزل فى حق اليهود والنصارى .. فثبوته فى حق أهل الإسلام من باب أولى قياسًا عليهم .. على أن هذا الحكم وارد فى كتابنا (القرآن) الذى نزل أصلاً علينا نحن المسلمين.

وقديمًا تعجب أحد أصحاب النبى ﷺ [1] حين رأى بعض المسلمين فى عصره وقد استقر فى ظنهم أن هذه الأحكام خاصة بأهل الكتاب، ولا علاقة للمسلمين بها .. فقال لهم بنبرة ساخرة من ذلك الظن : «نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كانت لكم كل حلوة، ولهم كل مُرَّةٍ».

ولو رجعنا لأقوال أهل التفسير من الصحابة والتابعين، وغيرهم من العلماء لوجدنا أكثرهم - إن لم يكن كلهم - يشهدون بعموم هذا الحكم وتوجهه للمسلمين .. وعدم اقتصاره على من نزل فيهم من أهل الكتاب.

فعن الحسن البصرى أنه قال: «نزلت - أى هذه الآيات - فى أهل الكتاب وهى علينا واجبة»[2].

وعن سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم قال: «نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل، ورضى الله لهذه الأمة بها»[3] رواه ابن جرير.

(١) هو الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

(٢) ، (٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٧) ط المكتبة التوفيقية.

وقال ابن مسعود والحسن : «هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود .. أى معتقدًا ذلك ومستحلاً له»(١).

وقال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «ومنها - أى الأقوال الواردة - أن الآيات الثلاث فى اليهود خاصة ليس فى أهل الإسلام منها شئ .. وروى عن الشعبى أن الأولى والثانية فى اليهود، والثالثة فى النصاري .. وهذا هو الظاهر .. ولكن لا ينفى أن ينال هذا الوعيد من كان منًّا مثلهم، وأعرض عن كتابه إعراضهم عن كتبهم»(٢).

وبناءً على ذلك نقول: نعم، هذه الآيات نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى .. ولكن خصوص السبب لا ينفى عموم الحكم كما قرر العلماء ..

وعليه، تنطبق هذه الأحكام على أهل الإسلام محكومين وحكامًا خواصًا وعوامًا.

فأيما مسلم لم يحكم بما أنزل الله تعالى فيما ولاه الله عليه من شئون لحقه الذم والوعيد الوارد فى هذه الآيات على التفصيل الذى سنورده لاحقًا بإذن الله.

بقى لنا أن نتناول بالحديث أهم ما فى هذه المسألة .. وأن نفصل القول فى تلك القضية الشائكة - قضية الحكم بغير ما أنزل الله - وأن نوضح ما هو المقصود من ألفاظ الكفر والظلم والفسق التى وردت فى الآيات.

هل هى محمولة على النوع الأكبر المخرج من الملة . فيكون كل من ترك - مجرد الترك- للحكم بما أنزل الله كافرًا مرتدًا قد خلع ربقة الإسلام من عنقه؟

أم أنها ألفاظ مجازية تعنى الذنب أو المعصية المغلظة .. فتثبت أصل الإسلام لمن ترك الحكم بما أنزل الله ما لم يجحد هذا الحكم أو يستحل تركه؟

هذا هو خطر ما فى هذه المسألة التى بين أيدينا .. وهو الموضع الذى زلت فيه أقدام ، وضلت فيه أفهام .. وهو الدليل الذى حاد فيه الخوارج عن سبيل الحق .. فاحتجوا به على تكفير ولاة

(١) تفسير القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٦/١٦٧) ط المكتبة التوفيقية.
(٢) من فقه الدولة فى الإسلام د/ يوسف القرضاوى ص ١١٢ . ط دار الشروق.

الأمور الذين لا يحكمون ببعض ما أنزل الله .. ومن ثم خرجوا عليهم وقاتلوهم .. وذاقت أمة الإسلام ويلات عظيمة - ولا تزال - من جراء هذا الخروج .. والذى بدأت شرارته الأولى بسوء الفهم والتأويل لهذه الآيات.

فلا عجب إذن إن كان هذا الموضع أخطر ما فى مسألة الحكم بما أنزل الله .. لذا سوف نتناوله بشئ من الإسهاب والتفصيل.

معنى .. «فأولئك هم الكافرون»؟

من أبرز ما تميزت به هذه الآيات الثلاث من سورة المائدة أنها جاءت قطعية الدلالة فى وجوب الحكم بما أنزل الله ..

فقد نصت صراحة على لحوق الذم والإثم بمن لم يحكم بما أنزل الله .. وهذا الأسلوب فى عرف الأصوليين أحد الأساليب التى تدل على وجوب عمل من الأعمال.

قال الدكتور يوسف القرضاوى تحت عنوان «انعقاد الإجماع على وجوب الحكم بما أنزل الله».

«لم يقل أحد من علماء المسلمين فى أى عصر من العصور أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، أو أنه يخضع لإرادة الحكام ومشيئتهم .. بما فى ذلك من قالوا: إن آيات المائدة إنما نزلت فى شأن اليهود والنصارى، فالمعلوم أنهم قالوا بذلك فرارًا من الوقوع فى تكفير الحكام .. ولكن لم يخطر ببال واحد منهم أن الحكم بما أنزل الله غير واجب .. ولهذا قال منهم من قال: «نزلت فى أهل الكتاب وهى علينا واجبة»(١).

ولكن هذه القطعية التى توفرت فى حكم العمل باتفاق الفقهاء لم يتوفر نظيرها فى حكم الشخص نفسه الذى يترك الحكم بما أنزل الله ..

نعم، لقد اثبتت الآية يقينًا أن من لم يحكم بما أنزل الله يلحقه الوعيد والذم .. وتعددت صور الوعيد «فأولئك هم الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون» وهذا التعدد ذاته أحد العوامل التى أدت

(١) من، فقه الدولة فى الإسلام ص ١١١ .

إلى ظنية الدلالة فى حكم من ترك الحكم بما أنزل الله.

ويمكننا أن نجمل هذه العوامل فيما يلى:

(١) أن الوعيد المترتب على عدم الحكم بما أنزل الله جاء مختلفًا فى كل آية عن سابقتها: «الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون».

(٢) هذه الألفاظ الثلاثة السابقة ذاتها من الألفاظ المشتركة .. فالكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان .. وكل منهم منه ما هو أكبر مخرج من الملة .. ومنه ما هو أصغر مما يعد من جملة الذنوب والمعاصى، ولا يخرج صاحبه عن دائرة الإسلام.

وقد أشرنا إلى هذا التقسيم فى برقية سابقة من برقيات الباب الأول من الكتاب.

(٣) وبناء على هذا جاءت أقوال المفسرين متعددة ومتفاوتة .. فمنهم من جعل الحكم بغير ما أنزل الله من الذنوب والمعاصى غير المكفرة .. ومنهم من تأول الآيات على من فعل ذلك جاحدًا .. ومنهم من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص تعمدًا من غير جهل، ولا خطأ فى التأويل .. ومنهم من تأولها على أهل الكتاب .. ومنهم من جعله كفرًا ينقل عن الملة[1] .. ولكل وجهة هو موليها.

فأي هذه الأقوال أولى بالصواب؟!

وأى هذه التفسيرات أقرب إلى سبيل الحق والرشاد؟!

وعلى أى معنى من المعانى يمكننا حمل لفظ الكفر الوارد فى الآية؟!

ومثله ألفاظ الظلم والفسق .. وجميعها من الألفاظ المشتركة؟!

(١) راجع هذه التأويلات ونسبتها إلى أصحابها، مع ذكر المراجع المعتمدة لها فى كتاب «حرمة الغلو فى الدين وتكفير المسلمين» .. للمؤلف وآخرين ص ١١٨ ، ١١٩ ط مكتبة التراث الإسلامى.

كفر دون كفر .. مالم يجحد أو يستحل

لو أننا تتبعنا أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين والعلماء من بعدهم فى تأويل هذه الآيات .. فسوف نلاحظ أن هذه الأقوال - على كثرتها وتعددها وتباين ألفاظها - تدور كلها حول معنى واحد .. وتتضافر جميعها لتقرير حقيقة واحدة ألا وهى:

أن مجرد ترك الحكم بما أنزل الله لا يعد كفرًا .. بل هو من جملة المعاصى والذنوب .. وأن من ترك الحكم بما أنزل الله - مع ارتكابه لمعصية كبيرة وذنب عظيم - لا يخرج من دائرة الإسلام بمجرد هذا الترك.

وإنما يعتبر كافرًا إذا أضيف لهذا الترك أمر إضافى يدل على الكفر .. كأن يجحد هذا الحكم وينكره .. أو يستهزئ به .. أو يعلن رفضه ورده .. أو يفضل غير حكم الله على حكمه.

أما أن يترك الحكم وهو مقر بوجوبه معترف في قرارة نفسه بتقصيره .. فهذه من جملة المعاصى والذنوب .. وإنما سماها القرآن كفرًا للتغليظ على فاعلها.

وتعالوا بنا نستعرض أقوال المفسرين التى وردت فى هذه الآيات لنرى تقرير هذه الحقيقة بكل صراحة ووضوح:

- عن طاووس قال: سئل ابن عباس - رضى الله عنه - عن قوله: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» الآية: قال: هى به كفر (أى كفر عمل لا كفر اعتقاد) . قال طاووس: «وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله»(١).

وعن طاووس أيضاً عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : «ليس بالكفر الذى تذهبون إليه»(٢) ومعناه : ليس الكفر الذى تقصدونه ويتبادر إلى ذهنكم أنه الكفر الأكبر .. وإنما هو كفر دون كفر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية نقلاً عن الإمام أحمد رحمه الله : «ومنه نحو قول ابن عباس - رضى الله عنه - فى قوله .. «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» .. فقيل له : ما هذا

---

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٨) ط المكتبة التوفيقية

الكفر؟ .. قال: كفر لا ينقل عن الملة .. مثل الإيمان بَعضُه دون بعض .. وكذلك الكفر، حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه»[(١)].

فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن - رضى الله عنه - يؤكد لجميع من سأله فى تأويل هذه الآية أن لفظ الكفر الوارد فيها ليس هو الكفر الأكبر المخرج من الملة .. وإنما هو الأصغر الذى يعد من قبيل المعاصى والذنوب.

وتعدد الأقوال من ابن عباس - رضى الله عنه - يدل على اهتمامه بتأكيد هذا المعنى دفعًا لما قد يظنه الكثيرون من أن ذلك هو الكفر الأكبر ..

وكأن ابن عباس - رضى الله عنه - يحاول أن يلفت الأنظار إلى أن مسألة الكفر الأكبر تكون مناسبة لمن جحد حكم الله تعالى وأنكره ، كما فعل اليهود الذين نزلت فيهم هذه الآيات.

أما أهل الإسلام ، فالأصل أنهم مقرون بجميع ما أنزل الله تعالى حتى ولو تركوا بعضه .. كسلاً أو تهاونًا أو رغبة فى عرض زائل من الدنيا .. وهنا يكون الترك معصية لا ترقى بحال من الأحوال إلى مرتبة الكفر.

كما يوضح رضى الله عنه أن حكم هذه المسألة ستبقى كذلك فى حق أهل الإسلام «حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه»، أى يأتى دليل واضح صريح، وحجة قاطعة على أن ترك الحكم ببعض ما أنزل الله قد وصل بصاحبه إلى الكفر الأكبر .. وهذا لا يكون بمجرد الظن أو التوهم أو الاحتمال .. ولكنه كما قال ﷺ فى بعض حديثه: «إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[(٢)].

- ولم ينفرد ابن عباس - رضى الله عنه - بهذا الرأى .. ولو انفرد به لكان كافيًا .. فهو حبر الأمة وترجمان القرآن .. وهو الذى دعا له النبى ﷺ بمعرفة التأويل والتفسير.

ومع ذلك، فقد ذهب غيره من المفسرين لنفس مذهبه .. وقالوا بمثل قوله .. ومنهم على سبيل المثال، عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - والحسن البصرى، وعطاء ، وطاووس رحمهم الله.

(١) مجموع الفتاوى (٧ / ٢٠٦)

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون». قال ابن مسعود والحسن : «وهى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود - أى معتقدًا ذلك ومستحلاً له - فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرمًا فهو من فساق المسلمين .. وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»(١).

وعن عطاء رحمه الله أنه قال: «كفر دون كفر .. وظلم دون ظلم .. وفسق دون فسق»(٢).

وعن طاووس : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» قال : «ليس بكفر ينقل عن الملة»(٣).

فهذه أقوال أهل التفسير قد تواترت على أن ترك الحكم بما أنزل الله لا يعد كفرًا أكبر مخرجًا عن ملة الإسلام .. وذلك ما دام صاحبه مقرًا بوجوب هذا الحكم غير جاحد له أو مستحل لتركه.

ولمزيد بيان وتأكيد على هذه الحقيقة نُثَنى بالحديث عن الحكم بما أنزل الله كواجب من واجبات الشرع .. وذلك من خلال قاعدة من قواعد الدين سوف يفيد التعرف عليها كثيرًا فى تقرير ما ذهبنا إليه.

---

(١) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن (٦ / ١٦٧) ط . المكتبة التوفيقية

(٢) ، (٣) تفسير ابن كثير (٣ / ٨٨) ط. المكتبة التوفيقية

الحكم بما أنزل الله عمل من الأعمال

اتفق أهل السنة على أن من ترك شيئًا من واجبات الدين .. أو ارتكب شيئًا من المحرمات لا يعد كافرًا مادام مقرًا بهذا الواجب غير جاحد له .. وما دام غير مستحل لذلك المحرم ولا مستبيح له .. ولا خلاف فى هذه القاعدة بين العلماء.

قال الإمام الطحاوى صاحب «العقيدة الطحاوية» : «ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله»(١).

وقال صاحب كتاب «الإيمان الأوسط» : «ولا نكفر مسلمًا بذنب .. ولا نخرجه من الإسلام بعمل»(٢).

وقال النووى رحمه الله : «واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب. . ولا يكفر أهل الأهواء والبدع»(٣).

وعلى ذلك نقول: إن الحكم بما أنزل الله واجب من واجبات الدين لا شك فى ذلك .. وهو عمل من الأعمال لو تركه المسلم صار عاصيًا مذنبًا .. ولكن من المحال أن يكفر بمجرد هذا الترك مادام لم يقترن بتركه ما يدل على الكفر.

ومن قال بكفر تارك الحكم بما أنزل الله لمجرد تركه للعمل فقد شابه الخوارج الذين كفروا أهل الإسلام بارتكاب الذنوب والمعاصى .. ومنها ترك العمل بشئ من واجبات الدين.

قال ابن حزم رحمه الله : «الحكم عمل من الأعمال .. فإن كان الحاكم يجحد حكم الله، فقد كفر حتى لو لم ينفذ الحكم بغير ما أنزل الله .. وإن كان منفذًا فقط للأمر المخالف، أو أمر بتنفيذ الحكم على خلاف حكم الله - ولكنه لم يجحد حكم الله - فهو من العصاة ولا يعد مرتدًا عن الإسلام»(٤).

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٦ ط. دار الدعوة الإسلامية.

(٢) انظر: «الإيمان الأوسط» : لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (١ / ١٣٨). (٤) الإحكام فى أصول الأحكام (١ / ٤٩).

إذن فالحكم بما أنزل الله عمل من أعمال الإسلام .. وتركه هو ترك للعمل ليس بالضرورة أن يكون قدحًا فى أصل الاعتقاد .. ولم يقل أحد من علماء أهل السنة قديمًا ولا حديثًا بكفر من ترك شيئاً من أعمال الدين .. بل حتى من ترك جميع الأعمال فقد أثبتوا له الإسلام مادام فى قلبه أصل الإيمان ونطق بالشهادتين .. ولكن بقدر غياب العمل يكون نقصان الإيمان.

قال ابن حزم رحمه الله فى كتاب المحلى : «ومن ضيع الأعمال كلها فهو مؤمن عاص ناقص الإيمان لا يكفر»(١).

ولعل هذه القاعدة تفسر لنا سر اتفاق المفسرين من الصحابة والتابعين على أن الكفر المقصود فى هذه الآيات الواردة فى سورة المائدة هو الكفر الأصغر .. وليس الأكبر المخرج من الإسلام .. فقد كانوا يعلمون أن الحكم بما أنزل الله - وإن كان واجبًا - عمل من أعمال الإسلام(٢) .. وأن ترك العمل لا يكون سببًا فى تكفير صاحبه .. بل يكون سببا فى نقصان إيمانه

وإلا لو كان مجرد ترك الحكم بما أنزل الله كفرًا أكبر .. فلما ذا لا يسرى نفس الحكم على باقى واجبات الإسلام؟! فيكون كل من ترك واجبًا من الواجبات كافرًا .. وبذلك لن يبقى مسلم فى دائرة الإسلام على وجه الأرض.

إن القائلين بأن مجرد ترك الحكم بما أنزل الله كفر أكبر، يحملون فى طيات كلامهم تناقضًا شديدًا وهم لا يشعرون.

فهلا قالوا بكفر كل من ترك واجبًا أو ارتكب محرمًا، حتى يستقيم أول كلامهم مع آخره؟!

أم أنهم اختصوا الحكم بما أنزل الله دون سائر الواجبات بهذه الخاصية؟!

---

(١) قراءة نقدية .. د. ياسر برهامى ص ٣٣ ط : المكتبة السلفية.

(٢) من مهام الحاكم المسلم فى الدولة الإسلامية الدفاع عن الدولة ضد أى تهديد خارجى وحماية الحدود بينها وبين غيرها من الدول .. وحفظ الأمن والاستقرار الداخلى .. والضرب على أيدى المجرمين والخارجين عن القانون والنهوض بالمستوى الاقتصادى للدولة بما يوفر لجميع المواطنين سبل الحياة الكريمة .. وكذلك القيام بمهمة الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجمع الزكاة وتوزيعها فى مصارفها الشرعية. كل ذلك وفقًا لما جاءت به شريعة الإسلام وكل هذه المهام، والواجبات هى أحكام فقهية عملية موجودة فى كتب الفقه وكتب الأحكام السلطانية، ولا تتعلق من حيث الأداء أو الترك بمسائل الكفر والإيمان .. فترك شيء منها هو من قبيل ترك العمل الذى ينقص الإيمان ولكن لا ينقضه من أساسه.

لو كان الأمر كذلك ، فمن أين جاءوا بمثل هذا الاختصاص؟!

وبأى دليل وضعوا ذلك الاستثناء؟!

إن محبة الشريعة واجب على كل مسلم .. والحرص على إعلان أحكامها خصلة من خصال المؤمنين الصادقين .. فهم الذين تتوق نفوسهم دومًا لأن تظلل أحكام الإسلام شتى بقاع الأرض.

ولكن، هل يصح أن يكون ذلك الحب العظيم دافعًا للغلو فى الدين؟!

بالطبع ، لا .. فقد أمر الإسلام بأن نضع أحكامه فى موضعها الصحيح الذى أراده الله لها دون مغالاة أو تقصير .. فلا نرفع شيئًا منها فوق منزلته التى أنزله الله إياها .. ولو كان دافعنا لذلك محبة الدين وتعظيم شرائعه.

فليس أحد أحرص على شريعة الله منه سبحانه .. وليس أحد أغير على أحكام الدين من منزلها ومشرعها عز وجل .. وكذلك لا يصح أن ننزل بشىء من الأحكام عن رتبته، أو أن نحط من قدره .. فإن ذلك ظلم للشريعة .. وإجحاف بحقوق أحكامها وواجباتها.

متى يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفرًا أكبر؟

بعد أن تبين لنا أن الحكم بما أنزل الله واجب من واجبات الدين .. وعمل من أعمال الإسلام لا يكفر تاركه .. بل يكون بارتكابه عاصيًا ناقص الإيمان بقدر ما ترك من أداء هذا الواجب العظيم .. قد يسأل سائل ويقول:

هل يعنى هذا الكلام أن الحكم بغير ما أنزل الله لا علاقة له بالكفر والمروق من الدين؟!

وهل تدركون أنكم بهذه الكلمات تعطون صك براءة من الكفر لكل من ترك الحكم بما أنزل الله؟!

وكأنكم تقولون للناس حكامًا ومحكومين .. فليفعل كل منكم ما شاء، وليحكم بغير ما أنزل الله وليهنأ بمخالفة شريعة الله وهو آمن مطمئن .. فلن يناله سوط التكفير أبدًا، ولن يجرؤ أحد على رميه بالكفر.

ونقول بداية : لا ينبغى أن يحملنا خوف وقوع المخالفة من الناس على الغلو فى شىء من الأحكام، أو التشديد عليهم بما لم يشدد به الله عز وجل ..

إذ الغلو والتقصير كلاهما مذموم، وهما وجهان لعملة واحدة رديئة كما أن التشديد فى غير موضع التشديد مضر بالشريعة تمامًا كالتفريط والتقصير.

والأصل أننا نبذل جهدنا فى بيان الحق للناس على الوجه الذى أراده المولى عز وجل بكل دقة وأمانة .. ودون التفات لتحايل البعض على أحكام الإسلام أو التفافهم حول واجباته .. فلئن تحايل البعض وزاغوا عن الصراط المستقيم .. فغيرهم كثير سوف يملأ الإيمان قلوبهم، وينقادون طوعًا لأحكام السماء.

أما عن علاقة الحكم بغير ما أنزل الله بالردة والخروج من الدين نقول: نعم، من الحكم بغير ما أنزل الله ما يكون سببًا فى كفر صاحبه وارتداده عن الإسلام .. لا لمجرد الترك لحكم الله كما ذكرنا سابقًا .. بل لأن هذا الترك قد اقترن بأمر اعتقادى قلبى خارج عنه، ويدل دلالة صريحة على الكفر .. كأن يجحد حكم الله تعالى، أو يستهزئ به، أو يرده ويرفضه، أو يفضل غيره عليه .. وهنا يكون الكفر والردة راجعين لهذه الأمور، لا لمجرد ترك الحكم بما أنزل الله.

وليس هذا قاصرًا على مسألة الحكم بغير ما أنزل الله فقط .. بل ينطبق على جميع واجبات الدين .. فكل من ترك شيئًا من واجبات الإسلام فهو مسلم عاص .. لا يكفر بمجرد هذا الترك إلاَّ أن ينضم إليه جحود أو استحلال أو غير ذلك من أنواع الكفر المخرج من دائرة الإسلام «.. وهذا يستوى فيه الحاكم والمحكوم».

وبذلك يبدو الفرق واضحًا بين نوعين من الحكام، كلاهما ترك الحكم بما أنزل الله .. ومع ذلك يكون أحدهما كافرًا ، بينما لا يكفر الثانى.

الأول: من ترك الحكم بما أنزل الله جاحدًا لوجوب هذا الحكم، أو مستحلاً لتركه، أو مستهزئًا به، أو مفضلاً لحكم غير الله على حكمه سبحانه.

فهذا لا شك فى كفره ومروقه من الدين .. لا لترك الحكم، وإنما لما اقترن به من علامات الكفر .. وهذا يستوى فيه الحاكم والمحكوم ويستوى فيه جميع المسلمين .. فالمحكوم لو جحد حكم الله،

أو استهزأ به أو فضل حكم البشر على حكم الله أو اعتقد عدم صلاحية حكم الله لهذا الزمان، فإنه يكفر بذلك .. شريطة أن تتوفر فيه الشرائط وتنتفى عنه الموانع .. وبعد أن يلزم الحجة التى يكفر تاركها.

الثانى : من ترك الحكم بما أنزل الله، وهو مقر بوجوبه، معترف فى قرارة نفسه بخطئه .. ولكن غلبته نفسه على الحكم بغير ما أنزل الله، إما لهوى، أو لشهوة أو لمنصب أو لشئ من أعراض الدنيا، أو احتجاجًا بظروف محلية أو إقليمية أو دولية ضاغطة، أو احتجاجاً بأن هذه الأحكام ليست من صنع يده، وأنه جاء فوجدها فلم يقدر على تغييرها .. فهذا لا يكفر، ولا يخرج من دائرة الإسلام. . وإن كان تركه للحكم بما أنزل الله من أكبر المعاصى والذنوب.

هذا التفريق بين نوعين من ترك الحكم بما أنزل الله ليس بدعًا من القول .. وإنما قرره كثير من العلماء سلفًا وخلفًا حين تعرضوا لهذه المسألة .. سواء فى معرض تفسير آيات سورة المائدة، أو فى معرض تفصيل القول فى قضية الحكم بما أنزل الله.

وهذه بعض أقوال العلماء والمفسرين تعضد ذلك :

قال على بن أبى طلحة، أن ابن عباس - رضى الله عنه - قال في تفسير قوله تعالى :«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»: «من جحد ما أنزل الله فقد كفر .. ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق»(١).

وقال الإمام القرطبى فى تفسير نفس الآية: «ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن وجحدًا لقول رسول الله ﷺ فهو كافر .. قاله ابن عباس ومجاهد»(٢).

وتقدم قول ابن مسعود - رضى الله عنه - والحسن ، والذى نقله القرطبى أيضًا : «وهى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود - أى معتقدًا ذلك ومستحلاً له - فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرمًا فهو من فساق المسلمين»(٣).

---

(١) رواه ابن جرير وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ٨٨ ط. المكتبة التوفيقية

(٢) تفسير القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» ٦ / ١٦٧ ط. المكتبة التوفيقية

(٣) المصدر السابق.

وقال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبرى - رحمه الله - تعليقًا على نفس الآية: «وكذلك القول فى كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس .. لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله فى كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبى»(١).

وهذا عين ما قاله الإمام ابن القيم بعد أن ساق اختلاف الأقوال فى هذه المسألة فعقب بقوله : «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين: الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم .. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصيانا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبه، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب .. وأنه مخير فيه مع يقينه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر .. وإن جهله أو أخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين»(٢).

ولذلك ذهب العلامة الشنقيطى فى تفصيله لهذه القضية حيث قال: «وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب .. فمن كان امتناعه عن الحكم بما أنزل الله لقصد معارضته ورده والامتناع عن التزامه، فهو كافر ظالم فاسق، كلها بمعناها المخرج عن الملة .. ومن كان امتناعه عن الحكم لهوى، وهو يعتقد قبح فعله، فكفره وظلمه وفسقه غير المخرج من الملة»(٣).

إن من يمعن النظر فى الأقوال السابقة، يجد أنها جميعًا تنطق بضرورة التفصيل فى مسألة الحكم بغير ما أنزل الله .. وبخطورة وخطأ توجيه أصبع الاتهام بالكفر لكل من يترك العمل بشئ مما أنزل الله.

إذ أن الترك وحده لا يكفى لتكفير صاحبه .. بل لابد من اقترانه بشئ خارج يدل صراحة على كفر صاحبه، كالجحود أو الرد أو التكذيب أو الاستحلال .. وإلا لقلنا بكفر كل من خالف لله أمرًا أو ارتكب نهيا .. وهذا لم يقل به أحد من علماء أهل السنة من السلف أو المعاصرين.

وقد ذكر أهل العلم بعض صور الحكم بغير ما أنزل الله .. والتى يكفر صاحبها كفرًا أكبر يخرجه عن ملة الإسلام .. وسوف نلاحظ فى هذه الصور أنها غير قاصرة على الحكام فحسب، بل إنها

---

(١) انظر تفسير الطبرى فى قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون».

(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٦٢) ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٣) أضواء البيان للشنقيطى (٢ / ٩٧)

تشمل عوام المسلمين على حد سواء .. ولا فرق فى الكفر بها بين حاكم ومحكوم..

ومن هذه الصور التى استقرأها العلماء من النصوص وأقوال المفسرين وأصول الاعتقاد والتوحيد ما يلى:

الأول: أن يجحد حكم الله تعالى أصلاً وينكر وجوده كما فعل اليهود الذين نزلت فيهم هذه الآيات .. إذ إن جحوده لوجوب الحكم بما أنزل الله يتضمن تكذيب الله ورسوله .. وهذا الجاحد يكفر بجحوده سواء أتى بالواجب أو تركه[1] .. وذلك لأن الجحود هو فى الأساس عمل قلبى .. وقد يظهر على اللسان أو الجوارح بصورة أو أخرى .. ويستوى فى الجحود كل مسلم حاكمًا كان أو محكومًا .. فلو أن أحدًا من المحكومين أو من عوام المسلمين جحد شريعة الله، فإنه بذلك يَصير كافرًا مرتدًا عن الإسلام.

الثانى: أن يستهزئ بحكم الله ويسخر منه، ويصفه بالجمود والرجعية والتخلف، وهنا يكون الاستهزاء سببا فى لحوق الكفر الأكبر بصاحبه محكومًا كان أو حاكمًا.

الثالث: أن يرد حكم الله ويرفضه، أو يفضل غير حكم الله على حكم الله ويقدمه عليه، كما كان التتار يفعلون من تقديم الياسق على شريعة الإسلام وتفضيله عليها ، ويستوى فى الكفر كل من اعتقد مثل هذا الاعتقاد حاكما كان أو محكومًا.

الرابع: أن يسوى بين حكم الله وحكم غيره، فلا يجد فى أحكام الإسلام ميزة على ما سواها، أو يعتقد عدم وجوب الحكم بما أنزل الله، فيستحل الحكم بغيره حتى ولو لم يحكم به .. فإنه يكفر بمجرد اعتقاد الاستحلال لمعصية الله تعالى، وهذه أيضا يستوى فيها الحاكم والمحكوم.

فهذه بعض صور الحكم بغير ما أنزل الله .. والتى تعد كفرًا مخرجًا من دائرة الإسلام .. ولعل أخطرها هو جحود حكم الله بما يحمل من تكذيب لله ولرسوله ﷺ .. وهو ذاته الأمر الذى وقع

---

(١) لو أن مسلمًا فقيرًا جدًا لدرجة أنه لا يملك نصابًا للزكاة، وبالتالي فهى غير مفروضة عليه .. ولكنه يجحد وجوب الزكاة وينكر فرضيتها ، فهذا يعد كافرًا .. فى حين أن من ملك نصاب الزكاة وكان من الأغنياء ، وكانت الزكاة واجبة فى حقه ولكنه لا يؤديها وفى نفس الوقت لا يجحدها .. فإنه لا يخرج عن الإسلام ويكون مسلمًا عاصيًا .. والسر فى ذلك أن عمل القلب هو الأصل والأساس .. وهو مناط الكفر والإيمان ثم يأتى عمل الجوارح ليكمل عمل القلب .. فيكون عمل الجوارح مناط زيادة الإيمان .. أو نقصانه.

فيه بعض اليهود على عهد النبى ﷺ ونزلت فيهم تلك الآيات التى تتحدث بشأنها.

وأخطر ما فى الجحود أن صاحبه يكفر بمجرده كما ذكرنا سابقًا حتى ولو قام بأداء الواجب الذى جحده .. إذ لا ينفعه فعل هذا الواجب دون إقرار القلب به واعترافه بوجوبه.

ومما يلاحظ فى تلك الصور السابقة أنها بعيدة كل البعد عن كل مسلم صادق الإسلام ومحب لله ورسوله ﷺ.

فمن النادر العزيز أن تجد أحدًا من المسلمين حاكمًا كان أو محكومًا يجحد حكم الله، أو يستهزئ به، أو يرده أو يرفضه أو ينكره أو يسخر منه.

نعم، قد تجد كثيرًا من المسلمين يفرطون فى كثير من أوامر الله، أو يقعون فى شئ من المعاصى والذنوب .. ولكن لا تجد أحدًا من هؤلاء يجحد لله حكمًا، أو يرفض بقلبه له أمرًا، أو حتى يستحل شيئًا مما يقع فيه من المناهى والمنكرات.

لماذا سميت معصية الحكم بغير ما أنزل الله كفرًا؟

قد يقول قائل: إذا كان الحكم بغير ما أنزل الله معصية من المعاصى كما أثبتت كل الأدلة السابقة.

فلماذا سمى القرآن هذه المعصية كفرًا؟!

أو يعقل أن يسمى الله هذا الفعل كفرًا، ثم نعتبره نحن من جملة المعاصى والذنوب؟!

والحق، إن هذه أسئلة وجيهة، وقد أجبنا عنها فى برقية سابقة فى الباب الأول من هذا الكتاب(١) .. لكننا نعود هنا فنقول:

ليس غريبًا أن توصف بعض الذنوب والمعاصى فى نصوص الكتاب والسنة بوصف الكفر - لا لكونها كفرًا على الحقيقة .. ولكن استعظامًا لشأنها، وبيانًا لخطرها، وتغليظًا على فاعلها.

وقد تكرر ذلك فى القرآن والسنة مرات عديدة .. وهذا ما جعل أهل العلم يتريثون فى تأويل

---

(١) راجع برقية «كفر دون كفر» بالباب الأول من الكتاب.

لفظ الكفر ، فلا يحملوه على ظاهره من الكفر الأكبر مباشرة .. فلربما كان المقصود به الإشارة إلى بعض الذنوب والمعاصى.

ألم يطلق النبى ﷺ اسم الكفر على قتال المسلم لأخيه المسلم فى قوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(١) .. ثم جاءت الآية: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..» لتوضح أن هذا القتال من المعاصي والذنوب لا من الكفر.. وإلا لما أثبت القرآن للمقتتلين أخوة الإيمان.

ألم يطلق النبي ﷺ اسم الكفر ايضًا على الحلف بغير الله فى قوله: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(٢) .. ثم جعل له كفارة ليثبت بذلك أنه من جملة الذنوب والمعاصي .. ولو كان كفرًا أكبر لما أجزأت معه الكفارة.

ألم يقل النبى ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»(٣) .. فسماه كفرًا .. ثم حمله العلماء على الكفر الأصغر العملى .. إذ لو كان كفرًا أكبر لما ثبت لهما أخوة الإيمان، لأنه لا أخوة بين مسلم وكافر.

وهكذا ورد لفظ الكفر فى كثير من نصوص الكتاب والسنة دالاً على الذنب الكبير والمعصية العظيمة .. لا على الكفر الأكبر المخرج عن ملة الإسلام ..

وهو المعنى ذاته الذى قصدته آيات سورة المائدة فى وصف من لم يحكم بما أنزل الله .. فلا تثريب على من سمى الحكم بغير ما أنزل الله معصية، وذلك استنادًا على المعنى المقصود فى الآية .. ولا حرج ولا تثريب كذلك على من سماه كفرًا بشرط أن يدرك السامع له أن المقصود هو الذنب والمعصية لا الكفر الأكبر.

قال الدكتور يوسف القرضاوى حفظه الله :«أعتقد أنه لا يمنع عالم من العلماء من وصف من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر .. لأنه وصفه بما وصفه به الله تعالى فى كتابه المبين، كما وصفه بالظلم والفسق .. فمن وقف عند نص القرآن ولفظه لا يتهم بالخطأ والزيغ .. وكل ما عليه أن يفسر الكفر

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود

(٢) صحيح . رواه الترمذى عن ابن عمر.

(٣) متفق عليه عن ابن عمر.

بما فسره به ابن عباس وغيره بأنه ليس الكفر المخرج من الملة .. وأنه كفر دون كفر .. وأن يفرق بين الجاحد والمقر .. كما فرق ترجمان القرآن ، ومحققو علماء الأمة»[1].

وغنى عن الذكر أن هذا الذى يقوله فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى لا غبار عليه .. ولكن حين يكون الكلام موجهًا للعلماء وطلبة العلم الفاهمين لقواعد أهل السنة وأصول الاعتقاد.

أما حين يكون الكلام موجهًا لعوام المسلمين فالأولى والأجدر ألا نتمسك أمامهم بلفظ الكفر.. إذ إنهم لا يعرفون غالبًا أن من الكفر ما هو أكبر ومنه ما هو أصغر .. وغاية علمهم فى هذه المسألة ان الكفر كفر واحد هو المخرج من الملة فحسب.

فهؤلاء لو أخذناهم بظاهر كلام الشيخ القرضاوى لربما اختلط عليهم الأمر ولم يفهموه على وجهه الصحيح .. وتسبب ذلك فى حدوث الفتنة والبلبلة .. والاضطراب .. فلنأخذ معهم بقول الإمام على رضى الله عنه : «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله» .. وبنصيحه عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – حين قال : «ما أنت بمحدث قومًا حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ولذلك نحن لا نوافق الشيخ العلامة القرضاوى إلى ما ذهب إليه مع تقديرنا لعلمه وفقهه.

ونحب أن يعرف الشباب خاصة أن تارك الحكم بما أنزل الله حاكما أو محكومًا لا يكفر ما لم يجحد هذا الحكم .. إذ أن ذلك أليق بهذا الزمان الذى قل فيه العلم بالشريعة، وقل فيه الصبر على دراسة الشريعة الإسلامية بتمعن وإتقان.

فإذا قلنا إن الذى يترك الحكم بما أنزل الله دون جحود يكون كافرًا كفرًا أصغر، طير الجميع كلمة كافر ونشروها فى الآفاق وتناولوها بين الناس دون توضيح أنه كفر أصغر (أى معصية) فتحدث المفاسد، ويكثر الخروج المسلح على الحكام وتضيع مصالح الإسلام، ويضيع الموجود من الشريعة ويزيد المفقود منها.

---

(١) من فقه الدولة فى الإسلام ص ١١٦ ط. دار الشروق.

ولكن نقول: إن الحكم بغير ما أنزل الله هو معصية وكبيرة مادام لم يقترن بالجحود ونحوه[1].

الخلاصة

وبعد هذه الدراسة المطولة للأحكام الواردة فى آيات سورة المائدة يجدر بنا أن نلخص نتائج هذه الدراسة .. وأن نستخلص أهم ما ورد فى ثنايا هذا الفصل فى النقاط التالية:

أولا: هذه الآيات الثلاث تعتبر أوضح آيات الحاكمية دلالة فى مسألة وجوب الحكم بما أنزل الله، وهى قطعية الدلالة فى ذلك.

ولكن دلالتها فى حكم من ترك الحكم بما أنزل الله دلالة ظنية .. وهذا مازاد من الجدل الدائر حولها فى أوساط الحركة الإسلامية.

ثانياً : هذه الآيات نزلت فى قوم من اليهود جحدوا حكم الرجم فى التوارة وحاولوا إنكاره، وإخفاءه عن رسول الله ﷺ.

ورغم خصوص السبب الذى نزلت الآيات بشأنه، إلا أن أكثر العلماء إن لم يكن كلهم .. على عموم حكمها فيمن شابه اليهود فى فعلهم من أهل الإسلام.

ثالثاً: هذه الآيات لم تنزل أساسًا فى الحكام أو الأمراء .. وإنما نزلت فى عوام اليهود وعلمائهم.

وهذا يعنى عموم حكمها لكل من ترك الحكم بما أنزل الله من المسلمين عوامهم وخواصهم، وحكامهم ومحكوميهم .. فليست خاصة بالحكام فقط كما هو متبادر إلى أذهان الكثيرين.

رابعًا: اتفق المفسرون على أن ألفاظ الكفر والظلم والفسق الواردة فى الآيات محمولة على النوع الأصغر منها، لا على ظاهرها من الكفر الأكبر .. والذى يعنى أن ترك الحكم بما أنزل الله لا يعد كفرًا أكبر، وإن كان معصية من المعاصى العظيمة.

---

(١) هناك بعض النفوس التى تميل بطبعها نحو الغلو والتشدد.. وأصحاب هذه النفوس غالبا ما يجعلون الصغيرة كبيرة .. والنافلة واجبًا .. والكفر الأصغر كفرًا أكبر .. فهؤلاء وأمثالهم كره علماء السلف كالإمام مالك وأحمد تحديثهم بما يقوى لديهم جانب الغلو والتنطع .. أو بما يثقل عليهم فهمه وتصوره من دقائق العقيدة ومسائل الأسماء والصفات لئلا يقعوا فى التشبيه والتجسيم أو فى النفى والتعطيل .. بل ندب الإمام الغزالى رحمه الله إلى تحديث أمثال هؤلاء بأحاديث ظاهرها الإرجاء وسعة الرحمة .. وذلك لتحقيق نوع من التوازن فى نظرتهم وأحكامهم.

خامسًا: الحكم بما أنزل الله عمل من أعمال الجوارح .. وترك شئ من أعمال الجوارح لا يقضى بكفر صاحبه .. وإن كان ينقص من إيمانه بقدر نقصان العمل .. وعلى هذا استقرت عقيدة أهل السنة والجماعة قديمًا وحديثًا.

سادساً: يعتبر الحكم بغير ما أنزل الله كفرًا أكبر إذا أضيف إليه أمر خارج عن الترك يدل دلالة واضحة على الكفر مثل الجحود أو الرد أو الاستهزاء أو الاستحلال وهنا يكون الكفر راجعًا لهذه الأمور لا لمجرد الترك .. أما ترك الحكم بما أنزل الله فقط لا يعد سببا فى تكفير صاحبه.

سابعاً: من صور الكفر الأكبر فى مسألة الحكم بغير ما أنزل الله:

(١) أن يجحد وجوب الحكم بما أنزل الله وينكره .. سواءً كان حاكمًا أو محكومًا.

(٢) أن يستهزئ بحكم الله ويسخر منه ويصفه بما لا يليق به من صفات.

(٣) أن يرفض حكم الله ويرده بقلبه ويأبى أن يذعن له أو يفضل غيره عليه.

(٤) أن لا يرى فرقًا بين أحكام الله القطعية وبين غيرها فهم عنده سواء .. وبالتالى يستحل ترك الحكم بما أنزل الله .. ولا فرق فى ذلك بين حاكم ومحكوم..

وهذه الصور جميعها بعيدة عن كل مسلم صادق الإسلام.

وبعد..

فليس معنى قولنا أن مجرد ترك الحكم بما أنزل الله لا يعد كفرًا أكبر، وأنه من جملة المعاصى والذنوب .. لايعنى ذلك الاستهانة بوجوب الحكم بما أنزل الله .. أو التقليل من شأن شئ من شريعة الإسلام.

حاشا، وكلا .. فلا يجرؤ على ذلك مؤمن يعرف قدر ربه .. ويحيط علمًا بعظمة هذه الشريعة الربانية .. والتى أظلت أمة الإسلام ردحًا طويلاً من الزمن.

فترك الحكم بما أنزل الله لا شك معصية كبيرة .. والمعاصى درجات متفاوته وإن ذنبًا سماه الله تعالى فى كتابه كفرًا أخطر بلا شك من ذنب لم يسمه القرآن كفرًا.. ومعصية معتادة ومتكررة أشد بأسًا وأعظم أثرًا من معصية نادرة الحدوث قليلة الوقوع .. وكما أن النظر بريد الزنا .. فالمعاصى بريد

الكفر والعياذ بالله.

«فليحاول كل مسلم أن يحكم شرع الله فى جميع شئونه .. وليسع جاهدًا فى تحرى أحكام الإسلام فى كل أموره صغيرها وكبيرها».

وهذا إن كان واجبًا فى حق عوام المسلمين - فهو فى حق أهل المسئولية وأصحاب الولاية أوجب وأهم .. ففى أعناقهم أمانة عظيمة .. وفوق كواهلهم عبء ثقيل يحاسبون عليه فى يوم تشيب لهوله الولدان .. ويسأل المولى عز وجل فيه كل راعٍ عن رعيته.

- هل أقام فيها حكم الله؟!

وهل سار فيها بأمر الله؟!

فالحذر كل الحذر من سوء الحساب .. والعاقل الرشيد هو الذى يعد لكل سؤال جوابًا.

وختامًا نقول:

كلمات نسر بها إلى شباب هذه الأمة .. وهم كعهدنا بهم دائمًا أنقياء القلوب أنقياء الجوارح .. ألاَّ يتسرعوا فى إطلاق الأحكام الشرعية فى أى موضع قبل التأكد من استيفاء شروط كل حكم. وانتفاء موانعه .. فإذا كان الأصل المتيقن فى أهل القبلة - وهم كل المسلمين بغير استثناء - هو الإسلام .. فإن اليقين لا يزول بالشك كما تقضى قواعد الفقه .. والأصل فى الإنسان براءة ذمته، فلا يلحق عيب فى دينه ولا فى دنياه إلاَّ بدليل يثبته .. وهذا من واسع الرحمة التى أودعها الحق سبحانه فى هذا الدين الخالد، الذى ارتضاه الحق سبحانه دينًا لخير أمة أخرجت للناس. وأتم به النعمه على عباده.

وإنا لننصح لهذا الشباب الطيب أن يقبل على مدارسة علوم الشريعة الغراء فذلك يعين على الفهم الصحيح للدين الحق .. وإنزال الأحكام على واقعها المناسب لها .. كذلك يحافظ على وسطية الإسلام العظيم فى القلوب وفى الحياة، بغير إفراط ولا تفريط.

وليعلموا أن الحماسة وحدها لم تنصر أبدًا شرعًا ولا دينًا رغم أهميتها .. فسرعان ما يهدأ أوارها، وتخمد حرارتها ولا يبقى إلا ما حصله العقل من فهم وإدراك وما حصله القلب من تقى

وإيمان، وما حصلته الجوارح من طاعة مخلصة لله عز وجل.

وإنا لنرجو الله عز وجل أن يحفظ هذه الأمة فى دينها ودنياها .. ويأخذ بيد أبنائها إلى فهم صحيح لدينه، وعمل صالح يرضيه .. ويعين أهل الحكم فى كل بلاد المسلمين على السعى الدائم نحو تحكيم شرعه وإقامه دينه ويحببهم فى الدين وأهله ويقربهم دومًا من دينهم العظيم.

ونسأل الله العلى القدير أن يلهمنا رشدنا .. وأن يوفق جميع المسلمين حكامًا ومحكومين إلى العمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ وألا يحرمنا بركات من السماء والأرض سوف تغشى حياتنا وتسعد بها مجتمعاتنا حين يسعى كل مسلم فى إقامة كتاب الله فى نفسه وأهله ومجتمعه.

الفصل الثالث

الحاكمية فى القرآن

شبهات وردود

يتناول هذا الفصل بالشرح والتحليل آيتين من الآيات القرآنية التى تحدثت عن قضايا الحكم والتشريع .. وقد اخترنا هذه الآيات بالذات دون غيرها لأنها تشكل استدلالاً قويا لدى دعاة التكفير

فالآية الأولى .. وهى قول الله تعالى : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله..» يعتمد عليها دعاة التكفير فى إطلاق حكم الكفر بغير حق على أعوان الحكام من الوزراء والضباط فى قطاعات الجيش والشرطة، وكذلك الجنود .. وقد بلغ غلو البعض منهم أن كفر بها جميع العاملين فى مؤسسات الدولة بمختلف قطاعاتها، وكذلك كل عوام المسلمين .. بل وصل الأمر إلى تكفير الفقهاء وأهل العلم ممن يتولون المناصب الرسمية فى الدولة كالأزهر والأوقاف(١) وغيرها ، وبعض دعاة التكفير ركبتهم قمة الشطط فكفروا بهذه الآية عوام المسلمين بحجة رضاهم عن الحكام وطاعتهم لهم ودخولهم فى مؤسسات الدولة، وكل ذلك بدعوى أن حكام العصر قد رفعوا أنفسهم إلى مرتبة الربوبية بتشريعهم قوانين مخالفة لقوانين السماء .. وبالتالى فكل من يطيعهم ويتبعهم على ذلك فقد عبدهم من دون الله ووقع فى الكفر والشرك.

أما الآية الثانية . . وهى قول الله عز وجل: «أفحكم الجاهلية يبغون .. ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون» .. فقد تداولها كثير من الشباب المسلم .. وتداولوا ما ورد فى تفسيرها من قول الإمام ابن كثير المشهور .. ولكنهم وضعوها فى غير موضعها .. واعتبروها دليلاً على كفر من ترك التحاكم إلى شئ من شريعة الله أو حكم بغيرها وإن كان ذلك بغير جحود ولا استحلال .. ومن ثم حكموا بالكفر على الكثير - إن لم يكن كل - حكام المسلمين اليوم لامتناعهم عن الحكم بشئ من الشريعة حتى ولو كانوا مقرين بها غير جاحدين لوجوبها.

---

(١) وأبرز مثال على ذلك قيام جماعة التكفير والهجرة فى مصر فى السبعينيات بتكفير كل العلماء الذين يتولون مناصب فى الدولة مهما كانت صغيرة .. وتكفير العلامة الشيخ الدكتور محمد الذهبى وزير الأوقاف وقتها، واختطافه وقتله قتلة بشعة.

وقد عقدت هذا الفصل خصوصًا لدراسة هذه الآيات دراسة أمينة ومحايدة مستعينًا بالله تعالى ثم بأقوال السلف والعلماء والمفسرين فى تلك الآيات ..

فلنعش سويًا مع بعض المعانى الجليلة التى احتوتها هذه الآيات من خلال قراءتنا لتلك الدراسة الموضوعية المنصفة.

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾.

تعتبر هذه الآية الكريمة واحدة من أهم الآيات التى استند عليها دعاة التكفير فى بدعتهم .. فقد كانت هذه الآية بعينها - ولا زالت - هى الأساس الذى انطلقوا من خلاله نحو تكفير عوام المسلمين .. وذلك بناء على ظنهم بأن حكام المسلمين اليوم قد نازعوا الله تعالى أخص خصائص الربوبية .. ألا وهى الحكم والتشريع للبشر .. فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحله .. ثم تابعهم من ذلك عوام المسلمين وجماهير الشعب.. فاتبعوهم فى تحريم ما أحل الله، وفى تحليل ما حرمه سبحانه .. وهذا يعنى بنص الآية الكريمة أنهم قد اتخذوا الحكام أربابًا من دون الله ما داموا قد أطاعوهم فى التحريم والتحليل .. وما داموا قد سلموا لهم بحق من حقوق الربوبية التى لا يجوز أن تصرف لغير الله تعالى.

وقد عضد هؤلاء مذهبهم الخاطئ بذكر السبب الذى نزلت من أجله هذه الآية وهو ما رواه الإمام أحمد عن عدى بن حاتم أنه دخل على رسول الله - ﷺ وفى عنقه صليب من فضة، فقرأ رسول الله - ﷺ - هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»(1).. قالوا: إن عديًا كان يظن العبادة هى مجرد الركوع والسجود فحسب ولكن رسول الله - ﷺ - صحح له مفهوم العبادة .. وأوضح له أن من أهم معانيها الطاعة والاتباع .. فكل من أطاع غير الله واتبعه فى تحريم ما أحل وتحليل ما حرم فقد عبده من دون الله تعالى .. وبذلك يكفر عوام المسلمين وجماهيرهم لأنهم قد أطاعوا الحكام فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله.

(1) تفسير ابن كثير (٤ / ٩٣) .. والحديث رواه أحمد والترمذى وحسنه.

هذا هو مجمل ما تنادى به دعاة التكفير .. وأخرجوا به الأمة من دائرة الإسلام فما مدى صحة هذا القول؟! وهل حقًا ما ذهبوا إليه من أن كل طاعة لغير الله فى التحليل والتحريم تعد كفرًا؟! وهل يصح إنزال حكام اليوم منزلة الأحبار والرهبان فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه؟ وما هو القول الفصل فى مسألة الطاعة والاتباع؟!

وللإجابة على هذه الأسئلة الهامة .. ولإلقاء مزيد من الضوء على جوانب هذه القضية يجدر بنا أن نتوقف مع تلك الآية الكريمة عدة وقفات:

الوقفة الأولى: مفهوم العبادة بين الاعتدال .. والاختزال:

إن العبادة هى الغاية التى خلق الله الخلق لأجلها .. قال تعالى« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» . وقد كانت هذه الكلمة هى محور الرسالات وهى العامل المشترك بين دعوة الرسل جميعًا .. فما من رسول بعثه الله فى قومه إلا دعاهم لعبادة الله وحده .. ونبذ كل ما يعبد من دون .. قال عز وجل «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» .. وتوجت تلك المسيرة المباركة التى حملت لواء الدعوة إلى عبادة الله وحده على مر الزمان بخاتم الرسل محمد - ﷺ - فجاءت دعوته تحمل لواء التوحيد .. وترفع شعار (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد) .. ولأنها خاتم الرسالات ومنتهى الوحى، فقد أنزل الله فيها لعباده ما يصلح دنياهم وآخرتهم .. فلم يترك خيرًا فى دين ولا دنيا إلا وأرشد الناس إليه .. وصدق عز وجل حين قال: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

وقد جعل الله سبحانه العبودية الحقة فى اتباع أوامره واجتناب نواهيه .. بل جعل أصل العبادة ولبها فى التسليم لله عز وجل بحق الأمر والنهى، والتحليل والتحريم .. فما دام هو الخالق سبحانه، فهو الأحق بالأمر والنهى «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين».

واليوم، غاب عن بعض الناس حقيقة العبودية .. فظنوا أن العبادة هى الركوع والسجود فحسب .. واختزلوا العبادة بذلك الظن فى جانب واحد من جوانبها، وهو الشعائر التعبدية فقط .. وهو عين ما ظنه عدى بن حاتم وفهمه من مفهوم العبادة .. ولذلك بدت عليه أمارات الدهشة والتعجب حين تلا عليه النبى - ﷺ - هذه الآية ، وقال مندهشًا: إنهم لم يعبدوهم فبين له النبى

- ﷺ - معنى العبادة هنا، ألا وهو التسليم لهم بحق التحليل والتحريم .. مصادمة لشرعة الله.

إن العبادة مفهوم شامل لكافة جوانب الحياة .. وهو غير قاصر على الشعائر التعبدية فقط .. بل إنه ينتظم فى سلكه الشعائر والشرائع والمعاملات والأخلاق والسلوك وباختصار، هو مفهوم شامل لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ظاهرها وباطنها .. وصدق المولى - عز وجل - حين قال فى كتابه «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين .. لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».

فكما أن المسلم مأمور بألا يسجد لغير الله .فكذلك يجب عليه ألا يسلم لأحد بحق التحليل والتحريم غير الله تعالى .. وبذلك تكتمل العبودية الحقة لله - عز وجل - ويحقق المسلم مراد الله منه .. والغاية التى لأجلها وجد فى هذا الكون.

الوقفة الثانية: فيمن نزلت هذه الآية؟

يقول دعاة التكفير: إن الله تعالى فى هذه الآية قد وصم الذين يطيعون الأحبار والرهبان فى التحليل والتحريم بالشرك والكفر .. واعتبرهم عبيدًا لأولئك الرهبان والأحبار لا عبيدًا للواحد القهار .. وبناءً على هذا، ذهبوا إلى تكفير جميع المسلمين فى مجتمعاتنا لأنهم - فى زعمهم - أطاعوا حكامهم فى تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله.

ونقول لهؤلاء: لقد أخطأتم فيما ذهبتم إليه خطأ بينًا .. وبنيتم رأيكم على مقدمات خاطئة من الأساس .. فكان من الطبيعى أن تأتى النتائج أيضًا خاطئة .. وحتى نتبين معًا مواطن الزلل ومواضع الخطأ فيما ذهبتم إليه، تعالوا بنا أولاً نكشف بعض الحقائق حول هذه الآية وسبب نزولها ومعنى الطاعة الوارد فى أقوال بعض مفسريها.

فعن عدى بن حاتم قال: «أتيت النبى - ﷺ - وفى عنقى صليب من ذهب، فقال يا ابن حاتم ألق هذا الوثن من عنقك .. فألقيته .. ثم افتتح سورة براءة حتى قول الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» الآية.. فقلت يا رسول الله، ما كنا نعبدهم، فقال كانوا يحلون لكم

الحرام فتستحلونه ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه، فقلت: بلى (أى نعم) قال: فتلك عبادتكم إياهم»[١].

وفى الدر المنثور .. روى الترمذى (وحسنه) وابن المنذر وغيرهما عن عدى بن حاتم .. رضى الله عنهما .. قال: «أتيت النبى - ﷺ - وهو يقرأ فى سورة براءة: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» فقال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذ أحلوا لهم شيئًا .. استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه)[٢]

فهذه الآية ترسم لنا صورة متكاملة الأطراف قائمة فى مجتمعات اليهود والنصارى عند مبعث النبى - ﷺ - الطرف الأول من الصورة هم الأحبار والرهبان أى العلماء والفقهاء الذين يفترض أنهم الأمناء على دين الله الحريصون على بيان أحكامه وشرائعه كما نزلت من السماء .. ولكن هؤلاء الأحبار والرهبان خانوا هذه الأمانة .. بدلاً من قيامهم على حراسة الدين وتنفيذ أوامره، إذا بهم يستغلون منصبهم، وثقة الناس فيهم فى تغيير ثوابت الدين وقواعده .. فيحلون لأتباعهم ما حرم الله، ويحرمون عليهم ما أحل لهم عن قصد وإرادة وتعمد .. وعن علم بقطعية ما يستحلون وما يحرمون فيخرجون علي الناس بدين جديد من عنديات أنفسهم ما أنزل الله به من سلطان ويقولون لهم: هذا ما أحل الله، وهذا ما حرم.

أما الطرف الثانى من هذه الصورة فهم أولئك الهمج الرعاع الذين صموا آذانهم عن صوت الحق وأغمضوا عيونهم عن نوره .. وأسلموا قيادهم للأحبار والرهبان فاتبعوهم .. لا عصياناً وتقصيرًا .. بل استحلالاً لما حرم الله تعالى، وتحريمًا لما أحله.

إن هؤلاء الأتباع كانوا يعرفون حدود ما حرم الله ولكنهم مع ذلك، آستحلوا ماأحله علماؤهم وحرموا ما حرموه عليهم بدافع الهوى والميل فى نفوسهم وبذلك أقروا لهم بحق من الحقوق التى لا ينبغى أن تصرف لغير الله تعالى .. ألا وهو حق التشريع والتحليل والتحريم .. ولو أن أولئك الأتباع فعلوا ما حرم عليهم وهم مقرون بذنبهم، معترفون بمخالفتهم، غير مقرين بالتحليل والتحريم إلا لله وحده ما وصموا بما وصموا به من الكفر والإشراك والعبودية لغير الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذى .. وهو فى القرطبى (٦ / ٢٩٧)

(٢) فى ظلال القرآن (٣ / ١٦٤١) والحديث رواه أحمد والترمذى وحسنه

ولعل الروايات السابق ذكرها فى سبب نزول الآية تدل دلالة صريحة على هذا الكلام .. وعلى أن كفر الأتباع لم يكن لمجرد مخالفتهم لأمر الله وارتكابهم ما حرم الله فهذا الفعل غايته أن يكون معصية وذنبًا لا يسلم منها أحد .. وإنما جاء كفرهم وشركهم بالله تعالى من طريقين اثنين.

الأول: أنهم جعلوا أحبارهم ورهبانهم بمنزلة الرب الذى له حق التحليل والتحريم من دون الله تعالى .. وقد سمى الله تعالى فعلهم «اتخاذًا» فقال - عز وجل - «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله» .. ونظير هذا قول الله تعالى فى بنى إسرائيل لما عبدوا العجل .. «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين».

الثانى: أنهم لم يطيعوهم فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه على سبيل العصيان والتقصير فى حق الله .. وإنما فعلوا ذلك استحلالاً لما حرم الله تعالى واعتقادًا بقلوبهم حله وإباحته .. وهنا يكمن سر كفرهم وسبب مروقهم عن دينهم .. وقد جاء هذا المعنى صريحًا فى رواية الترمذى السابقة (كانوا يحلون لكم الحرام فتستحلونه ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه).

وعلى ذلك يكون الأمر فى هذه المسألة متعلقًا بكل من الحاكم والمحكوم .. أو التابع والمتبوع .. فإذا اعتقد الحاكم أو العالم أو المتبوع أن منصبه يتيح له حق التشريع للناس من عند نفسه بما يناقض شرع الله ويعطيه حق تحريم الحلال القطعى من الدين، وتحليل الحرام القطعى منه فإنه بذلك يضع نفسه ندًا لله تعالى .. ويجعل من ذاته إلهًا وربًا يعبد من دون الله .. وهذا ما صنعه الأحبار والرهبان الذين تحدثت عنهم الآية.

فإن تابعه المحكوم أو التابع أو العامة على هذا الفهم واعتقدوا معه ذلك الاعتقاد وأقروا له بقلوبهم هذا الحق .. وجعلوا ما يأخذون منه دينًا يتبع، وشريعة تنفذ .. فقد رفعوه فى مقام الربوبية والألوهية .. واستحقوا بذلك الفعل المروق من دين الله بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع طبعًا .. لأنهم عبدوه من دون الله تعالى.

الوقفة الثالثة : القول الفصل فى مسألة الطاعة والاتباع

سيقول قائل: لقد فهمنا من سابق كلامكم فى هذه الآية الكريمة أن هناك فرقًا بين الطاعة فى المعصية وبين الطاعة فى الاعتقاد ... فقد بينتم أن من أطاع غير الله فى معصية الله كان عاصيًا لا كافرًا، أما من أطاع فى الاعتقاد بأن استحل ما حرم الله أو حرم ما أحله فهو كافر لأجل هذا الاعتقاد حتى ولو لم يفعل ذلك المحرم أو يرتكب تلك المعصية.

وقلتم أيضًا: إن السر فى كفر أولئك الذين اتبعوا الأحبار والرهبان فى هذه الآية لم يكن مجرد طاعتهم فى فعل معصية أو ترك واجب، وإنما لطاعتهم إياهم فى استحلال تلك المعصية وتحريم ما أباح الله تعالى.

ولو سلمنا معكم بما تقولون.. فما رأيكم فى قول الله تعالى «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» .. أين ستذهبون من هذه الآية الصريحة التى جعلت من طاعة أولياء الشيطان شركًا بالله تعالي .. ولم تفرق بين الطاعة فى المعصية وبين الطاعة فى الاعتقاد كما ادعيتم .. وبصراحة ، لقد حارت عقولنا فى مسألة الطاعة والاتباع .. واشتاقت نفوسنا للقول الفصل فيها عله يطفىء لهيب هذا القلق .. ويسكن بعضًا من تلك الحيرة والاضطراب.

ونقول لذلك السائل: هون عليك الأمر أيها الكريم .. فالخطب بإذن الله يسير .. ولو أطلت النظر قليلاً مع هذه الكلمات فسيطمئن قلبك، وسيسكن فؤادك ولعل الله تعالى يهديك إلى الحق فى هذه المسألة بصدقك فى السعى إلى الصواب فأنا أشم رائحة الصدق تفوح من سؤالك .. وعبير الحرص على بلوغ الحق ينتشر من بين كلماتك.

والحقيقة إن هذه الآية التى تحار فى فهمها إنما تعد دليلاً آخر على ماذهبنا إليه من أن الطاعة فى المعصية تعد معصية لا كفرًا .. وأن الطاعة فى الشرك والكفر تعد كفرًا.

فقد نزلت هذه الآية الكريمة تحذر الفئة المؤمنة من متابعة أهل الشرك فى استحلال أكل الميتة التى حرمها الله .. وتحريم الأكل من الذبيحة التي جعلها الله حلالاً للمسلمين وهذا هو الشرك بعينه .. قال عكرمة: «كتبت فارس إلى مشركى قريش: إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون

أمر الله، فما ذبح الله بسكين من ذهب (أى الميتة فى زعمهم) فلا يأكلون .. وما ذبحوه هم يأكلونه .. فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله - ﷺ - فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء .. فأنزل الله هذه الآية[(1)].

يقول ابن كثير -رحمه الله - «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» .. أى حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره .. فهذا هو الشرك[(2)].

فتأمل أخى الحبيب قول ابن كثير «فقدمتم عليه غيره» ليتضح لك سر الشرك وسبب الوقوع فى الكفر .. فليس الكفر متعلقًا بمجرد مخالفة الأمر وارتكاب المعصية .. وإنما السر فى تقديم غير شرع الله على شرع الله .. وتفضيل غير كلام الله على كلام الله .. وحين يكون شرع الله وكلامه خلف الظهور، وفى المؤخرة .. فأى شرك وكفر بعد ذلك؟!

ويزيد الإمام الطبرى الأمر وضوحًا فى تفسير قوله تعالى «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» فيقول - رحمه الله - «أى: قد صرتم مثلهم إذا استحللتم الميتة بعد تحريمها عليكم، كما استحلوها هم»[(3)].

إن الأمر هنا فى هذه الآية ليس متعلقاً بارتكاب ذنب من الذنوب، أو اقتراف معصية من المعاصى .. ولكنه متعلق بتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه .. إنه يتعلق بالطاعة فى الاعتقاد الذى لو أقر به صاحبه دخل فى الشرك والكفر الأكبر .. وليس متعلقًا بالطاعة فى المعصية والذنوب التى تدخل صاحبها فى حيز الفسق مع بقائه داخل دائرة الإسلام.

ألا ترى أن أكل الميتة لا يعدو أن يكون محرمًا من المحرمات لا يكفر مرتكبه؟! وقد أجمع العلماء على ذلك .. وأجمعوا على أن مرتكب الحرام آثم مذموم، ولكنه لا يكفر بحال من الأحوال مادام غير مستحل لذلك الحرام .. ومادام الأمر كذلك فلا شك أن الطاعة التى ترتب عليها الوقوع فى الشرك فى هذه الآية ليست مجرد طاعة فى ارتكاب المعصية فحسب .. فهذه لا ترقى إلى مرتبة الشرك أو الكفر .. إذن، فهى الطاعة فى الاعتقاد واستحلال ما حرم الله كما ذكرنا سابقًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٨)

(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٨).

(٣) مختصر تفسير الطبرى / يحيى بن صمادح (ص ١٤٣).

ولتسمع أخى الكريم بقلبك قبل أذنك لهذه الكلمات الصريحة الواضحة من بعض علماء الإسلام .. والتى تؤكد تلك المعانى تأكيدًا لا شك فيه ولا اضطراب:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية «من اتبع فى العمل فقط، فلم يستحل الحرام كان فاسقًا .. أما من اتبع فى الاعتقاد باستحلال الحرام، وتحريم الحلال كان كافرًا»(١)

- وقال الإمام أبو بكر بن العربى - رحمه الله - «إنما يكون المؤمن مشركًا بطاعة المشرك إذا أطاعة فى الاعتقاد .. فإن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص فافهموه»(٢).

ولعل هذه الأقوال لا تحتاج إلى مزيد إيضاح وبيان.. فوضوحها يغنى عن إيضاحها .. وبيانها يغنى عن تبينيها .. ولأجل هذا التفصيل فى مسألة الطاعة والاتباع لم يضع شيخ الإسلام ابن تيمية أولئك المتبعين للأحبار والرهبان فى سلة واحدة ولم يجعلهم جميعًا فى دائرة الكفر .. بل فصل القول فيهم حسب نوع طاعتهم واتباعهم للأحبار والرهبان، فقال: هم على وجهين:

أحدهما: أشخاص يعلمون أن الأحبار والرهبان بدلوا دين الله، فاتبعوهم على هذا التبديل، فاعتقدوا بتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم بمخالفتهم دين الله، فهذا كفر .. وسماه النبى - ﷺ - شركًا ولو لم يصلوا لهم ويسجدوا لهم.

الثانى: يكون اعتقادهم بالتحليل والتحريم ثابتاً ولكن أطاعوهم فى المعصية، كالمسلم يفعل المعاصى ويعتقد أنها معصية، فهؤلاء حكمهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب أى ليسوا أهل كفر وردة»(٣).

وصدق شيخ الإسلام .. فهل هناك عاصٍ لا يطيع الشيطان بمعصية؟! وهل هناك مذنب لم يتبع وساوس الشيطان حتى وقع فى ذنبه؟! فهل قال أحد من علماء المسلمين بكفر أهل المعاصى والذنوب لأنهم أطاعوا الشيطان واتبعوا وساوسه؟! أم أنهم فرقوا بين العاصى الذى غلبته نفسه

(١) مجموع الفتاوى (٧ / ٢٠٣)

(٢) أحكام القرآن.

(٣) الحكم، وقضية تكفير المسلم، المستشار سالم البهنساوى ص ٩٧ .

على ارتكاب الذنب وهو مقر بتحريمه ومعتقد بأنه معصية .. وبين المستحل للذنب المستبيح لما حرم الله تعالى؟!

خلاصة القول:

وخلاصة القول فى مسألة الطاعة والاتباع أن الكفر لا علاقة له بارتكاب المعصية .. بل باستحلالها، واعتقاد استباحتها وقد حرمها الله تعالى .. فالطاعة فى المعصية معصية .. والطاعة فى الكفر كفر .. وكذلك الطاعة فى الواجب واجبة والطاعة فى المباح مباحة .. ولا يرتبط حكم الطاعة بمن يأمر بالأمر .. المهم ما هو مضمون هذا الأمر؟! وما هو حكمه؟! هل هو واجب فتكون الطاعة واجبة أم محرم فتكون محرمة أيا كان شخص من يأمر بها ويدعو إليها.

ألا ترى لو أن مسلمًا يعق والديه وأمره كافر أو مشرك ببرهما .. فهل تكون طاعة هذا الكافر محرمة فى هذه المسألة لأنه كافر؟! أم يا ترى تكون واجبة؟!

وكذلك لو أن مسلمًا يدمن تعاطى المخدرات، وجاءه يهودى أو نصرانى، أو غير مسلم أمريكيا كان أو بريطانياً أو حتى بوذى أو مجوسى .. فأمره واحد من هؤلاء أن يترك تعاطى المخدرات وأن يقلع عنها .. فما حكم طاعته فى هذا الأمر؟!

لا شك أن الطاعة هنا واجبة .. لا لشخص الآمر، وإنما لوجوب ما أمر به، وعلى ذلك، يمكننا أن نقول إن الطاعة حكمها حكم الشئ المأمور به

فالطاعة فى الكفر كفر .. والطاعة فى الشرك شرك

والطاعة فى الواجب واجبة .. وفى المستحب مستحبة

والطاعة فى الكبيرة كبيرة .. وفى الصغيرة صغيرة

وبهذا يتضح لنا مدى الخطأ الذى وقع فيه دعاة التكفير حين أستندوا لهذه الآية فى تكفير كل من أطاع الحكام من عوام المسلمين وجماهيرهم أيا كان ما يأمر به هؤلاء الحكام .. بل غالى بعضهم

فكفر أتباع المذاهب الأربعة بل كفر أيضًا كل من يقلد عالمًا من العلماء، وكل من يتبنى رأيًا فقهيًا يخالف ما ذهبوا إليه .. وكل ذلك من جراء الفهم السقيم لهذه الآية.

ولعلنا نكون بهذه الكلمات قد أوضحنا المقصود من هذه الآية الكريمة .. ووفقنا لبيان القول الفصل فى مسألة الطاعة والاتباع .. نسأل الله العلى القدير أن يلهمنا رشدنا .. وأن يجنبنا الزلل ويلهمنا الصواب والرشاد .. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

قال الله عز وجل:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

جاءت هذه الآية الكريمة فى ختام ربع من آيات سورة المائدة قد انصب التوجيه القرآنى فيه بكامله على قضية الحكم والتشريع والتقاضى بين الناس[1] .. وذلك من خلال استعراض صورة منفرة للتفلت من أحكام الشريعة الربانية .. والعدول عنها، وتفضيل غيرها عليها ..

وقد جرت وقائع هذه الصورة فى عهد النبى - ﷺ - وبعد هجرته إلى المدينة المنورة .. وساهم فى رسم ملامحها فئة من اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة قبل مجئ النبى .. - ﷺ- وأصحابه المهاجرين من مكة .. هؤلاء اليهود ذهبوا إلى رسول الله .. ﷺ .. يستفتونه فى بعض الجرائم التى ارتكبها أناس منهم .. والتى كان لها حد معلوم فى التوراة .. ولكنهم تواطئوا على إنكاره وجحده وتآمروا على استفتاء النبى - ﷺ - فى هذه الجريمة لعله يفتى بعقوبة مخففة .. فتكون لهم مهربًا من التقيد بأحكام شريعتهم .. وحجة يتحايلون بها للتهرب من تنفيذ حكم الله.

المهم أن آيات هذا الربع نزلت بكاملها تعليقًا على خبيث فعلهم .. وبياناً لضلال سعيهم .. وتنبيها للمسلمين وتحذيرًا لهم من الوقوع فيما وقعوا فيه .. وجاءت هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها متوجة لهذا التوجيه القرآنى الراشد .. وناعية على تلك الثلة من بنى يهود إيثارهم غير

---

(١) راجع آيات سورة المائدة (٤١ - ٥٠) وتفسير ابن كثير فيها.

حكم الله على حكمه .. وتفضيل قلوبهم لشرائع الأحبار على شريعة الله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغون .. ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون».

وعلى الرغم من اتضاح مدلول هذه الآية الكريمة .. وعدم غموض معناها، لاسيما حين توضع فى سياقها القرآنى المترابط المتسلسل .. وحين تفهم من خلال الحادثة التاريخية التى نزلت فيها مع غيرها من الآيات .. إذ أنها تحمل استنكارًا صريحًا واضحًا لكل من توجهت إرادته القلبية لغير حكم الله وشرعه «أفحكم الجاهلية يبغون» وتتضمن تبكيتًا شديدًا لكل من ظن أن حكم غير الله أحسن من حكم الله تعالى، أو اعتقد أن شرائع الجاهلية المخالفة لما أنزل الله خير وأفضل من شريعة الله.

أقول: رغم وضوح مدلول هذه الآية، إلا أنها قد التبست على أذهان الكثيرين وحار البعض فى فهمها على الوجه الصحيح .. فاعتبروها دليلاً واضحًا على تكفير كل حاكم .. يقصر فى الحكم ببعض شرائع الدين أو يمتنع عن الالتزام ببعض أحكامه .. وذلك بدعوى أنه بتركه للحكم بشئ مما أنزل الله يكون قد عدل عن حكم الله إلى حكم الجاهلية .. وفضلها على شريعة الإسلام.

ولعل السبب فى ذلك الخلط الناشئ، حول هذه الآية الكريمة يعود إلى اقتطاعها من بين ثنايا السياق القرآنى الذى وردت فيه .. ومحاولة فهمها بمعزل عن سبب نزولها الذى ذكرناه مفصلاً فى فصل آخر من هذا الباب(١).

إلا أن أهم أسباب الخلط فى مدلول هذه الآية وحدوث الالتباس فى فهمها على الوجه الصحيح يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ - الغموض والإبهام الذى يلف مصطلح الجاهلية فيما ذكره بعض المفسرين .. وهو ما يجعل المتبادر إلى الذهن حينما تذكر الجاهلية هو كل ما يناقض أصل الدين ويذهب بأساسه.

٢ - فتوى الإمام ابن كثير- رحمه الله - فى كفر من تحاكم إلى الياسق من التتار .. والتى ذكرها فى معرض تفسيره لهذه الآيه الكريمة .. وحملها بعض الشباب على واقعنا هذه الأيام دون مراعاة لضوابط نقل الفتوى وشروط القياس الصحيح .. ودون تأمل لألفاظ

(١) انظر فصل: دراسة موضوعية لآيات الحاكمية.

هذه الفتوى وكلماتها التى تغاير فى مدلولها ما فهمه أولئك الشباب.

ونظرًا لأهمية هذه الآية العظيمة .. ونظرًا لتداولها على نطاق واسع فى أوساط الشباب المسلم كدليل من أدلة كفر الحاكم بغير ما أنزل الله .. فقد آثرنا أن تكون لنا معها هذه الوقفات بيانًا لأحكامها، واستجلاءً لغوامض معانيها:

الوقفة الأولى: حكم الجاهلية بين المعصية والكفر

لطالما عانت الذهنية الإسلامية خلال مسيرة تفكيرها من شيوع بعض المصطلحات التى تحمل قدرًا كبيرًا من الإجمال والغموض .. والتى انتشرت على الألسنة ، وتداولتها أقلام الكتاب دون أن توضح لها الضوابط والقيود التى تحرر مضمونها وتضبط دلالتها .. وقد نتج عن هذا الإجمال والغموض الذى تحمله تلك الألفاظ والمصطلحات مفاسد جمة على مستوى الفكر والنظر .. وعلى مستوى السلوك والتطبيق.

وتعتبر لفظة «الجاهلية» أحد النماذج الصارخة على هذه الإشكالية الفكرية .. فكلمة «الجاهلية» فى الحقيقة هى كلمة فضفاضة مبهمة تحمل فى طياتها معانٍ شتى .. تشير فى مضمونها إلى مساحة واسعة من المخالفات الشرعية التى تبدأ بالمعصية الصغيرة، وتنتهى بالكفر الأكبر المخرج عن الملة.

فالكفر فى حقيقة الأمر لون من ألوان الجاهلية .. بل هو أشد ألوانها حلكة وظلامًا .. والكبيرة التى حرمها الله تعالى ورتّب عليها العقوبة الشرعية نوع من أنواع الجاهلية .. وكذلك الذنب والمعصية الصغيرة شكل من أشكال الجاهلية!!

بل إن وصف الجاهلية ينطبق على كل خلل فى الاعتقاد والتصور تجاه الله تعالى وتجاه توحيده والإيمان به.

فإنكار وجود الله جاهلية .. وإثبات وجوده مع إشراك غيره معه جاهلية .. ونسبة الصاحبة والولد له سبحانه جاهلية .. واتخاذ أحد من الخلق وسيطًا إليه أو شفيعًا من دون إذنه جاهلية.

كما يصح أن تكون الجاهلية وصفًا لأى خلل فى السلوك والعمل .. ونعتًا لأى مخالفة لما أمر الله فى الممارسة والتطبيق.

فعقوق الوالدين جاهلية .. وسباب المسلم وتعييره جاهلية .. والوقوع فى الزنا وشرب الخمر وغيرهما من المحرمات جاهلية .. والتفريط فى الأمانة جاهلية والكذب والغش والخداع والتدليس، وكل ذلك من صور الجاهلية.

وبعد كل هذه الأطياف المختلفة والمتنوعة من التصورات والاعتقادات والأعمال والسلوكيات .. والتى تندرج جميعها تحت مسمى واحد ألا وهو «الجاهلية» أليس من حقنا أن نتساءل:

ما هو المقصود تحديدًا بكلمة «الجاهلية»؟!

وهل تحمل هذه الكلمة وصفًا ثابتًا، وحكمًا شرعيًا واحدًا نرجع إليه مباشرة لتقييم كل ما يوضع بجواره وصف الجاهلية؟!

أو بمعنى آخر: هل جاهلية الكفر والشرك تستوى فى الحكم مع جاهلية الذنب والمعصية؟!

هل جاهلية الاعتقاد مثلها مثل جاهلية العمل والسلوك سواء بسواء؟!

الإجابة بالطبع لا: وهنا تكمن خطورة الخلط بين صور الجاهلية وأنواعها المختلفة .. ويحدث الخلل والخطأ من جراء عدم التفريق بينها فى الحكم والتقييم.

ولفض هذا الاشتباك يلزمنا أن نصنف صور الجاهلية جميعها إلى قسمين أساسيين ولكل قسم منهما حكم يختلف عن القسم الآخر.

القسم الأول: جاهلية الاعتقاد: ويندرج تحتها كل انحراف فى التصور أو خلل فى الاعتقاد مما يؤدى بصاحبه إلى الخروج من دائرة الإسلام .. وهو يشمل جميع التصورات الباطلة والاعتقادات المنحرفة عن المنهج القويم فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

القسم الثانى: جاهلية العمل والسلوك : ويندرج تحتها كل مخالفة لأمر الله وكل معصية له سبحانه فى الجانب العملى مما لا يخرج بصاحبه من دائرة الإسلام.

وفى هذا القسم من الجاهلية يدخل فعل الصحابى الجليل أبى ذر - رضى الله عنه - حين سب أخاه بلالاً - رضى الله عنه - فقال له النبى - ﷺ - (إنك امرؤ فيك جاهلية)[١] .. أى معصية وذنب يستوجب الاستغفار والتوبة.

ومن ذلك أيضًا ما تنادى به بعض المهاجرين والأنصار من دعاوى العصبية فى غزوة المريسيع حتى كاد القتال ينشب بينهما .. فقال النبى - ﷺ - لما بلغه الأمر «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة»[٢].

فهذا الذى وقع من أبى ذر - رضى الله عنه - ومن بعض الصحابة الكرام لا يعدو ذنبًا ومعصية سماها النبى - ﷺ - جاهلية .. ولكن لم نسمع أن أحدًا جعل من مخالفة هؤلاء الصحابة سببًا لتكفيرهم بسبب ما وقعوا فيه من خصال الجاهلية.

والمقصود أن كلمة «الجاهلية» لا تحمل بذاتها معنى الكفر الأكبر .. بل إن الأصل فيها هو المعصية والذنب .. فكل من عصى الله تعالى فهو جاهل سواء كان عصيانه خطأً أو عمدًا كما قال مجاهد وغيره من المفسرين فى تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[٣] .. وقد تكون الجاهلية كفرًا إن دخلت فى نطاق الاعتقاد والإيمان.

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .. ونقرر بناءً على ما سبق أن «حكم الجاهلية» الذى ورد التحذير منه، والتنفير من إرادته وابتغائه، ينطبق على ما سبق من تقسيم .. فهو كفر أكبر إذا داخله شىء من الاعتقاد كتفضيله على حكم الله .. أورد حكم الشريعة ورفض القلب لأوامرها لأجله أو ما شابه ذلك.

---

(١) رواه البخارى عن أبى ذر.

(٢) رواه البيهقى عن جابر بن عبد الله، وانظر سيرة ابن هشام ١ / ٥٥٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ١٦٨).

وهو معصية وذنب إذا كان العمل به مقرونًا بالإقرار بحكم الله وتفضيله على ما سواه، واعتباره الحكم الأعلى والمرجع الأصيل .. فحينئذ يكون الوقوع فى شئ من حكم الجاهلية من جملة المعاصى والذنوب والمخالفات.

ولا فرق فى هذه الحالة بين حاكم أو محكوم .. فكل من ترك حكم الله تعالى إلى شئ من حكم الجاهلية فهو عاص على أقل تقدير سواء كان محكومًا أو حاكمًا .. وقد أوضحنا ذلك تفصيلاً فى مواضع عدة من هذا الكتاب.

ولذلك ركزت الآية الكريمة على معنيين مهمين بخصوص حكم الجاهلية وهما:

١ - الإرادة القلبية .. والتى بدت واضحة فى قوله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغون» فكلمة يبغون .. تحمل معنى الإرادة والاشتهاء القلبى.

٢- اعتقاد الأفضلية .. والذى بدا واضحًا فى النصف الثانى من الآية «ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون».

هذان المعنيان هما لب القضية .. وهما السبب الرئيسى فى تكفير اليهود الذين عدلوا عن حكم الله ونزلت فيهم هذه الآيات .. وهو أيضًا سبب رئيسي لكفر كل من يقع فيهما على مر العصور .. فليس مناط الكفر هو ترك شئ من شريعة الله .. أو العمل بشئ من حكم الجاهلية مادام مقرًا بقلبه لحكم الله ومعتقدًا أفضليته المطلقة على ما سواه.

ولكن الكفر حقًا فى إرادة شئ من حكم الجاهلية ولو كان يسيرًا إرادة قلبية أو تفضيل حكم الجاهلية على حكم الله وتقديمه على أوامر الشريعة الغراء.

الوقفة الثانية : نقل الفتوى .. ضوابط وشروط

ذكر الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فى تفسيره لهذه الآية التى نحن بصددها فتوى شهيرة بتكفير وقتال من لم يحكم بما أنزل الله .. وهذه الفتوى تعد من أشهر ما يتردد على ألسنة الشباب المسلم فى هذا الباب .. ومن أقوى ما يستند عليه البعض فى تكفير وقتال من لم يحكم بكامل الشريعة.

ولأن هذه الفتوى قد أحاطت بها ظروف وملابسات معينة أسس عليها الإمام ابن كثير ما ذهب إليه فيها .. فسوف نعيد النظر فيها متأملين كلماتها وألفاظها .. ومتلمحين ظروفها وملابساتها .. وكل ذلك بغرض الإجابة على سؤال محدد:

هل يصلح نقل هذه الفتوى إلى واقع بلاد المسلمين اليوم؟!

وما هى الأسس التى بنى عليها ابن كثير - رحمه الله- فتواه؟ والتى لو توفرت فى هذا العصر صح نقل الفتوى وتطبيقها فى واقعنا؟

بداية، وقبل التعليق على هذه الفتوى يجدر بنا أن ننقلها بكاملها كما وردت فى تفسير قوله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغون .. ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون» .. يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله- «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله .. كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق .. وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها .. وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله .. فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير»(١).

هذا هو نص الفتوى الشهيرة .. ويمكننا أن نلحظ من خلالها ما يلى:

أولاً: أن الإمام ابن كثير - رحمه الله - قد أصدر فتواه تلك بناءً على أحوال طائفة التتار التى عاصرها ورآها بعينه، وشاهد أحوالها مع شريعة الله تعالى .. وقد أفضنا الحديث فى ذكر حال التتار

(١) تفسير ابن كثير (٣ / ٩٦)

وصفاتهم فى الفصل الأول من هذا الباب بما يغنى عن الإعادة والتكرار .. ولكننا نعود فنذكر بطرف يسير من حالهم خصوصًا فى ما يتعلق بالياسق وموقفهم من شريعة الإسلام .. لنتعرف على الأسباب التى دعت ابن كثير إلى تكفيرهم والدعوة لقتالهم:

- فقد كان التتار يعتقدون أن الياسق من وحى السماء .. وأن الملائكة كانت تتنزل بالوحى على جنكيزخان، فتلقى على لسانه نصوص الياسق وأحكامه.

- معظم نصوص الياسق من مجرد نظر جنكيزخان، ومن محض أهوائه .. وفيها نزر يسير من أحكام الشرائع السماوية لم يعمد إليها قصدًا، فهو لا يؤمن بدين من الأديان.

- لم يتخذ الياسق من الإسلام مرجعية له .. ولم يجعل من الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع .. ولا حتى رافدًا من روافد الحكم والتشريع.

- كان التتار يجعلون حكم جنكيزخان وفعله بمنزلة فعل الإله .. فقد كانوا يعتقدون أنه ابن الله .. وكانوا يحمدونه على كل رزق يأتيهم .. ويقولون هذا رزق جنكيزخان.

فأى كفر بعد هذا الكفر .. وأى تخبط وضلال بعد هذا الضلال .. ولا عيب إذن أن يفتى الإمام ابن كثير وغيره بكفر أمثال هؤلاء ، ووجوب قتالهم .

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه .. هل يصح نقل هذه الفتوى إلى واقع بلاد المسلمين اليوم؟! ونحن نعلم جيدًا أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان؟!

نعم قد تكون الفتوى صحيحة ومناسبة فى الزمان والمكان الذى قيلت فيه .. ولكن ذلك بكل تأكيد لا يعنى صحتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

إن لنقل الفتوى من واقع إلى واقع آخر شروطًا وضوابط لابد من توفرها ولعل أهم شروط نقل الفتوى هو تشابه الواقع الذى صدرت فيه مع الواقع الذى ستنقل إليه .. أو اشتراك الواقعين فى العلة الجامعة المؤثرة التى يدور معها الحكم وجودًا وعدمًا.

فهل واقع بلاد المسلمين اليوم يشبه واقع التتار من قريب أو من بعيد؟!

وما هى العلة الجامعة المؤثرة المشتركة بين الواقعين؟!

لا شك أن الفرق بين الواقعين كبير .. والبون شاسع .. وهذا لا يخفى على كل من له إلمام بسيط بالواقع الحالى، ومعرفة تاريخية بأحوال التتار[١].

ثانياً : كثير ممن يقرأون هذا القول السابق لابن كثير .. رحمه الله ، يمرون عليه مرور الكرام دون أن تستوقفهم العلة الحقيقية التى بنى عليها .. رحمه الله .. حكم الكفر فى حق التتار .. ومن أعاد قراءة الفتوى بتأن وتركيز سوف يدرك هذه العلة بكل يسر وسهولة .. وقد ذكرها ابن كثير فى معرض وصفه للتتار حين قال عن مدى تعظيمهم لأحكام الياسق واحتفائهم بها : «ويقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - ثم أتبعها مباشرة بالحكم الذى ارتآه قال: «فمن فعل ذلك منهم فهو كافر».

إن تقديم الياسق على الكتاب والسنة هو السبب الرئيسى لتكفير التتار .. فالتقديم يتضمن بداخله معانٍ قلبية واعتقادية خطيرة .. فهو يتضمن معنى التفضيل والاستحسان وهو ما تنطق به أحوال التتار .. فالتتار لم يكونوا مجرد تاركين للحكم بشريعة الله، كلا، بل كانوا معظمين للياسق تعظيمًا يفوق تعظيمهم لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وكانوا يفضلون حكم الياسق على ما سواه .. ولم لا؟! وهم يعتقدون أنه وحى منزل من السماء؟!

ولا جدال فى كفر من فضل شريعة غير الله على شريعة الله .. حتى ولو كان يحكم بشريعة الله كاملة .. إذ التفضيل والاستحسان هو عمل قلبى فى المقام الأول فمن ادعى أن شرع الياسق أو غيره من الشرائع الوضعية أو غيرها أفضل وأحسن من شرع الله تعالى وأكمل هديًا وطريقة منه فهذا لا شك فى كفره ومروقه من الدين.

كما أن التقديم يتضمن معنى آخر، وهو الرد والرفض .. فمن قدم شريعة الياسق وفضلها على شرع الله .. فهو بلا شك رافض لشريعة الله .. ورافض لأحكامها بقلبه .. إذ كيف يقبل بقلبه ما يعلم أن غيره أفضل منه وأشمل وأكمل .. ورد شريعة الله ورفض أحكامها هو كفر أكبر كذلك يخرج صاحبه من دائرة الإسلام.

---

(١) راجع فصل «جنكيز خان .. وحكام اليوم: قياس مغلوط» .. لتدرك عمق الهوة بين الواقعين ولتعلم يقينًا خطأ نقل فتاوى التتار إلى واقع بلاد المسلمين اليوم.

الوقفة الثالثة : أحكام الشريعة بين الترك والاستبدال:

سيقول البعض .. نوافقكم فى كل ما ذكرتموه سابقًا فى هذه الآية وفى غيرها من آيات الحاكمية .. ولا اعتراض على ما ذهبتم إليه من أن تارك الحكم بشىء مما أنزل الله لا يعد كافرًا مادام غير جاحد أو مستحل .. وأن هذا المعنى هو المقصود من آيات المائدة الثلاث التى سبق الحديث عنها تفصيلاً.

ولكن حديثنا الذى نقصده إنما هو فى الحاكم المستبدل لشريعة الله لا فى التارك لها أو لشىء من أحكامها .. وهذا الحاكم المستبدل هو ما نعنيه بالكفر الأكبر .. وهو أيضا ما نعتقد أن هذه الآية التى نحن بصددها قد وردت فى بيان حكمه وإعلان كفره .. إذ أن استبدال الشريعة الربانية بغيرها يعنى تفضيل غيرها وتقديمه على شريعة الإسلام .. وهذا كفر أكبر لا شك فيه.

ونقول لأصحاب هذا القول إن الواقع يشهد بأن الاستبدال الذى تصفونه وتتحدثون عنه لا يعدو كونه تركًا .. إذ ليس هناك ترك لشئ من أحكام الشريعة بدون استبدال لها فى نفس الوقت .. وهل رأيت يومًا من ترك الحكم بشىء من شريعة الإسلام إلا وحكم بغيرها فيما ترك؟! أليس هذا هو عين الاستبدال الذى يقصده البعض ؟! .. فلو أن إنسانًا ترك حكم الله فى أى واقعة من الوقائع .. ألن يلزمه الحكم فيها بغير حكم الله؟! أم يا ترى سيمتنع عن أى حكم مطلقًا؟! وهل يعقل ذلك؟!

والحقيقة أنه ليس هناك ما يسمى «اللا حكم» أى الامتناع المطلق عن الحكم فى أى واقعة .. فليس ثمة بديل سوى أمرين لا ثالث لهما: إما أن يحكم بحكم الله .. وإما أن يحكم بغيره .. فلو حكم بحكم الله الذى أنزله فهو المسلم المؤمن الصالح .. ولو حكم بغير حكم الله، فهو المسلم العاصى المفرط وليس بكافر مادام غير جاحد أو مستحل .. وهو أيضا التارك لحكم الله فى هذه الواقعة أو المستبدل به غيره .. فلنطلق عليه ما نشاء من أسماء، إذ لا مشاحة فى الاصطلاح .. المهم أنه لو جحد حكم الله أو استحل الحكم بغيره فقد خرج من الإسلام وما عدا ذلك فهو مسلم عاص سميناه تاركًا أو مستبدلاً.

وهذا الترك لشئ من شريعة الله، أو الاستبدال كما يحلو للبعض أن يسميه لا يخص الحكام فقط .. بل كل من ترك شيئًا من حكم الله فى شئون حياته جرى عليه ذات الحكم أيا كانت صفته

وهيئته .. حاكما كان أو محكومًا.

ألم تر بعض القرى التى جرى العمل فيها بين الناس على منع تنفيذ حكم الله فى توريث النساء[1] .. ماذا يصنع أهلها بعد تركهم العمل بهذا الحكم من أحكام الشريعة ؟! هل يمتنعون عن التوريث مطلقًا ويقولون «لا توريث»؟! بالطبع لا، فهم يعيدون توزيع التركة على أساس من هوى نفوسهم .. وهو ما يخالف حكم الله فى الميراث ... فهؤلاء إذن قد تركوا حكم الله واستبدلوا به غيره على حد تسمية البعض .. فهل قال بكفرهم أحد من أهل العلم؟!

والخلاصة

أن قول الله تعالى «أفحكم الجاهلية يبغون. ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون» لا يدل على كفر المستبدل لشرع الله إلا إذا صدر من هذا المستبدل ما يدل على الكفر الصريح كأن يجحد حكم الله أو يستهزئ به أو يفضل غيره عليه أو يستحل الحكم بغيره.

أما لو صدر هذا الاستبدال عن هوى ومعصية مع إقرار بحكم الله وتفضيله على غيره فحينئذ يكون الاستبدال من الكبائر التى لا يكفر صاحبها وإن كان ناقص الإيمان.

(١) يشيع فى قرى مصر عدم توريث النساء مطلقاً أو جزئيًا إلا من عصم الله .. بالرغم من أن القانون المصرى فى المواريث الذى تعمل به الدولة هو قانون شرعى إسلامى مستمد من الشريعة الإسلامية ولكن كثيرًا من الناس فى وادٍ والشريعة فى هذه القرى فى هذه المسألة فى وادٍ آخر.

الفصل الرابع

حاكمية الله ثم حاكمية البشر
توافق لا تعارض

فى هذا العصر الذى نعيش فيه ... وفى بلاد المسلمين اليوم صدرت قوانين وتشريعات لم تكن موجودة على عهد النبى ﷺ ولا فى عهد خلفائه الراشدين .. ولم ينطق بهذه التشريعات نص من كتاب ولا سنة .. فمنها على سبيل المثال:

ما أوجبه القانون المدنى مثلاً من ضرورة استخراج بطاقة هوية لكل مواطن عند بلوغه سنًا معينة.. وبدون هذه البطاقة تتعقد أمور حياته ويحرم من كثير من حقوقه المدنية.

كما نص القانون أيضًا على ضرورة استخراج جواز سفر لكل من أراد السفر خارج حدود دولته .. مع عدم السماح بالسفر لمن لا يملك هذا الجواز.

وجعلت القوانين من توثيق عقد الزواج والطلاق ضرورة حياتية معاصرة .. وبدونها لا يثبت لأى من الزوجين شئ من حقوقه .. ولا يحق التقاضى بصفة الزوجية(١).

وهناك قوانين خاصة بالمرور لا تسمح لسائق السيارة أن يقودها دون الحصول على رخصة قيادة .. بل تفرض عليه عقوبة لو قادها بدون هذه الرخصة.

بل تفرض عليه هذه القوانين أن يضع على صدره حزام الأمان أثناء السير .. وتعاقبه بنوع من الغرامة لو حدث منه تقصير فى وضع هذا الحزام .

كما تلزمه بعدم تجاوز سرعة معينة.

هذه التشريعات والقوانين التى سنها البشر واستحدثوها تثير قضية حساسة وشائكة .. ألا وهى:

---

(١) استثنى القانون من ذلك دعاوى النسب حيث تسمعها المحاكم وإن لم يكن الزواج موثقا، وهذا شيء طيب فى القانون المصرى للحفاظ على الأنساب.

هل للبشر ابتداءً حق فى التشريع؟!

أو بمعنى آخر: هل هناك ما يسمى بحاكمية البشر؟!

ولو سلمنا بوجود حاكمية للبشر .. فمن أين جاءت هذه الحاكمية؟!

وما علاقتها بحاكمية الله تعالى؟!

ومن أين اكتسبت هذه الحاكمية للبشر مشروعيتها؟!

وما حدود تلك المشروعية؟!

فنحن نعلم أن الحاكمية لله وحده .. وأنه سبحانه المتفرد بحق التشريع .. فكيف يكون للبشر حاكمية مع حاكمية الله تعالى؟!

وإزاء هذه الأسئلة السابقة .. فقد اختلفت إجابات الناس اختلافًا واسعًا .. ومن بين أطياف هذا الخلاف يستطيع المرء بسهولة أن يحدد معالم اتجاهات ثلاثة متباينة تمثل طرفين متناقضين فى هذه المسألة..

أما عن الاتجاه الثالث وهو المنهج الحق والموقف المتزن .. والذى تتمثل من خلاله وسطية الإسلام وعدله ورحمته.

فهو ما سنلقى عليه الضوء خلال هذا الفصل .. بل هو الغرض الذى من أجله عقد هذا الفصل أساسًا.

ففى هذه القضية ذهب فريق من الناس إلى إلغاء كل حاكمية للبشر بدعوى أن الله سبحانه له الحاكمية وحده .. وأن أى حاكمية لغير الله إنما هى منازعة لله فى ربوبيته.

ورفع هؤلاء شعار حق يراد به باطل .. وهو «إن الحكم إلاّ لله» واستدلوا بالآية الكريمة ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فجعلوا كل مشرع من البشر شريكًا لله فى ربوبيته وألوهيته.

ونسى هؤلاء أن الحكم لله لا شك فى ذلك .. ولكن لابد للبشر من حاكم يحكم فيهم بحكم الله برًا كان أو فاجرًا .. كما نسوا أن القرآن الكريم رغم كونه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه .. ولكن الله تعالى لم يجعل له لسانًا ينطق ليحكم بين الناس بذلك الحق المطلق المعصوم . أو يدًا تنفذ هذا الحكم أو قوة تقره على أرض الواقع وتنزله عليها واقعًا معاشًا بين الناس.

وفى المقابل قام فريق آخر منتحلاً سمات الحكماء ومرتديا مسوحهم .. فادعى أن ليس هناك ما يسمى بحاكمية الله مطلقًا .. وأن الدين لا علاقة له بالحكم والتشريع إذ إن ذلك هو دور البشر فهم أدرى بما يصلحهم ويضبط شئونهم.

أما الدين فيحسن بنا ألا ندنسه بدنس السياسة، ولا نزج به فى متاهات الحكم والقضاء .. فليكن تراثنا محفوظًا يوضع فى المتاحف والمكتبات .. ولا بأس أيضًا أن يكون شعائر تعبدية بين العبد وربه شريطة ألا يتعدى حدود المساجد ودور العبادة.

أما أن يدلى برأيه فى شئون الحياة المتطورة .. فأنى له ذلك ونصوصه محدودة متناهية .. بينما الحوادث غير متناهية .. فكيف يحكم المنتهى على اللامنتهى؟!

وقد نسى هؤلاء أو تناسوا أن كل آيات الحكم والقضاء فى كتاب الله تعالى .. قد جاءت صريحة وواضحة تبين وجوب الحاكمية لله سبحانه.

بل نسوا أو تناسوا أن هذا الدين الذى يتحدثون عنه بهذه الطريقة قد ظلل نصف الكرة الأرضية بحكمه العادل وشريعته الغراء على مدار عدة قرون من الزمان .. فكانت له سابق تجربة عملية شهد لها العالم بأسره .. وليس دينًا جديدًا لم يسمع به أحد من قبل، ولم يعرف التاريخ عنه شيئًا.

وبين هؤلاء وأولئك وقف الكثيرون حيرى يتساءلون:

- بأى الوجهتين نأخذ ونقتنع؟! وإلى أى الفريقين ننحاز ونميل؟!
- هل نلغى حاكمية البشر على إطلاقها؟ وننكر أى حق للناس فى التشريع؟!
- فمن ذا الذى يحقق مناط أحكام الشريعة؟! وينزلها على أرض الواقع؟!
- ومن ذا الذى يفتى المسلمين بحكم الله فى مستجدات حياتهم؟!
- بل أى جدوى إذن لوجود الفقهاء والمجتهدين، والقضاة والمفتين؟!

- أم هل نعطل حاكمية الله ونُدير لها ظهورنا .. ونطلق العنان للبشر فى مجالات الحكم والتشريع؟!

- فماذا نصنع بعشرات .. بل بمئات الآيات التى تحدثت فى شئون الأسرة والعلاقات الاجتماعية؟!

وأيضًا أحكام التجارة والزراعة والصناعة، وتنظيم العلاقات المالية؟!

- وكذلك مسائل الجهاد والحدود والجنايات؟! وتنظيم الإجراءات القضائية؟!

- هل نحذف هذه الآيات من القرآن الكريم؟!

- وهل نزلت كل هذه الآيات سدى وهملاً؟!

- ولو أننا رفضنا كلا المنطقين .. فبماذا نقول؟!

- وماذا نعتقد فى هذه القضية الشائكة؟!

نعم للبشر حاكمية فى إطار الشريعة

إذا رجعنا إلى الآية التى استدل بها أولئك الرافضون لحاكمية البشر مطلقًا .. وهى قول الله تعالى : «أم لهم شركاؤ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله». ولو أمعنا النظر فى مدلول هذه الآية فسنخرج بحقيقتين هامتين..

الحقيقة الأولى

إن هذه الآية تثبت دون شك أن الله عز وجل وحده صاحب الحق فى التشريع .. وذلك لأنه - باختصار - خالق البشر ومنشئهم .. وهو أعلم بهم، وبما يصلحهم ويقيم أودهم «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»

ولأن الذى خلق ورزق ووهب الحياة والنعم هو صاحب الحق وحده فى أن يأمر وينهى ويحكم «ألا له الخلق والأمر .. تبارك الله رب العالمين» .. فليس معقولاً أن يخلق ويرزق ويحيى ويميت .. ثم يتوجه الناس لغيره بالتسليم والانقياد.

الحقيقة الثانية

أن هذه الآية هى نفسها تحمل بين ثناياها ردًا على من استدلوا بها فى النفى المطلق لحاكمية البشر .. فقد أوضحت الآية ضمنًا من خلال مفهومها أن للبشر حق فى التشريع .. وأن الله تعالى هو الذى أذن بهذا الحق لهم وضبطه بضوابط محددة.

فليس كل تشريع بشرى يعد باطلاً .. فالباطل من التشريع البشرى هو ما لم يأذن به الله .. وذلك هو المحرم المذموم.

وكذلك حاكمية البشر ليست مرفوضه على إطلاقها .. فالمرفوض منها ما كان بغير إذن من الله.

أما ما أذن الله به من حاكمية البشر ومزاولتهم لحق التشريع فهو مشروع .. بل فى كثير من الأحيان قد يكون واجبًا.

وهذا التشريع الذى أذن الله تعالى بشئ منه للبشر ليس كلأً مباحًا لأى أحد من الناس، وفى أى مجال من المجالات .. فهو مقيد بقيود، ومضبوط بضوابط.

فقد أذن الله فيه للمؤهلين شرعاً من العلماء والحكام والمفكرين وأهل الحل والعقد فى الأمة ممن بلغوا رتبة الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .. فهؤلاء هم أولو الأمر الذين أذن الله لهم فى التشريع .. شريطة الالتزام بثوابت الدين ومبادئه .. وعدم الإخلال بشئ من أصوله وقواعده الثابتة.

وبهذه الضوابط تستظل سلطة البشر فى التشريع بظل شريعة السماء ولا تتنافى مطلقًا مع حقائق التوحيد القاضية بتفرده سبحانه بالحكم والتشريع .. وبذلك يتمهد القول بمشروعية حاكمية البشر دون أى غضاضة أو حرج .. فهى قائمة بإذن من الله تعالى .. وصادرة عن النظر فى النصوص التى شرعها سبحانه .. ومشروطة بألا تصادم حقائق الدين ومبادئه .. أو تخل بقطعيات الشريعة وثوابتها..

حاكمية البشر بين القرآن والسنة

لقد كانت شريعة الإسلام حكيمة وسباقة وواقعية حين سمحت للبشر بحق التشريع فى إطار ثوابتها .. وحيث أعطت المشروعية لحاكمية البشر مادامت مستظلة بحاكمية الله وملتزمة بحدودها.

ولولا ذلك لمارس البشر حق التشريع لأنفسهم فى شئون حياتهم التى لا تكف لحظة عن التغير والتطور .. ولكن بعيدًا عن الشريعة وبعيدًا عن الالتزام بأحكام الإسلام.

بل إن الله سبحانه هو الذى أقر حاكمية البشر، وأذن بها .. وجعل لها سياجًا يحكمها .. ألا وهو:

أن يحكم البشر بما أراهم الله تعالى .. وفيما أذن لهم به .. وألاَّ تصطدم حاكميتهم بحاكمية الله .. بل تتوافق معها لتحقيق مصالح البلاد والعباد.

وجميع الآيات التى أمر الله فيها الناس بالحكم فيما بينهم بما أنزل الله إنما تدل ضمنًا على ثبوت حاكمية البشر.

- فمن يحكم البشر سوى البشر؟!

ومن يقضى بين الناس إلا واحد منهم؟!

ومن يطبق حاكمية الله فى دنيا الناس؟!

وهل يا ترى سيتحرك القرآن بنفسه ليحكم بين الناس ويفصل بينهم فيما اختلفوا فيه؟!

أم ستنزل الملائكة لتقضى بين الناس؟!

ألم يقل سبحانه وتعالى: «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى»؟!

ألا يعد هذا إثباتا لحاكمية البشر وبيانًا لمشروعيتها؟!

ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : «إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ»؟!

ألم يقل أيضًا سبحانه وتعالى : «وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم»؟!

هذه الآيات وغيرها توضح لنا أن القرآن قد أثبت للبشر حق الحكم بين الناس .. وأن الله تعالى أذن للبشر بشئ من التشريع .. وهو ما يصب فى خانة إثبات حاكمية البشر بحدودها وضوابطها.

ومن تأمل أسلوب القرآن فى بيان أحكامه، وجده يدل بصورة قاطعة على أن للبشر نوعًا من الحاكمية والتشريع .. وذلك من خلال مساحات معينة تركها القرآن عمدًا .. لا سهوًا ولا غفلة .. ليمارس البشر فيها حقهم ودورهم.

فقد جاءت كثير من أحكام القرآن فى صورة مبادئ عامة وقواعد مجملة .. وترك القرآن تفصيل هذه المبادئ وكيفية إنزالها على الواقع وصورة تطبيقها فى دنيا البشر، ترك ذلك كله للبشر أنفسهم ليجتهدوا فى إنزالها كل حسب ظروف زمانه ومكانه .. وبما يحقق المصلحة التى أرادها الله تعالى من وراء هذه الأحكام.

ويبدو ذلك الأمر واضحًا فى كثير من مسائل الحكم والسياسة الشرعية .. كالأمر بالشورى مثلاً، أو وجوب وطريقة تنصيب الحاكم، أو تحريم الربا والغرر فى المعاملات المالية.. أو وجوب إقامة العدل فى مسائل الحكم والقضاء.

كل هذه أحكام مجملة ترك القرآن تفصيلها لاجتهاد البشر بما يناسب ظروف واقعهم.

وكذلك أتت كثير من نصوص القرآن ظنية الدلالة يحتمل تأويلها وجوهًا متعددة وخاصة فيما يتعلق بالمسائل العملية .. وهذا ما فتح للمجتهدين والعلماء باب النظر والبحث والتأمل على مصراعيه فى هذه النصوص .. ومن ثم اختلف العلماء فى اجتهاداتهم وفتاواهم.

ولو أراد الشرع ألا يعمل البشر عقولهم، وألا يجتهدوا فى استنباط أحكام الشريعة من هذه الآيات لجاءت كلها قطعية الدلالة بحيث لا تحتمل إلا معنى واحدًا يمتنع الاختلاف حوله تقريبًا.

ولم تحظ حاكمية البشر بإثباتها فى القرآن الكريم فحسب.. بل جاءت سنة المصطفى ﷺ .. أيضًا شاهدة ومؤكدة .. فعندما أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل إلى أهل اليمن قال له : «بم تقض إن عرضت لك أقضية؟ قال: بكتاب الله: قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد؟ . قال: أجتهد رأيى ولا آلو (أى أقصر) .. فضرب النبى ﷺ على صدر معاذ تعبيرًا

عن رضاه. وقال له: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ»(١).

وقول معاذ - رضى الله عنه - فى الحديث: «أجتهد رأيى ولا آلو» يقرر دليلاً من أدلة الأحكام وهو القياس.

وبذلك يكون هذا القول من معاذ - رضى الله عنه - والذى أقره النبى ﷺ ورضيه، دليلا من أوضح الأدلة على ثبوت نوع من الحاكمية للبشر.

فالقياس عمل بشرى يجتهد فيه العالم للوصول إلى الحكم الشرعى فى مسألة لا نص فيها قياسًا على أخرى معروفة الحكم .. وهذا كله جهد بشرى محض ..

وهو ما يكشف لنا جانبًا من جوانب التشريع المأذون فيه للبشر ألا وهو القياس.

كما أن هذا الحديث أيضًا يوضح أسلوبًا من أساليب تعامل الشرع مع متغيرات الواقع وتطورات الأحداث .. وهو ما يعتبر ردًا على ما يتذرع به غلاة العلمانيين للقدح فى حاكمية الله تعالى بحجة أن نصوص الشريعة متناهية، وحوادث الزمان غير متناهية .. فكيف يحكم المنتهى على اللامنتهى؟!

إن إثبات حاكمية البشر يدحض هذه الحجة، ويحل هذه الإشكالية بكل يسر وسهولة .. فلولا حاكمية البشر فى إطار الشريعة لوقف الدين عاجزًا أمام تقلبات الواقع وتغيرات الزمان والأحداث.

فحاكمية البشر هى التى أتاحت سبيل قياس مالا نص فيه على ما فيه نص ليأخذ حكمه.

فقاست الأفيون والحشيش والهيروين وغيرهما من أنواع المخدرات التى لم تكن موجودة فى عهد النبوة على الخمر الذى كان موجودًا، ونزل الحكم بتحريمه.

وبذلك كانت شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والدرامى والبيهقى والطبرانى فى «المعجم الكبير»
قال البعض إن هذا الحديث فى إسناده مقال .. إلا أن الأمة قد تلقته بالقبول سلفًا وخلفًا مما يغنى عن البحث فى إسناده .. إذ أن الأمة لا تجتمع على ضلالة وكل كتب أصول الفقه تستند إليه كعمدة فى باب القياس.

حاكمية البشر من أسرار خلود الشريعة

والذى يريد إلغاء حاكمية البشر مطلقا، إنما يضر بشريعة الإسلام ضررًا بالغًا بما لا يقل عمن يريد التنكر لحاكمية الله، وإلغاءها من الوجود.

فحاكمية الله تعالى لا تقوم أساسًا إلا بالبشر .. ولا يمكن لها أن تكون موجودة فى الواقع، ومتحركة فى الحياة إلا على أيدى البشر.

أو ليس البشر هم الذين يقومون بتطبيق النصوص فى الواقع؟!

أليسوا هم الذين ينزلون الأحكام ويحققون مناطها؟!

أليسوا هم الذين يقولون إن هذا الحكم الشرعى يطبق ها هنا، ويمنع تطبيقه هاهنا؟! ويصلح هاهنا، ولا يصلح ها هنا؟!

أليسوا هم الذين يعملون عقولهم فى استخراج علل الأحكام، ويقيسون عليها؟!

أليسوا هم الذين يشرعون فى مساحة العفو التشريعى التى تركتها لهم عمدًا حاكمية الله تعالى؟! وهم الذين ينشئون من الأحكام ما يوافق المصالح المرسلة؟!

أليسوا هم الذين يختارون من أقوال الفقهاء ما يحقق أعظم المصالح، ويتناسب مع الواقع الذى يعيشون فيه؟!

- أليسوا هم، وهم، وهم؟؟!

- إن حكم الله تعالى لن يسرى فى الحياة إلا إذا قام به البشر .. وإلا إذا تكفل به العلماء والمفكرون، وأعضاء مجالس التشريع تقنينًا وتشريعًا .. وكذلك الحكام تنفيذًا وتطبيقًا.

بل إن القيام بحاكمية البشر فى إطارها الصحيح هو واجب شرعى لا ينبغى للحكام وولاة الأمور أن يتخلوا عنه .. فلو تخلى أحد منهم عن هذه المسئولية الجسيمة لكان مقصرًا فى نظر الشريعة .. ومفرطًا فى حق الشعوب والأوطان المسلمة.

فهل يدرك إذن من يزعم عدم وجود حاكمية للبشر أنه بذلك الزعم لا يريد الخير بالشريعة .. ولا يريد الخير بالبشر أيضًا؟!

ولو أننا أخذنا بقوله وصدقنا زعمه، فكيف يكون العمل فى المسائل والقضايا التى سكتت عنها الشريعة وهى كثيرة؟!

ومن أين لنا فيها بالحكم الشرعى؟!

أم يا ترى سيتم إهمالها؟!

بل من ذا الذى سيقوم بمهمة قياس المسائل الجديدة الحادثة على نظائرها مما له حكم وفيه نص فى شريعة الإسلام؟!

بالطبع لن يقوم بذلك سوى البشر من خلال ما أذن الله لهم فيه من حق فى التشريع .. وما وهبهم إياه من حاكمية.

ولولا حاكمية البشر لظلت كثير من الأمور المحدثة دون حكم شرعى.

فلولا هذه الحاكمية لما قال أحد بحرمة الحشيش بيعًا وشراءً وتعاطيًا .. وكذلك الهيروين والمورفين (الأفيون).

ولولا حاكمية البشر ما حرم التدخين.

ولولاها ما قيست سرقة السيارة بسرقة غيرها من المسروقات .. ولخرج علينا بعض المتفلتين من أحكام الشريعة، وقالوا: إن سرقة السيارة ليس فيها حد لأنها لم ترد فى كتاب ولا سنة، وليس لها حرز[١] .. بل لم تكن السيارات موجودة أصلا عند نزول الوحى .. ونحن لا نقبل القياس لأنه نوع من حاكمية البشر .. ولا حاكمية إلا لله وحده.

فهل لأصحاب مثل هذا القول مسكة من عقل فضلاً عن أن يكون فيهم بقية من دين؟!

وعلى ذلك يمكننا أن نقرر بكل وضوح: إن الذين يريدون إلغاء حاكمية البشر على الإطلاق إنما يريدون تعطيل الشريعة وإلغاءها من الوجود .. تمامًا كالذين يريدون إقصاء حاكمية الله تعالى من حياة البشر .. فكلاهما .. أى حاكمية الله وحاكمية البشر .. لازم للآخر .. وكلاهما من لوازم بقاء الشريعة وحياة الدين.

---

(١) حرز السيارة فى الفقه الحديث هو إغلاق أبوابها .. فمن سرقها وهى كذلك وجب إقامة حد الله عليه بقطع يده.

على أن إثبات حق البشر فى الحاكمية والتشريع بما أجازه الله لهم يحمل قيمة عظيمة، وفائدة جليلة .. فهو يحفظ حاكمية الله تعالي من الامتهان .. ويقى شريعة الإسلام من أن توجه لها سهام النقد والتجريح والاتهام بالخطأ والقصور حين يقع من المجتهدين أو القضاة أو الحكام نوع خطأ فى الاجتهاد أو التطبيق أو تنزيل أحكام الشريعة على الواقع.

وبذلك تبقى حاكمية الله فى موضعها اللائق معصومة مقدسة.

بعكس حاكمية البشر التى هى اجتهادهم فى العمل بحاكمية الله .. فهى محض اجتهاد بشرى قابل للخطأ والصواب .. وحينئذ لا تحمل حاكمية الله قصور البشر .. ولا تنسب إليها أخطاؤهم.

إن القول بأن البشر لا حق لهم فى التشريع مطلقًا، هو فى الحقيقة دعوة لتعطيل دور الدين فى توجيه حركة الحياة وإرشادها إلى صراط الله المستقيم .. فهى تعنى أن دور الشريعة قد توقف عند حدود عصر معين، وأن أحكامها قد لفظت أنفاسها الأخيرة على أعتاب زمن محدد، ولم يعدلها شأن بالحياة والواقع بعد ذلك الزمن.

وليس خافيًا أن مسيرة الحياة لم ولن تتوقف أبدًا .. شاء الإسلاميون أم أبوا، وشاء غيرهم أم أبوا .. وإنما الذى سيتوقف هو حركة الشريعة ، وحسن تفاعلها مع الحياة .. وسوف تجهض مسيرة إصلاحها للكون من حولها .. وهذا كله يعنى ببساطة إلغاء دور الشريعة فى الحياة .. وتوقف عجلة تطور الفقه الإسلامي.

- فهل يرضى بذلك من يقولون بإلغاء حاكمية البشر؟!

حاكمية البشر إعمال للشريعة .. لا إهمال لها:

البعض يظن أنه لو أثبت للبشر نوعًا من الحاكمية .. أو أقر لهم بشئ من التشريع فى حدود ما أذن الله .. فإنه بذلك ينتقص من الشريعة ويهملها.

والحقيقة أن العكس هو الصحيح .. فإلغاء حاكمية البشر هو الذى ينتقص بالفعل من الشريعة، ويظهرها بمظهر العاجز المشلول أمام حركة الحياة وتجدد الوقائع .. بينما إثبات هذا النوع من الحاكمية للبشر هو الذى يكسب شريعة الإسلام حيويتها ونضارتها ويودعها سر خلودها وديناميتها.

فمن المعلوم أن كل زمان يختلف عما قبله .. وكل عصر يحمل معه من المستجدات والوقائع مالم يكن في العصر الذى سبقه .. ومع كثرة الحوادث وتجدد الوقائع، فإن النصوص التى أنزلها الله فى كتابه، أو وردت على لسان نبيه محدودة العدد ثابتة الكم.

فأنى لهذا العدد المحدود من النصوص الشرعية أن يفى بحاجات كل عصر ومتطلبات كل زمان؟!

وهذا التساؤل الذى أخطأ فى الإجابة عنه بعض غلاة العلمانيين، وممن أشاعوا – بسوء نية أو حسن نية – قولتهم الشهيرة : إن المنتهى (أى النصوص الشرعية) لا يحكم على اللامنتهى (أى الحوادث المتجددة) .. ولو أنهم سألوا أهل الذكر من علماء الأمة لوجدوا ما يشفى صدورهم، وما يحفظ ألسنتهم من التورط فى انتقاص الشريعة واتهامها بالقصور عن مواكبة الأحداث ومسايرة الزمان .. وهى من كل ذلك براء.

ومفتاح الحل فى هذه الأزمة يكمن بكل بساطة فى ذلك القدر من التشريع الذى أذن الله فيه للبشر .. أو ما اصطلحنا هنا على تسميته بحاكمية البشر.

فمن خلال هذه الحاكمية .. وما يضبطها من قواعد الشرع ومبادئه العامة تستطيع شريعة الإسلام الوفاء بمتطلبات كل عصر، ومستجدات كل زمان.

حق البشر فى التشريع بالمصلحة المرسلة

ولتأخذ مثالاً على هذا النوع من التشريع البشرى القادر على تغطية الأحداث اللامتناهية .. ألا وهو التشريع بالمصلحة المرسلة .. وهو صورة واحدة من الحاكمية التى أذن الله فيها لعباده من الحكام والعلماء والمفكرين من أهل الاجتهاد .. والتى أعطاهم بموجبها الحق فى أن يشرعوا للناس من القوانين والشرائع ما يتوافق مع المصالح التى جاءت الشريعة بتحصيلها حتى ولو لم تذكرها شريعة الإسلام أو تنص عليها.

وغنى عن الذكر أن التشريع بالمصلحة المرسلة ليس باباً مفتوحًا لكل من هب ودب لكى يشرع من خلاله دون ضابط أو رابط.

وإنما وضع العلماء شروطًا للعمل بها ليس هذا مجال ذكرها .. ولكن يرجع لها فى مظانها(١).

إلا أن أهم ما يعنينا فى هذا المقام هو استعراض بعض التشريعات البشرية التى بنيت على أساس المصلحة المرسلة .. وهى كثيرة جدًا .. وممتدة منذ عصر الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا.

فممّا سنه الصحابه .. رضوان الله عليه.. فى عصرهم من أعمال وتشريعات بالمصلحة المرسلة .. ولم يكن موجودًا على عهد النبى ﷺ.

- مسألة جمع القرآن فى عهد الصديق - رضى الله عنه.
-وتدوين الدواوين وتمصير الأمصار على عهد عمر - رضى الله عنه.
- وتحديد تسعيرة جبرية محددة للسلع على عهد عمر - رضى الله عنه - فى بعض الأحوال.
- وجمع الناس على مصحف واحد وإحراق ما سواه على عهد عثمان .. رضى الله عنه(٢).

---

(١) انظر المستصفى للغزالى .. والموافقات للشاطبى .. والوجيز فى أصول الفقه لعبد الكريم زيدان .. ولمزيد من التفصيل فى مسألة حاكمية البشر راجع كتاب «فتوى التتار .. دراسة وتحليل» للمؤلف .. فصل (ليس كل تشريع بشرى يعد باطلاً).

(٢) لو أن هذا الذى فعله عثمان .رضى الله عنه - من حرق المصاحف الأخرى سوى مصحفه الجامع فعله غيره فى زماننا لرموه بالكفر والمروق من الدين .. وذلك للفهم السقيم للدين فى هذه الأيام لدى البعض..

فتأمل عبقرية هذا الخليفة العظيم عثمان - رضى الله عنه - فى هذا الأمر وبعد نظره وعلمه العظيم بقاعدة المصلحة المرسلة .. تلك القاعدة الأصولية العظيمة التى تحل ملايين المشاكل فى كل عصر وزمان.

والتقاط ضوال الإبل على عهد عليّ - رضى الله عنه - وهو ما كان ممنوعًا فى عهد النبى ﷺ لاختلاف الحال والأشخاص.

وكذلك تضمين الصناع وما يتلف فى أيديهم على عهد على - رضى الله عنه - أيضًا.

وكل هذه الأعمال لم تكن موجودة فى عهد النبى ﷺ .. ولم يسبقهم إليها أحد رضى الله عنهم .. وقد أقرتهم الأمة على ذلك .. لما رأوا فى ذلك من تحقيق مصلحة المسلمين وعدم الإخلال بشئ من ثوابت الشريعة أو تغيير شئ من أصولها.

وعلى النهج ذاته سار التابعون من بعدهم فسنوا كثيرًا من الأمور بالمصلحة المرسلة:

ومن ذلك ما أفتى به المالكية، من جواز تنصيب الأمثل لحكم الناس حتى لو لم يكن مجتهدًا فى علوم الشريعة، إذا لم يوجد المجتهد.

وكذلك جواز فرض الضرائب على الأغنياء عند احتياج المسلمين لذلك.

- وأيضاً جواز قبول شهادة الصبى على مثيله في الجراحات.

ومن ذلك ما أفتى به الحنابلة، من جواز نفى أهل الفساد إلى خارج البلاد (السجن حاليا).

وكذلك جواز اختصاص أحد الأبناء بهبة لمصلحة معينة.

وكذلك جواز أن يلزم الحاكم المحتكرين ببيع ما عندهم بثمن المثل .. وهكذا.

وفى العصر الحديث أفتى العلماء فى العديد من المسائل أخذًا بالمصلحة المرسلة .. وسنت كثير من القوانين والتشريعات في البلاد الإسلامية بناء على المصلحة المرسلة.

فمن ذلك جواز تشريح جثث الموتى لغرض التعليم أو كشف الجانى أو غير ذلك من المصالح.

وجواز عمل تسعيرة محددة لبعض السلع.

وجواز وضع الشرط الجزائى فى العقود .. وهو ما يقضى بدفع غرامة مالية جزاء إخلال أحد المتعاقدين بالعقد.

ومن ذلك أيضا: ما نصت عليه قوانين المرور من : ضرورة التزام الجانب الأيمن من الطريق ..

والحصول على رخصة قيادة .. وربط حزام الأمان أثناء السير حفاظًا على الأرواح .. والالتزام بسرعات محددة.

وما نصت عليه قوانين العمال المدنية من إعطاء الجهات الإدارية المختصة الحق فى فصل أى عامل يتغيب عن العمل لمدة معينة دون عذر قهرى أو مقبول .

وما نصت عليه قوانين الأحوال الشخصية من ضرورة توثيق عقد الزواج والطلاق.وما نص عليه قانون الأحوال المدنية من ضرورة استخراج بطاقة شخصية عند بلوغ السادسة عشرة.

وما نصت عليه التشريعات الخاصة بالعقارات من أن انتقال ملكية العقار من البائع للمشترى لا تعتبر في نظر القضاء إلا بالتوثيق الرسمى فى الشهر العقارى.

وغير ذلك من التشريعات والقوانين التى جاءت موائمة لمقاصد التشريع ومستلهمة لروحه، ورامية إلى جلب مصالح العباد ورفع الحرج عنهم.

سيقول البعض: إن هذه القوانين من صنع البشر .. ولم يكن لها وجود على عهد النبى ﷺ ولا عهد خلفائه الراشدين.

ونقول: نعم، هذه التشريعات لم تكن موجودة من قبل، ولكنها تنطلق من أصول شرعية صحيحة .. وتراعى مصالح العباد التى جاءت الشريعة لتحصليها.

فهذه التشريعات وإن لم يرد بها نص من كتاب ولا سنة .. إلا أن الشريعة قد تحدثت عن مثلها .. ووضعت لها القواعد العامة، والضوابط الكلية فى التشريع .. وهذا كله منصوص عليه في ضوابط العمل بالمصلحة المرسلة والتي استفاض في ذكرها علماء الأصول.

إن الحكام والعلماء وأعضاء مجالس التشريع من أهل الاجتهاد حينما يسنون قوانين تقضى بتوثيق عقود الزواج والطلاق .. وتنظيم شئون المرور .. وقوانين البناء ، وضبط أمور الإدارة المحلية .. إنما ينطلقون بذلك من مشكاة الشريعة.

ولو لم يفعلوا ذلك فسيتحول الأمر إلى فوضى عارمة يأكل القوى فيها الضعيف .. ويسحق الغنى فيها الفقير .. ويجور صاحب الجاه علي من لا جاه له.

لذا كان لابد من تنظيم هذه الأمور وفق ما أرادته الشريعة من تحقيق مصالح العباد والبلاد .. وهذا لن يتم مطلقا بدون حاكمية البشر، وبدون استخدامهم لحق التشريع بالمصلحة المرسلة .. ألا يعد ذلك أعظم إعمال لشريعة الإسلام.

... متى تصبح حاكمية البشر صالحة وراشدة؟

إذن، فليس الشأن بعد كل ما سبق أن نتساءل:

- هل للبشر حاكمية أم أن حاكمية الله تعنى إلغاء حاكمية البشر؟!

ونظن أننا بعد هذا العرض المطول قد أصبحنا على قناعة تامة بضرورة أن تكون هناك حاكمية للبشر .. فوجودها ضرورة شرعية وواقعية .. ولم يعد الشأن فى إثباتها أو نفيها .. وإنما الشأن الآن فى حدود هذه الحاكمية وفى ذلك السياج المتين الذى يقيها ويحفظها من الانحراف.

ويمكننا أن نقول: إن حاكمية البشر إنما تكون صالحة وراشدة حين تنتسب إلى حاكمية الله تعالى .. وحين تستمد مشروعيتها من حاكمية الله .. وحين تضبط بالضوابط التى وضعها الشرع لها .. وتعمل فى الإطار الذى حدده الله عز وجل.

أما إذا حاولت حاكمية البشر أن تسلب شيئًا من حاكمية الله .. وأن تتجاوز حدها. فتحل الحرام، وتحرم الحلال .. وتشرع للناس مالم يأذن به الله .. فتبيح لهم الزنا، والشذوذ الجنسى، وشرب الخمر، وكشف العورات .. أو تحرم ما أحل الله .. فتقول : إن الطلاق حرام، وإن تعدد الزوجات إلى أربع حرام.

إذا بلغت حاكمية البشر هذا المبلغ الخطير .. فإنها حينئذ تكون قد خرجت عن إطارها الصحيح.. وتجاوزت حدود ما سمحت به شريعة الإسلام.

وفى هذه الحالة ينطبق عليها قول الله تعالى : «أم لهم شركاؤ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله».. وكذلك قول الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون».

فإن من شرع بين الناس ليحل الحرام ويحرم الحلال ويناقض أصول الدين وثوابته .. فذلك فقط هو الذى جعل نفسه ندًا لله وربًا من دون الله تعالى ..

أما من شرع للناس فى إطار شريعة الإسلام .. وراعى فى تشريعه تحقيق أعظم المصالح للمسلمين ولأوطانهم، ودرء أعظم المفاسد عن الإسلام والمسلمين وأوطان الإسلام .. فهذا لا حرج عليه .. بل هو إن شاء الله مثاب مأجور.

والخلاصة

وخلاصة الأمر أن هناك حاكمية لله، وهناك حاكمية للبشر فى ظل شريعة الله .. وليس معنى أن الحاكمية لله وحده أن تلغى حاكمية البشر .. وكذلك لا يعنى إثبات حاكمية البشر ضرورة أن تتصادم دائمًا مع حاكمية الله تعالى.

وحاكمية البشر التى نقصدها لم يأخذها البشر لأنفسهم عنوة .. ولم يستلبوها استلابًا من حاكمية الله .. ولكن الله سبحانه هو الذى أذن لهم بها .. وهو الذى أعطاهم الحق فى ممارسة هذا النوع من التشريع .. وهذا الأمر خاص بالعلماء والحكام والمفكرين من أهل الاجتهاد بشرط أن يلتزموا حدود ما أذن الله تعالى لهم .. فلا يخرقوا شيئًا من ثوابت الدين، أو يناقضوا أصلا من أصوله.

وهذه الحاكمية للبشر قد وضع الله لها سياجًا محددًا .. وأتاح لها مساحات معلومة للتشريع فيها، يعرفها كل دارس لشريعة الإسلام.

وتتلخص هذه المساحات فيما يلي:

أولاً: البشر هم المسئولون عن إنفاذ أحكام الله فى دنيا الناس .. وتنزيل أحكام الشريعة في واقع البشر .. أو بمعنى آخر: الجمع بين الواجب والواقع، وتحديد مدى ملائمة الواقع العملى لتطبيق الحكم الشرعى النظرى .. وهو ما يسميه العلماء بـ «تحقيق المناط».

ثانيًا: البشر هم الذين يقومون بمهمة التشريع فى منطقة العفو أو «الفراغ التشريعى» .. وهو ما سكتت عنه الشريعة فلم تذكر له حكمًا.. مصداقًا لقول المصطفى ﷺ: «ما أحل الله فى كتابه

فهو حلال .. وما حرم فهو حرام .. وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته .. فإن الله لم يكن لينسى شيئًا» ثم تلا هذه الآية: «وما كان ربك نسيًا»(١).

وهنا يحق لأهل الاجتهاد أن يقيسوا مالا نص فيه من الوقائع والأحداث علي ما فيه نص .. وذلك مع توفر العلة الجامعة المؤثرة بينهما.

ثالثًا: البشر هم الذين يشرعون أخذًا بالمصلحة المرسلة وهى المصالح التى لم تأت الشريعة لا باعتبارها ولا بإلغائها .. ولكنها تتفق مع المصالح الشرعية وتتوافق مع روح الشريعة.

رابعًا: البشر هم الذين يختارون من بين الأقوال الفقهية المختلفة ما هو أنسب لظروف واقعهم، وأعظم تحقيقًا للمصلحة فى الدين والدنيا .. وحتى لو كان هذا الاختيار مرجوحًا فقهًا من الناحية النظرية .. فمن حق الحاكم أو العالم المجتهد أن يختار العمل به تحقيقًا لأعظم المصالح ودرءًا لأعظم المفاسد.

خامسًا: البشر هم الذين يقومون بصياغة أحكام الشريعة فى صورة قوانين مكتوبة، ومرتبة على هيئة مواد قانونية .. وذلك لتسهيل الرجوع إليها والعمل بها فى شئون الحكم والقضاء.

(١) أخرجه البزار فى مسنده، والحاكم من حديث أبى الدرداء .. وقال الحاكم: صحيح الإسناد . راجع شرح الحديث فى كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى ص ٣٩٩ ط التوفيقية.

الباب الثالث

الخروج على الحكام
عبر وعظات

بين يدى الباب

مقدمة

التاريخ مخزن العبر، ونهر بالعظات زاخر، وكتاب خالد محفور، نقشت أحداثه على جدار الزمن، إنه قدر الله النافذ فى خلقه، وتدبيره للممالك والدول.

وهو الصورة الظاهرة لقضائه سبحانه، يتأمل فيها الناظرون، ويتفحص معالمها النابهون، ويستلهم حكمها العقلاء والمفكرون، ويغوص فى أعماقها الباحثون.

فالتاريخ يرجع إليه كل متشوق إلى مستقبل أفضل من حاضره، وغد أكثر إشراقًا من يومه .. ويبحث فيه كل من يرجو سلامة الحاضر الذى يحياه، وأمان المستقبل الذى يتمناه .. والتوفيق فى سعيه وبناء أمته.

إن التاريخ لهو خير معلم يتواضع له المتعلمون، يتلقون منه الدروس، ويستخرجون منه الكنوز، ويتبصرون به خطوهم، ويرسمون على نوره طريقهم، ويحددون على هديه أهدافهم، ويرتبون وفق سننه أولوياتهم .. ويزنون بميزانه أعمالهم، ويقيسون على أحداثه وقائع حياتهم، وطوارق زمانهم.

وهل هناك حكيم أفضل من التاريخ نسأله؟!

أو مربٍ أحسن من قدر الله النافذ فى خلقه نتربى بين يديه، ونصغى إلى دروسه ومواعظه؟!

إذا قلنا إن من وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارًا إلى عمره .. فإننا نقول أيضًا: إن من لم يتعلم من التاريخ، أو فاتته دروس الزمان فقد فاتته الحياة، وقصر عمره، وضاقت نظرته، وقلت أو انعدمت خبرته، وعاش حياته يومًا بيوم .. وعمل بنظرية التجربة والخطأ فهلك وأهلك.

إن الواقف على دروس التاريخ والمستفيد من أحداثه قد امتدت جذوره فى أعماق الزمن، حتى إنه ليقف مع آدم عليه السلام فى تجربته، فيحذر مكر الماكرين، فلقد كاد له إبليس اللعين: «وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين».

ويعيش مع نوح عليه السلام، وقد ظل ألف سنة يكابد قومه،يعدد معهم البدائل، ويجرب معهم الوسائل ليلاً ونهارًا، سرًا وجهرًا، يحبب الخلق إلى الحق، ويزين الدين للناس، ويقابل الإساءة

بالإحسان، وفى النهاية: «وما آمن معه إلاَّ قليل».

إن دارس التاريخ يجالس موسى عليه السلام، وهو يسوس بنى إسرائيل أصعب الأمم قيادًا وأكثرهم تمردًا وعنادًا، فيتعلم كيف يصبر كصبره، ليجد مكانته بعد ذلك عند الله وعند الناس «فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا».

إنه يصحب محمدًا ﷺ يتعلم كيف يربى أصحابه ويبلغ دعوته، فيأخذ منه حكمته، ويسدل على نفسه رأفته ورحمته حتى فى أشد المواقف وأحلك الظروف ليكون من أهل «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

إن دارس التاريخ يعيش مع أبى بكر - رضى الله عنه - ليرى أدبه وشجاعته وتواضعه وسياسته.

ويرى عمر - رضى الله عنه - فى جرأته وتنظيمه شئون دولته، وسهره على رعاياه وأهل ذمته. ونشره لرسالة الإسلام السمحة وقيامه بأعباء أمته.

إن دارس التاريخ يعيش مع هؤلاء الأنبياء والخلفاء يرى كيف قادوا شعوبهم، وحافظوا على مصالح أقوامهم، وأخذوا بيد الناس قبل أن يؤاخذوهم، وعلموهم، ولم يكفروهم.

إنه يغوص فى عقول المصلحين فى كل عصر أو قطر أو دين، فيرى فيهم عقلاء نابغين، وحكماء موفقين، ورحماء متواضعين، فيفعل فعلهم، ويسلك دربهم، ويستلهم طريقهم.

إن حياة كل إنسان تتسع على قدر معرفته ودراسته للتاريخ، ووقوفه على دروسه، وعمله بعبره وعظاته.

إن الواقف مع التاريخ يصير فى غده قدوةً وإمامًا، يأتى الناس من بعده يتدارسون سيرته، ويفيدون من تجاربه، ويهتدون بحكمته، فيكون بذلك قد سبق زمانه بقرون، وامتدت حياته أجيالاً، ووسع ذهنه الزمان أوله وآخره، وحوى عقله المكان مدائنه وحواضره، فيعيش بذلك موفقًا مسددًا.

لقد ذكر ابن الأثير فوائد عدة لدراسة التاريخ فننقل منها فائدتين كم نحن بحاجة للتأمل فيهما:

(١) «لا يخفى أن الإنسان يحب البقاء، ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء فإذا ما طالع أخبار الماضين، وحوادث المتقدمين فكأنه عاصرها»..

ألسنا قد قلنا إن دراسة التاريخ تطيل الأعمار وتزيد من سعة الحياة، وتنمى الأفكار وتغذى العقول!!

(٢) «ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلاّ تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلا».

وصدق ابن الأثير فى هذا المعنى العظيم .. وقديمًا قال البعض: «إن التاريخ يعيد نفسه» أو «ما أشبه الليلة بالبارحة»..

وذلك لأن السنن الكونية التى تحكم الحياة واحدة، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير.. «ولن تجد لسنة الله تبديلا».

«إن ما يمر بك اليوم سيتكرر مثله أو شبيهه بعد سنوات».

وكما قال الإمام ابن خلدون فى مقدمته : «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء فى ذلك لمن يرومه[1] أحوال الدين والدنيا».

إن كثيرًا من المصلحين يخفقون فى سعيهم، ويحيدون عن أهدافهم، ويقعدون عن طريقهم، لأنهم لم يستوعبوا دروس التاريخ ولم يعملوا بها، ولم يستفيدوا مما سبقهم من تجارب، فهم لم يملكوا العقلية التحليلية التى تفهم الحاضر على نور من الماضى، وتستشرف بذلك المستقبل.

فقاموا بأنفسهم يجربون، بعد ما نسوا أن من اعتبر بغيره فهو حكيم، ومن قامر بنفسه فهو مقامر، وهؤلاء كثيرًا ما يخطئون.

إن من لم يفهم الدنيا التى يحيا فيها عاش لعبتها ووقع فريستها، وصار ضحيتها، وما التاريخ إلاّ امتداد زمنى بين الأمس واليوم والغد .. ومن لم يتدبر التاريخ فليس له عمق استراتيجى يتحرك فيه، وليس له نور يهديه ولا درع يحميه.

---

(١) يرومه : يريده ويطلبه

وإذا كان التاريخ هو المعلم البصير، والناصح الأمين، والصاحب الذى لا يخدع صاحبه، فإن من أعظم فتراته تلك الحقب التى عاش فيها سلفنا الصالح، وتلك القرون التى عمرها خير الأجيال .. ولم لا .. وهم أعلم الخلق بالحق، وأحراهم بالصدق، وألزمهم للصواب، وأحرصهم على رضا الرب؟

* وهل نجد أعظم من سادتنا العظماء، وسلفنا الأجلاء، نقف أمامهم، ونتدبر سيرهم؟
* هل هناك معلم أهدى من هؤلاء؟!
* هل نجد أرشد عقولاً، وأزكى نفوسًا، وأصفي قلوبًا، وأنقى أفئدة، وأحكم رأيًا من هؤلاء؟
* هل نجد أفضل من قوم عاشوا أطهارًا وماتوا أبرارًا؟
* هل عرف التاريخ مثل الحسين؟! أو عبد الله بن الزبير؟! أو الحسن بن على؟! أو عبد الله بن عمر؟! أو حبر الأمة ابن عباس؟! رضى الله عنهم أجمعين.
* هل يوجد من التابعين أحد يطاول سعيد بن جبير، أو الحسن البصرى أو الشعبى.

إننا نقف على هذه الصفحات من تاريخ سلفنا الصالح، ونحن نحبهم الحب الكبير، ونجلهم الإجلال العظيم، ونثنى عليهم بالفضل والجميل .. كل ذلك وأكثر منه، ولن نوفى لهم قدرهم وحقهم.

كفى سلفنا الأبرار الذين قاموا منهم أو قعدوا أنهم عملوا لله وفى سبيل الله، فإذا أصاب أحدهم الحق فهذا رأيه وتلك طبيعته وعادته.. وإن جانبه الصواب فليست سوى هفوة وزلة. لا ننسى بها فضله ومكانته، وكيف ننسى أن الماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث؟!.

إن كل مجتهد من سلفنا الصالح مأجور ومشكور، إن أصاب الحق فله أجران. وإن كانت الأخرى فله أجر الاجتهاد، فإنما كان الخطأ عن اجتهاد لا عن هوى وعناد.

لقد وقفنا فى هذا الباب مع نفر من أعلام السلف الصالح ورأينا خروجهم على الحكومات وما ترتب على ذلك من نتائج وآثار، أذهبت الدين وأفسدت وأضاعت الحقوق وأهدرت الكرامات، وتكاثرت بها المظالم.

وكم تمنينا أن نستعرض تاريخنا المعاصر، لنرى ماذا جنت الحركات الإسلامية من جراء صدامها المسلح مع الحكومات.

* كنا نود الوقوف على أطلال حماة وقدخرجت على الحكومة فى سوريا.

* كم تمنينا أن نستعرض سويًا نهاية جهيمان العتيبى ورفاقه، وقد اقتحموا المسجد الحرام بالسلاح وصناديق الذخيرة حتى تقصفت المآذن، وتصدع البنيان.

* كما تمنينا أن نخاطب أكثر من مائة ألف قتيل أزهقت أرواحهم بسبب القتال فى الجزائر.

ونحن تواقون للحديث إلى الآلاف من الشاب الذين دخلوا السجون أو قتلوا أو أعدموا، ومئات الأسر التى هدمت .. والأطفال الذين يتموا من الجانبين بسبب قتال التسعينيات فى مصر.

* كنا نود الحديث إلى الحركة الإسلامية فى العهد الملكى، وفى أوائل عهد الثورة، وفي الفنية العسكرية، ومقتل الشيخ الذهبى.

* كنا نود الحديث إلى كل هؤلاء .. ولكن حال دون رغبتنا أمران:

الأمر الأول: خشية الإطالة والملل ولئلا يزداد حجم الكتاب عن الحجم المعقول فيؤدى إلى ملل القارئ والعزوف عن قراءته.

الأمر الثانى: أن الكتابة عن الحركات المعاصرة، وما مر بها من مواقف يحتاج إلى كثير من المراجع مما لا يتوفر بين أيدينا الآن ونحن فى مثل هذه الظروف، ولذا أرجأنا الكلام عن هذا البحث المعاصر إلى كتاب قادم إن شاء الله،عسى أن تذلل العقبات أمامنا، أو أن تتحسن ظروفنا، حتى لانقول بغير علم، أو نحكم على أحد بظلم، والله يقول: «وإذا قلتم فاعدلوا»

نحن نعرف أن أكثر الذين خرجوا على الحكومات قديمًا أو حديثًا، إنما خرجوا لإحقاق بعض الحقوق، ورفع بعض المظالم، ولكن الملاحظ أن الحقوق لم تعد، والمظالم لم ترفع .. فلا الحقوق عادت لأصحابها، ولا عاد هؤلاء الأصحاب إلى دعوتهم ولا إلى مساجدهم، بل لم يعودوا إلى بيوتهم وأسرهم، لكنهم أعدموا أو شردوا أو سجنوا.

لقد استعرضنا فى هذا الباب تاريخ فترة طويلة للخروج على الحكام، وسوف نترك القارىء يحكم على النتائج فى نهاية هذا الباب.

سوف نتركه يحكم على هذه الحروب، هل عادت بما فيه صالح الإسلام والمسلمين وأوطان الإسلام؟! أم أنها انتهت بخلاف ذلك؟

هل جعلت هذه الخروجات المسلحة الدين أكثر منعة وأشد قوة؟ أم تركته مثخنًا فى جراحه، مهيضًا جناحه، تحرقه اللوعة على أبنائه، لا يقوى على الدفاع عن نفسه فضلا عن منازلة الآخرين من أعدائه الحقيقيين؟!

سوف نترك هذا الباب أمام كل محب لدينه، حريص على مصالح أمته .. ينظر، هل هذا القتال المسلح قدم لهذا المحبوب الغالى ما يستحقه من نصرة لشريعته وبلاغ لدعوته وحمل لرسالته؟!

أم أن هذا الاقتتال قد ضيق عليه الخناق، وضرب عليه الحصار حتى ليصعب عليه التقاط أنفاسه التى يحافظ بها على حياته .. مجرد الحياة فضلا عن الحركة؟!

سوف نترك هذا الباب أمام كل العاملين من أبناء الحركات الإسلامية الذين يبغون للدين عزًا وللإسلام العظيم نصرًا .. ونسألهم : هل حقق القتال مع الحكومات لهم ما أرادوا؟!

سوف نترك الباب أمام كل هؤلاء .. ونحن واثقون أن كل واحد منهم سيخرج فى نهايته بما خرجنا به نحن .. من أن القتال المسلح بين المسلمين بعضهم البعض إنما يعود بأعظم الخسائر على الإسلام وعلى المسلمين وعلى بلاد الإسلام جميعها.

إن هذا القتال هو من أعظم الأسباب لتدخل الدول الكبرى فى شئون المسلمين والعبث بمقدراتها:

* هل نسيتم مأساة دارفور بالسودان وموقف الدول العظمى منها؟!
* هل نسيتم القانون الأمريكى لحماية الأقليات الدينية والعرقية فى بلاد المسلمين؟!
* هل نسيتم محاولات التدخل السافر فى أخلاقنا وثقافتنا ودور العلم والعبادة فى بلادنا؟!
* هل نسيتم القرار الأمريكى بتوجيه الضربات الإستباقية ضد أى دولة أو جماعة تخرج عن طوعها، أو تصادم مصالحها، كل ذلك تحت مسمى حرب الإرهاب؟!
* والآن .. وبعد هذا التقديم ..

فلنقلب صفحات من تاريخ سلفنا الصالح، لنرى كيف فعل الخروج المسلح على الحكومات فى زمانهم، وهم أقرب عهدًا بالنبوة والرسالة.

* فكيف بالخروج على الحكومات فى زماننا؟!

* ولا يفوتنا أن نذكر:

ليس فى حكومتنا اليوم من هو فى ظلم الحجاج وبغيه وطغيانه وبطشه .. لقد فاق الحجاج فى جبروته كل وصف، وتجاوز كل حد، وانتهك كل حرمة .. ورغم ذلك، قال أنس - رضى الله عنه - لما سأله الناس عن ظلم الحجاج .. وما أعظم ما قال:

«اصبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه» .. سمعته من نبيكم ﷺ(١).

أليست حكومات زماننا أولى بالصبر عليها وهى لم تفعل شيئًا يذكر إلى جانب ما فعله الحجاج؟!

(١) رواه البخارى عن أنس.

أولاً .. خروج الحسين بن على «رضى الله عنهما»*.

أخذت البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية – رضى الله عنه – وكان الحسين – رضى الله عنه – ممن امتنع عن مبايعته هو وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وابن عمر، وابن عباس رضى الله عنهم – ثم مات ابن أبى بكر ولم يبايع .. وبعدما توفى معاوية عام ٦٠ هـ .. وبويع ليزيد، بايعه ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما.

– ورفض الحسين وابن الزبير رضى الله عنهما أن يبايعا له.. وخرجا من المدينة إلى مكة ، فأقاما بها فرارًا من بيعة يزيد .. وجعل الناس يفدون على الحسين رضى الله عنه ويسمعون كلامه.

وفى مكة جاءه الرسل من العراق يحملون الكتب يدعونه فيها للخروج إليهم .. وجعلوا يستحثونه فى القدوم عليهم ليبايعوه بدلاً من يزيد .. قالوا: إنهم لم يبايعوا أحدًا إلى الآن وإنما ينتظرون قدومه عليهم.

وأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل ليكشف له حقيقة الأمر .. فإن كان كما قالوا، بعث مسلم إليه ليركب فى أهله وذويه ويأتى الكوفة ليظفر بمن يعاديه.

– ولما نزل مسلم بن عقيل إلى الكوفة .. وتسامع الناس بوجوده، جاءوه مبايعين على إمرة الحسين رضى الله عنه وحلفوا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم .. وكثر الناس حتى بايعه اثنا عشر ألف رجل، وقيل ثمانية عشر ألفاً .. فبعث مسلم إلى الحسين رضى الله عنه يدعوه للقدوم إلى الكوفة، فقد تمهدت له البيعة وآلت إليه الأمور.

وأرسل عبيد الله بن زياد دعاته يخذلون الناس عن مسلم بن عقيل .. حتى انفض عنه الناس .. وبقى وحده لا يجد من يدله على الطريق ولا من يؤنسه أو يؤويه إلى منزله .. حتى طرق أحد

---

* البداية والنهاية .. ابن كثير (٨ / ٥٢٢:٥٧٥) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف ص ٤٧٢ – ٤٧٨ بتصرف

البيوتات يختبئ فيه، ونما خبره إلى ابن زياد، فأرسل إليه من يحاصره، وظلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه.

وأعطاه أحدهم الأمان فاستسلم له .. فجردوه من سيفه وأركبوه على بغلة، فبكى مسلم وعرف أنه مقتول .. فقال نفرٌ من حوله: إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا.

فقال مسلم: لست أبكى على نفسى، ولكن أبكى الحسين وآل الحسين رضى الله عنه. إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة.

- وصل مسلم بن عقيل إلى قصر ابن زياد، مخضبًا بالدماء، مثخنًا بالجراح، وفى غاية العطش، وأراد أن يشرب فمنع من الماء، وقيل له والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .. فقال للرجل من أنت؟.. قال: أنا من عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذا عصيت .. ثم جىء له بالماء فجعل يشرب ولا يستسيغه من كثرة الدماء التى تعلوه، فلما شرب سقطت ثناياه.

وأدخل على ابن زياد، فاتهمه ابن زياد بشرب الخمر وتفريق الكلمة، ثم قال له: يا فاسق إن نفسك تمنيك بما حال الله بينك وبينه، وجعل ابن زياد يشتم الحسين وعليًا - رضى الله عنهما - ثم أمر بمسلم بن عقيل فضربت عنقه، وألقى بجسده من فوق القصر .. وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية.

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين رضى الله عنه قبل أن يقتل، يقول له معرفًا بما جرى معه من تخلى الناس عنه، فكتب يقول: ارجع بأهلك ، ولا يغرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى، وليس لكاذب رأى .. ولكن الحسين رضى الله عنه لم يصدق الرسول، وقال : كل ماحم الإله واقع.

موقف الصحابة .. «رضوان الله عليهم» من خروج الإمام الحسين رضى الله عنه

وما أن علم الناس برغبة الحسين - رضى الله عنه - فى الخروج .. إلا وأتاه كبار الصحابة ينصحون له ألا يخرج، لئلا يعرض نفسه وأهل بيته للقتل دونما مصلحة أو فائدة.

فهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - جاءه فقال له: يا ابن عم .. إنَّ أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم .. أقم فى هذا البلد حتى ينفى(١) أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم .. فإن كنت ولا بد سائرًا فلا تسر بأولادك ونسائك .. فوالله إنى لأخاف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه.

ثم قال: فوالذى لا إله إلا هو، لو أعلم أنَّك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى وأقمت، لفعلت ذلك.

بل ذكر له ابن عباس أنه إن خرج فقد خرج للفتنة .. ولا يأمن تقلب الناس عليه.

فقال: ... وإن كان أميرهم حى وهو مقيم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبى بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال .. ولا آمن عليك أن يستنفروا عليك الناس، ويقلبوا قلوبهم عليك .. فيكون الذى دعاك أشد الناس عليك.

أما عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - صاحب العزمات القوية والهمة العالية .. لما بلغه خبر خروج الحسين رضى الله عنه لحقه على مسيرة ثلاث ليال .. فقال: أين تريد؟ .. قال: العراق .. فقال ابن عمر موضحًا له أن الله لن يجمع لهم النبوة والملك .. وأنها ما زويت عنهم إلا لخيرهم.

فقال: .. إن جبريل أتى النبى ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا .. وإنك بضعة من رسول الله .. والله ما يليها أحد منكم أبدًا .. وما صرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم .. فأبى أن يرجع، فاعتنقه وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

---

(١) أى يعزل

وقال مبينًا سبب رفضه لخروج الحسين - رضى الله عنه- غلبنا حسين بن على بالخروج، ولعمرى لقد رأى فى أبيه وأخيه عبرة، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغى له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل فى صالح ما دخل فيه الناس فإن الجماعة خير.

.. وقال له أبو سعيد الخدرى .. رضى الله عنه : اتق الله فى نفسك والزم بيتك .. ولا تخرج على إمامك..

.. أما أبو واقد الليثى - رضى الله عنه - فقد رد على تأويل الحسين رضى الله عنه بالخروج ووضح له أنه خرج فى غير وجه صحيح، بل فى غير مصلحة، ولكنه أبى القعود.

فقال أبو واقد: بلغنى خروج الحسين رضى الله عنه فأدركته فناشدته الله ألا يخرج، فإنه يخرج فى غير وجه خروج، إنما خرج يقتل نفسه، فقال: لا أرجع.

وإذا كان ابن عمر وأبو سعيد وأبو واقد قد نظروا إلى أن الحسين إنما يقتل نفسه بخروجه على يزيد .. فإن جابرًا - رضى الله عنه - نظر للأمر من زاوية أخرى .. وهى تفرق الأمة ، واقتتال بعضهما ببعض مما يذهب ريحها، ويفت فى عضدها ، ويوهن قوتها.

فقال جابر : كلمت حسينًا فقلت: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض.

وفى القتال يتسلط فريق على فريق .. وتستعلى أمة على أمة .. ولا يجوز لآل البيت أن ينزلوا بأنفسهم منازل الهون والقهر.

وقد قال عبد الله بن مطيع للحسين ذلك بوضوح، لعله أن يرجع عن فكرة خروجه تلك .. قال ابن مطيع للحسين - رضى الله عنه: فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم يتخذونا عبيدًا وخولا.

.. ولكن الحسين - رضى الله عنه - صمم على الخروج وأرسل إلى بنى عبد المطلب بالمدينة يستحثهم على الخروج معه .. فجاءه محمد بن الحنفية بمكة، وقال له: إن الخروج ليس له برأى، فأبى الحسين - رضى الله عنه - فحبس ابن الحنفية ولده فلم يخرجوا معه حتى وجد الحسين رضى الله عنه - فى نفسه، وقال له: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه.

.. فقال له ابن الحنفية قولة الحكيم العاقل الذى يزن الأمور بمصالحها ومفاسدها ومآلاتها، قال: وما حاجتى أن تصاب ويصابون معك وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم.

.. كل ذلك والحسين – رضى الله عنه – مصر على الخروج إلى الكوفة .. يتولى إمارتها عوضًا عن يزيد .. ولم يفكر طويلاً فيما قاله عبد الله بن جعفر فى كتاب أرسل به إليه جاء فيه: .. إنك إن هلكت اليوم طفىء نور الإسلام ، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير.

– وقد حاول نفر من المسلمين منع الحسين بالقوة من الخروج حتى وقع بينهم ضرب بالعصى والسياط، غير أنه غلبهم ومضى ..

فلقد أرسل إليه عمرو بن سعد والى مكة رسله فاعترضوه، وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط والعصى .. ثم إن حسينًا وأصحابه امتنعوا منهم امتناعًا قويًا، ومضى الحسين رضى الله عنه على وجهه، فنادوه: يا حسين .. ألا تتقى الله، تخرج عن الجماعة وتفرق بين الأمة بعد اجتماع الكلمة، ولكن الحسين رضى الله عنه تأول الآية:

«لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون».

نعم كل إنسان له عمله، لكن مادام فى حدود نفسه، ما لم يتعد أثره إلى غيره، أما إن كان هذا العمل يمتد أثره إلى الأمة بأسرها، فيقتل خيارها، وتنتهك حرماتها، وتداس مقدساتها، فهنا لا يقول: «لى عملى ولكم عملكم» لأن المسلمين جميعًا يتحملون آثار ذلك العمل، وإنما نقول له : «علينا عملك» فحق علينا نصحك ومنعك.

ولعل قائلا يقول: إنما خرج الحسين رضى الله عنه خوفًا على نفسه وأهل بيته .. ولكننا نسوق ذلك الأمان الذى أعطاه له نائب الحرمين، فقال له:

«إنى أعيذك من الشقاق، فإنك إن كنت خائفًا، فأقبل إلىَّ، فلك عندى الأمان والبر والصلة».

بل إن يزيد بن معاوية أرسل إلى ابن عباس بخبر الحسين وقال له: «أنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه فاكففه عن السعى فى الفرقة».

فقد حرص يزيد على منعه من الخروج حتى إنه ليتوسل إليه بابن عباس – رضى الله عنه – ولكنه أبى ذلك كله .. ومضى فى طريقه حيث لقيه الفرزدق، فسأله الحسين رضى الله عنه عن العراق، فقال: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية».

- وبلغ الحسين خبر مقتل مسلم بن عقيل، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» . ثم قال: لا خير فى العيش بعده.

وثار إخوة مسلم، وقالوا : والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا، ونذوق ما ذاق أخونا، وزحف الجميع إلى مصارعهم.

واعترف الحسين رضى الله عنه أنه إنما بنى نظريته على خيال، ولم ينزل بها إلى الواقع، وقد نصحه الناس وبينوا له حقيقة أهل العراق حتى إن أباه عليا - رضى الله عنه - قال فيهم : «والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملونى وأبغضونى، وما يكون منهم وفاء قط، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب .. والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف».

ولقد حدثه أبو سعيد بذلك، لكنه - رضى الله عنه - لم يسمع ، وها هو الآن يقر بما قال أبو سعيد - رضى الله عنه - فيقول الحسين رضى الله عنه لأتباعه:

«خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف عن غير حرج» .. فتفرق الناس عنه حتى بقى معه أصحابه الذين جاءوا معه من مكة.

بل إنه اعترف الآن أن الذين دعوه للخروج إليهم هم قاتلوه .. فلما نزل وضرب الخيام سأله رجل، ما الذى أنزلك هذه البلاد؟

قال: «هذه كتب أهل الكوفة إلىَّ ولا أراهم إلا قاتلى».

.. الحسين فى ساحة القتال ..

نزل الحسين رضى الله عنه وضرب خيامه، وحفر حولها الخنادق .. وأرسل إليه عبيد الله بن زياد جيشًا قوامه ألف رجل، وأمر عليهم الحر بن يزيد، ووجههم لقتال الحسين .. وقال له الحر: «إنا لا ندرى ما هذه الكتب ولا من كتبها» .. فأحضر الحسين خرجين مملوءين كتبًا، فنثرها بين يديه، وأراد بعدها أن يرتحل، فأبى عليه الحر أن يرحل .. ثم قدم عمر بن سعد على رأس جيش جرار لحصار الحسين وقتاله، ودارت بينهما المحاورات .. وطلب الحسين رضى الله عنه منه أن يعطيه إحدى ثلاث:

(١) أن يتركه يرجع كما جاء.

(٢) أو يسيره إلى يزيد فيضع يده فى يده.

(٣) أو أن يرسله لقتال الترك.

وأرسل عمر بن سعد بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فأبى إلا أن يسلم له وينزل على حكمه، فأبى الحسين رضى الله عنه أن يعطيهم يده إعطاء الذليل، أو يقر لهم إقرار العبيد كما قال.

ودخل خيمته وتطيب وخرج للقتال. يخطو إلى حتفه .. فبكت حوله النساء، وأقبل جنود عمر بن سعيد يحولون بين الحسين - رضى الله عنه - وبين الماء .. ثم نادهم الحسين رضى الله عنه: ألم تكتبوا إلىَّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجنده؟ فقالوا له لم نفعل.

ورماه رجل بسهم بين كتفيه، ورجع الحسين إلى مصافه وهم قريب من مائة رجل .. وتوعد عمر بن سعد بقتال الحسين رضى الله عنه. فقال: تسقط منه الرؤوس وتطيح الأيدى .. وقال الحسين رضى الله عنه: «أيها الناس ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض». فقالوا: وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك؟ .. ثم قال الحسين رضى الله عنه: اتطلبونى بقتيل لكم قتلته؟. أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاصة من جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه..

وسب الناس الحسين رضى الله عنه واثنوا على ابن زياد، ورمى عمر بن سعد بسهم وترامى الناس، ثم تبارزوا .. وهم جيش ابن زياد بإحراق الخيام على من فيها من النساء، فأقبلن يصرخن .. وقال له رجل: أبشر يا حسين بالثأر .. ولما أراد الصلاة، قال له آخر: إنها لا تقبل منكم.

ومكث الحسين رضى الله عنه نهارًا طويلاً وحده، لا يأتى إليه أحد إلا رجع عنه لا يحب أن يلى قتله .. حتى جاء ذلك الشقى فضرب الحسين رضى الله عنه على رأسه بالسيف فأدمى رأسه .. وقتل القاسم بن الحسن بن على بين يديه .. ثم أدركه التعب فجلس وفى حجره عبد الله بن الحسين، فجعل يقبله ويودعه .. فرماه رجل بسهم فذبحه بين يديه.

وعملت السيوف فى آل بيت النبى واشتد على الحسين رضى الله عنه العطش، فحاول أن يشرب من ماء الفرات، فحالوا بينه وبين ذلك .. فخلص إلى النهر ليشرب شربة منه فرماه رجل بسهم فى حنكه، ففار الدم وسال يخالط ماء الفرات.

ووقف الحسين رضى الله عنه وحيدًا لا يجد من يذود عنه، وأحاط به جيش ابن زياد وضربه رجل على كتفه اليسرى ثم على عاتقه .. ثم انصرفوا عنه وهو يكبو وينوء .. ودنا عمر بن سعد بن الحسين رضى الله عنه، فقالت زينب: يا عمر، يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر، فبكى وصرف وجهه عنها.

وطعنه رجل بالرمح ثم نزل فأخذ رأسه .. وقتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنهم ولم يبق إلا صبى صغير هو على زين العابدين، هموا بقتله فتوسل إليهم أن يتركوه فى صحبة النساء لأمانهن.. ففعلوا.

ثم إن ابن زياد أمر بنساء الحسين رضى الله عنه وصبيانه وبناته فجهزن إلى يزيد.

وأراد بعض الناس أن يسترق فاطمة بنت على فانتهرته زينب بنت علي - رضى الله عنهم أجمعين-

.. مقدمات بين يدى العبر والعظات

وبعد هذا العرض الطويل لصفة خروج الحسين رضى الله عنه وكيف كانت نهايتها الأليمة المحزنة، وقبل أن نستخلص ما فى الأحداث من دروس وعبر نستضىء بها فى حاضرنا ونرسم بها مستقبلنا .. لابد لنا من عدة مقدمات نطرحها بين يدى القارئ البصير، دفعًا للتهم ودرءًا للظنون، وبيانًا للمواقف وأول هذه المقدمات:

أولاً: نحن نعلم يقينا أن الحسين - رضى الله عنه - «هو سيد شباب أهل الجنة»[1] وذلك بنص حديث الرسول ﷺ .. كما نعلم أنه - رضى الله عنه - من آل بيت النبوة .. وهم أطهار أخيار، ولقد حدث القرآن بذلك فقال :«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا» .. نحن نعلم ذلك جيدًا، كما نعلم أن الحسين - رضى الله عنه - أفضل من يزيد بن معاوية ليس فى ذلك شك..

وبناءً على ما سبق فإن ما سنذكره من دروس نستخلصها من هذا الحدث ليس للنيل من الحسين وآل بيته، أو انتقاصًا من قدرهم .. ولا تصغيرًا لمكانته رضى الله عنه.

كما أن هذه الدروس والعبر ليست مدحًا فى يزيد، ولا ثناءً على ابن زياد .. كما أنها ليست تزلفاً لأحد منهما، ولا نفاقًا لآخر .. فالجميع قد مات وكلهم أفضى إلى ما قدم، وأمره إلى الله تعالى.

ولكننا نقف مع هذا الحدث الفظيع ، وهذا المصاب الجلل نتبين الدروس والعبر، ونقيس المصالح والمفاسد المتعلقة به .. وهل هذا الخروج كان فى مصلحة الإسلام والمسلمين؟ .. أم أنه كان خلاف ذلك؟

هذه هى المقدمة الأولى رأينا ضرورة تقديمها بين يدى الحديث

أما المقدمة الثانية:

ثانيًا: هذا الرأى الذى نراه والقول الذى نقوله ليس بدعًا من القول، ولم ننفرد به دون غيرنا .. بل هو رأى الأمة قاطبة لم نعرف له مخالفًا إلا الحسين - رضى الله عنه - بل إنَّ كل الصحابة

(١)أخرجه الترمذى عن يزيد بن أبى زياد، وقال: حسن صحيح

الكبار خالفوا الحسين رضى الله عنه فى اجتهاده، وعلى رأسهم عبد الله بن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو واقد الليثى، وكذلك عبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية .. كل هؤلاء خالفوا الحسين رضى الله عنه فى اجتهاده بالخروج، وبينوا أنه كان اجتهادًا خاطئًا .. وأنه ليس حكمًا شرعيًا بل هو اجتهاد شخصى جانبه فيه الصواب.

وإن كان ذلك لا يقدح فى إيمان الحسين وتقواه، ولا ينال من صلاحه، ولا ينفى كونه خير الأمة فى ذلك الوقت.

ومع أنه كان اجتهادًا خاطئًا، إلا أن صاحب الاجتهاد الخاطئ مأجور أجرًا واحدًا، فلقد كان خطأ الحسين - رضى الله عنه . خطأ اجتهاد ولم يكن خطأ هوى وعناد، خالفه فيه أخوه الحسن وحذره من الخروج إلى الكوفة قبل أن يموت - حتى شقيقه وأحب الناس إليه محمد بن الحنفية ذهب إلى ما ذهب إليه ابن عباس وسائر الصحابه والتابعين الذين رفضوا خروج الحسين رضى الله عنه ورأوا فى هذا الخروج هلكة له ولآل بيت رسول الله ﷺ .. وهذا الرأى هو الذى نرى صحته.

لقد اجتهد الحسين رضى الله عنه وهو أهل للاجتهاد .. ولكن اجتهاده كان خاطئًا وهذا لا يقدح فى دينه وإسلامه وتقواه .. وذلك لأن المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد، ما دام متبعًا فى اجتهاده قواعد الشريعة مستفرغًا للوسع فى ذلك، مخلصًا لله فيه.

ثالثاً: إنا فى عرض العبر والعظات من قصة الحسين بن على رضى الله عنهما، لا نتحدث عمن هو الأصلح والأتقى قلبًا والأنقى فؤادًا .. ولكن نتحدث هنا عن النتائج وعن المصالح التى ضاعت، والمفاسد التى تحققت .. وهل حقق هذا القتال الغرض المنشود منه أم لا؟!

ولذلك لا يحتج علينا البعض بأننا لم نكل الشتائم لجنود الشام، ونكل المديح لجنود الحسين رضى الله عنه .. ونقارن بين تقوى الفريقين وأيهما الأقرب إلى الله .. فذلك أمر مفروغ منه .. وليس هو مجال حديثنا.

رابعًا : نحن ضد قتل الحسين وآل بيته رضى الله عنهم وهو أقرب إلينا من يزيد بن معاوية، وأحب إلينا من ابن زياد .. بل إننا نبغض فى ابن زياد تضيقه على الحسين رضى الله عنه وقتله، ولكن ذلك لا يمنعنا من بيان الصواب وتجلية الحق والقيام بالقسط «ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين» .. وإن كراهيتنا لما فعله ابن زياد ليس مسوغاً لكتمان الحقائق ولا تضليل العقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

.. عبر وعظات من خروج الحسين «رضى الله عنه».

كانت هذه مقدمات لابد منها قبل أن ننظر فى الأحداث نستخلص منها الدروس والعبر، التى يجب على المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة أن يقفوا عليها ويفقهوها، وتكون واقعًا ملموسًا فى حياتهم .. ونبراسًا ونورًا يضىء للعاملين للإسلام طريقهم، ليتجنبوا المزالق والعثرات، ويتبصروا مواضع أقدامهم فلا يسقطوا فى حفر قد تعترضهم أثناء السير.

(١) رغم فضل الحسين رضى الله عنه وعلمه، ورغم شرفه وسيادته، ورغم حسبه ونسبه، ورغم أنّه ابنُ بنت رسول الله ﷺ .. إلا أنّ الإسلام كان دينًا واقعيًا لم يقم فقط على المثاليات ويهمل الماديات .. ولم يقم على الأمانى ويترك الواقع .. ولم يقم على العزيمة تاركًا الرخص والمباحات .. بل إن الإسلام جمع ذلك كله، فهو دين يجمع بين المثالية والواقعية وبين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين الواجب والواقع وبين العزيمة والرخصة .. وكل هذه مجتمعة تعطى الإسلام قوته وقدرته على إصلاح الناس والمجتمعات.

ومن مظاهر واقعية الإسلام بل من أجلى مظاهر الواقعية فى هذا الدين أنّه أجاز تقديم المفضول على الفاضل ، وبين أن الاجتماع على المفضول خير من التفرق على الفاضل .. والعلماء متفقون على إباحة تقديم المفضول للصلاة .. وأهل السنة والجماعة يرون الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة(١).

كما بين علماء الإسلام أنّ تركَ الصلاة خلف الفاسق نوع من البدع فى حد ذاته، فكيف يكون الإسلام بهذه الواقعية حتى إنه يوجب الجهاد فى سبيل الله خلف أئمة الجور؟ .. وكيف يمنع الإسلام التفرق فى الصلاة تحت دعوى تقديم الأفضل وهو مجرد اختلاف لن يؤدى إلى مفاسد كثيرة؟

---

(١) راجع: «شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف الحجاج بن يوسف رغم شدة ظلمه وبغيه.

فكيف لو كان هذا التفرق يؤدى إلى القتال والذبح والتنكيل؟

كيف لو كان ضحايا ذلك التفرق هم الصالحون الأتقياء وأهل الفضل والشرف؟

كيف لو كان هؤلاء القتلى هم الحسين بن على وأهل بيته، أو كان مسلم بن عقيل بن أبى طالب؟

لا شك أن الإسلام يمنع ذلك التفرق ويسد كافة أبوابه ويقطع سائر أسبابه .. لا شك أنه كان الأولى بالحسين - رضى الله عنه - أن يقبل إمارة يزيد مع علمنا أن يزيد هو المفضول، وأن الحسين رضى الله عنه هو الفاضل.

ولكن هذه هى واقعية الإسلام الذى يمنع التفرق والتشرذم والخروج على المفضول بعدما تمكن وتملك .. لئلا يجر ذلك على الأمة النكبات والويلات ..

لقد عرف الحسن بن على - رضى الله عنه- هذه الواقعية وعاشها حقيقة فى حياته فتنازل عن الخلافة لمعاوية - رضى الله عنه - مع أن الحسن أفضل منه .. واجتمع الناس على معاوية (المفضول) حتى عرف هذا العام بعام الجماعة.

وكان على الحسين - رضى الله عنه - أن يتركها ليزيد وهو المفضول، ليجتمع المسلمون عليه كما اجتمعوا على أبيه «معاوية» قبله، وينال الحسين رضى الله عنه من السيادة مثلما نال أخوه الحسن بتنازله وواقعيته، حتى مدحه ﷺ لهذه الواقعية فى قوله «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١) .. فكان على الحسين أن يستفيد من تجربة أخيه بالصلح، فحصل بذلك الصلح كل الخيرات من السيادة فى الدراين، ولم يقدح فيه صاحب علم ولا دين .. ولو فعل الحسين رضى الله عنه مثلما فعل أخوه لنال من الشرف والسيادة ما نال أخوه .. وما لامه أحد على خروجه من صحابة أو علماء أو عقلاء الأمة .. ووجوه الناس.

(٢) على الدعاة والمصلحين أن يسمعوا إلى نصح ومشورة أهل الرأى والعلماء والصالحين وأصحاب الخبرة والثقات من أئمة الدين، خاصة من شهد لهم بذلك كابن عباس وأبى سعيد وأبى

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى بكرة.

واقد وابن عمر ومحمد بن الحنفية حتي يتجنبوا المخاطر ويحذروا المزالق .. لاسيما وأن هؤلاء الناصحين كانوا لهم مخلصين ولدعوتهم محبين ..

فلا شك أن هؤلاء الصحابة الأخيار كانوا يحبون الحسين وآل بيته أكثر من حبهم ليزيد .. ولا شك أنهم كانوا حريصين على سلامته وتحقيق مصالحه ومصالح الإسلام فوق أى اعتبار آخر .. حتى أن ابن عباس يود لو أنَّه أمسك برأسه حتى يمنعه من الخروج .. ومحمد بن الحنفية يمنع عنه بنيه أن يسيروا معه .. وكذلك عبد الله بن جعفر يراجعه فى الخروج، وكلهم يذكره قائلاً: «اتق الله فى أمة محمد».

فكان الأولى بالحسين رضى الله عنه أن يستجيب لنصح الناصحين .. ولكنه أصر على موقفه، وانفرد برأيه .. فودعه ابن عباس .. وكأنه ينظر إلى مصرعه، فاعتنقه وقال: «أستودعك الله من قتيل» .. فلو استجاب الحسين رضى الله عنه للنصح لما حدث ما حدث من قتل وجز للرؤوس، وسحق للأجساد بالخيول .. بل إن ابنه الصغير وآل بيته قتلوا بين يديه.

(٣) وكما أصر الحسين رضى الله عنه على الخروج للقتال . رغم اعتراض الثقات على ذلك .. فقد أصر على أن يصحب نساءه وأهل بيته .. وقد حذره ابن عباس أيضًا، لئلا يقتل أمام نسائه وبنيه كما قتل عثمان .. غير أنه خرج بنسائه وأولاده وأقاربه.

وها هو يقتل وهن يصرخن ويولولن .. ثم يحملن بعد ذلك كما تحمل السبايا إلى ابن زياد ثم إلى يزيد .. حتى أن أحد الأشقياء يهم باسترقاقهن .. لولا توسلات زينب وصياحها فيه وقولها : إنه لا يحل لك ذلك.

فأى ذل فوق هذا الذل، وأى فساد يفوق ذلك الفساد .. أن تسبى الحرائر، وتسترق الشريفات، وتهدد العفيفات فى أعراضهن؟ .. فكيف وهن نساء بيت النبوة والطاهرات من نساء العالمين .. وكيف يخرج بهن الحسين رضى الله عنه وهو مقدم على القتال والحرب ولا يعلم أتكون الدائرة له أم لغيره .. وكان الأولى أن يترك نساءه آمنات فى خدورهن، مصونات فى بيوتهن، قانتات فى محاريبهن .. فإن استتبت له الأمور أخذ نساءه فى عز وتمكين .. وإن كانت الأخرى فقد تركهن فى بيوتهن آمنات لا تطولهن سيوف الحرب، ولا يكتوين بنيرانها، ولا تحرق قلوبهن مرتين .. مرة

بقتل الحسين، وأخرى بحملهن سبايا مكلومات يهددهن الفجار فى أغلى ما تملك المرأة .. ويطفأ أمام أعينهن سراج كُنَّ يَسِرنَ على دربه، ويقتفين هداه.

(٤) إن مهمة الدعاة والمصلحين جلب المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها .. ولا يجوز لهم أن يفوتوا مصلحة كبرى لما هو أقل منها .. ولا أن يجلبوا مفسدة عظيمة لدرء ما هو أقل منها .. كما لا يجوز أن يضيفوا إلى مفاسد قومهم مفاسد جديدة.

ولما بلغ الحسين رضى الله عنه خبر مقتل مسلم بن عقيل وقطع رأسه وتيقن من ذلك .. فما هى الفائدة أن يصر الحسين على مواصلة المسير قائلاً : لا خير فى العيش بعده».

- أما كان الأولى أن يكتفى بقتل مسلم ويعود هو بمن معه من أهله؟!

- أما كان الأولى أن نلملم جراحنا ونحافظ على الموجود المتبقي بأيدينا؟

- أما كان الأولى أن نحافظ على ما حصلنا من مصالح .. ونكتفى بما حدث من مفاسد؟ .. ولا داعى لعبارة : «لا خير فى العيش بعده» .. لأنه لو كان لا خير فى العيش بعده فأى خير فى أن يقتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنه بعد مسلم بن عقيل ليضاف مصابٌ جديد إلى المصاب الأول.

- فكيف يقول الحسين ذلك وكيف يقول أشقاء مسلم ذلك؟!

- وأى مصلحة تحصلها الأمة إذا كانت كلما قتل واحد من خيارها، قال من يليه، لا خير فى العيش بعده؟! .. ثم تتواصل حلقات السلسلة قتلاً وسفكًا وذبحًا حتى يفنى الصالحون .. وتستأصل شأفتهم ، وتباد خضراؤهم .. لأن كل واحد يرفض العيش بعد قتل أخيه.

نعم .. إنَّ محبة السباقين وأهل الفضل دين وعبادة .. لكن هذه العبادة لا تصرف فى جو مشحون بالعواطف بعيد عن نظرات العقول.

إن محبة السابقين ليس فى أن يقتل الصالحون بعدهم دونما فائدة أو مصلحة .. ولكن محبتهم هى حمل رسالتهم، وتصحيح ما علق بها من أخطاء وسلبيات، واستدراك ما فاتهم من مصالح الدين والدنيا.

لقد كان ابن الحنفية .. حكيمًا وذكيًا حين منع أبناءه من الخروج مع الحسين، ولما عاتبه الحسين رضى الله عنه فى ذلك، أجابه جواب البصير فقال: «وأى خير فى أن تقتل ويقتلون معك» .. وليس ذلك خذلانا لأهل الفضل .. لأنَّ الخذلان الحقيقى أن نسلمهم إلى الموت والهلكة فيقتلون ويقتل من وراءهم.

ماذا لو أكتفى الحسين رضى الله عنه وأخوة مسلم بقتله، وعادوا أدراجهم إلى مكة .. أما كان فى ذلك حفظ للأرواح ومنع لمزيد من القتل، وحقن لمزيد من الدماء؟

- أم أن قتل الحسين رضى الله عنه وآله لا يعد مفسدة! إلى جانب قتل مسلم بن عقيل؟!.

- لا شك أن قتل مسلم وحده خير من أن يقتل الحسين رضى الله عنه معه .. فكيف وقد قتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنهم؟!

وقد قال ابن القيم : «موت العالم مصيبة، ونجم طمس، وثلمة لا تسد، وموت قبيلة أهون عند الله من موت عالم». فكيف إذا كان القتيل فى مثل فضل وشرف وعلم الحسين .. رضى الله عنه..؟!

وفى الحقيقة .. فإن هذه مشكلة قديمة فى الحركة الإسلامية، كلما قتل منها واحد، أو اعتقل منها قائد، نادوا بنداء الحسين «لا خير فى العيش بعده». فيقومون ليأخذوا بثأره فيقتلون كما قتل صاحبهم .. أو يعلنوا له الحرب لتخليصه من أسره، فيزج بالآلاف فى غيابات السجون .. ليذوقوا منها ماذاق قائدهم .. الذى سعت الحركة لتخليصه .. ولو أنها اكتفت بقتل رجل واحد لحقنت دماء العشرات، ولو أنها رضيت بسجن فرد من أفرادها لحافظت على الآلاف من أبنائها خارج السجون وصانت لهم حريتهم وكرامتهم، وعن قريب سيخرج هذا الأسير إلى الحرية وتحل المشكلة. ولكنها شعارات المتحمسين : يقولون : «لا خير فى العيش بعده».

(٥) إن على الدعاة .. أن يكونوا على خبرة ومعرفة بطبائع الشعوب وسجايا الناس، لئلا ينخدعوا بما لا يصح أن يخدعوا به .. وأن يستفيدوا من خبرة السابقين وأصحاب التجارب .. ولا يصروا أن يخوضوا التجربة بأنفسهم، وليس من الحكمة أن يبدأ الرجل من حيث بدأ السابقون .. ولكن عليه أن يبدأ من حيث انتهوا.

فلو نظر الحسين رضى الله عنه فى تجربتى أبيه وأخيه مع أهل الكوفة .. ولو سمع لوصف الفرزدق لأهل العراق .. ولو استجاب لنصح مسلم بن عقيل له قبل أن يقتله ابن زياد بالرجوع، خاصة أن مُسْلمًا خاض تجربة حية ماثلة حاضرة، وهو رسوله إلى العراق .. لو نظر الحسين فى هذه التجارب، لعلم أنه ليس كل من وعد وفَّى، ولا كل من تكلم عن القتال يصبر عند النزال:

«ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الذكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال..»

- فهؤلاء تمنوا القتال ووعدوا بالجهاد ثم لم يقدروا على الوفاء.

وإن على الدعاة أن يكونوا على بصيرة من أتباعهم، لئلا يحكموا على الناس بما يرونه هم من أنفسهم من صدقٍ وإخلاصٍ ووفاء وثبات، وحقيقة الناس خلاف ذلك.

ولو سأل الحسين رضى الله عنه أباه عن أهل الكوفة .. لأجابه بقوله : «والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملونى وأبغضونى، وما يكون منهم وفاء قط .. ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف».

حتى لقد قال الحكيم: سلوا المجرب فإنه قد عاين الحقيقة ووقف على الدقيقة وعلم مالم تعلموا».

لقد خرج الحسين إلى الكوفة دون سماع تجربة أهل الخبرة والرأى فكانت النتيجة:-

.. لم يحقق أى مصلحة، وإنما جلب المفاسد الجمة .. ومنها:

أ - أطفىء سراج الدين بقتل الحسين - رضى الله عنه -

ب - قتل كل أولاد النبوة.

ج - تجرؤ الحكام على الصالحين والاستهانة بدمائهم وقتلهم وتشريدهم.

د - محاولة سبى نساء بيت النبوة، ولم يجرؤ على ذلك أحد قبل ذلك.

هـ - تمزق الأمة وتفرقها شيعًا وأحزابًا.

و - تتابع سلسلة الخروجات الفاشلة التى لم تحقق أى مصلحة.

ز - رسم صورة شائهة عن العالم الإسلامى وأن مشكلاته لا تحل إلا بالسيف والقتال..

- إن على الدعاة أن يكونوا ذوى خبرة بطبائع النفوس، ولا يغتروا بأصوات الآلاف الذين يهتفون وراءهم، ويحضرون مؤتمراتهم، ويستحثونهم بضرورة القيام بالخروج المسلح على الحكام، فيستكرهون الدعاة على ما لا يحبون ويدفعونهم إلى مالا يبصرون .. فيظنون أنَّ الأمة جميعًا وراءهم فيقتحمون بهم البلاء .. ثم ينفض الناس عنهم ويتركونهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وقد تفرق ثمانية عشر ألف رجل عن الحسين رضى الله عنه وتركوه يقتل بين أيديهم وهم ينظرون .. بل إنَّ مسلم بن عقيل لا يجد بيتًا يؤويه .. ولما استضافته إحدى النساء سلمه ولدها للأمير مقابل «دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين».

- ولو علم الحسين طبيعة أهل الكوفة، ولو سأل أهل التجربة لعرف أن (من فاز بهم فقد فاز بالسهم الأخيب).

(٦) لقد كان الحسن بن على، وعبد الله بن عمر يستقرئان المستقبل، وينظران بعين البصيرة إليه .. فقد قالا للحسين رضى الله عنه: « إن الله لن يجمع لكم الملك والنبوة»، ولقد حاول أبوه علىّ ولم يتحقق له ذلك، وحاول الحسن ولم يظفر بما أراد .. ورضى الحسنُ بإمامة الدين وترك الخلافة والملك، وهذه حكمة عظيمة .. حتى لا يعتقد الناس أن النبوة تورث كما يورث الملك .. وحتى لا تنسب أخطاء الحكام لبيت النبوة .. فإن خطأ الحكام تعانى منه الأمة أجيالاً وأجيالاً، فليس من الحكمة أن تخرج هذه الأخطاء من بيت النبوة والرسالة.

وإنَّ على ورثة الأنبياء أن يأخذوا العبرة من ذلك، وأن وراثتهم للنبوة ليست فى الحكم والملك، وإنما فى العلم والدعوة ، وتعريف الخلق بالحق.

وأنه ليس كل تقى يصلح أن يكون ملكًا أو حاكمًا .. فلا بد أن نفرق بين التقوى والصلاح، وبين الحكم والسياسة.. فليس كل تقى يصلح أن يكون حاكمًا، ولا كل صالح يقدر على الخوض فى السياسة، ولا أن يسلك مسالكها الوعرة.

فعلى أهل العلم والدعوة أن يعرفوا أنهم ورثة النبوة فى العلم والبلاغ والهداية .. وأنهم عادة إن نازعوا أهل الملكِ ملكهم فسوف يحرمون من الإثنين فلن يصلوا إلى الحكم، ولن يكونوا ملوكًا

.. كما أنهم لن يتمكنوا من الدعوة ونشر العلم وهداية الناس، بل قد يؤدى النزاع مع الحكام إلى تحريم الدعوة، وقد يقتل الدعاة ويموتون.

ولذلك .. فواجب على الدعاة أن يكونوا أداة صلاح، وأبواب نصح للملوك والحكام، وأن يعيشوا معهم أعوانًا على الخير فقط .. وفى هذه الحال قد يقبل الحكام منهم نصحهم، ويستجيب الملوك لتوجيهات الدعاة والعلماء لهم .. بل قد يقبل الملوك من الدعاة ساعتها اللوم والمراجعة .. لأن الحاكم أو الملك إذا رأى أن العالم لا مطمع له فى ملكه وإمارته، وأنه لا ينوى أن ينازعه سلطانه، ومادام الملوك قد اطمأنوا إلى إخلاص الدعاة، وأنهم ليس لهم مطمع ولا غاية دنيويه، هنا قد يقربونهم ويستمعون إليهم ويقبلون شفاعتهم وينزلون على آرائهم.

أما ساعة الخروج المسلح فلن تنفع عند الملوك شفاعة حتى ولو جاءت من صاحب خلق وصلاح وتقوى، حتى وإن كان الناصح الحسين وآل الحسين.

فعلى أهل الدعوة والعلم إذا وقع القتال بين أبناء الأمة ألا ينشغلوا به ولا يخوضوا فيه. إنما يصرفوا جهدهم للدعوة والتعليم وتربية الناس على حقائق الإسلام وتعريفهم صحيح الدين.

لأن الخروج على الحكام يحمل من المفاسد أضعاف أضعاف ما يتوهم من مصالح .. وهذا ما جعل ابن عمر وابن عباس ينشغلان بالدعوة والتعليم دون منازعة أهل الملك ملكهم ، لما فى القتال والاحتراب من وهن الأمة .. وضياع كل المكاسب التى فى أيدى الدعاة، وحصار الدعوة، وانطفاء شعلة الإسلام.

واستئناسًا بقول ابن عمر للحسين رضى الله عنه «إن الله لن يجمع لكم الخلافة والنبوة» فقد لا يجتمع للدعاة وأئمة الدين فى كثير من العصور الدعوة والدولة، أو إمامة الدين والإمامة فى الحكم، خاصة إذا طلبوا ذلك عن طريق النزاع المسلح مع الحكومات .. وإن هم فعلوا ذلك فقد تضيع منهم إمامة الدعوة، كما تضيع منهم الرئاسة والحكم .. فلا هم تمكنوا من بلاغ دعوتهم، ولا هم استطاعوا إقامة دولتهم .. بل ربما حبسوا وشردوا وقتلوا، وبقى الحكم هو الحكم، والدولة هى الدولة .. ولكن الدعوة تكون قد ماتت والدعاة قد أعدموا أو سجنوا.

وهنا يجد أهل الفساد والمعاصى فرصتهم سانحة، وبضاعتهم رائجة، خاصة .. وقد خلت الساحة من صوت الهداية، وخفت نور الحق، وحرمت البلاد من الدعوة والدعاة .. فينشط أهل الأهواء، ويتبجح أهل الشهوات والسراق .. وينحرف الشباب، ويظهر عباد الشيطان ومن سلك مسلكهم، ويعيش المجتمع حياة الضنك والشدة.

(٧) كان على الحسين رضى الله عنه أن يعرف أنَّه حينما تقوم الحرب وينشب القتال، تُنْسَى فضائل الناس .. حتى يقول ابن زياد للناس «سبوا الكذاب بن الكذاب»، يقصد حسينًا وعليًا - رضى الله عنهما - وهم الذين كانوا يعترفون بفضله ومكانته وحتى يقول ابن زياد لمسلم بن عقيل: «يا فاسق كنت تشرب الخمر»، وهو يعلم أنه برىء من هذه الكبيرة.

بل إنَّ القتال يجعل الصف الواحد يلعنُ بعضه بعضًا، ويسب بعضه بعضًا . . وهل ظهر الخوارج وكفروا الصحابة وسعوا لقتلهم إلا من داخل الصف المسلم .. ساعة القتالِ؟ .. وهل تكثر الإشاعات والتُّهم الكاذبة، ويقدح كل طرف فى الآخر إلا ساعة القتال؟.. وهذه الإشاعات أمور ظنية، والطاعة ووحدة الصف أمور يقينية .. فكيف نترك اليقين للمظنون؟!

وكيف يُهْدِرُ أهلُ الفضل فضلَهم، ويَنْسَى أهل الشرف شرفَهم ويسيئون إلى أنفسهم، بل إلى أفكارهم التى يحملونها ويعيشون عليها؟!

ولم يجعل الله أهل دعوته وحملة رسالته أهل ذلٍ ولا هوان، وإنما جمع لهم كرامة الدارين، وأعطاهم كلتا الحسنين .. حتى إن القرآن يحدثنا مثلاً عن عيسى يقول: «وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين» .. وكما يحكى عن منزلة موسى يقول : «وكان عند الله وجيهًا».

فأى وجاهة فى أن يهدر المسلم كرامته ويعرض سيرته للتهم والتزوير وينسى الناس قدره، ويتنكر قومه لمكانته .. وقد قال الله لنبيه : «ورفعنَا لك ذكرك».

أما إنَّه لو لم يخض الحسين رضى الله عنه غمارَ الحرب .. ولو أنه لم يرمِ بنفسه فى أتون المعاركِ، ومنازعة أهل الملك ملكهم، لظل فى الدنيا سيدًا وعظيمًا ولم يجرؤ أحد أن يقول : (سبوا الكذاب ابن الكذاب) .. رغم أن الحسين وأباه رضى الله عنهما كانا إمامين فى الصدق والدين.

- فعلى أبناء الحركة ألا يعرضوا أنفسهم لإهدار الكرامة والقدح فى أشخاصهم وسبهم على كل لسان وفى كل تجمع وبكل الوسائل .. لأن الحرب تهدر القيم وتنسى الفضل .. ولو أن ابن عباس دخل فى دوامة الحرب لما أثر عنه علم ولا فقه، ولما كان إمامًا فى التفسير، وإنَّما تخفى مناقبه وتجحد شمائله ويحرم الناس من علمه ودعوته، ولظل محجوبًا وراء غبار الخيول الذى أثارته المعارك والحروب

فعلى أهل الفضل ألا يهدروا فضلهم، وألا يذهبوا كرامتهم ومروءتهم .. وإنما يكون إهدار الكرامة .. بإعطاء الفرصة والمبرر لمن يريد التشهير ويجحد الفضل وينكر المعروف، وينشر الإشاعات .. وكل ذلك كائن لا محالة متى وقع الصدام المسلح واحتدم القتال بين أى طرفين .. فضلاً عن أبناء الدين الواحد والوطن الواحد والمصالح المشتركة.

(٨) قد يقول قائل: إن الحسين رضى الله عنه قد طلب مطالب عادلة، وسألهم أشياء منطقية .. وكان الواجب على ابن زياد أن يجيبه إليها جميعًا، كان يجب أن يتركه يرجع إلى مكة كما أراد .. وكان بإمكانه أن يذهب به إلى يزيد بن معاوية كما طلب الحسين رضى الله عنه ذلك ليتحاور معه، أما وإن رفض ابن زياد ذلك فقد كان بوسعه أن يترك الحسين يلجأ إلى الثغور بعيداً عن الخلافة وطلب الخلافة.

ونحن أيضًا نقول: نعم كان بإمكان ابن زيادٍ أن يجيب الحسين رضى الله عنه فيما طلبه .. وكان أمامه فرصة، يتحاشى فيها قتْله، ويحقن فيها دمه، ويجنب الأمة آثارًا عظيمة ترتبت على رفضه مطالب الحسين رضى الله عنه وإصراره أن يضيق عليه وأن يقتله.

نحن نقول ذلك ونحمل ابن زياد مسئولية مقتل الحسين رضى الله عنه .. ولكن لابد أن نتذكر أن هذه المطالب التى تقدم بها الحسين قد جاءت بعدما فات الأوان ومَضَى الوقت الذى يمكن لجيش مثل جيش الشام أن يقبلها بعده.

لقد جاءت هذه المطالب بعدما التقى الجمعان واصطف الجيشان .. بعدما شحنت النفوس ودقت طبول الحرب .. وإذا قامت الحرب فإن قانون الدنيا وقانون الحرب المعروف يفرض الآتى: «لا يستمع أحد لطلبات عادلة .. ولا يفكر أحد فى حلول منطقية .. وإنما يسود منطق القوة، وتغيب

قوة المنطق، ويغيب الحوار والتفاهم، .. ويبقى شئ واحد هو الذى يفرض نفسه على الموقف .. إنه صوت القوة، ولغة المدافع، وشريعة الغاب».

فإذا قامت الحرب لا تتقدم بمطالب، ولا تسأل عن حقوق، ولا تطالب بعدالة، لا تتحاكم إلى قانون، ولا تتوسل بمبادىء إنسانية.

إذا قامت الحرب لا تتمسح بجذور تاريخية، ولا بأصول عرقية ولا بمبادىء دولية .. لا تنتظر لجان حقوق الإنسان .. ولا تبكى صغارًا قد يتموا .. ولا تندب أطلال الديار التى خربت .. لا تفكر فى شىء من ذلك .. ولا تطلب من عدوك أن يلتزم بمبادىء، ولا تذكره بقانون فهو فى ساعة الحرب لن يلتزم ولن يتذكر. بل إنه لن يسمعك ابتداءً.

- إن الحرب صماء لا تسمع .. عمياء لا تبصر، بكماء لاتتحاور .. هوجاء لا تبقى ولا تذر.

- إن الحرب لا تعرف إلا لغة الدمار والخراب، والسعى إلى تحقيق هدف واحد هو إحراز النصر، وتركيع الخصم .. دون النظر إلى مشروعية الوسيلة أو عدم مشروعيتها.

هذه هى طبيعة الحرب، ولذلك لم يسمع ابن زياد إلى مطالب الحسين رضى الله رغم عدالتها .. ولم يتجاوب معها رغب أنها منطقية .. بل لم يلتفت إليها رغم نفعها للطرفين .. بل هى نافعة لجميع الأمة، ولنظام الدولة، ونافعة للإسلام والمسلمين.

نعم .. هى كذلك، ولكن ساعة الحرب لا مجال لها .. وليست هناك فرصة لسماعها .. فضلا عن التفكير فيها والتجاوب معها.

إن الذين ينادون بالمبادىء، ويطالبون باحترام القوانين، ويسألون عن الحقوق، ويسعون لنصرة قضاياهم العادلة، ومطالبهم المنطقية .. عليهم أولاً ألا يدخلوا فى نزاع مسلح مع حكوماتهم .. وعليهم ألا يشعلوا نار الحرب، ولا يستدرجوا للدخول فى هذه النزاعات المسلحة.

هكذا يجب أن يعمل أصحاب الحقوق، فإذا حدثت المواجهة المسلحة، أو استدرجوا لمواجهة لا قبل لهم بها .. فعليهم أن يبذلوا جهودهم لإيقافها، وأن يضحوا بكل شىء فى سبيل إنهائها..

ولأن يتجرع أصحاب الحقوق والمطالب العادلة العلقم فى حلوقهم، خير لهم من أن يسفكوا دمًا حرامًا، أو يزهقوا أرواحهم من غير سبب صحيح ولا مصلحة شرعية مؤكدة.

على الذين يبتغون نصرًا لدعوتهم، وتحقيقًا لأهداف دينهم .. أن يوقفوا القتال أولاً .. ثم بعد ذلك يسألون .. أين المبادىء؟ .. ولماذا لا تحترم القوانين؟ .. ولماذا تهدر الحقوق؟ .. ثم يقدمون مطالبهم العادلة.

- يتوقف القتال أولاً .. وساعتها يبدأ الحوار.

هذه هى طبيعة الحرب .. لا تعرف الحقوق، ولا تقف عند الحدود .. بل هدفها الوحيد إحراز النصر بأى وسيلة ممكنة، دون النظر فى مشروعيتها.

- وقد يقول قائل تعقيبًا على هذا الكلام ..

وهل هذا من الدين؟

وهل يقر الإسلام ذلك؟

وهل تقبل الشريعة هذه التصرفات؟

وهل يرضى الإسلام حربًا بلا أخلاق؟

نقول له: ليس هذا من الدين، نعم .. ولا يقره الإسلام، هذا حق لا مراء فيه .. ولكن من قال إن الحرب تلتزم الشرائع، أو تعرف الأخلاق.

نعم هناك صفحات مضيئة لحروب النبى ﷺ .. ولكن أين النبى ﷺ .. وأين أخلاقه فى السلم والحرب؟.

قد تلتزم أنت بأخلاق الإسلام فى الحرب والقتال، وأنت مشكور على ذلك .. ولكن هل تستطيع أن تلزم الآخرين بأخلاق الحرب فى الإسلام؟ وهل تقدر أن تجعلهم يتأدبون بأدب النبى ﷺ فى القتال؟

إن عليك أن تلتزم بالشريعة كما تشاء .. وأن تتخلق بأخلاق الإسلام ما استطعت .. أمَّا أن تلزم بها الآخرين، فلن يكون ذلك .. وسوف تترك نفسك لقمة سائغة تطحنها رحى الحرب وتسحقها المعارك، وتحرقها شهوة الانتصار.

لكل ذلك لم يلتزم ابن زياد، ولم يستمع لنداء الحسين .. ولم يستجب لمطالبه، ولم يستطع

الحسين رضى الله عنه أن يفعل معه شيئًا .. إنما راح هو وأهل بيته ضحايا معركة لا طاقة لهم بها .. ولا مصلحة لهم فى خوضها.

ومات الحسين رضى الله عنه .. وسيموت كل من يدخل الحروب .. وتبقى شريعة الحرب واحدة .. وقانون القتال ثابت: «افعل بعدوك كل ما تقدر عليه، ولا تستجب لنداء الأخلاق، ولا تتأرق لوخز الضمير»..

فإن جنازير الدبابات ليس عندها ضمائر .. وقذائف الطائرات لا تبصر صغارًا أو كبارًا .. وتحقيق النصر لا يتقيد بالطريق المستقيم.

إن من أراد لنفسه خيار الحرب عليه أن يعرف طبيعتها، وأن يقبلها بكل تبعاتها وأوزارها .. وإن كان هو مطالب ألا يدخلها إبتداءً .. أما أن يدخل الحرب، ويقتحم القتال ثم يقدم المطالب، ويطلب الحوار، ويسأل عن الحقوق .. ويبكى على الأطفال والنساء .. ويتمسح بالقانون الدولى، أو حقوق الإنسان أو يبكى مجدًا أو شرفًا .. من دخل الحرب ثم فعل شيئًا من ذلك نقول له.

إنك لم تفهم الحرب، ولم تخبر القتال بعد .. فلماذا أدخلت نفسك فيما لا تعلمه وليس لك به خبرة؟ ولا تقوى على تبعاته؟ والله يقول: «ما جعل عليكم فى الدين من حرج».

فالحرب لا تعرف إلا تحقيق النصر .. ولا تلتزم بالمبادىء ولا القيم.

(٩) وأخيرًا نسأل:

- هل حقق الحسين رضى الله عنه ما خرج من أجله؟!

- هل حقق المصالح المقصودة؟! هل حصل منها شيئًا؟!

- لم يحقق شيئًا من ذلك .. فلا هو تولى الملك .. ولا هو أبقى على مصالح الإسلام ودعاته وحملة مشاعله وهدايته من آل بيت النبوة.

- لقد كان على الحسين رضى الله عنه أن يبحث عن بدائل أخرى للإصلاح .. يبدأ بها وينتهى عندها، ولا يقتحم الحرب والقتال.

وإذا كان يزيد ابن صحابي، وقريب عهد بالنبوة، وقد فعل هذا بالحسين رضى الله عنه .. وهو

أيضًا صحابى وسليل بيت النبوة، وسيد شباب أهل الجنة فكيف لو وقعت الحرب وكان الحاكم ليس ابن صحابى، ولم يكن قائد الثورة ابن بنت رسول الله ﷺ؟

- كيف وقد تباعد بنا الزمن واندرس كثير من معالم الدين، وضعف الإيمان فى القلوب، وتملكتها الدنيا أكثر وأكثر؟

- كيف تكون النتيجة لو كان الخروج فى أيامنا هذه، وفى زماننا هذا؟

- لا شك أن النهاية ستكون أشد فداحة وأشد ظلامًا وفتكًا، ولذلك فإن الخروج المسلح على الحكام لا يحقق أى مصلحة .. وإنما يجلب المفاسد كلها.

- ولقد قال سعيد بن المسيب فى خروج الحسين رضى الله عنه : «لو أن حسينًا لم يخرج لكان خيرًا له».

- ويقول ابن تيمية: «إنه لم يكن فى خروج الحسين مصلحة، لا فى دنيا ولا فى دين، وكان فى خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد فى بلده .. فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شىء بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك .. وصار سببًا لشر عظيم، وكان قتل الحسين أوجب الفتن»(١).

---

(١) نقلا عن كتاب تسليط الأضواء ص ١٠٧

ثانيًا .. قصة «خروج جيش الحَرَّة»(١)

فى سنة ٦٣ هـ ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وأمروا عليهم رجلين ، عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعبد الله بن مطيع، واجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: لقد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى هذه، ويلقيها عن رأسه .. ويقول الآخر قد خلعته كما خلعت نعلى هذا، حتى اجتمع شىء كثير من العمائم والنعال هناك .. ثم قاموا بإخراج عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامل يزيد على المدينة .. كما عمدوا إلى إجلاء بن أمية من المدينة المنورة، وحاصروهم فى دار مروان بن الحكم..

- وأرسل بنو أمية إلى يزيد يعلمونه بما هم فيه من الحصار والإهانة والجوع والعطش، وطلبوا منه أن ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم.

غضب يزيد لما بلغة عن بنى أمية، وأراد أن يرسل إليهم عمرو بن سعيد بن العاص يخرجهم مما هم فيه، وكان قد عزله عن المدينة، فأبى عمرو ذلك عليه .. فبعث إليهم مسلم بن عقبة على رأس عشرة آلاف فارس ، وخمسة عشر ألف راجل، وأمره أن يدعوهم ثلاثًا فإن رجعوا إلى الطاعة قبل منهم وكف عنهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم .. ثم قال له : «وإذا ظهرت عليهم فأبرح المدينة ثلاثًا ثم اكفف عن الناس: ولما راجعه النعمان بن بشير رضى الله عنه، قال: ليس لهم إلا هذه الغشمة، والله لأقتلنهم بعد إحسانى إليهم وعفوى عنهم مرة بعد مرة ..

- وكان عبد الله بن حنظلة قد قدم عليه فى وفد من المدينة ومعه ثمانية من بيته، فأعطاه يزيد مائة ألف درهم وأعطى كل واحد من بنيه عشرة آلاف .. فلما رجعوا المدينة، قدم عليه الناس يسألونه، ما وراءك؟

- فقال : والله لقد جئتكم من عند رجل، والله لو لم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدتهم بهم .. قالوا: قد بلغنا أنه أعطاك وأخدمك .. وأجزاك وأكرمك. قال: «قد فعل، وما قبلت منه إلا لأتقوى عليه».

(١) البداية والنهاية .. ابن كثير (٥٨٩/٨:٥٩٦) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف ص ٤٨٩-٤٩٢ بتصرف

وحض الناس، فبايعوه، وخلعوا يزيد ، ثم عمدوا إلى كل ماء بينهم وبين الشام فغوروه وصبوا فيه القطران.

ولما ثار أهل المدينة على يزيد، سألهم الناس عن سبب خروجهم فقالوا: إن يزيد يشرب الخمر، وتعزف عنده القيان، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب..

- وذهبوا إلى محمد بن الحنفية لينضم إليهم، فرفض ذلك وأنكر التهم التى قالوها عن يزيد .. وقال لهم : «ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك.. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىّ الخشوع؟

- أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ .. فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه .. فقال: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» .. وليست من أمركم فى شىء .. أ.هـ.

- ورغم هذا الحوار إلا أن أهل المدينة أصروا على الثورة، وإن كان ابن عمر - رضى الله عنه - أنكر عليهم خروجهم، بل ومنع أهله وولده من المشاركة.

فعند البخارى موصولاً إلى نافع قال: «لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر - رضى الله عنه - حشمه وولده فقال لهم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»[(١)]، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه.

بل إن ابن عمر - رضى الله عنه - سعى إلى زعماء الثورة ينصحهم ويبصرهم بخطأ ما هم عليه .. فقد روى مسلم، أن ابن عمر - رضى الله عنه - قدم على عبد الله بن مطيع زمن يزيد بن معاوية

(١) متفق عليه عن ابن مسعود وابن عمر

لما كان من أمر الحرة ما كان .. فقال ابن مطيع: مرحبا بأبى عبد الرحمن ضعوا له وسادة .. فقال ابن عمر: إنى لم آتك لأجلس، جئتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله .. سمعت رسـول الله ﷺ يقول : «من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميتة جاهلية»[1].

– هذا موقف ابن عمر – رضى الله عنه –وقد منع حشمه وبنيه من الخروج على يزيد، بل سعى إلى زعماء الثورة ينصحهم فى عدم الخروج ويحذرهم عقابه.

وكذلك فر من الفتنة جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى – رضى الله عنهما – وقد أويا إلى جبل لئلا تدركهما هذه الفتنة.

– ونزل مسلم بن عقبة بجيشه شرقى المدينة فى الحرة الشرقية، ودعا أهلها ثلاثة أيام، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما انقضى أجلهم .. قال لهم فى اليوم الرابع: «يا أهل المدينة مضت الثلاث .. وإن أمير المؤمنين قال لى : إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرنى أن أمهلكم ثلاثا، فقد مضت، فما أنتم صانعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟»

– فقالوا : بل نحارب .. فقال: «لا تحاربوا بل سالموا».

– فأبوا وتهيأوا للقتال .. وبدأت المعركة وانهزم أهل المدينة، وقتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، منهم أميرا الثورة ، عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مطيع وسبعة من بنيه.

– قال المدائنى: وأباح مسلم بن عقيل المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس، ويأخذون الأموال.

– وقال الزهرى:

«قتل سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالى، وممن لا أعْرف من حر وعبد، وغيرهم عشرة آلاف».

– وبعد هذا السرد لأحداث الثورة وما جرى فيها وموقف كبار الصحابة حيالها، نعود ونسأل:

(١) رواه مسلم عن ابن عمر

- لماذا كل هذا؟! .. لماذا تسيل الدماء؟!

- لماذا تستحل المدينة؟! .. لماذا يعم الخراب والنهب؟!

- لماذا يقتل المهاجرون والأنصار؟!

- لماذا كل ذلك؟!

- وهل تحقق من ثورة أهل المدينة ضد يزيد أى مصلحة؟!

- يقول الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف: وفى ظنى أنه لم يكن وراء هذه الثورة من دافع سوى الكره للحكم الأموى. ولكن هل مجرد الكره يكفى أن يكون سببًا للثورة؟ .. فلو أن كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة .. أ.هـ[(١)].

- وقال الخضرى: وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وجدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه .. ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه من خلع يزيد؟ أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية ولهم خليفة منهم يلى أمرهم؟! أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم؟ .. وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار .. ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد الجنود الإسلامية؟

إنهم فتقوا فتقًا، وارتكبوا جرمًا، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة أ.هـ [(٢)].

---

(١) تاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

(٢) نقلا عن المصدر السابق.

.. عبر وعظات من معركة الحَرَّة ..

(١) لقد كانت دعوة الإسلام واضحة صريحة فى تربية أتباعها على نبيل الخصال وعظيم الأخلاق .. كما كانت حريصة أن تخلصهم من حظ نفوسهم وتجردهم للمعانى الجميلة يعيشون بها ويبتغون من ورائها الأجر والثواب.

لقد أرسى الإسلام قاعدته العظيمة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان). كما قال ﷺ: «لم يشكر الله من لم يشكر الناس»(١).

- إن الإسلام يقابل الحسنة بمثلها وزيادة، وليس بأقل منها أو ضدها، فجزاء الإحسان الإحسان، وجزاء العطاء العرفان، وجزاء العهد والميثاق الصدق والوفاء.

لقد كان الأولى بعبد الله بن حنظلة أن يحفظ ليزيد يده عليه وإحسانه إليه وبذله المعروف له ولأولاده، وأقل صور الوفاء أن يذكره بجميل ما صنع معه. فقد أحسن يزيد مثواه وأكرم الوفد الذين نزلوا معه ضيوفًا على قصر الخلافة.

- فما كان يليق بعبد الله بن حنظلة أن يخرج عليه بعد أن بايعه، أو ينزع يدًا من طاعته بعد ما أعطاه صفقة يمينه، ولا أن يستغل المال الذى بذله له يزيد هو وأولاده فى التقَّوى عليه ومحاربته، وهذا ما أنكره عليه أهل المدينة لما تعجبوا من خروجه على يزيد على الرغم من إحسان يزيد إليه حتى لقد قالوا لعبد الله بن حنظلة: «قد بلغنا أنه أعطاك وأخدمك وأجزاك وأكرمك».

- أجاب ابن حنظله على الناس بقوله : «إنه قبل إحسان يزيد ليستعين به عليه».

- إن النفوس العظيمة متى أكرمتها ملكتها، وكانت طوع إرادتك ورهن إشارتك ما لم تأمرها بمعصية أو مخالفة، فإذا أمرتها بمعصية رفضت ذلك الأمر وحفظت فى نفس الوقت لأصحاب الجميل جميلهم وراعت لأهل المعروف عطاءهم.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ورواه الترمذى وقال الألبانى صحيح.

لقد حفظ النبى ﷺ للمطعم بن عدى معروفه الذى بذله وإجارته له ﷺ رغم شركه وكفره فتمنى لو كان حيًا ليهب له ﷺ أسرى بدر[١] وهم كل ما تبقى لديه من انتصاره فى المعركة.

– لقد جانب عبد الله بن حنظلة الصواب بخروجه على يزيد وتنكره لبيعته ومعروفه، وكان الأحرى به أن يقابل هذا العطاء بالعرفان .. ويقابل هذا الإكرام بالشكر له والثناء عليه.

إنه لا يصح أبدًا أن يخلع الناس يزيد كما يخلعون نعالهم وعمائمهم، وعبد الله بن حنظلة ساكت لا يتكلم ولا ينكر عليهم خروجهم. بل إن الناس عمدوا إلى عبد الله بن حنظلة فجعلوه عليهم أميرًا، ثم هو يقبل ذلك، ويتقدمهم للخروج على يزيد.

– إن نكران الجميل وعدم الوفاء بالعهد ليست من خصال المسلمين ولا تليق بعامتهم فضلاً عن الأوائل السابقين منهم، ولقد ورد فى الحديث الصحيح «من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له»[٢].

– إن ابن عمر رضى الله عنه كان من أعظم الناس وفاء وصدقًا حينما جمع ولده وحشمه وذكرهم بحديث رسول الله ﷺ «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»[٣]. ثم قال لهم: «... وإنى لا أعلم عذرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال ..».

– أما وإن عبد الله بن حنظلة قد أعطى يزيد طاعته وأقر بإحسان يزيد إليه وإلى أولاده .. فكان الواجب عليه أن يحفظ له ذلك، ويبقى على عهده له ويمنع الناس من الخروج عليه وخلعه، لا أن يقودهم فى معركة مسلحة ضد الخليفة داخل مدينة الرسول ﷺ.

نعم لقد اتهموا يزيد بتهم عظيمة ومعاص هى من كبائر الذنوب، ولكن محمد بن الحنفية أنكر دعواهم، وأبطل هذه التهم، وفند هذه المزاعم، وأوضح لهم خطأ اجتهادهم وبطلان خروجهم، لكنهم لم يسمعوا لقوله ولم يستجيبوا لنصحه .. فارتكبت هذه الفظائع .. وتكاثرت هذه المنكرات، وانتهكت هذه المحارم.

---

(١) رواه البخارى عن جبير بن مطعم .. حديث لو كان المطعم بن عدى حيًا».

(٢) رواه مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود وابن عمر

- لقد كان ابن الحنفية هو أولى الناس بالتشفى والانتقام من يزيد وتأييد هذه الثورة والإقرار بهذه التهم وتثبيتها فى حقه وإشاعتها بين الناس لتهييج قلوبهم عليه .. «وكيف لا وقد قتل يزيد أخاه الحسين بن على - رضى الله عنه - وآل بيته، وفعل بهم ما فعل».

- ولكنها النفوس الأبية والقلوب النقية دائمًا ترفض المتاجرة بالمواقف والسمسرة بالأعراض، وتأبى ترويج الشائعات لأن التقوى والصلاح ومراقبة الخالق تمنعها من ذلك، فلقد عاشت هذه النفوس مع قوله تعالى : «وإذا قلتم فاعدلوا» وقوله تعالى: «وقولوا قولاً سديدًا».

(٢) إذا كان الإسلام قد ربى أتباعه على القاعدة العظيمة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان». وجعلها سبيلا لتملك القلوب، فقد أرسى قاعدته الثانية (قاعدة العدل) وجعل لها الضوابط التى تسموا بها.

ومن هذه الضوابط:

١ - أنه لا عقوبة إلا بجريمة.

٢ - لا يؤخذ المرء بجريرة غيره.

- وهاتان قاعدتان عظيمتان تعارف عليهما فقهاء القانون فى العصر الحديث:

الأولى: المتهم برىء حتى تثبت إدانته.

الثانية: شخصية العقوبة، وتتمثل فى قوله تعالى : «ولا تز وازرة وزر أخرى».

- إن الله تعالى ينصر الحكومات العادلة ويحفظ عليها دولتها وملكها، ويزيل الحكومات الظالمة ويذهب بريحها حتى وإن كانت مسلمة .. هذا فى حالة كون المرء حاكمًا ومهيمنًا ويملك أسباب القوى .. فكيف لو وقع الإنسان فى الظلم وتجاوز العدل، وهو لم يتملك القوة بعد وقبل أن يحصل له التمكين فى الأرض؟ .. لا شك أن عاقبة ظلمه تكون عليه وخيمة، واضمحلال أمره يكون سريعًا.

- لقد وقع أتباع عبد الله بن حنظلة فى ظلم عظيم بحصارهم لبنى أمية، وحبسهم فى دار مروان، ومنعهم من حقوقهم الأساسية، وحرمانهم من حاجياتهم الضرورية، حتى اشتد بهم الجوع

وذهب بهم العطش مذهبًا، وأخذ الجهد منهم مأخذًا.

- طلب بنو أمية النجدة من يزيد، فأرسل من يفك عنهم الحصار ويرفع عنهم الهوان، ولكن أتباع عبد الله بن حنظلة طردوهم من بيوتهم، وسعوا فى إخراجهم من المدينة بكاملها.

- ولم يكتفوا بذلك ولكنهم عموا جميع بنى أمية بالعقوبة ولم يفرقوا بين شيخ كبير ولا فتى صغير، وإنما أخذوا الجميع بالعقاب، دون ذنب فعلوه، ولكنهم أخذوهم بأخطاء يزيد وحاسبوهم عليها لمجرد أن يزيد من بنى أمية.

- لا شك أن بنى أمية كان فيهم المحسن والمسىء، والمسرف على نفسه والمقتصر . وكان منهم الراضى عن يزيد والمؤيد لسياسته، كذلك كان فيهم الرافض ليزيد والناقم على حكمه .. وهكذا فى كل الشعوب.

- بل إن الذين أيدوا يزيد منهم متفاوتون فى درجة تأييدهم له ورضاهم عنه .. ولكن أتباع عبد الله بن حنظلة حاصروهم جميعًا، وسعوا فى إخراجهم وأخذوا الكل بذنب البعض ، والله يقول : «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

- إن تعميم العقوبة لهو الكارثة العظمى والآفة الكبرى والمظلمة الشديدة التى تحدث من كلا الطرفين المتقاتلين كلما حدث خروج مسلح على الحكام .. وهذا لا يعفى منه عصر دون عصر، ولا بلد دون بلد، بل هو عام فى كل زمان ومكان يقع فيه قتال «إلا من رحم ربك» ، وهم قليل .. نسأل الله العافية والسلامة.

- إنه بحصار أتباع عبد الله بن حنظلة لبنى أمية جميعهم خرجت الأمور عن مسارها الصحيح وأصبحت الأحداث تصب فى صالح يزيد وتعاطف الناس معه خاصة بنى أمية الذين استعداهم الثوار دون مبرر، وانتصر يزيد فى المعركة.

- إن كثيرًا ممن يخرجون على الحكام تكون لهم قضايا عادلة أو مطالب مشروعة يقرهم عليها العرف والعقل والدين .. لكن بسبب تصرفات غير منضبطة وأعمال غير صحيحة تضيع هذه الحقوق وتنسى هذه المطالب، ويتنكر الجميع لعدالة قضيتهم.

- إن الذين يختطفون بعض الرهائن من المدنيين، ويساومون عليهم دولهم لتحقيق بعض المطالب والتى قد تكون عادلة. ينقلب العالم ضدهم بسبب سوء تصرفهم.

- إن الإسلام قد سبق القانون الوضعى فى إرساء القاعدة القانونية (شخصية العقوبة)، ولقد قالها القرآن قبلهم بخمسة عشر قرنًا من الزمان «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

- إن اختطاف دكتور أو مهندس أو عامل أو موظف لا علاقة له بالحرب ولا حتى بسياسة دولته ولا شأن له بشىء سوى حياته الخاصة واحتياجاته الشخصية .. بل ومن الممكن أن يكون غير موافق على سياسة دولته .. ليس من الإسلام فى شىء .. ولا تقره الشريعة الإسلامية ولا القوانين الوضعية.

إن اختطافهم ليس من الإسلام فى شىء، كما أنه لن يخدم قضايا الإسلام العادلة .. ولن يحقق مطالب خاطفيه رغم أنها قد تكون مطالب منطقية.

- وتعظم هذه المصيبة حينما يقع الاختطاف لرجل مسلم، ويقوم به نفرٌ من المسلمين .. فما ذنب هذا الإنسان، وما جريمته؟!

وتعظم المصيبة أكثر حينما يتم ذبح هذه الرهينة أمام الكاميرات وبثها إلى العالم كله عبر القنوات الفضائية، لتعطى أسوأ صورة للإسلام والمسلمين.

إن الدول الكبرى تفعل كل شىء، تقتل وتدمر وتعذب، بل وتحتل دولاً بأكملها وهى تتحدث عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان .. وهى تفعل كل ما تريد فى الخفاء.

- أما نحن فلا نصنع شيئًا يذكر فى الدفاع عن بلادنا وأوطاننا سوى خطف المدنيين وتصويرهم وهم يذبحون ذبح الشياة، ليقوم بعدها العالم بأسره ضدنا، وضد حقوقنا ومصالحنا .

«.. وأخيرًا بقيت لنا كلمة»

- هل تحقق لأتباع عبد الله بن حنظلة ما أرادوا؟

- هل منعوا يزيد من فسقه؟

- هل ثأروا فعلاً للحسين - رضى الله عنه -؟

- هل حاكموا الذين قتلوه؟

لقد خرجوا على يزيد لأنه يشرب الخمر .. فولغت جنوده فى دماء المهاجرين والأنصار، وقتل منهم هذا الكم الغفير، وهم الذين تحبهم قلوب المسلمين جميعًا وتهفوا إلى لقائهم.

لقد خرجوا عليه لأنه يستمع إلى الغناء. فحدثت من المفاسد ما يربو على مفاسد الغناء مرات ومرات.

- وقالوا نخرج عليه لأنه لا يواظب على الصلاة.. فاستباح المدينة ثلاثاً يقتل ويسرق ويفسد جنوده .. وذلك لأن الخروج المسلح يجرىء الحكومات على حرمات الدين والإسلام.

- سيقول البعض :

كان مفروضًا على جيش الشام أن يراعى حرمة المدينة المنورة، ويراعى جوار رسول الله ﷺ فيها فلا يستبيحها ولا يقتل ولا يظلم.

- نقول : نعم .. كان مفروضًا عليه ذلك.

ولكن الجيوش ساعة الحرب عادة لا تحترم ميثاقًا، ولا ترحم صغيرًا، ولا توقر كبيرًا، ولا تراعى حرمة ولا .. إلخ.

- إن هدف الحرب الأساسى هو إحراز النصر على من يعاديها، فإن تحقق ذلك بالرحمة والعدل فبها ونعمت .. وإن لم يتحقق فبكل أسلوب سواها.

هذه هى الحرب على مر العصور والدهور .. فعلى من يخوضها أن يتحملها بجميع تبعاتها .. وإلا فلا يعطى الذريعة للحكومات كى تتجرأ على الدين وتنتهك الحرمات وتهدر الكرامات وتتجاوز القوانين والمواثيق .. ثم يسأل، كيف يحدث هذا؟

- فإنما عليه تبعة ونصيب من تجاوز الحكومات ومخالفاتها.

- ولقد قال المؤرخ الشهير الخضرى بك فى تعقيبه على ثورة أتباع عبد الله بن حنظلة ضد يزيد : «إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة»[1] أ. هـ.

(١) تاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

ثالثًا .. «قصة خروج جيش التوابين» *

هم طائفة من الشيعة ممن أرسلوا إلى الحسين - رضى الله عنه - يطلبون إليه أن يسير إلى الكوفة .. فلما خرج إليهم خذلوه وقتلوه.

ولكن بعد مقتل الحسين رضى الله عنه ونهايته الأسيفة، هزهم ما حدث ، وعضوا أناملهم ندمًا على ما حدث منهم من تقصير فى حق الحسين رضى الله عنه، وأرادوا أن يتوبوا من هذا الذنب العظيم .. فتنادوا بثأر الحسين رضى الله عنه وأقاموا عند قبره يصلون ويبكون وكان من دعائهم:

«يا رب إنا خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسينًا وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه .. فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»

- وتأمر الصحابى الجليل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - على جيش التوابين وكاتبه عشرون ألفًا من الجنود للسير معه للأخذ بثأر الحسين - رضى الله عنه - فلما أراد الخروج لم يأته غير أربعة آلاف منهم .. ثم تخلف من هؤلاء الأربع ألف آخر فبقى معه ثلاثة آلاف .. ورغم قلة العدد عزم على السير بهم لقتال عبيد الله بن زياد فى الشام.

- أرسل عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة إلى سليمان بن صرد - رضى الله عنه - يعرضان عليه التعاون معه ضد قتلة الحسين - رضى الله عنه - وطلبا منه الانتظار حتى يجهزا جيشًا قويًا يساعده، لكن سليمان بن صرد - رضى الله عنه - أبى الانتظار .. وقال :«إنا خرجنا لأمر لا نرجع عنه ولا نتأخر».

- كما أرسل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - سعد بن حذيفة بن اليمان فى المدائن يطلب منهم العون فى قتال ابن زياد .. وتواعدا موعدًا للخروج .. ولكن الجنود ألحوا على سليمان بن صرد - رضى الله عنه - بعدم الانتظار.

---

* البداية والنهاية .. ابن كثير (٨ / ٦٢٧) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى ٤٧٨: ٤٨١ د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف.

فخرج جيش التوابين بعدده القليل ثلاثة آلاف رجل، ساروا إلى الشام يطلبون ابن زياد ليقتلوه، ورفضوا الدخول فى طاعة مروان بن الحكم.

– نزل سليمان بن صرد – رضى الله عنه – بأصحابه غربى «عين وردة»، وأقام بها واطمأن قبل أن يصل إليها جيش الشام .. فلما اقترب جيش الشام خطب سليمان أصحابه فرغبهم فى الآخرة، وزهدهم فى الدنيا .. ثم عين الأمراء من بعده إن هو قتل.

وتهيأ الفريقان واقتتلوا قتالاً شديدًا سائر يومهم إلى الليل، وفى الصباح أمد ابن زياد جيش الشام بثمانية عشر ألف فارس .. وفى هذا اليوم اقتتل الناس قتالاً لم ير مثله .. لا يحجز بينهم إلا الصلوات إلى الليل .. فلما أصبح صبح اليوم الثالث، وصل إلى جيش الشام مدد جديد من عشرة آلاف رجل، واقتتل الفريقان قتالاً أشد مما سبق.

– واستدار أهل الشام بأهل العراق من التوابين، وأحاطوا بهم من كل جانب، ونادى سليمان بن صرد – رضى الله عنه – فى جيش التوابين فقال: «يا عباد الله من أراد الرواح إلى الجنة، والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فليأت إلىّ»..

وتكاثر عليه الناس .. ثم رماه رجل من الشام بسهم فوقع، ثم وثب ثم وقع، ثم وثب ثم وقع، وحمل الراية بعده رجلان ، فقتلا أحدهما بعد الآخر حتى انتهت الراية إلى رفاعة بن شداد، فانحاز بالناس وقد دخل الظلام.

وقفل رفاعة بمن بقى معه راجعًا إلى العراق .. فقابلهم سعد بن حذيفة بمن معه من أهل المدائن جاء لنصرتهم .. فلما أخبروه خبرهم ومالاقوه من الهزيمة بكوا عليهم وترحموا على من قتل، واستغفروا لهم.

وانصرف أهل المدائن عائدين .. ورجع أهل الكوفة وقد قتل منهم خلق كثير.

عبر وعظات من خروج جيش التوابين

أولا

لقد انتهت قصة التوابين بقيادة سليمان بن صرد - رضى الله عنه - لنرى أنها لم تكن إلا مظهرًا من مظاهر الحماس لنصرة الحق والمطالبة بدماء الشهداء فى كربلاء.

انتهت لنرى أنها مجرد ثورةٍ من ثورات العواطف والمشاعر التى تهب علي القلوب، وتخيم على العقول فتحجبها عن رؤية الطريق الصحيح لنصرة المظلوم، ومقاومة الظلم ورفعه عن الناس.

إن كثيرًا من الناس حينما يرى ظلما قد وقع، أو حقًا قد سلب، أو واجبًا قد ضيع .. يفكر طويلاً فى رفع هذا الظلم ، ويقضى الليالي يتحرق شوقًا إلى ساعة يسترد فيها هذا الحق المغصوب، أو يقيم الواجب الذى غاب.

ولا شك أن هذا الشوق لإعادة الأمور إلى نصابها، وانتظار الساعة التى يسود فيها العدل، ويعود الحق إلى أصحابه ويرفع الظلم عن المظلوم .. لاشك أن ذلك شعور عظيم وخلق نبيل، وصاحبه مأجور عليه إن شاء الله.

ولكن كما أن تمنى نصرة المظلوم ومحاسبة الظالم، أو إصلاحه وتقويمه عبادة عظيمة .. فإن هناك عبادة أخرى واجبة .. ليست بأقل وجوبًا من العبادة الأولى.

هذه العبادة العظيمة التى قد يغفل عنها الناس تتمثل فى التفكير الدقيق والبحث الجيد عن كيفية إعادة هذا الحق إلى أهله .. وما هى الطريقة القويمة لرفع هذا الظلم الواقع؟ .. وما هى البدائل المطروحة لتقويم هذا الخلل الموجود؟

وهل هذه البدائل صحيحة شرعًا؟ ومنضبطة سلوكًا؟ .. ومحققة للهدف يقينًا لا ظنًا؟ .. هل هى جالبة للمصالح ودافعة للمفاسد؟

هذه هى العبادة الثانية الواجبة .. وهى عبادة البحث عن وسيلة صحيحة شرعًا ، يقينية لا ظنية، راجحة لا مرجوحة لإحقاق الحقوق.

إن بذل الجهد، وإنفاق الوقت، وصرف الطاقات لبلوغ الهدف الصحيح، وتقويم الخلل المشاهد لابد أن يلازمه بل لا ينفك عنه تفكير عميق طويل فى كيفية أداء هذا الواجب، ورفع الظلم، وعودة الحقوق إلى أصحابها.

ينبغى أن نعرف أنه إذا كانت نصرة آل الحسين - رضى الله عنه - واجبة وإعادة الحقوق إليهم عبادة .. فإن تخير الوسيلة الصحيحة الموصلة إلى ذلك يقينًا لا ظنًا هو أيضًا واجب لا يقل أهمية عن الواجب الأول.

لقد فكر التوابون كثيرًا وعاشوا طويلاً يتمنون نصرة آل الحسين - رضى الله عنه - بل وقفوا على قبره يذرفون الدمع ندمًا على خذلانهم إياه وتخليهم عن نصرته.

- ولا شك أن الإحسان إلى الحسين - رضى الله عنه - وآله وتقديم المعروف لهم من أعظم القربات .. ولا شك أيضاً أن حب الحسين رضي الله عنه وآل بيته من الإيمان ... فهم آل النبى ﷺ وعشيرته..

ولا شك أيضًا أن حياة الحسين - رضى الله عنه - أحب إلى المسلمين جميعًا من قتله، وبقاءه أنفع لهم من موته.

ولا شك أن تمنى عودة حقوق آل الحسين - رضى الله عنه - إليهم هو ركيزة داخل نفس جمهور المسلمين .. وقد تمنى التوابون ذلك.

- ولكن هل فكر جيش التوابين فى الطريقة المثلى لنصره الحسين رضى الله عنه .. وآله؟

- هل طرحوا عدة بدائل لرد العدوان الذى وقع على الأمة جميعها بقتل الحسين - رضى الله عنه؟

- هل تخيروا من بين هذه البدائل أضبطها شرعًا وأيسرها مسلكًا وأقدرها على تحقيق الهدف، ورفع الظلم الذى أصاب الحسين - رضى الله عنه - وآل الحسين؟

- هل أخذوا بالوسيلة المضمونة لبلوغ غايتهم؟

- هل فعلوا ذلك؟ أم أنهم تمنوا نصر الحسين - رضى الله عنه - وعودة حقه إليه، ونادوا «يا لثارات الحسين»، ثم لم يفكروا كيف ينصرونه؟

- فحصروا أنفسهم فى آلية واحدة، ولم يروا ثمة وسيلة أخرى غيرها، وجعلوا خيارهم الوحيد هو القتال.

- فخرجوا رغم قلتهم وضعفهم، وقوة جيش يزيد وكثرته.

- خرجوا وهم أفراد على جيش يمثل خلافة ودولة، تملك أجهزة وموارد وأموال ومؤسسات.

- خرجوا يريدون القتال أخذًا بثأر الحسين - رضى الله عنه.

- لقد خرجوا ورأوا أنه لا سبيل أمامهم سوى القتال، فرفضوا الرجوع عنه .. ورفضوا انتظار المدد من المدائن وغيرها لنصرتهم .. ولم يعدوا للأمر عدته .. وإنما أخرجتهم العواطف والمشاعر النبيلة.

- فكانت المحصلة لهذا الخروج للقتال .. هزيمة جيش التوابين، وقتل قائدهم، وفرار البقية الباقية ولجوءهم إلى المختار الثقفى.

لقد فرضوا على أنفسهم القتال، فهزموا دون أن يثأروا للحسين - رضى الله عنه - ولم يقدروا على نصره، بل أصبحوا بحاجة إلى من ينصرهم ويدافع عنهم.

ولو فكر التوابون قليلا لوجدوا أمامهم بدائل عدة لنصرة الحسين - رضى الله عنه - يمكنهم أن يأخذوا بإحداها ويتخيروا بينهم..

لو فكروا قليلا لعلموا أن نصر الحسين - رضى الله عنه - ليس محصورًا فى القتال وحسب، ولا فى الخروج المسلح والثورة ضد الدولة.

لو فكروا لعلموا أن هذا الخروج لن يحقق لهم ولا آل الحسين - رضى الله عنه - أى مصلحة ولا فائدة.

- لقد كان بإمكان التوابين أن ينصروا الحسين - رضى الله عنه - بطريقة أخرى غير القتال .. كان نصره ممكنًا بحمل رسالة الإسلام التى كان الحسين - رضى الله عنه - يحملها .. وتربية الأجيال على معانى الإسلام الصحيحة ، وتعليمهم لمبادئ الدين السامية التى عاش الحسين - رضى الله عنه بها، ومات من أجلها.

إن عيش الناس على الرسالة الحقة والقيم العظيمة لهو أحب إلى الحسين - رضى الله عنه - من أن يموت الناس وراءه ، أو يقتل التوابون أنفسهم حزنًا عليه.

إن عيش الناس على مناهج وأفكار السابقين، يمنح السابقين حياة إلى حياتهم ، ويضيف لهم أعمارًا إلى أعمارهم، ولازال السابقون أحياء ما حمل الناس مبادئهم وتحلوا بأخلاقهم.

- نعم لقد مات الحسين - رضى الله عنه - بشخصه، وكان من الممكن أن يعيش مع التوابين أجيالاً فى قلوبهم، وأن تطول حياته قرونًا فى عقولهم، ما داموا يتوارثون دعوته، ويحملون مبادئه، ويتخلقون بخلقه فى واقع حياتهم.

أما أن يموت الحسين - رضى الله عنه - ويموت وراءه من يحبه مثل جيش التوابين .. فماذا جنى الحسين - رضى الله عنه - لفكرته؟

- وماذا قدم الأتباع لقائدهم؟

- وماذا حصلت الأمة من موت الجميع «الحسين -رضى الله عنه - وجيش التوابين».

- نعم .. إن مبادئهم لا زالت خالدة فى الضمائر محفورة فى العقول، وهذا حسن جميل، ولكن المبادىء لم تشرع لتظل حبيسة العقول ولا أسيرة للضلوع فحسب .. وإنما شرعت المبادىء لتكون منهاجًا واقعًا فى الحياة، وأن تتمثل شخوصًا حية فى دنيا الناس.

ولن يكون ذلك بموت القادة والعلماء، ثم بموت الأتباع من ورائهم، وإلا اندثر الخير وغاب الصلاح من الأرض.

إن نصرة الصالحين إنما تكون فى العيش بفكرتهم والانضباط بمنهجهم والسعى للهدف الشرعى الصحيح الذى سعوا إليه.

وإن محاولة توريث الصالحين، وتوضيح منهجهم وتجلية هدفهم أمام الأجيال لهو أعظم نصر لهم فى حياتهم وبعد موتهم.

وإن عمر الداعية والعالم يمتد بامتداد اتباعه وتتسع حياته باتساع محبيه وحملة دعوته، حتى يصير عمر الواحد من الصالحين كعمر أمة بأسرها وتتسع حياته باتساع الحياة والزمن بكامله.

وإذا كان الحديث يقول : «خيركم من طال عمره وحسن عمله»(١) .. فإن خير الدعاة وأفضل العلماء من عاشت دعوته من بعده واقعًا فى حياة الأجيال .. وانتشرت مبادئه تشمل سائر الأقطار .. وكلما اكتسبت دعوته فردًا جديدًا فقد ولد الداعية ميلادًا جديدًا.

هؤلاء هم خير الدعاة والعلماء من عاش الناس بدعوتهم وليس من مات أتباعهم وراءهم، أو قتلوا أنفسهم حزناً عليهم.

إن على الدعاة والمربين أن يعلموا الناس حمل رسالة الإسلام من بعدهم وعلى الأتباع أن يتوارثوا مبادىء الدعاة والعلماء، لا أن يموتوا من ورائهم.

ثانيــــًا ..

إذا كان خير الدعاة من عاش الناس من بعده على مبادئه ودعوته .. فإن خير الدعاة أيضًا من كان رحيمًا بأتباعه وجنوده.

إن الله تعالى وصف سيد الدعاة ﷺ بقوله : «بالمؤمنين رؤوف رحيم» .. وجعل هذه الرحمة سببًا لاجتماع الناس عليه والتفافهم حوله.

بل إن وظيفة الرسول ﷺ أن يزيل عن أمته الأثقال والأوزار ويضع عنهم الآصار والأغلال .. قال تعالى : «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم».

وهذا هو الداعية الناجح والقائد العظيم والمربى الحكيم، لايقحم أتباعه فيما لا قبل لهم به ولا يحملهم مالا يطيقون .. ولا يعرضهم لِمُرِ الأمر الذى يصدره لهم .. وحر القهر الذى يلاقونه فى حياتهم وحركتهم .. بل إنه يمسح عنهم التعب، ويدفع عنهم العطب .. ويبسط لهم جناحه، وينشد لهم السلام .. ويتحرز بهم من الهلكة.

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن بسر بلفظ «خير الناس» وقال : صحيح

أما أن يعرضهم للمخاطر، ويغامر بهم فى الشدائد، ويقتحم بهم الحروب .. ويخرج بهم على ضعفهم وقلة حيلتهم لقتال لا يستطيعون له دفعًا .. فما هذا بمنهج الدعاة الموفقين، ولا بطريق المربين المسددين.

لقد خرج سليمان بن صرد - رضى الله عنه - بثلاثة آلاف من جنوده، لم ينتظر لهم مددًا ولا عونًا، وإنما خرج بهذا العدد القليل والعدة الضعيفة لقتال جيش الشام البالغ ستين ألفًا بكامل عدتهم وسلاحهم.

- خرج جيش التوابين وهم يعتقدون أن الإيمان الذى يحملونه فى قلوبهم، والحق الذى ينشدونه بنصرة الحسين - رضى الله عنه - كفيلان بتحقيق النصر لهم وحسم المعركة ضد جيش الشام، وإن كانت عدتهم ضعيفة وعددهم قليلاً.

ولو تأمل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - ومن معه لعلموا أن الله رحمهم وخفف عنهم، ولم يكلفهم من الأمور مالا يطيقون.

لقد كان عليهم ألا يشقوا على أنفسهم، وكان أمامهم مندوحة ومخرجًا لعدم الحرب والقتال لضعفهم وعجزهم .. فما كان لهم أن يشقوا على أنفسهم وقد خفف الله عنهم، لأنه كما قال العلماء «القدرة مناط التكليف».. فمن لا يقدر لا يؤمر.

- نعم ، إن الأفراد قد يصمدون بل يستبسلون ويقاتلون وإن كانوا مثخنين بالجراح .. وهم لاشك مشكورون لثباتهم وممدوحون لتضحياتهم.

- ولكن القائد الحصيف يجب عليه ألا يتركهم على ذلك .. فضلاً عن أن يأمرهم بخوض مثل هذا القتال، أو أن يتقدمهم لمثل هذه الحرب.

إن على الداعية والمربى أن يشكر الأفراد على صبرهم .. وأن يمدحهم على تضحياتهم، ولكن عليه أيضًا أن يمنعهم أن يوردوا أنفسهم المخاطر .. أو يلقوا بأيديهم إلى التهلكة.

- نعم لقد صمد جيش التوابين وقاتلوا، بل ماتوا وهم فرحون .. ولكن فى النهاية ذهبت قواهم وانكسرت شوكتهم وظفر بهم جيش الشام، لأنهم تعرضوا لما لا يطيقون، ووقف قائدهم ينظر إليهم وهم يقتلون ويشردون .. وهو لا يقدر أن يدفع عنهم ولا يملك لهم نفعًا، ولا يقدر على الخلاص من الأزمة التى وقع فيها جنوده.

إن بوسع أى إنسان أن يبدأ القتال ويشعل فتيل الحرب، ولو بعدد قليل وعدة ضعيفة .. ولكن ليس كل من دخل الحرب بقادر على أن يحرز النصر .. وليس كل من دخل الحرب قادرًا أن يدافع عن جنوده .. وليس كل من أشعل نار القتال يمكنه أن يطفىء هذه النار.

إن إشعال فتيل الحرب يحسنه كل أحد .. أما إطفاء فتنة القتال وإخماد نار الفتنة فلا يستطيعه إلا الأفذاذ من الرجال .. والحكماء من الناس، والعقلاء من كلا الطرفين .. وقد لا يستطيعها أحد حتى تأتى على الأخضر واليابس وتجر البلاد إلى جو من الفوضى قد يودى بالناس، ويذهب بالأوطان.

إن الحرب تبدأ صغيرة ثم تكبر، وتبدأ ضيقة ثم تتسع، وعلى كل من دخلها إما أن يحرز نصرًا، وإما أن يقتل، وإما أن يستسلم ذليلاً مغلوبًا .. و «ويل للمغلوب من الغالب» كما يقولون.

وكان حريًا بسليمان بن صرد - رضى الله عنه - أن يتأنى ويتريث ويغلب الحكمة قبل أن يخوض هذه المعركة الخاسرة .. فقد خاض المعركة بثلاثة آلاف رجل فى مواجهة جيش الشام بكامل سلاحه .. لأن الداعية الحصيف هو الذى يمنع أتباعه من الهلكة، ويرحمهم من البلاء والشدة .. والداعية الحكيم هو الذى ييسر ولا يعسر، ويدور بالناس مع العزيمة والرخصة، والواجب والمباح ولا يضيق عليهم واسعًا.

- إنه لم يكن عيبًا ولن يكون أن يحجم القادة عن خوض معارك لا تحقق للإسلام ولا للأوطان أى مصلحة، بل تجر عليهم كل المفاسد.

وليس من العيب أيضًا أن ينسحب قائد بجنوده قبل أن تستأصل شأفتهم حتى يحافظ على سلامة أبنائه وسلامة أمته، ويحفظ سمعة الإسلام أن تشوه وتسوء فى أذهان وعقول الناس .. ويفوت الفرصة على أعداء الأمة والمتربصين بها فى كل حين.

لقد كان حريًا بابن صرد - رضى الله عنه - أن يتذكر مدح النبى ﷺ - لخالد بن الوليد رضى الله عنه بعدما انسحب بجيشه(١) .. وقد أثنى ﷺ على الحسن رضى الله عنه وجعله سيدًا لأنه

---

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه.

أغمد سيفه وصالح معاوية - رضى الله عنه - فحفظ نفسه وأهله، ولم يفرق أمته، ورحم المسلمين من القتال فرحمه الله تعالى و «الراحمون يرحمهم الرحمن»[1] .. ولقد جعل الإسلام السيادة والرحمة جزاءً لكل من يرحم الناس ويرعى مصالح الدين والبلاد، ويحافظ على الأوطان.

لقد كان الأحرى بابن صرد - رضى الله عنه - ألا تستفزه رغبات المتحمسين، ولا دموع البكائين، ولا هتافاتهم، «يالثارات الحسين» .. فإن عدده قليل وعدته ضعيفه .. وقد خذله أهل الكوفة، ولازالت أمامه خيارات أخرى غير القتال والحرب بإمكانه أن يسلكها ليتحقق ما يريد للإسلام والمسلمين.

لقد خرج التوابون طلباً لثأر الحسين رضى الله عنه فهل بلغوا ما أرادوا؟ .. لم يبلغوا شيئًا من ذلك، وإنما قتلوا وقتل قائدهم سليمان بن صرد الصحابى الجليل - رضى الله عنه-

لقد خرجوا يريدون يزيد وجيش الشام، فهل أدركوهم وأصابوا منهم ما تمنوا؟..لم يحدث لهم شىء مما تمنوه، بل عادوا بنقيض ما طلبوا، لقد هزم جيشهم، وتفرق جمعهم، وازداد يزيد وجيش الشام قوة إلى قوتهم .. بل وأعادوا العراق إلى حظيرة الدولة الأموية.

لقد خرجوا كارهين ليزيد وبنى أمية، فأعلنوا الحرب، ولكن هل أذهبت الحرب هذه الكراهية ؟! وهل استرضت النفوس؟ أم أن الكراهية من كلا الفريقين للآخر قد اشتدت، والأمور تأزمت أكثر وأكثر حتى قادهم ذلك إلى حروب جديدة أكثر ضراوة وأشد فتكًا.

لقد أرقهم الدم الزاكى فى كربلاء فأريقت دماؤهم وأزهقت أرواحهم فى عين وردة .. ومات سليمان بن صرد - رضى الله عنه - كما مات الحسين - رضى الله عنه - ولحق جيش التوابين بشهداء كربلاء.

- فهل حقق التوابون ما أرادوا؟؟

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

رابعاً: قصة خروج عبد الله بن الزبير «رضى الله عنه»[1].

كانت علاقة ابن الزبير - رضى الله عنه - بمعاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - على أحسن ما تكون حتى شرع معاوية يأخذ البيعة لابنه يزيد، فعارض ابن الزبير - رضى الله عنه - ذلك ولم يبايع .. فلما توفى معاوية اهتم يزيد بأخذ البيعة من ابن الزبير .. وأرسل إلى واليه على المدينة بأخذ البيعة من ابن الزبير له.

- استمهله ابن الزبير وخرج إلى مكة، ولزم البيت الحرام .. وسمى نفسه العائذ بالبيت .. وتجمع حوله الناس لسخطهم على يزيد بعد مقتل الحسين -رضى الله عنه-

ولم يتمكن يزيد من أن يأخذ البيعة من ابن الزبير، كما لم يتمكن من القضاء على معارضته، مما أغضبه عليه .. وأقسم : «ألا يقبل بيعته حتى يأتى إليه فى قيد». وأرسل إلى عامله على المدينة عمرو بن سعيد ليأتيه به ..

- فأرسل عمرو بن سعيد بدوره إليه عمرو بن الزبير أخاه، وكان معاديًا لأخيه عبد الله بن الزبير ، ولكن ابن الزبير تمكن من هزيمة جيش عمرو بن سعيد، بل وقتل أخاه عمرو بن الزبير.

وبعد انتصار مسلم بن عقبة على أهل المدينة فى معركة الحرة، توجه مسلم بجيشه إلى مكة لحصار ابن الزبير، ولكنه توفى فى الطريق .. فتولى الجيش الحصين بن نمير السكونى، ووصل مكة لأربعٍ بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ وحاصر جيش الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير أربعة وستين يومًا .. ونصب المنجنيق إلى الكعبة، وأشعل فيها الحريق.

وفى هذه الأثناء توفى يزيد بن معاوية فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ.

سرى خبر موت يزيد بن معاوية فى جيش الشام .. فطلب قائدهم الحصين بن نمير لقاء ابن الزبير .. فلما التقى به.

---

(١) هذه القصة مستقاة من «البداية والنهاية» لابن كثير (٨ / ٧١٨:٥٨٧) بتصرف وتاريخ العالم الإسلامي د. عبد الشافى عبد اللطيف ص ٤٩٤ وما بعدها بتصرف.

قال له الحصين: «إن يكن هذا الرجل قد هلك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معى إلى الشام فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم .. فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر الدماء التى كانت بيننا وبينك، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة».

لكن ابن الزبير - رضى الله عنه - لم يقبل، بل قال للحصين: «أنا أهدر تلك الدماء؟، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة».

وأخذ الحصين يكلمه سرًا، وابن الزبير يجهر جهرًا .. وأخذ يقول: «لا والله لا أفعل».

فقال له الحصين: «قبح الله من يعدك بعد هذا داهية أو أريبًا .. قد كنت أظن أن لك رأيًا .. أكلمك سرًا وتكلمنى جهرًا .. وأدعوك إلى الخلافة، وتعدنى القتل والهلكة».

- وبعد موت يزيد اضطرب أمر بنى أمية حتى إن مروان بن الحكم همَّ أن يأتى ابن الزبير فى مكة ويبايعه، لأن معظم الأمصار قد بايعته، الكوفة والبصرة ومصر وخراسان والشام، عدا الأردن فقد ظل على ولائه لبنى أمية.

رغم عرض الحصين بن نمير أن يخرج ابن الزبير معه إلى الشام، إلا أن ابن الزبير رفض وقرر المكث فى مكة، وأخذ يأخذ البيعة لنفسه ، وقد وردت روايتان عن التوقيت الذى أخذ ابن الزبير فيه البيعة لنفسه:

- الرواية الأولى: أنه أخذها فى مكة عقب مقتل الحسين رضى الله عنه - ٦١ هـ.

- وأما الرواية الثانية، وهى الأوثق فيقول خليفة بن خياط: «فى سنة أربع وستين دعا ابن الزبير إلى نفسه، وذلك بعد موت يزيد بن معاوية، فبويع فى رجب لسبع خلون من سنة ٦٤ هـ».

وكما جانب ابن الزبير الصواب ببقائه فى مكة ورفضه الخروج إلى الشام .. فقد جانبه الصواب مرة أخرى، حيث أمر بإخراج بنى أمية من المدينة عقب وفاة يزيد.

ولما تردد مروان ابن الحكم فى الخروج حثه ابنه عبد الملك بن مروان على الإسراع بالخروج قائلا: «اخرج على وجه السرعة، فإن هذا رأى لم يتعقبه ابن الزبير».

فخرج وخرج معه عبد الملك بن مروان ابنه، وتعقب ابن الزبير الرأى فعلم أنه قد أخطأ فوجه فى ردهم ففاتوه.

- خرج بنو أمية إلى الشام واجتمعوا على مروان بن الحكم بالجابية والذى استهل خلافته باستعادة الشام بعدما هزم أنصار ابن الزبير، بقيادة الضحاك بن قيس فى مرج راهط سنة ٦٤ هـ، وقيل فى المحرم ٦٥ هـ.

ثم استولى مروان بعدها على مصر، وولى عليها عبد العزيز بن مروان.

- وبعد عودة مروان إلى الشام وتخلصه من جيش التوابين، توفى فى رمضان سنة ٦٥ هـ .. وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان.

ابن الزبير وعبد الملك بن مروان

- تولى عبد الملك بعد أبيه، وشملت دولته الشام ومصر .. بينما شملت دولة ابن الزبير الحجاز والعراق .. وكان المختار بن عبيد قد ظهر فى العراق وطرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير من الكوفة..

- أدرك عبد الملك أن الصدام بين المختار وبين ابن الزبير بات وشيكًا لأن ابن الزبير لن يتركه يعبث بدولته فى العراق، فآثر أن يترك شأن المختار لابن الزبير خاصة أن المختار كان قد هزم جيش عبد الملك بقيادة عبيد الله بن زياد فى موقعة الخازر سنة ٦٧ هـ .. وبالفعل تحقق لعبد الملك ما أراد، فقد قضى مصعب بن الزبير على المختار وقتله عام ٦٧ هـ.

وبعد انتهاء أمر المختار بات الصدام بين عبد الملك بن مروان، وبين عبد الله بن الزبير وشيكًا .. وقرر عبد الملك أن يقود المعركة بنفسه، وقال: «إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى، وإنى بصير بالحرب شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكن لا علم له بالحرب .. ومعه من يخالفه، ومعى من ينصح لى».

سار عبد الملك إلى العراق لينتزعه من ابن الزبير بعدما وطد حكمه فى الشام ومصر، فأعد جيشا بقيادة أخيه محمد بن مروان فنزل فى منطقة مسكن.

وسار مصعب بن الزبير بجيشه على مقدمته إبراهيم بن الأشتر .. فكتب إليه عبد الملك يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق إن أجابه ..

قال ابن الأشتر لمصعب : «إنه ما كان من أحد آيس منه منى .. ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلىَّ، فأطعنى فيهم فأضرب أعناقهم».

قال ابن الزبير: إذاً لاتناصحنا عشائرهم (أى تعادينا عائلاتهم).

قال ابن الاشتر: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى قصر كسرى، فاحبسهم هناك، ووكل بهم من إن غُلبت ضربت اعناقهم، وإن غَلبت مننت بهم على عشائرهم.

فقال: يا أبا النعمان «إني لفى شغل عن هذا .. يرحم الله أبا بحر، إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه».

لم يكن عبد الملك يراسل أهل العراق فحسب وإنما كانوا يراسلونه أيضاً ويدعونه إليهم قبل أن تأتيهم كتبه .. ولقد ذكر المهلب بن أبى صفرة ذلك لمصعب بن الزبير. فقال له: «أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدى عنك» .. وبالفعل تخلى قواد مصعب بن الزبير عنه وانضموا إلى جيش عبد الملك.

كان عبد الملك حريصاً ألا يقاتل مصعباً لمودة بينهما وأرسل إليه يقول: «اقرىء ابن أختك السلام، وقل له يدع دعاءه لأخيه .. وأدع دعائى إلى نفسى ويجعل الأمر شورى» .. فقال مصعب للرسول: «قل له السيف بيننا».

ولم يكتف عبد الملك بذلك وإنما حاول مرة أخرى، فأرسل أخاه محمد بن مروان إلى مصعب يقول له: «إن ابن عمك يعطيك الأمان».

فقال له مصعب: «إن مثلى لا ينصرف عنه مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً».

دارت المعركة .. وبدت خيانة أهل العراق فلقد انهزم عتاب بن وقاء، وكان ممن كاتبهم عبدالملك، وانهزم عتاب بمن معه من الجنود، بينما صبر إبراهيم بن الأشتر قائد جيش مصعب حتى قتل.. وخسر مصعب بموته خسارة شديدة حتى إنه كان إذا اشتد عليه الأمر يقول: «يا إبراهيم، ولا إبراهيم لى اليوم».

وتخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال.. ولكن مصعب ظل يقاتل حتى اثخنته الجراح ثم قتله زياد بن ظبيان وكان مقتله فى جمادى الآخرة ٧٢ هـ.

وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية.. وولى بشر بن مروان عليها.

نهاية ابن الزبير ٧٣ هـ

بهزيمة مصعب بن الزبير وقتله، آذنت دولة ابن الزبير بالانتهاء .. فقد انحصرت فى الحجاز وأصبحت بحاجة إلى المال والرجال، ولم تعد تقوى على الصمود.

- وقرر عبد الملك أن يتوجه إلى الحجاز للقضاء على ابن الزبير نهائيًا .. وبينما يحاور رجاله فى شخص يبعثه إليه .. قام الحجاج بن يوسف الثقفى فقال له: «ابعثنى إليه يا أمير المؤمنين، فإنى رأيت فى المنام كأنى ذبحته وجلست على صدره وسلخته، .. فقال : أنت له.

توجه الحجاج فى عشرين ألفًا من أهل الشام إلى الحجاز، فنزل الطائف وأخذ يرسل بعض جنوده لقتال ابن الزبير .. ودارت الاشتباكات فى عرفة .. وكانت دائماً فى مصلحة جيش الحجاج.

وفى ذى القعدة، زحف الحجاج من الطائف على مكة، وحاصر ابن الزبير .. ونصب المنجنيق إلى الكعبة.. فلما أهل ذو الحجة لم يستطع ابن الزبير الحج، وحج بالناس عبد الله بن عمر، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة لأنه قد منع الناس من الطواف، فامتثل الحجاج بن يوسف.

وبعد فراغ الناس من الفريضة .. نادى الحجاج فى الناس أن يعودوا إلى بلادهم، لأنه سيعود إلى ضرب البيت الحرام بالحجارة.

وبدأ يضرب الكعبة .. وشدد على ابن الزبير، وتحرج الموقف .. وانفض أصحاب ابن الزبير عنه حتى ولديه حمزة وخبيب، فقد ذهبا إلى الحجاج وطلبا الأمان لنفسيهما.

فلما رأى ابن الزبير ذلك، دخل على أمه، وقال : «يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى .. ثم خرج من عندها، وذهب إلى القتال فقتل من يومه فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ. وصلبه الحجاج وكان ذلك يوم الثلاثاء(١).

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٩

قتل ابن الزبير فى عهد عبد الملك بن مروان وهو يعرف فضله ومكانته.

- قال يحيى الغسانى : لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك .. فقال لى عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ قلت : نعم .. قال : ثكلتك أمك، أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام .. إلى ابن حوارى رسول الله ﷺ[1] .. وإلى ابن ذات النطاقين .. وإلى من حنكه رسول الله ﷺ [2] .. أما والله إن جئته نهارًا وجدته صائمًا .. ولئن جئته ليلا لتجدنه قائمًا .. فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعًا فى النار .. فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.[3].

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن عروة بن الزبير، وفاطمة بنت المندز بن الزبير.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٣

عبر وعظات من خروج ابن الزبير «رضى الله عنه».

وبعد أن وقع ما وقع .. وبعد ما مضى السيف فيمن مضى .. وبعد أن نزل القضاء بما قضى .. بعد أن ضربت الكعبة بالأحجار .. وبعد أن حصر الناس عن الطواف .. وبعد اشتعال الحريق بالمسجد الحرام .. وبعد أن رأينا ابن الزبير مصلوبًا فى مكة يبكيه النساء والولدان .. نعود ونقول ؟

أولاً: إننا نعرف فضل ابن الزبير رضى الله عنه جيداً .. ونعترف له بهذا الفضل، ونحبه ونواليه، وندعوا له بالرحمة والرضوان ونحن أيضًا نبغض قاتليه ونبرأ من فعلهم، ونرى قتلهم لابن الزبير رضى الله عنه .. جريمة نكراء، وفعلة شنعاء ، كان من الممكن ألا تقع.

لقد كان ابن الزبير - رضى الله عنه -من أفضل العباد ، كان صوامًا قوامًا قارئًا لكتاب الله .. كما كان فارسًا شجاعًا ، وبطلا مقدامًا.

- كان ابن الزبير رضى الله عنه - صحابيًا من صحابة رسول الله ﷺ ، وأبوه الزبير - رضى الله عنه - حوارى رسول الله ﷺ .. وأمه أسماء ذات النطاقين رضى الله عنها وجده الصديق أبو بكر - رضى الله عنه.

معاذ الله أن نقدح فى ابن الزبير أو أن نجحد فضله وقد حنكه رسول الله ﷺ بيده .. ومعاذ الله أن نشكك فى تقوى ابن الزبير وورعه .. وقد سرى دم النبى ﷺ فى عروقه، وخالطت سُنته قلبه.

لقد كان ابن الزبير حريصًا على خير الإسلام وعلى مصلحة المسلمين .. وكان رافضًا للظلم ثائرًا فى سبيل الحق لا عن هوى وغواية.

- إننا نحب ابن الزبير - رضى الله عنه -وأين نحن منه ومن فضله، وهو الصحابى ابن الحوارى؟ .. وأين الثرى من من الثريا؟!

- ورغم هذا الحب والتقدير لمكانة ابن الزبير وفضله .. نسأل كما سألنا من قبل كثيرًا..

ثانيًا : ماذا لو بايع ابن الزبير - رضى الله عنه - يزيد بن معاوية؟

- ماذا لو دخل فيما دخل فيه الناس؟!

- ماذا لو أنه استجاب لنصح الناصحين له بعدم الخروج إلى مكة ابتداءً، وعدم التعرض للحرب والقتال فى النهاية؟!

إن كان ابن الزبير قد رفض البيعة ليزيد أيام أبيه .. فماذا لو أنه بايعه بعدما اجتمع الناس على يزيد ورضوه خليفة لهم وإمامًا؟!

ماذا لو اعتبره ابن الزبير أميرًا متغلبا وصل إلى الحكم بحد السيف والقوة والقهر حتى انعقد له الأمر ودان له الناس؟!

أما كان ذلك كافيا لأن يبايعه ابن الزبير ويقبل إمارة المتغلب؟!

- أما كان ذلك كافيا لقبول ابن الزبير بالواقع .. وأن يرضى لنفسه ما رضيه المسلمون لأنفسهم ، ويبايع كما بايع الناس؟

- نعم، كان ذلك كافيا .. ولكن ابن الزبير - رضى الله عنه - رفض البيعة ليزيد .. رفضها فى زمن معاوية، ورفضها بعد موته ودخول الناس فى طاعة يزيد بما فيهم كبار الصحابة.

- ليت ابن الزبير لما رفض البيعة لزم البيت الحرام للعبادة والصلاة وانشغل بذلك عن هموم الحكم والحكام وكفى.

لكن ذلك لم يحدث، وإنما رفع ابن الزبير لواء المعارضة المسلحة ليزيد، وأخذ البيعة لنفسه حتى ضاق يزيد بأمره، وصمم على أخذ البيعة لنفسه من ابن الزبير أو التخلص منه.

ثالثًا: نعم كان يزيد ظالمًا بسبب قتل الحسين - رضى الله عنه - وآل بيته .. ورغم أنه لم يأمرهم بقتله، إلا أنه لم يعاقب الذين قتلوه.

- ولكن ، هل الوسيلة الوحيدة لدفع الظلم واسترداد الحقوق المغصوبة هى الثورة وإعلان الحرب والقتال ؟!

- وهل هذه الثورة ستعيد الحسين وآل بيته إلى الحياة؟!

- وهل يمكنها معاقبة يزيد على خطئه، وهو الخليفة ويملك مقدرات الدولة، ويتصرف بكامل

حريته فى مواردها .. ويسير جيوشها لأى جهة شاء، حتى وإن كان لحصار البيت العتيق أو غزو المدينة المنورة؟!

لا شك أن الثورة المسلحة ليست هى الخيار الوحيد.

ولا شك أيضًا أن ابن الزبير لن يقدر على محاسبة يزيد ولا غيره من الخلفاء، وهم بهذه الحالة من القوة.

لقد كانت هناك بدائل أخرى وخيارات كثيرة تحقق المقصود، وتكون أجدى وأنفع وأكثر جلبًا للمصالح ودرءًا للمفاسد.

- إن هذه الثورة مهما بلغت لن تحقق المقصود منها، إنما سيتفاقم الأمر ويتسع الرتق، ويشتد الخطب، ويبقى الحال هو الحال، بل يسوء أكثر وأكثر، وهذا ما رأيناه جليا فى قصة ابن الزبير - رضى الله عنه-

رابعًا : لقد توجه عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله فى مكة .. وتقابل الأخوان كلاهما يحارب الأخر دون مراعاة لرحم ولا قرابة .. ثم تمكن عبد الله من قتل أخيه وهزيمة جيش يزيد الذى سار معهم لقتال أخيه عبد الله.

لكن : هل انتهى الأمر عند ذلك؟!

أم أن الحصين بن نمير قائدجيش الشام توجه بعدما انتهك الجيش حرمة المدينة المنورة فى معركة الحرة، توجه إلى مكة وحاصر ابن الزبير فى المسجد الحرام، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وأشعل فيها النيران .. واستمر الحصار والقصف لم يفكه أو يوقفه إلا موت يزيد عام ٦٤ هـ.

بل إن رفع الحصار عن ابن الزبير لم يدم طويلا .. فسرعان ما عاد أشد مما كان، وسرعان ما قصفت الكعبة مرة أخرى.

خامسًا: لقد اختار ابن الزبير الحرب فتجرأ أهل الشام على قصف الكعبة، فهم يرون ابن الزبير خارجًا عن الطاعة عاصياً للخليفة لجأ إلى البيت يحتمى فيه. ولكن البيت لا يعيذ عاصيا، حتى وإن كان البيت مثابة للناس وأمنًا، وإن كان من دخله كان آمنًا .. ولكن كل ذلك فى نظرهم لا يعد مبررًا لترك ابن الزبير مفارقا للجماعة يدعو الناس إلى بيعته.

لقد ظل الحصار مضروبًا على ابن الزبير - رضى الله عنه - حتى مات يزيد، وكانت فرصة عظيمة للخروج بالأمة من المأزق، والسعى لإنهاء الحصار، والعمل على التصالح مع أهل الشام، ومع بنى أمية، ونسيان الماضى وتضميد الجراح، وإيقاف حمامات الدم التى سالت، وإعادة الهيبة والقداسة للمسجد الحرام والكعبة المشرفة .. ولكن كل ذلك لم يحدث، بل حدث العكس.

لقد فوت ابن الزبير الفرصة فاستعرت الحرب من جديد، وتوقدت العداوة مرة أخرى، وانقسمت الأمة تارة بعد أخرى.

- قام ابن الزبير بطرد بنى أمية من المدينة، فزاد ذلك غضبهم عليه بسبب مالقوه من إهانة ، وهم سادات الناس وزعماؤهم، فكيف يطردون بهذه الصورة المزرية، ويخرجون بهذه الطريقة المهينة؟

إن من أهم أخطاء ابن الزبير معاملته لبنى أمية معاملة واحدة لم يفرق بين محسن ومسىء .. وإنما أخذ الكل بذنب البعض .. وعاقب بنى أمية بجريرة يزيد حتى بعد موته.

- إن الإسلام لا يقر تعميم العقوبة ولا يرضى أن يؤاخذ أحد بذنب الآخرين لكنه أرسى قاعدته العظيمة : «ألا تزر وازرة وزر أخرى».. والتى يسيمها الآن رجال القانون بعد عدة قرون بقاعدة: «شخصية العقوبة».

- ماذا جنى بنو أمية حتى يعاقبهم ابن الزبير بذنب يزيد؟!

- وإذا كانت مؤاخذة بنى أمية جميعًا خطأ وقع فيه ابن الزبير - رضى الله عنه - فإن إخراجهم إلى الشام كان خطأ استراتيجيًا فادحًا حيث اجتمعوا هناك على مروان بن الحكم فى مؤتمر الجابية عام ٦٤ هـ.

لقد نصب بنو أمية مروان عليهم أميرًا ، وأخذوا يهاجمون ابن الزبير بل وهزموا أنصاره بقيادة الضحاك بن قيس فى معركة مرج راهط.

حارب بنو أمية ابن الزبير، وكان بإمكانه احتواءهم وضمهم تحت لوائه، وأن يحفظ لهم مكانتهم، وينسى ما كان منهم، وخاصة أنه قد اضطرب أمرهم بموت يزيد حتى إنَّ مروان هم بالذهاب إلى ابن الزبير ومبايعته.

كما كانت الفرصة مواتية لابن الزبير ان يجمع الناس حوله ويوقف المعارك ويحقن الدماء، ولكنه لم يفعل.

ولم يكن إخراج بنى أمية هو الخطأ الوحيد لابن الزبير، وإنما ضيق ابن الزبير أيضًا على بنى هاشم وحبسهم بل ولم يرع مكانة ابن عباس - رضى الله عنه - ولا محمد بن الحنفية، حتى أرسل ابن الحنفية إلى المختار بن عبيد يستصرخه ليرفع عنه حبس ابن الزبير.

لم يرتكب بنو هاشم ذنبًا غير أنهم لم يبايعوا ابن الزبير، ولم يدخلوا فى طاعته ضد بنى أمية وهم علماء الأمة وسادتها.

بل إنَّ ابن الزبير - رضى الله عنه - منع محمد بن الحنفية بعدما خرج إلى الشام من الطواف بالبيت وأداء العمرة، وأرسل إليه من الجنود من يحول بينه وبين المناسك.

- لماذا يستعدى ابن الزبير -رضى الله عنه - بنى أمية ضده؟!
- لماذا يستثير بنى هاشم عليه؟!
- لماذا يكثر أعداءه ويؤلب الناس ضده؟!
- إنها سياسة تجبيه الأعداء، وطرد الأصدقاء .. وهى بداية الفشل لكل قائد.

إن السياسى الناجح دائمًا يقلل هجمات العداء .. ويضيق مساحات الخلاف .. ويتجاوز عن الهنات والزلات .. ويبذل المعروف للناس .. ويحفظ لأهل الفضل فضلهم .. كل ذلك يتألفهم به، ولا يعطيهم الفرصة لخصومته.

سادسًا : إذا كان الصواب قد جانب ابن الزبير بإخراجه بنى أمية من المدينة فاجتمعوا على حربه .. فقد جانبه الصواب مرة أخرى حين عرض عليه الحصين بن نمير قائد جيش الشام بعدما توفى يزيد، أن يبايع جيش الشام له بالخلافة، ويخرج معهم إلى الشام فهم وجوه الشام وفرسانه، ولن يفترق عليه أحد.

طلب الحصين من ابن الزبير - رضى الله عنه - أن يهدر الدماء التى سالت وينسى المعارك التى دارت، ويصبح من الآن خليفة تخضع له العراق والحجاز ومصر والشام وخراسان.

فكان بإمكان ابن الزبير - رضى الله عنه - أن يقبل ذلك العرض الذى يجمع الأمة ويغمد السيوف ويؤسس لصلح عظيم بين معسكرين كبيرين ، معسكر ابن الزبير بالحجاز، ومعسكر أهل الشام برجالهم وسلاحهم.

رفض ابن الزبير عرض الحصين ذلك، وأصر على الثأر للقتلى حتى إن الحصين يتعجب من هذا الموقف قائلاً: «قبح الله من يعدك بعد هذا داهية أو أريبًا .. قد كنت أظن أن لك رأيًا، أكلمك سرًا وتكلمنى جهرًا .. وأدعوك للخلافة وتعدنى القتل والهلكة».

إن القائد العظيم هو الذى يغتنم المواقف ليرحم الناس ويحقن دماءهم، وطالب الملك يقبله إذا جاءه من غير قتال.

- فكيف وقد رفض ابن الزبير كل شىء إلا الحرب؟!

- كيف يؤثر البقاء بالحجاز على فقرها وقله عددها وسلاحها، ويرفض الخروج إلى الشام حيث المال والسلاح والمنعة، خاصة وقد طلبوه للخروج معهم.

- هذه سلسلة من الأخطاء وقع فيها ابن الزبير، كل خطأ فيها كفيل أن يطيح به ويقضى على ثورته .. فكيف وقد اجتمعت كلها؟

- ولسنا ندرى لماذا أصر ابن الزبير - رضى الله عنه - على الحرب؟!

- إن كان يريد الخلافة، فقد عرضها عليه جيش الشام.

- وإن كان يريد خلع يزيد فقد مات يزيد وأصبح بإمكانه إقامة العدل بنفسه.

وإن كان قد خرج ثأرًا للحسين - رضى الله عنه - وآله فقد واتته الفرصة للوصول إلى الخلافة وإحقاق الحقوق.

وإن كان قد خرج غضبًا لحرمة المدينة المنورة التى انتهكت .. فقد سنحت له الظروف أن يحفظ حرمة الكعبة، ويؤمن الحجيج، ويطفىء النيران من المسجد الحرام.

لكن ابن الزبير ظل يحارب حتى قتل أخوه مصعب، وأضاع العراق من يده ثم جاءه الحجاج فحاصره وأنهى ثورته هذه النهاية الأليمة.

سابعًا: إن قصة ابن الزبير تعلمنا بوضوح درسًا عظيمًا .. ما أحرانا أن نتعلمه ونستفيد منه.

من الممكن أن يكون المرءُ صاحبَ تقوى وصلاح، أو أن يكون صوامًا قوامًا، أو ذا أخلاق فاضلة وسجايا نبيلة .. ولكن رغم تقواه وعلمه، ورغم عبادته وأخلاقه قد لا يصلح لقيادة الناس، ولا يكون مناسبًا للملك والإمارة، وسياسة أمور الرعية، وتدبير شئونهم وإصلاح حياتهم.

نحن لا نذكر هذه المعانى من عند أنفسنا، ولا من وحى عقولنا لكننا تعلمنا هذا الدرس من حديث رسول الله ﷺ حين قال لأبى ذر - رضى الله عنه - وقد سأله الإمارة «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة»[(١)].

- إن قول الرسول ﷺ لأبى ذر : «إنك ضعيف». لا يعنى ضعفًا فى الإيمان والتقوى والصلاح، فقد كان أبو ذر - رضى الله عنه - مشهودًا له بالتقوى والزهد والورع .. إنما يعنى الضعف عن قيادة الناس وحكمهم وتولى شئونهم .. إنك ضعيف عن الملك والإمارة.

- ذلك لأن الملك أو الرئاسة يحتاج لملكات خاصة، بالإضافة إلى التقوى والصلاح والعلم، وهذه الملكات لا تتوفر لكثير من الناس.

لو تأملنا قصة ابن الزبير لتبين لنا ذلك، فقد رفض من العروض وضيع من الفرص ما لو قبل بعضها وأحسن استغلاله لساس من الناس بما يصلحهم فى دينهم ودنياهم .. ولحقن دماءهم دون قتال، ولأصبح بإمكانه حل جميع مشاكله والنهوض بمصالح الأمة دون حرب وسلاح .. ولكن:

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشـــــاء».

ثامنًا: كما فوت عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - هذه الفرصة على نفسه وعلى الأمة .. فإن مصعبًا أخاه لم يكن بأفضل منه حالاً .. لقد كان عبد الملك بن مروان لا يريد قتال مصعب لمودة بينهما .. وقد عرض عبد الملك أن يترك الدعاء لنفسه بالخلافة مقابل أن يترك مصعب الدعاء لأخيه ، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين.

- رفض مصعب ذلك العرض وصمم على الحرب قائلاً : «بل السيف بيننا».

---

(١) رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه.

- فإذا كان الرسول ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

- وإذا كان محمد ﷺ رسول الرحمة قبل أن يكون نبى الملحمة.

وإذا كان الله يقول: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا».

- ورغم قول القرآن الكريم : «والصلح خير».

- رأينا مصعبًا يرفض كل هذه الرخص، بل الواجبات، ويضيق على نفسه واسعًا، ويختار السيف ليفصل بينه وبين المسلمين حتى اشتد به الأمر فنادى يستغيث بقائده إبراهيم بن الأشتر فيقول : «يا إبراهيم .. ولا إبراهيم لى اليوم».

- لقد قتل إبراهيم ولم يجبه، وكان من الممكن أن يجيبه عشرات بل مئات الآلاف لو أنه جنح إلى السلم وفكر بغير عقلية الحرب.

رفض مصعب بن الزبير خيار السلام فمات مثخنا بجراحه فى جمادى الآخرة ٧٢ هـ. ثم قتل أخوه عبد الله بن الزبير فى جمادى الأول عام ٧٣ هـ.

- مات الثائران ولم يتحقق لهما ما أرادا .. وعادت العراق ومصر وخراسان والحجاز إلى دولة بنى أمية كما كانت .. وها نحن نمر على ابن الزبير - رضى الله عنه - وهو مصلوب فى مكة، يقف الناس أمام جثمانه يترحمون عليه .. وتضج البيوت بالبكاء لقتله، كما يبكيه جميع العقلاء والحكماء وأجيال المسلمين.

تاسعًا : إن للمساجد ودور العبادة والأماكن التى تقام فيها الشعائر ويعبد فيها الله تعالى مكانة عظيمة وقداسة عالية عند الله وعند الناس.

- لقد ألقى الله تعالى عليها المهابة والوقار فى قلوب جميع الناس، أبرارًا كانوا أو فجارًا، عصاة فاسقين أو أتقياء صالحين.

فمن ذا الذى لا يقدس المساجد؟! ومن ذا الذى لا يعرف حرمتها؟!

- من ذا الذى يقدر على الإفساد فيها أو انتهاك حرمتها أو الحط من مكانتها؟!

- إن الإنسان ليجد فى نفسه حاجزاً يمنعه من التعدى عليها، ورادعًا يردعه عن الإساءة إليها .. حتى وإن لم يكن لهذه المساجد حراسة بشرية تحميها أو تحيطها بسياج أمنى شديد.

إن الله تعالى جعل حماية هذه الأماكن وضمن حراستها بجنود معنوية وضعها فى قلب كل إنسان وغرسها فى نفسه تحمله على تعظيمها وعدم الاجتراء عليها، حتى وإن كان المرء عاصيا بل وربما كان لا يدخل هذه الأماكن ولا يصلى فيها.

إن الله أفاض على مساجده عظمة من عظمته، وألبسها رداءً من جلاله.

وإذا جعل الله لبيوته ومساجده هذه المنزلة العظيمة، فحرى بالمسلمين عامة وحملة دعوته خاصة الذين نذروا أنفسهم لإعلاء شأن مقدساته .. حرى بهؤلاء أن يزيدوا من تعظيم هذه الأماكن .. ويرفعوا من قدرها وتقديسها فى نفوسهم ونفوس غيرهم بكل وسيلة وكل سبيل.

إن على أبناء الدعوة الإسلامية أن يمنعوا مساجد الله تعالى من كل ما قد يؤدى إلى الاستهانة بقدسيتها أو التعدى عليها.

عليهم أن يفوتوا الفرصة ويسدوا الذرائع التى توصل إلى إهدار كرامة المساجد، أو ترويع المصلين فيها، أو اجتراء العصاة على انتهاك حرمتها أو اقتحامها.

لقد لجأ ابن الزبير - رضى الله عنه - إلى المسجد الحرام أشرف البقاع وأول بيت وضع للناس، تعظمه العرب فى الجاهلية، ويعظمه كذلك المسلمون .. فماذا كانت النتيجة؟

لقد اجترأ جيش الشام على قصف الكعبة مرتين، مرة فى عهد يزيد وأخرى فى عهد عبد الملك بن مروان .. ومنع الناس من الطواف وسفكت الدماء حول البيت.

نعم هذه معصية كبيرة وذنب عظيم وجرأة شديدة على محارم الله، لا يجوز لأحد الإقدام عليها .. ولا عذر له فيما يفعله بها من آثام .. ولكن الجيوش ساعة الحرب والقتال لا تراعى حرمة، ولا تعرف مقدسات .. ولا تفرق بين مسجد وغيره، مادام المقاتلون قد أووا إليه وجعلوه مقرًا لنشاطهم المسلح.

إن نفوسنا ليملؤها الحزن حينما نسمع أو نشاهد نفرًا من أبناء الإسلام قد سيروا المظاهرات فى

موسم الحج ومناطق الشعائر ضد بعض الحكومات .. فيجعلون الطواف حيث الخشوع والذل والتضرع إلى الله مسرحًا للهتافات والضجيج ورفع الشعارات الثورية والتشهير بالحكومات .. مما يضطر السلطات المعنية بأمن الحج والحجيج إلى التدخل لتفريق المتظاهرين فيحدث الصدام والاقتتال فى البلد الحرم الذى (من دخله كان آمنًا).

إن قلوبنا لتعتصر ألمًا ونحن نسمع أو نرى من أبناء الإسلام من يقود العربات المحملة بالمتفجرات والأسلحة فى مكة، وكلنا يحذر أن يفاجأ العالم كله بالسيارات وقد انفجرت في البلدة الطيبة التى جعلها الله (مثابة للناس وأمنا).

إننا لنعجب أشد العجب عندما نسمع عن ثلة قليلة من الشباب جعلوا مساجد الله مخزنا للسلاح والسنج والجنازير، أو مكانًا لإخفاء المنشورات المعادية للحكومات والتى تحرض على العنف والقتال .. مما يحمل هذه الحكومات على اقتحام هذه المساجد وتفتيشها للعثور على السلاح أو ضبط المنشورات، أو القبض على أحد الهاربين وقد اختفى داخل المسجد.

إن قدسية المساجد ومكانتها تهتز فى قلوب الناس عندما يسمعون أو يشاهدون هذه التصرفات .. ويقف الناس يتساءلون:

- هل جعلت المساجد لمثل هذا ؟ .. هل تم بناؤها لتخزين السلاح؟!

أو إيواء الهاربين أو التدريب على أعمال العنف؟!

- إن الحملات تنطلق بسبب هذه التصرفات على المساجد وتصف بيوت الله بأنها أوكار للعنف أو منابع للإرهاب .. ثم يطالبون بهدم هذه الأوكار أو إغلاقها، وتجفيف منابع الإرهاب وفرض الرقابة عليها .. وتبدأ الحكومات تمارس دورها وتفرض وصايتها فيقع الصدام، وتقتحم بيوت الله .. ويتم ضبط السلاح وترويع المصلين والقبض على الهاربين .. ومضايقة المصلين أو تفتيشهم أو القبض عليهم.

بل إننا رأينا شبابًا قد قتلوا على أعتاب المساجد أو فى محاريب الصلاة وما حدث ذلك إلا بعدما حولها بعض الشباب المتحمس مسرحًا للنشاط العسكرى وعملياته المسلحة ضد الحكومات .. فأخرجوها بذلك عن دورها الرئيسى فى إقامة الشعائر والعبادات والدعوة إلى الله تعالى.

إنما شرعت المساجد للذكر والتسبيح والحمد والصلاة لله والذل بين يديه ومناجاته فى النهار وفى الأسحار.

إنما شرعت المساجد لنشر العلم الصحيح والدعوة الصحية .. ولم تشرع للحرب والقتال وإيواء الهاربين أو إخفاء السلاح والمنشورات، أو جعلها غرفة عمليات للتخطيط وأعمال العنف والقتال.

إن على أبناء الدعوة الإسلامية أن ينزهوا مساجد الله تعالى عن مثل هذه الأعمال حتى يحفظوا لها قداستها ولا يجترىء عليها جاهل أو صاحب هوى ولا يطالب بغلقها ومراقبتها أحد، ثم نبكى بعد ذلك لأن المساجد قد اقتحمت أو أن الحكومات تضيق عليها.

لابد أن نكون صرحاء، ونقولها فى شجاعة ووضوح:

- يجب ألا تتخذ المساجد مركزًا للنشاط العسكرى.
- لا يصح أن نجعل بيوت الله مكانًا للتخطيط أو التدريب على فنون القتال.
- ليس من المقبول أن نوقف بيوت الله لإيواء الهاربين.
- ليس من العقل ولا من الدين تحويل المساجد إلى مخازن للسلاح أو المنشورات المحرضة على أعمال العنف.
- إن الواقع يفرض علينا أن نقصر بيوت الله على دورها الصحيح الذى قامت من أجله وهو الصلاة والذكر ونشر العلم وقراءة القرآن والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.
- إن الخروج بالمساجد عن دورها الذى شرعت لأجله يجعلها عرضة للاقتحام أو التفتيش أو الإغلاق أو الهدم، مما يمنع الناس من التردد عليها، ويحرم المجتمع من الخير والنور الذى تقوم بنشره.
- إن الخروج بالمساجد عن دورها الأساسى يذهب بمكانتها فى قلوب الناس ويجعلها دائمًا موضع شك وريبة مما يسهل التحرش بها وبروادها.
- كل ذلك يحدث وأكثر منه متى استخدمنا المساجد فى غير دورها الصحيح، متى جعلناها مأوى للحرب أو التخطيط للقتال.

ومرة أخرى نعود ونسأل:

- هل قصف جيش الشام الكعبة بالأحجار إلا بعدما تحصن ابن الزبير - رضى الله عنه - بالمسجد الحرام؟!

- هل اشتعلت الحرائق بأستار الكعبة إلا بعدما تحول الحرم الشريف مسرحًا للقتال مع الأمويين؟!

- هل منع الناس من الطواف بالبيت إلا عندما سلت السيوف ودارت المعارك فى عرفة وحوصر المسجد ومن فيه؟!

ثم نسأل:

هل تقتحم المساجد وتحطم أبوابها وتكسر منابرها وتشتعل النار فى فرشها ويروع المصلون ويختنق الناس داخلها بالغازات الخانقة والمسيلة للدموع، ويقتل الشباب على أعتابها أو فى محاربها .. هل يحدث شىء من ذلك إلا بعدما يحولها نفر قليل من المتحمسين بؤرة لأعمال القتال أو التحريض عليه أو التخطيط وإيواء الهاربين بداخلها؟!

- هل حدث ذلك إلا بعدما خرج بها بعض الشباب عن دورها الصحيح؟!

- هل لو ظلت المساجد قاصرة على الصلاة والعلم والذكر وقراءة القرآن والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. هل تجد الحكومات مبررًا لاقتحامها؟!

- لو لم يلجأ إليها الهاربون ولم توضع فيها السنج والجنازير والبنادق . هل يجترىء أحد مهما كان عصيانه على اقتحامها وانتهاك حرمتها وتفتيشها أو إغلاقها؟!

- قد يعترض علينا بعض الناس من حسنى النية قائلين: «إن المسجد فى عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه من بعده .. كان يستخدم لتنظيم الجيوش وتجهيز السرايا وبعث المجاهدين فى سبيل الله .. فكيف تمنعون الشباب الغيور على دينه من ذلك .. وقد فعله من هو خير منا جميعًا .. النبى ﷺ وخلفاؤه من بعده؟!

وللرد نقول:

أما القول باستخدام الرسول ﷺ وخلفائه المساجد لتجهيز الجيوش وإرسال السريا .. فهذا حق لا نختلف عليه، وليس بشأنه أى جدال.

لكن من أراد أن يفعل بالمساجد هذه الأيام ما فعله الرسول ﷺ وخلفاؤه - رضوان الله عليهم - من تدريب الشباب على القتال، أو تخزين السلاح أو رسم الخطط العسكرية، قياسًا منه على فعل النبى ﷺ وخلفائه، وعلى مسجد النبى ﷺ .. فهذا مالا نوافق عليه ولا نقبل به ولا نرضى عنه وذلك لعدة أمور منها:

(١) أما المانع الأول من قياس مساجد اليوم على مسجد الرسول ﷺ لاستخدامها فى النشاط العسكرى فهو :

- أنَّ الذى كان يستخدم المسجد النبوى لتجهيز الجيوش هو رئيس الدولة متمثلاً فى النبى ﷺ أو خلفائه من بعده .. وأنَّ للحاكم الحق أن يضع من السياسات ما يراه مناسبًا لظروفه وعصره وله من السلطات ماليس لغيره من آحاد الناس.

- فكيف يسوى الأحاد أنفسهم برئيس الدولة؟ وكيف يستلبون سلطات الحكام ويمنحونها لأنفسهم مع أنهم ليسوا حكامًا وليسوا ممكنين؟!

- إن الحكومات على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده، كانت تستخدم المساجد فى التجهيز للحرب وهذا حقها .. أما حكومات هذه الأيام فهى التى تمنع استخدام المساجد فى ذلك وهذا أيضًا حقها.

إن حكومات اليوم فى كل الدول الإسلامية لا تستخدم المساجد أو دور العبادة فى حروبها مع الدول الأخرى، حتى لا تقصف هذه المساجد من قبل تلك الدول بحجة أنها مكان للأنشطة العسكرية.

- لقد استقر الأمر فى العصر الحديث على أن التخطيط للحروب والإعداد لها يكون فى مراكز القيادة العسكرية التى تتمتع بمواقع منيعة فى وسط الجبال أو تحت الأرض.

- أما أن تدار الحروب من المساجد فهذا مالا تعرفه الدول ولا تقره الحكومات فى هذا الزمان.

- وبهذا يتضح أن القول بممارسة النشاط العسكرى من خلال المساجد فى هذه الأيام قياسًا على ما فعله رسول الله ﷺ وخلفاؤه - رضوان الله عليهم - لا يناسب هذا الزمان ولا يتفق معه.

(٢) إن دولة الإسلام فى عهد النبى ﷺ كانت قائمة، وكذلك فى عهد خلفائه .. بل كانت قوية تدافع عن أرضها ومساجدها وتحافظ على مقدساتها ولا يجرؤ أحد أن يقربها فضلا عن اقتحامها أو إحراقها.

أما شباب الحركة الإسلامية اليوم فلا يقدرون على حماية أنفسهم، فكيف يقدرون على الدفاع عن تلك المساجد؟ أم أنهم يريدون استخدام المساجد فى نشاطهم العسكرى فإذا جاءت الحكومات للإمساك بهم تركوا المساجد للحكومات تقتحمها وولوا هاربين؟!

- لا شك أن هؤلاء الشباب باعتقادهم القدرة على حماية المساجد قدجافوا الحقيقة وجانبوا الصواب .. وإن قالوا نستخدمها ثم نتركها هاربين عند اقتحامها .. نقول لهؤلاء: إن كلا الفريقين قد أخطأ.

- لقد أخطأ هؤلاء الشباب بإعطائهم الذريعة للحكومات أن تقتحم المساجد.

- ولقد أخطأت هذه الحكومات باقتحامها بيوت الله.

- نقول ذلك ولا نبرىء أحدًا انتهك حرمات الله أو اعتدى على مساجده، فهذه جريمة عظيمة ومعصية كبرى لا يحل لأحد الإقدام عليها.

عاشرًا: لماذا صلب الحجاج عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - بعدما قتله؟!

- وهل كان لابد من صلبه إياه؟!

- لا شك أن الحجاج بصلبه لابن الزبير قد أسرف فى ظلمه، وتمادى فى جرمه وتجاوز فى عصيانه .. ولسنا نجد له أدنى مبرر لارتكاب هذه الفعلة الشنيعة .. إن كان الحجاج يريد بث الرعب فى قلوب الناس وتخويفهم من معارضته، فبئس الوالى هو .. وأى خير فيمن يروع مواطنيه .. وإنما جعل الإمام جنة وملاذًا للخائفين وراحة للمتعبين وعونًا للضعفاء والمساكين.

وإذا كان أراد بصلبه لابن الزبير - رضى الله عنه - اهدار كرامته والمبالغة فى التشفى منه مع علمه بفضله وصحبته لرسـول الله ﷺ فما أشد حماقته وما أعظم جرأته على أولياء الله الصالحين.

- أما كفى الحجاج أن يحاصر ابن الزبير حيًا حتى لجأ إلى صلبه وهو ميت؟!

- وعلى كل حال، فإن صلب ابن الزبير - رضى الله عنه - ليس سوى مشهد من مشاهد الحجاج القبيحة، وخطيئة كبرى من سجل خطاياه.

.. (فوربك لنسألنهم أجميعين .. عما كانوا يعملون)

- وأمام هذه المشهاد المأسوى الرهيب نسأل من جديد:

حادى عشر: هل تحقق لابن الزبير - رضى الله عنه - ما أراد؟!

- هل حصل المصالح التى خرج فى سبيل تحصيلها؟!

- هل درأ المفاسد التى كان الناس يشكونها؟!

- هل أعاد الحقوق إلى أصحابها؟!

- إننا لن نجيب على هذه الأسئلة .. وإنما سنترك الأحداث تتكلم، ونترك التاريخ يعرض علينا هذه الصفحة السوداء من صفحات الحجاج.

فلنقلب الفكر ولنمعن النظر، ولندقق فى خبايا الأحداث، وسوف نقف على الآثار الرهيبة لمحاولات الخروج المسلح ضد الحكومات.

وأخيرًا .. فتذكر

- أننا نحب ابن زبير - رضى الله عنه - ونعرف فضله.

-فنحن نعرف أن ابن الزبير أفضل من يزيد ومن كل من جاء بعده من بنى أمية.

- ونحن لا ندافع عن الظلم ولا نجادل عن الذين يختانون أنفسهم، ولسنا للخائنين خصيما.

- إننا فقط نسجل أحداث التاريخ .. ونعيد قراءة الماضى، لنسـتعين به على المسـتقبل ..

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

خامسًا ..

قصة خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج

هذه واحدة من أعنف الثورات التى قامت فى العراق ضد الحكم الأموى(١) .. وإنما كان المحرك الأول لها الكراهية المتبادلة بين قائدها عبد الرحمن بن الأشعث، وبين والى العراق الحجاج بين يوسف الثقفى، والتى عبر عنها الحجاج بقوله «ما رأيته قط إلا أردت قتله».

لم يكن ابنُ الأشعث بأحسن حالاً من الحجاج، فكثيرًا ما كان يردد أنه يحاول إزاحة الحجاج عن سلطانه.

وكان ابن الأشعث يتعالى أن يخضع لسلطان أحد .. حتى إن عمه إسماعيل بن الأشعث حذر الحجاج من تولية عبد الرحمن بن الأشعث ابن أخيه على الجيوش لقتال رتبيل ملك سجستان، والذى كان كثير التمرد على الأمويين .. وقال إسماعيل للحجاج: «لا تبعثه فإنى أخاف خلافه، والله ما جاوز الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطانًا.

لم يسمع الحجاج نصيحة إسماعيل بن الأشعث وأرسل عبد الرحمن بن الأشعث على الجيوش لقتال رتبيل، وقال : «هو لى أهيب، وفىّ أرغب من أن يخالف أمرى، أو يخرج عن طاعتى».

- مضى ابن الأشعث بجيشه إلى رتبيل والذى طلب الصلح، ولكن ابن الأشعث رفض ذلك، وأخذ يتوغل فى بلاده، حتى إذا حاز أرضًا عظيمة من إقليم سجستان، وساق الغنائم حبس جنوده عن التوغل فى الإقليم، وقال: نكتفى بما أصبناه هذا العام، حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون عليها، ثم نتعاطى ما وراءها العام القادم حتى نقاتلهم على كنوزهم وذراريهم.

- أرسل ابن الأشعث إلى الحجاج بذلك الرأى، فلم يعجبه، ورد عليه مسفهًا رأيه متهمًا إياه

---

(١) هذه القصة مستقاه من «البداية والنهاية» لابن كثير جـ ٩ ص ٣٧:٥٧ مكتبة الإيمان وكتاب : تاريخ العالم الإسلامي فى ظل الحكم الأموى.. د. عبد الشافى عبد اللطيف ص ٥٠٧: ٥١٦ بتصرف.

بالضعف، فقال له: «فإن كتابك أتانى، وفهمت ما ذكرت فيه.. وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة، ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عدواً قليلا ذليلاً ... إنى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة، ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك...»

- ولم يكتفِ الحجاج بذلك بل أرسل إلى ابن الأشعث بكتابين آخرين يحملان نفس المعنى، ويهدده بالعزل إن لم يمض لقتال رتبيل.

- أحس ابن الأشعث بالإهانة فى مخاطبة الحجاج له بهذه اللهجة وقال: «يخاطبنى بذلك وهو لا يصلح أن يكون من بعض جنودى».

- جمع ابن الأشعث كبار قادته وهو فى ثورة من الغضب، وقال لهم: «أيها الناس إنى لكم ناصح ولصلاحكم محب، ولكم فى كل ما يحيط بكم نفعه ناظر، وقد كان من رأى فيما بينكم وبين عدوكم استشرت فيه ذوى أحلامكم، وأولى التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأيًا، ورأوه فى العاجل والآجل لكم صلاحًا .. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءنى منه كتاب يعجزنى ويضعفنى، ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو، وهى البلاد التى هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم». فثار الناس إليه وقالوا: «لا .. بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع».

وقال عامر بن وائلة: «إنَّ مثل الحجاج فى هذا الرأى ومثلنا، كما قال الأول لأخيه: أحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا ملك .. أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة فى سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء». أ.هـ.

قام شعراء العراق وخطباؤهم يعلنون خلع الحجاج، ودعوا إلى بيعة ابن الأشعث فاستجاب لهم .. وبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين .. وقال: «تبايعونى على خلع الحجاج عدو الله، وعلى النصرة لى وجهاده حتى ينفيه الله من أرض العراق» .. فبايعه الناس، ولم يذكر ابن الأشعث خلع عبد الملك بن مروان.

- شجع ابن الأشعث على الثورة سرعة استجابة أهل العراق له وتأييد الفقهاء الذين كانوا فى جيشه للثورة على الحجاج لظلمه وبغيه وإساءته لكثير من المسلمين .. حتى قال الشعبى وكان فى

صفوف ابن الأشعث: «قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة».

وقال جبلة بن زهر، وكان على كتيبة القراء : «أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم، فقاتلوا عن دينكم ودنياكم».

.. وقال سعيد بن جبير نحو ذلك.

- عقد ابن الأشعث صلحًا مع رتبيل ملك سجستان، وواعده إن هو انتصر على الحجاج أن يضع عنه الخراج وإذا انهزم رجع إلى رتبيل ليجد عنده الملجأ والمكان الآمن.

- بلغ خبر ابن الأشعث الحجاج فانزعج وانزعج منه عبد الملك بن مروان .. وأخذ عبد الملك يوالى إرسال الجنود إلى الحجاج لقتال ابن الأشعث.

أما المهلب بن أبى صفرة والى إقليم خراسان فأرسل إلى ابن الأشعث يحذره من الثورة .. وقال له : «إنك قد وضعت رجلك فى ركاب طويل، ابق على أمة محمد ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها .. إلخ.

- ولكن ابن الأشعث لم يستجب لقوله ونصيحته.

- كما أرسل المهلب إلى الحجاج يخبره بأهل العراق وطريق التعامل معهم، وأنهم لا يصبرون على مفارقة الأزواج والأولاد، ولكن الحجاج أيضًا لم يأمن لنصح المهلب له.

- كانت بداية الثورة سنة ٨١ هـ وانتصر ابن الأشعث على جيوش الحجاج فى منطقة الزاوية خارج البصرة .. ثم قاتل واستبسل جنوده حتى استعاد البصرة من ابن الأشعث ودخلها الحجاج مرة ثانية.

- ثم استأنف ابن الأشعث انتصاراته وتكاثر عليه الناس حتى زاد أتباعه على مائة ألف مقاتل، فلما رأى ذلك العدد، أعلن خلعه عبد الملك بن مروان.

- أرسل عبد الملك بن مروان إلى أهل العراق يعرض عليهم عزل الحجاج وعروضاً أخرى فكتب يقول : «إن كان يرضيكم منى عزل الحجاج عنكم فقد عزلته عنكم، وأبقيت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أى بلد يكون عليه أميرًا ما عاش، وعشت..»

- جمع ابن الأشعث أتباعه ودعاهم لقبول ما عرض عبد الملك بن مروان عليهم فأبوا ذلك، ونفر الناس عنه وقال: «لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عُددًا وعَددًا، وهم فى ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك .. ثم جددوا خلع عبد الملك بن مروان.

- ورأى أهل العراق الفرصة سانحة للتخلص من حكم بنى أمية.

- استعد الجيشان للقتال، وتقابلا فى أكثر من ثمانين موقعة، وكان أشهرها معركة دير الجماجم، واستمرت مائة يوم، وانهزم فيها ابن الأشعث، ثم كانت معركة مسكن، وفَرَ بعدها ابن الأشعث ببعض جنوده إلى سجستان طالبًا اللجوء والأمان عند رتبيل كما تعاهد معه على ذلك.

- هدد الحجاج رتبيل بغزو بلاده مالم يسلم إليه ابن الأشعث، وتم التفاوض بين رتبيل وبين الحجاج واشترط رتبيل لنفسه: «لا يقاتل عشر سنين، ولا يؤدى فى كل سنة منها إلا ألفاً من الخراج .. بل إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضه سبع سنين».

- ألقى رتبيل القبض على ابن الأشعث وبعث به إلى الحجاج مقيدًا بالسلاسل، وفى الطريق ساوم ابن الأشعث حراسه وصعد إلى أعلى قصر وألقى بنفسه من فوق، وأخذ رتبيل رأسه وأرسلها إلى الحجاج، والذى أمر أن يطاف بها فى العراق.

ثم بعث الرأس إلى عبد الملك بن مروان، فأمر فطافوا بها فى الشام .. ثم أرسلها إلى مصر فطافوا بها هناك .. ثم دفنت لتنتهى قصة ابن الأشعث تمامًا، وكان ذلك عام ٨٥ هـ.

عبر وعظات من خروج ابن الأشعث على الحجاج.

أولاً:

لقد كان الحجاج ظالمًا .. بل كان ظالمًا جهولاً .. ولم يكن يصلح لدنيا ولا دين لأنه ما ترك لله حرمة إلا انتهكها، وكان ينقض عرى الإسلام، ولقد توسم أبوه فيه ذلك منذ نعومة أظفاره حتى إنه قال له : «يا بنى إنى والله لأظن أن الله خلقك شقيًا».

- إن الحجاج يقر بفساد طبعه وانحراف سيرته، بل وقبح سريرته .. ولقد قال عن نفسه: «أنا لجوج حقود حسود» .. ولما كان الاعتراف سيد الأدلة .. فقد وصفه عبد الملك بن مروان بعد اعترافه هذا فقال له : «إذا بينك وبين إبليس نسب».

إننا نعترف بكل ذلك ونقره ونقول: إن الحجاج ما ترك أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً، لأنه كان جبارًا عنيدًا، وكان فى سيفه رهق، وكان شديدًا يقتل النفس التى حرم الله بأدنى شبهة.

إنَّ الحجاج لم ينج من ظلمه أحد صحابيًا كان أو غير صحابى، عالمًا كان أو جاهلاً، رجلاً كان أو امرأة، صغيرًا كان أو كبيرًا .. فلقد بلغ الحجاج فى ظلمه المنتهى.

- كيف لا نقول بظلم الحجاج وهو الذى رمى ابن مسعود - رضى الله عنه- بأنه رأس المنافقين وتوعده لو أدركه لسقى الأرض من دمه.

إن الحجاج هو الذى قال لأنس - رضى الله عنه - خادم رسول الله ﷺ «لأستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدفعنك كما تدفع الصمغة» .. ثم دعا عليه بقوله : صك الله سمعك.

- لقد سب الحجاج جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - وسهل بن سعد - رضى الله عنه وقرعهما .. وخاطبهما خطابًا غليظًا.

- لقد اجتهد الحجاج وسعه وبذل كل طاقته فى إذلال وإهانة وإلحاق الأذى بأصحاب رسول الله ﷺ والصالحين فى زمانه، فلقد أمر بسهل بن سعد - رضى الله عنه - فختم فى قفاه .. وأمر

بجابر بن عبدالله - رضى الله عنه - فختم فى يده، وفعل مثل ذلك بأنس - رضى الله عنه - إذلالاً وإهانة لهم.

- بل إن الحجاج لم يتورع عن قتلهم - رضوان الله عليهم - سواء بصورة ظاهرة كما فعل بعبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - أو بطريقة خفية شأنه شأن المنافقين كما دس على ابن عمر - رضى الله عنه - من طعنه بحربة مسمومة فمات.

لقد مات الحجاج تاركًا فى سجنه ثلاثة وثلاثين ألف سجين، لم يرتكبوا جريمة ولم يقترفوا جناية، ولم يجب على أحدهم حد ولا قصاص.

- بل إنّ الحجاج حول دولة الخلافة فى عهده إلى سجن كبير يضع بداخله عشرات الآلاف، حتى لقد أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة من سجون الحجاج واحدًا وثمانين ألف أسير(١)، بينهم ثلاث وثلاثون ألف امرأة.

- لكل ذلك نقول: إن الحجاج كان ظلومًا جهولاً حتى إن كثيرًا من السلف وصفوه بالمبير(٢) الذى أخبر بظهوره رسول الله ﷺ.

كل هذه الأوصاف السابقة التى وصفنا بها الحجاج لم نأت بها من عند أنفسها، ولكن هذا وصف المؤرخ العظيم ابن كثير للحجاج فى كتابه العظيم البداية والنهاية .. وهى أوصاف بشعة لم يوصف بها أحد من المسلمين من قبل .. ولكن الحجاج استحقها عن جدارة حيث سبق الأولين والآخرين فى الظلم والطغيان والجبروت.

لقد أخطأ عبد الملك بن مروان خطأ فادحًا بتوليته الحجاج على المسلمين وعلى الصحابة، يذلهم ويهينهم قتلاً وضربًا وشتمًا وحبسًا .. ولقد قتل الحجاج من الصحابة وأكابر التابعين والصالحين مالا يحصى.

- لقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لو تخابثت الأمم، فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا

---

(١) قد تكون هناك مبالغة فى هذه الأعداد تناقلتها كتب التاريخ فلا نظن أن هناك سجونًا فى هذا العصر تكفى لهذا العدد الكبير .. ولكن ضخامة العدد تدل دلالة واضحة على مدى جبروت وطغيان الحجاج.

(٢) المبير: أى المهلك .. والحديث رواه مسلم عن اسماء رضى الله عنها فى باب «ذكر كذاب ثقيف ومبيرها».

بالحجاج لغلبناهم .. ولم يكن الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة.

وقد كان من أعظم حسنات عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - أنه عزل كل مسؤول فى الدولة عمل مع الحجاج، وأطلق صيحته الشهيرة : «كفى به سوءًا أن عمل مع الحجاج». فأراحوا البلاد والعباد من هذه الطغمة الظالمة التى أساءت لحكم بنى أمية.

- نحن نقر مع الحجاج أنه كان لجوجًا حقودًا حسودًا .. ونشهد مع عبد الملك بن مروان أن بين الحجاج وبين إبليس نسبًا ..

ونقول كما قال ابن كثير :«وكان شديدًا وكان يقتل النفس التى حرم الله بأدنى شبهة .. وكان جبارًا عتيدًا».

- ونعترف بما اعترف به الحسن البصرى: «أن الحجاج كان نقمة»[1].

- إننا نعترف بكل ذلك ونقرّ به ولا نشك فى ارتكاب الحجاج للمذابح الفظيعة والمعاصى الشنيعة.

- إننا نقول بوجوب البراءة من ظلمه، ولابد من بغضه على هذا الظلم، ولا نجد له مبررًا فى ارتكاب هذه الجرائم سوى الجرأة على محارم الله، والاستهانة بدماء المسلمين، حتى رأيناه يذبح الآلاف منهم ذبح النعاج بل ذبح الدجاج .. وكفاه جرمًا لقتله عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه- وسعيد بن جبير، والذى تدل قصة موته على مدى طغيان الحجاج وجبروته وجرأته على محارم الله تعالى:

- وها نحن نسوقها بطولها ليعلم القارىء مدى تجاوز الحجاج وبغيه، ويرى عظيم حلم الله عليه.

- دخل سعيد بن جبير على الحجاج .. فنظر إليه فى حقد، وقال: ما اسمك؟

- فقال: سعيد بن جبير.

- قال الحجاج : بل شقى بن كسير.

(١) كل هذه الأقوال أوردها الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٩ ص ١٢٢:١٣٩

- فقال: بل كانت أمى أعلم باسمى منك

- فقال الحجاج: شقيت وشقيت أمك .. ثم جعل يسأله عن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين - رضوان الله عليهم - وخلفاء بنى أمية، ثم قال له: فما تقول فىَّ؟

- قال : أنت أعلم بنفسك.

- قال الحجاج: بل أريد علمك.

- قال: إذًا يسوؤك ولا يسرك.

- قال : لابد من أن أسمع منك.

- قال سعيد: إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله .. تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهى تقحمك فى الهلكة، وتدفعك إلى النار دفعًا.

- قال الحجاج : أما والله لأقتلنك.

- قال: إذًا تفسد دنياى وأفسد آخرتك.

- قال: اختر لنفسك أى قتلة شئت.

- قال سعيد: بل اخترها أنت لنفسك ياحجاج .. فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

- قال الحجاج: أفتريد أن أعفو عنك؟

- قال: إن كان عفو فمن الله، أما أنت فلا براءة لك[(١)] ولا عذر.

- فاغتاظ الحجاج، وقال: السيف والنطع[(٢)] يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسمك؟!

- قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك.

(١) فلا براءة لك: أى لا عفو عندك.

(٢) بساط من جلد يفرش تحت من يحكم عليه بالقتل.

- فقال: اقتله يا غلام.

- فاستقبل القبلة، وقال «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين».

- فقال: اصرفوا وجهه عن القبلة.

- فقال سعيد : «فأينما تولوا فثم وجه الله».

- فقال: كبوه على الأرض.

-فقال سعيد: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

- فقال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلا أدعى[1] منه لآيات القرآن.

- فرفع سعيد كفيه وقال: «اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى».

- فمرض الحجاج، وكان كلما أغفى غفوة يصحو صارخًا ويقول: هذا سعيد ابن جبير آخذ بخناقى .. هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتنى؟

- ثم يبكى ويقول: مالى ولسعيد بن جبير؟! ردوا عنى سعيد بن جبير.

فلما مات، شوهد فى المنام، فسئل ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟

- فقال: قتلنى الله بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلنى بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

.. وبعد هذا العرض لقصة مقتل سعيد بن جبير .. نعود ونقول:

إن الدروس التى نذكرها من فتنة ابن الأشعث : لا تعنى دفاعًا عن الحجاج، ولا تبرئة له من جرائمه، ولا تهوينًا من معاصيه.

كما أن هذه الدروس ليست إدانة للذين خرجوا عليه، ولا محاكمة لهم ولا لتحميلهم العبء الأكبر فيما حدث، وليست كذلك طعنًا فى نياتهم وإخلاصهم..

---

(١) أدعى منه: أقوى استحضارًا لها.

ولكننا نقول: إنهم أرادوا باجتهادهم الحق والخير، وإنما استفزهم لذلك الخروج بطش الحجاج وبغيه وقهره لخيار الأمة من الصحابة - رضوان الله عليهم - وسادات التابعين.

ورغم ذلك، فإن إدانتنا للحجاج وبغضنا له على ظلمه، لا يعنى أن نهضم الحقيقة التى علمناها، ولا أن نكتم الحق الذى رأيناه.

إن حبنا للصحابة، رضوان الله عليهم - والتابعين ومعرفتنا بمدى العنف الذى لاقوه، والشدة التى أصابتهم من جراء الحجاج، لا يعنى أبدًا أن نفسر التاريخ تفسيرًا مغلوطًا، ولا أن نقف على الأحداث دون أن نتلمس ما فيها من دروس سواء كانت هذه الدروس لصالحنا أو ضدنا.

- إنه رصد أمين لهذه الأحداث الجسام .. وبيان المصالح الشرعية التى ضاعت والمفاسد العظيمة التى حدثت من جراء هذا.

إننا لا نريد الحديث عن الأشخاص .. ولكن عن العبر والعظات: «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

إننا لو فسرنا التاريخ على خلاف حقيقته، فإنَّما نضلل أنفسنا، ونخدع الأجيال من ورائنا، ونحمل الأمور مالا تحتمل ونمضى على غير الجادة، وهذا مالا يرضاه منا الله ولا رسوله ﷺ لأن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، .. «وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً».

فلا بد أن نقول الحق كيفما كان .. ونتحرى الصدق حيثما وجد، ونحكم بالعدل كيفما وقع.

ثانيــــــًا

لقد شجع ابن الأشعث على ثورته ضد الحجاج خروج الكثير من الفقهاء والعلماء من أمثال الشعبى وسعيد بن جبير وغيرهما، ممن أخرجهم ظلم الحجاج وبغيه وإهداره للكثير من القيم الإسلامية.

إن رفع الظلم فى حد ذاته هدف نبيل يحمد أصحابه عليه .. لكننا نقول ولا زلنا نكرر: «إن النوايا الحسنة والمقاصد الشريفة لا تسوغ لأصحابها الوقوع فى الخطأ وتجاوز الحق وإهدار المصالح

التى من الواجب على الجميع تحصيلها للإسلام والمسلمين».

- نعم، لقد اجتهد هؤلاء الفقهاء فى خروجهم، وأرادوا بذلك نفع الإسلام والمسلمين واعزازهم .. ولكن لم يتحقق لهم ما أرادوا ، إنما عادوا بنقيض هدفهم، وبان خطأ اجتهادهم ومجانبتهم الصواب فى ثورتهم.

إن على العلماء والدعاة إلى الله إذا قامت حرب أو وقع قتال بين طائفتين من المسلمين أن يبذلوا وسعهم فى الإصلاح بين المتقاتلين والتوفيق بين المتنازعين، وهذا هو دورهم الأساسى وواجبهم الرئيسى كما قال القرآن (فأصلحوا بينهما).

إن العلماء والدعاة إلى الله هم ضمير الأمة الحى، وعقلها المتفتح وقلبها النابض، يشعرون بأوجاع الأمة، ويبصرونها بطريقها ويميزون بين ما ينفعها وما يضرها.

إن الأمة تأمن بجانب هؤلاء العلماء، وتجد ضالتها عندهم، وترى الحق فى سلوكهم وأعمالهم.

لقدكان حريًا بهؤلاء الفقهاء الذين خرجوا مع ابن الأشعث أن ينزعوا أنفسهم من هذا الصراع، ويسعوا للصلح بين الفريقين، ويتفرغوا لتعليم الأمة دينها، ولا يقحموا أنفسهم فى القتال، خاصة أنهم لا خبرة لهم بالحرب وسيكونون أول الخاسرين بدخولهم المعركة.

لقد علم الحجاج بن يوسف ذلك بدهائه ومكره. فحمل على كتيبة القراء من جيش ابن الأشعث، فقتل منهم خلقا كثيرًا، وشرد فى البلاد من نجا منهم.

إن دخول العلماء فى هذا القتال وموتهم قد حرم الأمة جميعًا من علمهم، وحرق قلوب المسلمين عليهم، وعم الجهل بغيابهم .. بل كانت هزيمتهم من أكبر عوامل هزيمة ابن الأشعث وفراره، لأن نفسية الجنود تحطمت لمقتل العلماء فهم يمثلون القوى الروحية والتعبئة المعنوية التى كانت تحفز الجنود على القتال.

- إن بقاء العلماء يدعون الناس إلى الخير، وتجتمع القلوب عليهم لهو خير من دخولهم فى حرب مع حكوماتهم، ثم لا يحققون شيئًا مما أرادوا .. فلا هم انتصروا فى حربهم، ولا هم حافظوا على دعوتهم، وإنما قتلوا وحوصروا ومنعوا من الدعوة وحرم المسلمون جميعًا من علمهم.

ولقد صدق الحسن البصرى حينما قال: «مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر لعلمه»(١).

– أما لو تأنى هؤلاء لعلموا أن زوال الدنيا بأسرها أهون على الله من موت عالم، لأن فى موت العلماء خراب الدنيا وذهاب الدين.

– إن العلماء والدعاة والمصلحين إذا ماتوا أو قتلوا، اتخذا لناس رؤوسًا جهالاً يتكلمون بغير علم فيضلون ويضل الناس بقولهم ويشقون بأعمالهم .. وبموتهم تتهيأ الفرصة لظهور أمثال الحجاج وابن الأشعث، وكم رأينا ما فعل الاثنان بالأمة، وماذا جرًّا عليها من مصائب وبلاءات.

ثالثـــــاً

إنَّ من أكبر الأخطاء وأشد الأخطار التى تقع فيها الأمة، أن يكون بأسها بينها شديدًا، وأن تتحول سيوفها إلى نحورها ، وتصوب سهامها إلى صدور أبنائها، وتحدث الصراعات الدامية بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد، فتهدر تبعًا لذلك الطاقات وتستنزف الأموال، وتزهق الأرواح، وتنصرف الأمة عن جهاد عدوها الذى يتربص بها ويحصى عليها أنفاسها.

لقد رأينا ابن الأشعث يصالح رتبيل ملك سجستان والذى طالما أرق بتمرده وكثرة انتقاضاته دولة الخلافة .. مما اضطرها لتسيير الجيوش لحربه والتوغل فى بلاده، مما أتاح له الفرصة لافتراسهم وقتلهم.

– بل إننا رأينا ابن الأشعث يضع الخراج عن رتبيل حتى يقبل الصلح معه ليتمكن هو من حرب الحجاج وقتال بنى أمية .. مع أن هذا الخراج هو ملك للأمة جميعًا، لا يحق لابن الأشعث ولا غيره أن يتصرف فيه وفق مصلحته وهواه، ولكنها الحرب التى تجعل كل من دخل فيها يفعل ما يستطيع فعله دون التقيد بحل ذلك الأمر أو حرمته.

– لقد قتل فى حرب ابن الأشعث مائة وخمسون ألفًا من المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٢

- فكم من الأمهات قد ثكلن؟ وكم من الزوجات قد رملن؟ وكم من الأطفال قد يتموا بفقد هؤلاء؟

- كم من أم قد احترق قلبها على ولدها الذى أكلته نار الحرب؟

- وكم احترقت قلوب الأمة جميعًا على قتل هؤلاء الفرسان الشجعان فى حرب ليس فيها غالب ومغلوب ولا منتصر ومهزوم لأن كلا الطرفين المتقاتلين خاسر، وكلاهما مهزوم .. فهم جميعًا مسلمون وأبناء وطن واحد.. فماذا يكسب الإنسان وماذا تبقى له من نصرٍ بعدما يقتل أخاه بيده؟!

كم من الفتوحات الإسلامية توقفت عن تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس بعدما وقف المسلمون يتناحرون بعضهم تحزب للحجاج والبعض الآخر انحاز لابن الأشعث، مع أن كلا الرجلين لم يقصد بحربه وقتاله نصرة الإسلام وإعزاز المسلمين ولا الدفاع عن الأوطان، وإنما حركهما الحقد المتبادل من كليهما تجاه الآخر.

- كم نسيت الأمة خلال فترة الحرب حاضرها؟ وكم يهدر مستقبلها؟

أما لو اجتمعت هذه الصفوف، وتوحدت هذه القوى، ونظمت هذه الطاقات ورشدت هذه الجهود لما فكر رتبيل ولا غيره فى التمرد ضد الدولة الإسلامية، ولا منع خراجه عنها بعدما رأى توحد واجتماع أبنائها.

رابعًا

إن النفس الإنسانية كثيرًا ما تجنح إلى الكمال، وتصبو إلى المثالية، ولطالما عاش المرء يتمنى أن يتحقق له ما يريد، ولكن سنة الله فى الحياة قضت أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

إن كثيرًا من الناس قد رضى بواقعه، وأحب هذا الواقع وتفاعل معه، فقاده هذا التفاعل إلى تحقيق الكثير مما عاش يتمناه ويحلم به، وهؤلاء هم العقلاء الذين يقبلون المتاح لهم ثم يبنون عليه آمالهم ومستقبلهم، فهم يرضون بالجزء ليوصلهم ذلك الجزء إلى ما هو أكبر منه قدرًا وأعظم منه شأنًا.

ولكن ثمة فريق من الناس يطيب لهم العيش على الأمانى والأحلام .. فلا يزال الواحد منهم يطلب المستحيل حتى يضيع الممكن من بين يديه، ويظل أحدهم يراهن على الغيب حتى يفقد الواقع الذى حققه، ويقضى أحدهم عمره يلهث وراء المفقود حتى يتفلت الموجود من بين يديه.

إن أناسًا يطلبون كل شىء فإذا لم يتحقق لهم ما أرادوا رفضوا كل شىء بدعوى المحافظة على الحقوق، وعدم التفريط فى أى شىء أو ترك أى واجب.

لقد كان هدف أهل العراق التخلص من حكم بنى أمية، وهذا هدف كبير لا يطيقه أهل العراق ولا يقدرون على تحقيقه .. ولو أنهم حينما عجزوا عن بلوغ ذلك الهدف قبلوا ما هو أقل منه لأنقذوا أنفسهم وأنقذوا الأمة من هذه الحرب الضروس التى أتت على كل شىء..

لقد عاشوا يتمنون خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان ولكنهم عجزوا عن خلعهما، فعرض عليهم عبد الملك أن يخلع الحجاج من ولاية العراق، ويريحهم من ظلمه وأن يجرى عليهم الأموال، ويختار قائدهم ابن الأشعث أى بلد يحكمه طيلة حياته. لكنهم رفضوا كل ذلك، وساروا وراء هدفهم الكبير الذى لا يملكون تحقيقه.

لقد تمنوا خلع الاثنين، ورفضوا عروض عبد الملك عليهم. فجاءهم الحجاج بجيوشه فهزمهم وسامهم سوء العذاب، بل ودخل البصرة، وجعل لا يبايع أحدًا من أهلها حتى يشهد على نفسه بالكفر.

- إن من أراد الكل فاته الكل، ومن طلب المستحيل أضاع الممكن.

- إن على الأجيال أن تتعلم كيف تختار من الحلول ما يحقق لها أكثر مصالحها ولا تشترط أن يحقق هذا الحل كل المطالب.

- إن الحركة الإسلامية بحاجة أن تتعلم كيف تقبل التسامح فى بعض حقوقها حتى لا تضيع منها كل الحقوق، بل وقد تضيع الدعوة جميعها.

- إن الرسول ﷺ كان حكيمًا فى الحديبية وهو يقبل من المشركين صلحهم على الضيم والهضم لأن مصلحة الإسلام الكبرى تقتضى منه ﷺ ذلك، وأن يتنازل عن بعض حقوقه فى كتابة الوثيقة حتى إنَّ المسلمين ليضيقون بذلك.

«.. إن الرسول ﷺ أملى عليًا فقال: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

- فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف الرحمن، أكتب ما نكتب: باسمك اللهم.

فضاق ذلك بالمسلمين، وقالوا: هو الرحمن، والله لا نكتب إلا الرحمن.

- قال سهيل: إذًا لا أقاضيه(١) على شيء.

- فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم.

- ثم قال ﷺ: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله.

- فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ولاتبعتك .. أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟

- فضج المسلمون ضجة هى أشد من الأولى، حتى ارتفعت الأصوات، وقام رجال يقولون: لا تكتب إلا محمدًا رسول الله .. وإلا فالسيف بيننا، علام نعطى الدنية فى ديننا؟

- فقال رسول الله ﷺ: أنا محمد بن عبد الله: فاكتب»(٢)

- فلننظر كيف يتنازل ﷺ عن أحق حقوقه فى الاعتراف برسالته وكيف يقبل أن يمحو «الرحمن» من الوثيقة؟

- بل ويرجع عن دخول مكة، وهى بلده التى أخرج منها؟

- ويرد من جاءه مسلمًا، ولا يرد المشركون من جاءهم كافرًا؟

- لقد قبل الرسول ﷺ كل ذلك حتى يتم الصلح ويأتى الفتح.

- لقد محا ﷺ كلمة «الرحمن» من الوثيقة، ولكنها لم تمح من الحقيقة، وقبل أن يترك كلمة «رسول الله» وهو فى الواقع وفى قلوب الناس رسول الله ﷺ.

وقبل أن يرد الذى يأتيه، وفى هذا بعض الظلم للإسلام والمسلمين ولكنه ﷺ أخذ المتاح أمامه. فقاده ذلك الصلح إلى الفتح المبين.

---

(١) أى لا أعاهده على شيء.

(٢) المنهج الحركى ص ٣٥١ ط دار الوفاء.

إن على أصحاب الحقوق أن يقبلوا الحلول المتاحة لهم حتى يأتى اليوم الذى يحصلون فيه على كامل حقوقهم .. فالسياسة هى فن الممكن. وليست طلب المستحيل كما يقول أهل السياسة، وذلك موافق لشرع الله فقد قال تعالى : «فاتقوا الله ما استطعتم».

إن الذين يرفضون الجزء لأنهم يطلبون الكل، والذين يتبعون فلسفة كل شىء أو لا شىء، إنما يتبعون فلسفة عقيمة لا يقرها الشرع ولا يقبلها الواقع .. ومن لم يقنع بكلامنا فستعلمه الأيام بدروسها القاسية هذه العبرة العظيمة.

إن على أبناء الحركة الإسلامية أن يعملوا بالقاعدة العظيمة .. (مالا يدرك كله لا يترك كله) .. والتى ضمنها القرآن بقوله : «فاتقوا الله ما استطعتم» ، «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها».

- لقد كان على أصحاب ابن الأشعث أن يقبلوا عرض عبد الملك بعزل الحجاج تحقيقا للمصالح، وحقنًا للدماء، وبعض الشىء خير من لا شىء، وبقاء القليل خير من ضياع الكثير.

- قد يقول قائل : إن فى ذلك مصلحة عبد الملك بن مروان..

- نقول : نعم، وفيه أيضًا مصلحة الإسلام والمسلمين، ولا يجوز لنا أن نضيعها.

- فلنتذكر دائمًا: «إن من أراد الكل فاته الكل .. ومالا يدرك كله لا يترك كله .. ومن زايد على المستحيل أضاع من يديه الممكن».

خامسًا

إننا جميعًا نعلم أن الحجاج رغم بطشه وطغيانه .. وتملكه هذه القوة الرهيبة، لم يكن خليفة للمسلمين ، وليست السلطة العليا بيده، ولا يحوز القرار الأخير.. فما كان الحجاج غير وال من ولاة بنى أمية.

كذا لا يغيب عنا أن الحجاج لا يملك أمر نفسه سواءً فى توليتها أو عزلها، ولكن هذا القرار بيد عبد الملك بن مروان لأنه الخليفة .. وقد كان الحجاج يهابه أشد الهيبة، بل ويرتعد عند سماع اسمه، وأظهر دليل على ذلك .. موقف الحجاج عندما أرسل إليه عبد الملك يتوعده لأنه آذى الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضى الله عنه - ويأمره بالاعتذار إليه وحسن معاملته.

- لم يملك الحجاج أمام أمر عبد الملك له إلا السمع والطاعة ، ونهض وهو يقول: قم بنا إلى أبى حمزة، يقصد أنس - رضى الله عنه - فنترضاه.

- لقد كان أمام ابن الأشعث والذين خرجوا معه على الحجاج خيارات عديدة غير خيار الثورة عليه، والخروج المسلح لقتاله.

- لقد كان بإمكانهم الذهاب إلى عبد الملك بن مروان، وهو الوحيد الذى يملك عزل الحجاج أو توليته، ويشكون إليه ظلمه، ويطلبون عزله فإن استجاب لهؤلاء النفر وخاصة فيهم العلماء، فبها ونعمت ويكون المقصود قد تحقق بأيسر سبيل.

إننا رأينا عبد الملك قد استجاب لهذه المطالب بالفعل، وحاول ترضية أهل العراق، وأراد أن يعزل الحجاج.. ولكنهم رفضوا ذلك منه.. وطالبوا بخلع عبد الملك نفسه من الخلافة.

لقد كان على ابن الأشعث ومن معه أن يلتزموا نصيحة الصحابى العظيم أنس بن مالك - رضى الله عنه - فقد ذهبوا إليه من قبل يشكون إليه ظلم الحجاج - فقال رضِى الله عنه: «اصبروا فإنه لا يأتى عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذى بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل» سمعته من نبيكم ﷺ (١).

ما أعظمك يا أنس وما أحكمك .. والله لو أن رجلاً غيرك استشير فى هذا الأمر لأشار عليهم بالخروج والقتال - خاصة أن الحجاج قد ظلم سيدنا أنس - رضى الله عنه - ظلمًا شديدًا ، وأساء إليه إساءة بالغة .. ولكنه الحق والعدل حتى مع الذين أساءوا إليه .. وإنها تقوى الله فى أقوام لم يتقوا الله فيه .. ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ على ألاَّ تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتَّقْوىٰ﴾(٢).

- ينبغى لجميع المسلمين فى كل زمان وفى كل قطر أن يكونوا عقلاء، وأن يتصرفوا بحكمة، وليعلموا أن قرار عزل رجل أو توليته إنما هو بيد الحاكم، فإذا أفلحوا فى إقناعه بصدق نواياهم وسلامة موقفهم، وأحسنوا عرض مطالبهم واقتراحاتهم، واستعانوا بالله على ذلك فسوف ينجحون بدرجة كبيرة فى حل مشاكلهم دون الحاجة إلى الخروج المسلح أو القتال.

---

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه

(٢) سورة المائدة.

وربما قال قائل: كيف تطلب من أولئك الذين حاولوا الخروج على الحجاج أن يأتوا باب عبد الملك بن مروان، وأن يدخلوا على الحكام والسلاطين؟! ألم تسمع بتحذير النبى ﷺ من الدخول على السلاطين والتردد على قصورهم؟!

ونقول: لعل هذه الفرصة مناسبة لإلقاء الضوء على هذه القضية .. والتى كثيرًا ما يتناولها بعض الدعاة .. ويسوقون الأحاديث النبوية المحذرة من الدخول على الحكام والسلاطين.. لئلا يفقد الداخل عليهم دينه، ويتخلى عن مبادئه .. ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «من سكن البادية جفا .. ومن اتبع الصيد غفل .. ومن أتى أبواب السلاطين افتتن»(١) .. وقوله ﷺ فى رواية أخرى: «مازاد أحد من السلطان دنوًا، إلا زاد من الله بعدًا»(٢).

والواقع أن الأمر ليس على إطلاقه كما يظن البعض.. وليس كل دخول على الحكام والسلاطين يعد تنازلاً عن الدين، وبعدًا عن رب العالمين .. ورغم صحة الأحاديث السابقة، إلا أنها تمثل جزءًا من التصور الكامل لهذه القضية .. وتبرز أحد وجهى المسألة .. وبدون إبراز الوجه الآخر لن تتضح الصورة ولن يصح الفهم.

ألم يقل النبى ﷺ فى حديثه: «اشفعوا تؤجروا»(٣)؟!

- ألم يرغب النبى ﷺ فى السعى بالشفاعة لدى السلطان لمن له يد عنده ابتغاء تخفيف هموم الناس وقضاء حوائجهم؟!

فأنى للشفيع أن يشفع دون الدخول على الحكام؟! ودون طرق أبواب السلطان؟!

- وتأمل كيف شفع ابن عمر - رضى الله عنه - لحجيج مكة عند الحجاج بن يوسف، وذلك حتى يتوقف عن قصف الكعبة بالمنجنيق ليتمكنوا من أداء مناسك الحج، وقد فعل .. فهل كان دخول ابن عمر - رضى الله عنه - على السلطان سببًا فى وقوع الفتنة وضياع الدين أم كان سبباً فى درء المفاسد عن المسلمين وجلب المصالح لهم؟!

---

(١) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله

(٢) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن عبد البر من جامع بيان العلم وفضله.

(٣) متفق عليه عن أبى موسى رضى الله عنه

وخلاصة القول: إن الدخول على السلاطين والحكام ليس شرًا كله، وليس مذمومًا على إطلاقه .. وإنما يكون شرًّا يلحق الذم صاحبه حين يغشى أبواب الحكام فيبيع دينه ويتخلى عن إيمانه .. ويفتنه ذهب المعز فيتنازل عن مبادئه .. ومثل هذا لا يكون غالبا من حملة الدين المخلصين له .. بل يكون من المتاجرين بمبادئهم من أجل مكسب دنيوى رخيص.

أما الصادقون المخلصون فى محبة الخير للناس .. فهم يدخلون على الحكام لإسداء النصيحة، ورفع الظلم عن المستضعفين، وسعيًا لإحقاق حق وإبطال باطل، أو تقليل شر أو قضاء حوائج الخلق .. فلو تخلى أمثال هؤلاء عن الدخول على السلطان وأخلوا ساحته ومجلسه للمفسدين المبطلين.. فمن يرفع للسلطان هموم شعبه، ومن يرشده لما فيه خير البلاد والعباد؟!

وتراث المسلمين زاخر بمواقف مشرفة لعلماء عظام دخلوا على السلطان وغشوا أبواب الحكام .. لا ابتغاء عرض زائل من الدنيا .. وإنما بذلاً للنصيحة وتذكيرًا بالله.

وما موقف الحسن البصرى مع ابن هبيرة والى العراق منا ببعيد .. فما زال الحسن البصرى يذكره بأمانة الرعية ، ويخوفه من الله حتى بكى ابن هبيرة واخضلت لحيته.

وكذلك ما كان من خبر الإمام الزاهد أبى حازم الأعرج حين دخل على سليمان بن عبد الملك .. وظل ينصحه ويذكره بيوم القيامة حتى قال له الخليفة: جزاك الله خيرًا من عالم ناصح.

وأيضًا ما كان من طاووس عالم التفسير الشهير حين دخل على الحجاج، وصدع بالحق عنده حتى احمر وجه الحجاج خجلاً من جلسائه.

فهؤلاء علماء دخلوا على الحكام والسلاطين .. فكان دخولهم زيادة فى الدين لا نقصًا فيه .. وإظهارٌ للحق لا كتماً له .. فليس كل دخول على الحكام والسلاطين منهياً عنه .. فمنه ما هو مباح .. بل قد يكون مندوبًا أو واجباً.

وها هنا معنى آخر لا يقل أهمية عن سابقه .. ففى مثل هذه المواقف التى يثور فيها النزاع .. ويحتدم الخلاف بين الحاكم وبين طائفة من أصحاب العلم والدعوة .. فإن فكرة الخروج المسلح

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه.

تهيمن على عقلية البعض.. وتجعله لا يرى لها بديلا للتعامل مع هذه الأزمة .. ويعتبر فى ذات الوقت أن سلوك سبيل الحوار والتفاهم لا يعيد حقًا ولا يرد مظلمة .. بل يعتبر الحوار أول خطوة فى طريق التنازل عن الحق وتشويه معالمه.

والحقيقة أن هذا الظن مجانب للصواب .. ومازالت حقائق التاريخ والواقع تكذبه وتفند حججه على مر العصور .. فلا علاقة من قريب ولا من بعيد بين الحوار والتفاهم وبين ضياع الحق وتشويه معالم القضية .. بل على العكس، كثيرًا ما يكون تجاهل مبدأ الحوار سببا فى ضياع الحقوق وذهابها إلى غير رجعه .. والأصل أن يسلك صاحب الحق سبيل التفاهم والتفاوض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .. فهو أيسر الطرق وأقربها لنيل المراد وتحقيق المقصود.

وقد يضيع الحق، وتشوه معالمه أشد ما يكون فى ميادين القتال .. فعلى هدير طلقات الرصاص، وزمجرة المدافع يطيش صواب الكثيرين .. ولا يجد التفكير المتأنى والنظرة المتعقلة موطئ قدم فى خضم المعارك والحروب.

وهل ظهرت فرقة الخوارج، وكفرت خيار المسلمين كعلى ومعاوية- رضى الله عنهما -إلا بعد أن وقع الصراع بين طوائف من أهل الإسلام؟!

وهل تجرأ البعض على إهدار كرامة آل بيت النبى ﷺ الأطهار إلا بعد خروج الحسين - رضى الله عنه - على يزيد ونشوب القتال بينهم؟!

وهل أقدمت جيوش الحجاج على استباحة حمى الكعبة ورميها بالمنجنيق إلا فى خضم الصراع المحتدم بين ابن الزبير - رضى الله عنه - وبين الحجاج؟!

وهل كان لحرمة المدينة أن تستباح إلا بعد أن خرج عبد الله بن حنظلة على يزيد؟!

هذه المشاهد وغيرها تطرح أمامنا سؤالاً يقول: هل عاد الحق لأصحابه فى تلك المواقف عندما سلكوا سبيل القتال؟!

أم كان القتال سببًا فى ضياع الحق بالكلية، بل وفى ضياع هيبة صاحب الحق واستباحة حرمته؟!

وماذا لو كان أصحاب الحق قد آثروا سبيل التفاهم والحوار؟! ألم يكن ذلك أجدى وأفضل؟!

ولربما توصلت الأطراف جميعًا إلى حل مشرف يرضى الجميع ويجنب المسلمين إيغار الصدور وإراقة الدماء.

إن الحوار والتفاهم هو السبيل الأمثل غالبًا لحل المشكلات ونزع فتيل الأزمات .. لاسيما حين يكون النزاع بين أهل الإسلام أنفسهم .. وهو ذات السبيل الذى سلكه الحسن بن على - رضى الله عنه - رغم لوم اللائمين .. ونال بسببه وسام السيادة من رسول الله ﷺ .. وذلك رغم رضاه فى صلحه ببعض الضيم ولكنه خير من إراقة الدماء البريئة وانتهاك الحرمات، وخير من أن يشمت العدو فى أبناء الدين الواحد وهم يفنون بعضًا بغير طائل.

فلله در الحسن بن على - رضى الله عنه - ولله در من اتَّبَعَه وسلك دربه وسار على هُدَاه.

سادسًا: إنَّ الخروج على الحكام، ونزع اليد من طاعتهم ليس بالأمر الهين أو اليسير، بل إنه لمن أكبر الخطوب وأشد الأخطار التي قد تنزل بالأمة وتحيق بها .. حتى إننا رأينا كيف يتفرق الشمل ويتناحر الأشقاء وتأتى مثل هذه الحروب على الأخضر واليابس.

لقدخرج ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف، وعبد الملك بن مروان، فقتل من جيشه فى هذه المعارك مائة وثلاثون ألف مقاتل. منهم الأخيار والسادات والعلماء أمثال محمد بن سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن جبير وغيرهم(١).

لقد صمم ابن الأشعث على الثورة ونزع يده من الطاعة، فقتل الحجاج من جيشه خمسة آلاف أسير صبرًا(٢).

لم يصبر ابن الأشعث على ظلم الحجاج، واستعان بالفقهاء عليه فهجم الحجاج على كتيبة القراء فقتلهم جميعًا وحرم الأمة من علمهم(٣).

لقد أعلن ابن الأشعث القتال ضد دولته، فرأيناه يتنازل عن الخراج لأعدائها، ويضيع على المسلمين مصدرًا عظيمًا من أعظم الموارد التى تثرى الأمة وتساعد على قضاء مصالحها، بل رأينا هذه الأموال تتوجه لتصب فى خزائن الأعداء ليستعينوا بها على حرب الدولة الإسلامية وقتال أبنائها.

---

(١) (٢) (٣) البداية والنهاية لابن كثير

إن ابن الأشعث بخروجه على الحجاج لظلمه وفسقه، قد أعطاه الفرصة ليزداد فى الظلم، ويتمادى فى الفسق ويكثر من المفاسد .. حتى رأيناه يدخل البصرة ويطلب من أهلها أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر لخروجهم على الخليفة، فمنهم من أقر بكفره فنجا من القتل، ومنهم من أبى الشهادة على نفسه فحصده السيف، وقتل الحجاج فى ذلك خلقاً كثيرًا[1].

لقد انتهت ثورة ابن الأشعث وكان جملة من قتل فيها مائة وخمسين ألفًا من المسلمين .. ترى كم فجعت الأمة فى أبنائها بقتل هذا العدد الرهيب من الشباب والشيوخ والعلماء والفرسان والشجعان الذين لو توجهت طاقاتهم لغير القتال لضمنوا لدولتهم السيادة والاستقرار، ولما تجرأ أحد على التحرش بها ومهاجمتها، أو إملاء الشروط وفرض المطالب والدخول فى المساومات معها، كما اشترط رتبيل لنفسه ألا يقاتله الحجاج عشر سنين، وأن يضع عنه الخراج لا يدفعه سبع سنين أخرى، وألا يدفع من الخراج إلا ربع قيمته.

ترى هل يجرؤ رتبيل على التقدم بمثل هذه المطالب لو أن الأمة جميعها توحدت خلف حاكمها، وتوجهت صوب عدوها الخارجى؟!

ترى هل فكر رتبيل فى ذلك إلا بعدما رأى الفريقين يقتتلان واستغل ورقة ابن الأشعث للضغط على الدولة الإسلامية وابتزازها وحرمانها من مواردها؟!

يقول الإمام ابن كثير عن ثورة ابن الأشعث هذه :«كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير، هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

يقول الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر: «وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذى قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين .. وهى ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة فى نفس ابن الأشعث والحجاج من جهة، وبغض أهل العراق للحكم الأموى من جهة أخرى»[3].

(١) ، (٢) البداية والنهاية لابن كثير

(٣) تاريخ العالم الإسلامي.

ويقول أيضًا: «ولكن هل مجرد الكره يكفى ليكون سببا للثورة .. فلو أنَّ كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة .. وهل هناك حكومة بعد حكومة الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – كانت موضع رضا جميع الناس»(١).

كم كان علماء أهل السنة حكماء حينما منعوا الخروج على الحاكم ونزع اليد من طاعته لمجرد ظلمه وفسقه.

كم كانوا عظماء عندما قيد جمهورهم الخروج على الحكام وخلعهم بالكفر البواح الذى عندنا من الله فيه برهان؟

كم كانوا عظماء عندما منعوا كل كاره لحاكم بسبب فسقه أو ناقم عليه بسبب ظلمه من قتال هذا الحاكم أو الخروج عليه حتى قال جمهور الفقهاء من أهل السنة والجماعة قولتهم العظيمة: «إمام ظلوم خير من فتنة تدوم»

– نعم، حاكم غشوم خير من قتال لا يبقى على شىء، يشب فيه الصغير، ويشيب عليه الكبير، وترفع به الرحمة عن الأمة، ويحل عليها العذاب، ويسخط عليها ربها، ويطمع فيها عدوها.

إن على الذين يعيبون على جمهور أهل السنة والجماعة رأيهم هذا فى منع الخروج على الولاة لمجرد ظلمهم وفسقهم، أن يعلموا أنهم أخذوا هذا الرأى من أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يقولوا به مجاراة لحاكم ولا نفاقًا لدولة، ولا تعصبًا للأمويين ضد غيرهم.

إن فقهاء أهل السنة بحثوا فى أحاديث الرسول ﷺ وهى كثيرة فوجدوها تمنع الخروج والقتال ضد الحاكم .. فقالوا بما قال به رسول الله ﷺ فى أحاديثه والتى منها:

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية»(٢)

(٢) عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :«من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»(٣).

(١) تاريخ العالم الإسلامي. .. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف

(٢) متفق عليه (٣) رواه مسلم

(٣) عن أبى هنيدة وائل بن حُجر - رضى الله عنه - قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله ﷺ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا. فما تأمرنا؟.. فأعرض عنه، ثم سأله .. فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»[١].

(٤) عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها، قالوا : يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم»[٢].

ولقد نظر فقهاء الإسلام العظام من أمثال ابن كثير والنووى وغيرهما فى هذه الأحاديث وغيرها التى تأمر بالصبر على الحكام وعدم الخروج عليهم .. فاستقوا منها رأيهم بحرمة الخروج على الحكام الفسقة الظلمة، دورانًا مع السنة وبحثا عن مصالح المسلمين.

إن فقهاء الإسلام رأوا الآثار الرهيبة والمفاسد الجمة والمصالح التى تهدر فى قتال الحكام والخروج عليهم، فمنعوا هذا القتال وحرموا هذا الخروج.

هل لأحد ينظر فى حرب ابن الأشعث وما جرى فيها، وما ترتب عليها من كوارث وسفك للدماء وإذلال للمؤمنين أن يقول بعد ذلك بجواز الخروج على الحكام لظلمهم وفسقهم؟

مرة أخرى نذكر بالقاعدة العظيمة التى قالها ولزمها جمهور العلماء من أهل السنة : «إمام ظلوم خير من فتنة تدوم».

إن اتهام العلماء الذين منعوا هذا الخروج لمفاسده وحرمته بأنهم إنما قالوا ذلك نفاقًا لبنى أمية .. فيه من الغلط والتخليط والجرأة على سلف هذه الأمة والطعن في دين علمائها ما يمثل فى حد ذاته ظلمًا حرىٌ بأصحابه أن يقلعوا عنه ويستغفروا الله منه.

---

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه

ســـــابعًا

لقد غضب ابن الأشعث على الحجاج بسبب كلمات بعث بها إليه يوبخه فيها، فاستثار الناس لخلعه، ولما لم يقدر على ذلك فر هاربًا إلى رتبيل ملك سجستان، وهو رجل غير مسلم يطلب عنده اللجوء والأمان وتعاهد معه رتبيل على ذلك.

ثم رأينا رتبيل بعد تضييق الحجاج عليه وتهديده له بغزو بلاده بألف ألف مقاتل، رأيناه يتخلى عن حماية ابن الأشعث وأمانه الذى أعطاه له، وذلك حفاظًا على مصلحة بلاده وسعيا وراء تحقيق الأمان لشعبه.

وهكذا يكون شأن كل لاجىء إلى غير بلاده، يكون عرضة للمساومات بين الدول بعضها ببعض .. فإذا اختلفت دولة مع أخرى كما اختلف رتبيل مع الحجاج استضافت نفرًا من الخارجين على هذه الدولة يعيشون فى حمايتها .. وتعطيهم حق اللجوء السياسى إليها، وتستخدمهم ورقة للضغط على دولتهم لتحقيق بعض المصالح من ورائهم أو تضمن عدم تعدى هذه الدولة عليها.

إن مثل هذا اللجوء لا يدوم طويلاً فسريعًا ما تتنكر الدول لضيوفها وتسلمهم إلى دولهم، تعقد لهم المحاكمات وتصدر عليهم الأحكام.

إن الدول دائما تبحث عن مصالحها ومصالح شعوبها .. فعلى كل من يحاول الإصلاح، وتحقيق المصالح لأوطانهم وشعوبهم أن يتواءموا مع شعوبهم ويتعايشوا مع حكومات بلادهم، ويغضوا الطرف عن الزلات الموجودة .. حتى يتمكنوا من الحفاظ على دعوتهم وحياتهم، بدلاً من الهجرة إلى بعض الدول التى تستخدمهم لصالحها، وتتاجر بهم فى الأسواق العالمية، وتساوم عليهم الحكومات.

لقد رأينا الكثير من الدول بعد أحداث ١١ سبتمبر تسارع بتسليم اللاجئين على أرضها .. وتتفانى فى تقديم المعلومات، بل وتجهيز الجيوش للحرب ضد ما يسمى بالإرهاب .. وما ذلك إلا جريًا وراء مصالحها، وخطبًا لود أمريكا ودفعًا لشرها عن بلادهم.

والخلاصة، أن اللاجئين السياسيين هم سلعة تباع وتشترى فى سوق السياسة الدولية .. وعلى كل لاجىء أن يدرك هذه الحقيقة جيدًا.

وبعـــد

فهل تحقق لابن الأشعث ما أراد؟

هل تمكن أهل العراق من خلع الحجاج أو عبد الملك بن مروان؟

هل توقف الظلم والقهر الذى خرجوا بسببه؟

لعل هذه الأسئلة لا تحتاج جوابًا، ومن أراد الجواب فليراجع القصة من بدايتها حتى النهاية ليقف على الدروس التى ذكرناها آنفًا.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وختامًا نقول..

رغم أن هذه التجارب التاريخية تتناول زمانًا غير زماننا، وظروفاً غير ظروفنا .. ووقائع تختلف فى بعض جزئياتها أو تتفق فى أخرى مع جزئيات واقعنا، لكن هذه الوقائع تحمل لنا أعظم الدروس وأسمى الخبرات.

فالعبرة عظيمة والفائدة جليلة، والحكمة باهرة فى هذا التاريخ العظيم، وهل هناك أفضل من تاريخنا لكى نأخذ منه العظة والعبرة؟

- إنها حكمة السنين تأتينا سهلة سلسة فى عدة صفحات.

- إنها عظة التاريخ الإسلامى لكل جيل بعد هذا الجيل العظيم من سلف أمتنا.

- هؤلاء العظماء من السلف قد جربوا .. وقديماً قال حكماؤهم : «سلوا المجرب فقد استطلع الحقيقة، ووقف على الدقيقة، وعلم مالم تعلموا».

- ونحن لن نستطيع أن نحيا حياتنا مرتين، أو نعيش أعمارنا مرتين .. عمرًا نجرب فيه ونخطىء، وعمرًا نتعلم فيه من أخطائنا[١].

- فما الحل فى هذه المعضلة؟

- الحل أن نستعير خبرات الآخرين ودروس حياتهم، فمن عاش مع دروس التاريخ طال عمره وازدادت خبرته .. ومن لم ينتفع بخبرة سنوات التاريخ لم يستفد شيئاً، واضطر أن يعمل بنظرية التجربة والخطأ، ويعمل بخبرة يوم بيوم .. وهذه نظرية مهلكة للأفراد والجماعات والدول.

وأين العمر الطويل؟! وأين لنا الإمكانيات المادية والبشرية التي تهلك بين الحين والآخر لنستطيع تعويضها بعد فقدها؟!

فلنضف أعمار المجربين إلى أعمارنا، وخبراتهم إلى خبراتنا وتجربتهم إلى تجربتنا، ولنعمل بقول النبى ﷺ «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[٢].

---

(١) تسليط الأضواء .. على ما وقع فى الجهاد من أخطاء

(٢) رواه البخارى ومسلم

فمن لدغ من جحر مرتين، فقد ضاعت منه خبرة وحكمة وتجربة اللدغة الأولى .. ومن كان كذلك فهو مؤهل أن يخدع مرات ومرات من نفس الباب، ويلدغ مرات ومرات من نفس الجحر، والحكيم من وعظ بغيره، والمؤمن كيس فطن.

ويقاس على الحديث السابق، المثل القائل «لا تلدغ من جحر لدغ منه أخوك».. وكذلك: «لا تكرر أخطاء الآخرين».. ويقاس عليه :«ابدأ من حيث انتهى الآخرون، ولا تبدأ من حيث بدأوا».

إن التاريخ كله عبر وعظات، والبشرية مر من عمرها آلاف السنين .. ومن لم ينتفع بخبرة كل هذه السنوات، فلا يستحق أن يحيا أو أن يعيش .. وصدق المثل الذى يقول: «من لم ينتفع بخبرة آلاف السنين، لم يتجاوز زاده فى الحياة خبز يوم بيوم».

أى لم يستفد شيئا، وعليه أن يتخبط تحت نظرية التجربة والخطأ، ويعمل بخبرة يوم بيوم.

ومن أجمل ما قيل فى ذلك .. قول الخليفة المأمون: «ألذ الأشياء التنزه فى عقول المجربين».

فكيف يتنزه فى عقولهم؟! إنه يتعرف على حكمة عمرهم وخبرات حياتهم، وعمق تجاربهم فى الحياة، ولذلك يضيف أعمارهم إلى عمره، وخبراتهم إلى خبرته، وتجاربهم إلى تجاربه، ويسير على نور من ربه . وهداية من نبيه ﷺ وأسوة من سلفه الصالح.

إن من مبادىء الجماعة الإسلامية التى لم تنل حقها من الرعاية والعناية: «وتستوعب ما سبقها من تجارب».

لقد قصرنا فى العمل بهذه الفكرة العظيمة، وقد يكون من أسباب ذلك التقصير[(١)]:

(١) عدم انفتاحنا على الآخرين من الحركات الإسلامية فى سياق التنافس الشريف على العمل للدين.

(٢) الانشغال اليومى بالعمل الدائب الذى يحرم القائمين عليه من الراحة الذهنية والتفكير المتأنى.

(٣) تلك المواجهات المسلحة وغير المسلحة التى كانت مستعرة وبدرجات متفاوته فالعاملون للإسلام إذا لم يأخذوا الوقت الكافى للتفكير المتأنى، لم تسلم خطواتهم من الخطأ .. وأفضل

(١) راجع نهر الذكريات - المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية - للمؤلف والشيخ أسامة حافظ.

شيء أن تفكر وأنت بعيد عن الصدام والصراع .. وتنظر إلى خريطته كاملة من بعيد متأملاً متفكرًا، ومن دون أن تنساق للخوض فى الأحداث.

لقد شرع القتال فى الإسلام «حتى لا تكون فتنة» فإذا أصبح القتال نفسه محدثًا للفتنة فى الدين، ومانعًا لتعبيد الناس لربهم، وصادًا للناس عن دعوة الحق، ومخوفًا للشباب من ثمرة دعوة نقية .. إذا صار كذلك، صار حرامًا شرعًا، ومن الواجب إيقافه ومنعه .. واعتبر منعه ووقفه من أعظم القربات إلى الله تعالى.

إن شريعة الإسلام السمحة منزهة أن تريق دماء أبنائها خاصة، والدماء عامة بغير هدف شرعى، أو مصلحة شرعية يقينية (غير ظنية) بينة (غير خفية) أعلى من مفسدة إراقتها.

إن القتال إذا لم تكن له ثمرة سوى سفك الدماء وزرع الأحقاد وتفتيت الأمة المسلمة وإضعافها أمام أعدائها الحقيقيين، وزرع الخوف فى نفوس الأمة وشبابها، وزرع الخوف من كل ما هو إسلامى، وتعطيل الدعوة إلى الله، والزج بالمسلمين فى السجون والمعتقلات .. إذا كان القتال بهذه الصورة فإنه يلحق بقتال الفتنة[1] .. والذى يجب منعه وإنهاؤه.

إن من أعظم قواعد الشريعة الإسلامية، ما نص عليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام، كل ما تقاصر عن تحقيق مطلوبه فهو باطل».

فما بالنا إذا كان القتال لم يتقاصر عن تحقيق مطلوبه فحسب وإنما ضيع كل المصالح وجلب كل المفاسد وفرق شمل الأمة وأطمع فيها الأعداء، إن مجرد القتل لا يدعو للفخر.. ولكن ما يدعو للفخر هو أن تقاتل فى سبيل الله، نصرة للدين، وخدمة للإسلام، واعزازًا للمسلمين، وخدمة ورفعة لأوطان الإسلام، ودفعًا للغاصبين والمعتدين عليها.

قد يفاجأ البعض بكلامنا هذا، وقد يتعجب منه، ويقول لماذا تقولون هذا الكلام الآن بالذات؟! .. ومن أين جئتم بهذا الكلام؟!

إن هذا الكلام هو محصلة مشوار طويل، وبحث عميق، ودراسة متأنية لأصول ديننا ومقاصد شريعتنا، إنه وقوف على الآيات. وجمع بين أطراف الأدلة، إنه حصاد قراءة واسعة فى تراث سلفنا

(١) راجع كتاب «نهر الذكريات».

الصالح، لم يحملنا عليه حرص ولا هوى وإنما حملنا عليه الشرع الحنيف، والبحث عن رضا الله تعالى وتحقيق مصالح ديننا وأمتنا.

كما أنه حصاد تجربة طويلة عشناها زادت على الربع قرن من الزمان تقلبنا فيها بين الشدة والرخاء، والعسر واليسر، والضيق والسعة، ونحن فى هذه الأحوال كلها راضون عن الله وعن قضاء الله، لم نتخل يومًا عن ديننا وشريعتنا .. نظرنا فيها إلى نتائج هذه المسيرة، وما فيها من أحداث وصراعات.

كما وقفنا على ما فات منا من مصالح ديننا وأمتنا، وما توالى على أوطاننا وديننا من مفاسد ومثالب، وقفنا نقلب أبصارنا فى هذه الصفحات من تجربتنا، ثم رجعنا نقلب صفحات قرآننا .. نقرأ آياته من جديد، فوقعت أبصارنا على آية عظيمة من آياته، فقرأنا:

«**والصلح خير**».

قرأناها فعرفنا أنه الحق، فحملنا أنفسنا عليه، ودعونا إخواننا إليه، ومددنا أيدينا بالورود لأوطاننا، فتقبلنا أهلونا وقومنا، وقلنا جميعًا «الصلح خير»

كما قلبنا فى جنبات واقعنا الذى نحياه وتحياه أمتنا والعالم من حولنا فرأيناه يلزمنا بالصلح، فما ازددنا بالصلح إلا تمسكًا، وما زادنا الواقع بهذا الصلح إلا يقينًا.

عرضنا ذلك على عقولنا فأقرت به عقولنا وشهدت بصحته قلوبنا .. فأطلقناها عن قناعة ذاتية ورغبة داخلية وإرادة حرة «والصلح خير».

وعرضنا ذلك على علماء عصرنا وفقهاء أمتنا، فبارك الجميع سعينا للصلح، فسرنا وراء فقهاء الأمة وعلمائها نقتفى أثر السابقين، ونزاحم بركبنا المعارضين نستنير برأيهم ونهتدى بعلمهم فقالوا لنا مثلما قال ربنا «والصلح خير».

فقلنا مع علمائنا ما قالوا، لتمضى الأوطان حاصدة ثمار هذا الصلح فيسود الأمن ويعلو البناء، ويخنس الأعداء وتفوت الفرص عل الحاقدين والحساد فـ «ياليت قومى يعلمون» بأنه «والصلح خير».

إننا ندعو جميع أبناء الحركة الإسلامية إلى هذه الآية العظيمة «والصلح خير»، فلقد صالح النبى ﷺ قومه .. صالحهم على بعض الضيم فكان تصديق الله لهذا الصلح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾.

فلنسارع جميعًا لملازمة الحق وهداية الخلق، ومصالحة قومنا ولنتذكر ما حيينا أننا:

- **دعاة لا ولاة، وهداة لا جباة، هداة لا طغاة، دعاة لا قضاة.**

- نحن أصحاب دعوة لا طلاب دعاية.

- إن مهمتنا تحبيب الحق إلى الخلق، وأن نعيش مع قول الرسول ﷺ: «لا يكون الرفق فى شىء إلا زانه وما نزع من شىء إلا شانه»(١).

سيقول البعض : ولكن ما هو الحل أمام غياب بعض أحكام الدين من مجتمعات المسلمين؟ وما يعج به المجتمع من فساد؟ وما غلب على الناس من عصيان؟ وما يحدث من مظالم وما نراه من عسف وهضم؟

- نقول له ..

أمامك الصبر الجميل «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل».

- الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه، فهو خير معين لك فى محنتك : «فاصبر صبرًا جميلاً».

- عليك بالصبر فهو نور لك فى دربك «الصبر ضياء»(٢).

- عليك بالصبر فـ «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

- عليك بالصبر «فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا» ولن يغلب عسر يسرين ، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه.

ونقول لكل من يبحث عن وسيلة لخير البلاد والعباد، وإعادة المفقود من الدين:

---

(١) رواه مسلم عن عائشه رضى الله عنها.

(٢) رواه مسلم عن الحارث بن عاصم الأشعرى - رضى الله عنه

هناك وسائل كثيرة، وبدائل عديدة هى أعظم أثرًا وأجدى نفعًا من الحرب والقتال.

هناك الدعوة إلى صحيح الدين بالحكمة والموعظة الحسنة .. دون إفراط أو تفريط .. دون غلو أو تقصير.

والمهم فى ذلك أن تكون الدعوة إلى الله موجودة وحية فى المجتمع .. وليس المهم أن يخرج الحق من لسانك أنت .. فمادام الهدى يخرج من لسان غيرك .. ومادام فى غيرك الكفاية فاحمد الله على ذلك .. فإن حرمت أنت من هذا الأمر فسلم أمرك لله، وادع الله أن يعطيك ثواب نيتك فى حب هداية الخلق إلى الحق «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين» وكن ممن قال عنهم رسول الله ﷺ «حبسهم العذر»[١] وعش مع قول الحكيم: «نية المرء خير من عمله».

- هناك بذل الإحسان للغير: «إنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين».

- هناك القيام على مصالح الناس والعيش للمجتمع «فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[٢]

- هناك العلم النافع الذى يحيى الموات ويهدى العصاة: فـ«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير»[٣].

- هناك بذل النصيحة من غير تشهير ولا تعيير، فـ«الدين النصيحة»[٤].

- هناك المعاملة الحسنة والأخلاق الكريمة مع الناس «وخالق الناس بخلق حسن»[٥].

هناك العمل اليومى والإنتاج والبناء فى البلدان والأوطان وإعالة الأسر والأزواج، فـ«خياركم خياركم لنسائهم»[٦] «ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده»[٧].

---

(١) رواه مسلم عن جابر، والبخارى عن أنس واللفظ له.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٣) رواه الترمذى عن أبى أمامة، وقال حديث حسن.

(٤) رواه مسلم من حديث أبى أمامة تميم بن أوس الدارى

(٥) حديث حسن رواه الترمذى

(٦) رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال حديث حسن صحيح.

(٧) رواه البخارى عن المقدام بن معدى يكرب

- هناك العمل الخيرى من خلال مؤسسات المجتمع المدنى، فـ «أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة»[١].

هناك تحبيب الناس فى الدين والخلق القويم .. وخير الناس من حبب الحق إلى الخلق ، ولم يبغض الخالق إلى عباده.

هناك إغاثة الملهوف ورعاية المحتاج، وإكرام حملة القرآن وأصحاب الفقه والحكمة فى المجتمع، فـ «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»[٢].

إننا نقول لكل من يحاول الإصلاح، هناك البدائل الكثيرة التى هي أعظم أثرًا وأكثر نفعًا وأقوم سبيلا وأهدى طريقاً.

ولتحذر القتال لأن القتال والخروج على الحكومات ليس نزهة خلوية يتبختر فيها الثائرون ثم يعودون إلى بيوتهم.

إن الخروج على الحكومات ما هو إلا انتحار عسكرى واقتصادى وسياسى واجتماعى لكل الأطراف.

إنه دمار شامل للحركات الإسلامية. قبل أن يكون دمارًا للحكومات.

إنه إضعاف للأوطان، وتمزيق للأمة وإغراء لأعدائنا بنا، وتشويه لديننا وسماحة شرعنا، وتنفير للناس عنا وعن دعوة الإسلام العظيمة النقية.

هل هناك قائد عاقل أو حكيم يقدم على محو دعوته، وتدمير جماعته والسعى فى إبادة شعبه، وإضعاف وتفريق أمته؟!

.. ثم يعود السؤال من جديد:

- وماذا نفعل أمام المفقود من الشريعة؟!

---

(١) رواه البخارى عن سهل بن سعد

(٢) حديث حسن رواه أبو داود من حديث أبى موسى الأشعرى

نقـــول:

فلنحافظ على الموجود أولاً.

ثم نطلب المفقود بالحكمة والموعظة الحسنة .. بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والصلح الجميل .. بالحلم والأناة، ومراعاة سنن الله فى خلقه.

- بالدعوة البصيرة، والعلم النافع.
- بتنشئة الناس على الدين والإسلام، والقدوة الحسنة والأخلاق النبيلة.
- بهداية الخلائق .. باللجوء إلى الله .. بالعبادة، بالذكر، بالشكر.
- بعدم المزايدة على المستحيل حتى لا نفقد الممكن.
- بالتكاتف مع الصالحين .. بالتآزر مع المصلحين
- بمدح كل ما هو حسن، حتى وإن صنعه أى أحد وإن كان غير مسلم.
- بتقبيح القبيح حتى وإن صدر من نفسك، أو جاء من خاصتك.
- بمعالجة الخطأ وتقويمه.
- بتأييد كل من يدعو إلى أى خير ويعمل بالخير .. وهم كثيرون والحمد لله.

وبعـــــد ..

- قال ﷺ:

«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم .. وتدعون لهم ويدعون لكم»(١).

إنها صورة لمجتمع يسوده الحب والوئام والتواصل مع الحكام .. وفى مقابلها صورة لمجتمع آخر، تحرقه العداوة والخصام، واللعنة بين الأقوام.

صورة لمجتمع تسوده المحبة بين الحاكم والمحكوم، فالحاكم فيه كالأم الرؤوم والأب الرحيم .. والرعية هى الابن البار، والصديق الحميم، الذى يقابل أباه حبا بحب، ويبادل صديقه صفاءً بصفاء، الأب يحب أولاده، يحرص عليهم، يسهر لراحتهم، يشقى لسعادتهم .. فهو يحبهم ويدعو لهم .. والأبناء يحفظون المعروف، ويبادلون بالإحسان إحسانًا، ويقابلون العطاء بالعرفان، والإنعام بالوفاء .. فهم أحرار، والحر يرعى وداد لحظة، وينتمى لمن أفاده لفظة.

وكم أفاده أميره لفظات، وكم أعطاه من عمره لحظات، بل سنوات، وكم ناله منه من دعوات، فهو محل إحسانه، ومهبط عطائه، ومنزل إنعامه.

إنه مجتمع المحبة، التى تحمل الرعية أن تحوط الراعى بحبها، وتكلأه بعينها، وتحميه بمهجها، وتغذيه من دمائها، وتدفع عنه بصدورها، وترعاه أبدًا بنصحها، وترى ذلك حقًا عليها. «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(٢) فلا يهدأ لها بال، ولا تقر لها عين، ولا تطيب نفسًا إلا وهى تبذل للراعى نصحها، وتسقيه من ينبوع أمنها، وتسبغ عليه لباس أمانها.

فينام الراعى آمنا لا يخشى على نفسه بأسًا، ولا تقوم عليه حراسة من رعيته .. وكيف تقوم، وإنما تحرسه رعيته؟! تحرسه بنفسها، وتحرسه من نفسها ومن غيرها، بل تحرسه فى نفسها، فلا تورده موارد السوء، ولا تظنن به ظن السوء .. وإنما هو راعيها وإمامها.

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه

وفى هذا المجتمع النظيف، المفعم بالمحبه، الملىء بالصدق، المنسوج من الشفافية، المدعوم بالولاء، بين المرء ونفسه. وبين المرء وغيره، لا يجد الكيد له موطنا، ولا تبصر العداوة أمامها طريقًا، ولا تقف الشحناء على أرض، ولا ترى المؤامرات لها إمارة تأتمر بها، ولا متنفسًا تنفث فيه سمومها.

فقد أحبت الرعية راعيها فأحبها، وصفت لراعيها فصفى لها، ونصحت الرعية لراعيها فانتصح بنصحها، قامت تدعو له فدعا لها.

أمنها فأمنته، وحفظها فحفظته، وأكرمها فأكرمته، ودعاها فلبته، تحركت الرعية كما تشاء فحماها الراعى بما يملك.

نادته فأحسنت النداء فانتفض يحدوه الفداء، سمع بكاء الصغار فقام يهدهد قلوبهم، يمسح بيده دموعهم، يربت على أكتافهم، يحمل لهم ولا يحمل عليهم، أضحكهم فما أبكاهم، وأراحهم وما أضناهم.

فارتاحت النفوس، وانشرحت الصدور، وانفرجت الأسارير، وخف الحمل عن الكواهل والظهور، وحقنت الدماء وعصمت الأموال، وحفظت الكرامة ورشد الفكر وتوقد الذهن، ونشط العقل، وسلمت الطرقات وعمت الخيرات، ونزلت البركات، ورتلت الآيات.

إنها صورة للراعى الذى تحبه رعيته ويحب رعيته، يدعو له الناس ويدعو هو للناس .. يحميها ويقاتل من أمامها «فالإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به»(١).

فهو فئة من لا فئة له، وولى من لا ولى له، لا تشق له عصا، ولا يعصى فى طاعة، تتوحد عليه القلوب، وتجتمع وراءه الصفوف، وتبذل له الأموال ويستجيب له الرجال، فيحدد لهم الهدف ويرسم لهم الخطط، ويوضح لهم الوسائل، ويتابع معهم الأعمال، ويجنى بهم الثمار .. فإن وجد حسنة عدها، أو خلة سدها.

حريص عليهم، رحيم بهم .. يفرض العطاء للشيخ الكبير والطفل الصغير .. ويبذل الخير لرعاياه وللغير بل لأسراب الطير .. فتحيا كل يوم سنة وتموت كل يوم بدعة، ويأمن الناس كل الناس، وتقوى الأمة ويعلو الإسلام ويعز المسلمون، ويخفى المتربصون، ويقهر المعتدون.

غاب عن المجتمع صوت السيوف ليعلو صوت الحوار، وتلاشى منطق القوة لتسود قوة المنطق، فإن بدر من الراعى تقصير ستروه أو قصور جبروه ومتى احتاج العون أعانوه، فإذا ما رأى من رعيته غفلة لم يرهقها من أمرها عسرًا ولم يجعل جزاءها خسرا.

بكاء الثكالى يحرق قلبه، وأنات المرضى تهد قوته، وتلوى الجياع يقلق مضجعه، وعرى العراة يمزق جسده، وتهدم بيت لرعيته هدم لبنيانه وراحته.

يدفع عنهم البلاء، ويرفع العناء، ويحارب الغلاء .. ينشر السكينة ويبعث الطمأنينة، ويذهب القلق، ويبدد خوفهم، ويؤمن روعهم، وينفث فى روعهم: لن تُراعو لن تُراعوا.

فيأوى إليه الطريد، ويهتدى به الحائر، ويأنس به الغريب ويطمع فيه الفقير، ويحفظ قدره الكبير.

إنها روح المحبة والثقة التى تولد البذل والأمن والتفانى من الجميع وللجميع.

فكيف حين ترفع المحبة، وتسود العداوة والبغضاء، وتشحن النفوس وتسوء الظنون، وتنتشر الجواسيس، وتكثر الوشاية، وتتقطع الأواصر، وتتلاشى الأهداف، وتضل الخطط، ويتوقف الإصلاح، ويحل الكيد والتآمر.

فلا يسمع لداعى الحكمة، ولا يؤبه بصوت العقل، ولا يحس أحد بوخز الضمير، فلا ينصت لشكاية، وتوصد الأبواب وتقام الحواجز وتقام الحجب بين الراعى ورعيته، فهم فى واد وهو فى وادٍ آخر.

وتكثر الشرط، وينطق السوط، ويغيب البناء، وتهدر الأموال، ويسود منطق القوة، وتذبل المبادىء، وتموت القيم، وتذهب الأخلاق، وتنزوى الضمائر.

ويتبارى الطرفان فى سباق محموم، إما غالب أو مغلوب، وكلاهما مهزوم، وتدوى التفجيرات وتنهار العمارات، فيهدر دم الراعى ويموت، أو يتمكن منهم فلا يرحمهم، ويتحكم فيهم فيرجمهم.

والناس فى الأرض يتيهون، وتضيع الأمة وتقع فريسة لسيفين، سيف الراعى الحانق، أو سيف الشعب الأبق .. ويحتدم الصراع ويحل البوار.

ولا يلبث الأمر طويلاً حتى تنهش الأمة سيوف أخر، من يهود على الحدود رابضين، أو صليبيين فى البحار مرابطين، أو شيوعيين بالله ملحدين، أو منافقين متآمرين.

وتسقط أمتنا صرعى ضحية معارك لا طائل من ورائها، وإنما يحصد العدو ثمارها بعدما بذر بذورها وسقى زرعها .. ونرى الأمة تسير أسيرة وتتكلم وهى مكلومة، أثخنتها الجراح.

أرأيتم عندما يغيب الحب، وتدب العداوة بين الراعى والرعية، ترى لماذا قتل عثمان - رضى الله عنه - وتسور الثوار داره، ولماذا سال دمه على صفحات المصحف؟

أرأيت عليا - رضى الله عنه- ولماذا قتلوه وهو خارج ليصلى فى المحراب؟!

- لماذا ضربت الكعبة بالمدافع بعدما احتمى بها ابن الزبير- رضى الله عنه-؟ ولماذا صلبوه؟!

- ألم نقل إنه صراع محموم، فإما أن يُقتل الراعى، وإما أن يسبق سيفه فيرهق الظهور ويحز الرقاب، وييتم الأطفال، ويرمل النساء، ولا يراعى حرمات البيوت.

وإذا بدم الحسين - رضى الله عنه - يراق، وجسده تسحقه الخيول، فكم من الحكام حصدتهم سيوف رعاياهم، وكم من الرعايا سحقتها خيول الراعى.

وتبقى أمة الإسلام أمة كسيرة الجناح، تعطلت مصالحها، وتبددت خيراتها، واختلفت صفوفها، وتمزقت وشائجها، وتباعدت أقطارها .. وتحرش الجميع بالجميع، ولفهم الخوف والهلع، votحروعهم الروع والفزع.

وأقيمت المتاريس، ونصبت الكمائن، ورفعت الرحمة عن الأمة. وخَفت صوت الداعى.

- أليس هذا هو حصاد العدواة بين الحاكم والرعية؟

- أليست هذه هى الثمار المرة للصراع بين الحاكم والمحكومين؟

- نبئونى بعلم إن كنتم صادقين.

- وقد يقول قائل: إنكم تتكلمون فى غير زماننا، وتقولون فى غير حكامنا، ولعلكم تقصدون حكامًا سابقين، وصفتموهم بالرحمة والشفقة، والحرص على الشرع وعلى الناس .. أما حكام زماننا، ألا ترون ما نحن فيه؟!

ألا ترون ما أصابنا؟!

- ألا ترون ما صار إليه حال البلاد والعباد؟

- ألا ترون أننا أصبحنا فى ذيل الأمم؟!

- ألا ترون .. ؟ ألا ترون .. ؟ ألا ترون...؟

- ثم بعد ذلك تسألنا التصافى معهم وتنشدنا الثقة!!

.. لكننا نقول: نعم هناك مفقود من الدين، ولكن هناك موجود، والموجود أعظم من المفقود، نعم هناك تقصير، وهل يخلو زمان من تفريط؟! .. والمهم أن نعالج التقصير بحكمة وأناة، خاصة ونحن نرى ما حولنا من أحداث، وما يمارس علينا من ضغوط.

وكم من محاولات تبذل للتأثير على دولنا، وتغريب هويتنا، وتبديل ثقافتنا، وكم يضرب حولنا من حصار سياسى تارة، واقتصادى أخرى، وعسكرى ثالثة، ثم فى الختام يكون الغزو والاحتلال.

ألم نسمع عن تفتيش قصور بغداد ثم سكناها من قبل الاحتلال؟ ألم نقرأ عن تسريح جيوش كاملة وتدمير أسلحتها. بل والاستيلاء عليها ونقلها إلى بلاد أخرى/ ألم نسمع كل ذلك، ونرى كل ذلك؟

إننا لا نقول ذلك محاباة لأحد، ولكننا نقوله وصفًا للواقع فقط.

فلا بد لكى تتمكن بلادنا من النهوض أن نسعى جهدنا للمواءمة بين الموجود وبين المفروض، وأن نقارب بين المتاح والواجب، وأن نوائم بين الواجب والواقع - لئلا نفقد ما عندنا، ولا يتحقق قصدنا، ولا نبلغ هدفنا، فيضيع منا الموجود، ولا يصل إلينا المفقود.

- ليس الحل أن يسود منطق القوة، ولكن نفسح المجال لقوة المنطق، والمحاورة الهادفة، والمناقشة الهادئة، والصبر الجميل، والنفس الطويل.

نتحاور بأنفسنا، أو من خلال ذوى الوجاهة والرأى والخبرة من أمتنا، ليصل صوتنا لمن نريد، ويتجلى هدفنا ويتضح فكرنا.

نتعاون فيما بيننا من اتفاق وهو كثير، ونتشاور فيما قد يوجد من خلاف، ولنلزم العقل والحكمة، والإحسان والإنصاف.

وما لا يدرك كله لا يترك جله، وما عجزنا عنه اليوم قد نبلغه غدًا، وما وسعنا التسامح فيه تسامحنا وتصافحنا، وإن لم نأت بجديد لا نفقد ما بأيدينا، وإن لم تتيسر الأمور لم تدركنا العسرة.

فإن وظيفة الدعاة الانتقال بالناس من حال إلى حالٍ أفضل مما هم عليها، فإن لم يرتق معهم البشر ويزدادوا إيمانا مع إيمانهم، لم يزدادوا توغلاً فى الشر والعصيان، ولن يكون ذلك إلا بالحوار والمشاورة.

ونحن نعرف أنه متى قامت الريح تقصفت الأشجار وإذا سكنت استوت على عيدانها السنابل الضعيفة.

فلماذا لا تهدأ الأوضاع حتى تستوى سنابل الخير والبر وتؤتى أكلها بإذن ربها؟

ولماذا لا نتقى الريح لئلا تنطفىء بأيدينا الشموع، ويضيع من خطونا الطريق؟

هذا وإلا صارت سنابلها هشيمًا، وقلاعنا ترابًا، وهدفنا سرابًا، وانقلبت شموعنا ظلامًا ودياجير، وربما لفحنا الطريق.

.. ودعنا نسأل: متى تعمل آلات الإنتاج، ومصانع التنمية والبناء؟ إنها لن تعمل إلا إذا توقفت دانات المدافع، لأن دانات المدافع تستنزف الثروات وتبدد الأموال، وتخرب الصناعات.

.. ودعنا نسأل: متى يسمع صوت المؤذن على المآذن، وصوت الدعاة على المنابر؟

إنَّه لن يسمع إلا إذا سكن صوت الرصاص، لأن أزيز الطائرات، وهدير المدافع، وصرخات الرصاص، وعويل النساء والأطفال، أقوى من صوت المؤذنين، ودعاء الداعين، فمتى أغمد السلاح، استمع الناس لنداء الصلاة، حى على الفلاح.

.. ودعنا نسأل: متى تحترم المبادىء. وتقدر القيم، وتلتزم القوانين؟

- لن يكون ذلك، ولن يحدث شىء من ذلك، إلا إذا توقف قانون الحرب وشريعة الافتراس، وسياسة الناب والمخلب.

.. ودعنا نسأل: متى يشاد البنيان ويسود العمران؟

– لن يعلو بناء ولن يشاد صرح إلا إذا غابت التفجيرات .. وتهدمت الخنادق، وانعدم التخريب والتفجير، وتكاتفت السواعد، وتشاورت العقول.

ومرة أخرى نسأل : متى تعود البسمة، وتضاء الأنوار، وتغمر الفرحة كل دار؟

– لن يحدث ذلك حتى تتوقف الدموع، وتبرد العيون، ويغيب الصراخ والنحيب.

.. هذه أسئلة وإجابات عرفتها أمتنا قديمًا، فعاشت عصورًا من الأمان والاستقرار، وتلقتها بالقبول، فعاشت حقيقة الاستقلال، وقابلتها بالتسليم فجنت ثمار السلام، وعاشت حقبًا من المحبة والوئام بين الرعية والراعى، بين المحكومين والحكام.

ومرت بها فترات غابت عن هذه المعانى أو ضعفت فيها فسادت وتردت الأحوال، وانهالت عليها الأهوال، وعم الخراب والاحتراب، فاستنفذت موارد وثروات، وهدمت مصانع وبيوتات، وضاعت حقوق واهدرت كرامات.

قتل جنود وشباب، وغابت التحيات، وحلت اللعنات، وانتهكت الأعراض وسلبت الأرض.

.. ووقفنا نسأل:

. . مالك يا أمتنا؟ وماذا دهاك؟

كممت الأفواه ، وكثرت الملاهى، وغاب الأخيار وعلا الأشرار.

. مالك يا أمتنا؟ وماذا دهاك؟

ولما كان التاريخ مخزن العبر، ومن وعاه فى صدره أضاف أعمارًا إلى عمره. قلبنا صفحات أمتنا لنجد أقوامًا صالحين أرادوا الإصلاح لدينهم وأوطانهم، لكنهم خرجوا بالسلاح على حكوماتهم وأعلنوا القتال ضد حكامهم .. فماذا رأينا؟!

– رأينا الحسين – رضى الله عنه – صريعًا تدوسه الخيول.

- رأينا ابن الزبير - رضى الله عنه - مصلوبًا وقداشتعلت النيران بثياب الكعبة، وضربت الكعبة بالأحجار.

- ورأينا النساء تهتك أعراضهن فى طرقات المدينة.

- ورأينا زيد بن على وقد ذبحوه، وعبد الرحمن بن الأشعث يلقى بنفسه من شاهق.

- ورأينا ابن الزبير - رضى الله عنه - يقتل أخاه.

- ورأينا محمد بن عبد الله بن حسن قد حزوا رأسه وهو لم يزل حيًا.

- رأيناهم وقد ضاقت عليهم الأرض فلجأ بعضهم إلى بلاد العجم طالباً الأمان، فباعوهم مقابل مصالحهم.

رأيناهم وقد قتل فى أحد معاركهم مائة وخمسون ألفًا من المسلمين منهم سادات المهاجرين والأنصار، وخيار التابعين أمثال سعيد بن جبير.

ورأينا نساء بيت النبوة يسعى أراذل الناس فى محاولة سبيهن.

- رأينا الكثير مما لم نقدر على ذكره.

.. قلبنا هذه الصفحات

- فرأيناها ثمارًا مرة للصراع والصدام بين الشعوب والحكام ليس فيها إلا العلقم.

- لعل قائلاً يقول: كان هذا قديمًا وقد تغيرت الأيام وتبدلت الأحوال.

ولكننا نجيب: إنه التاريخ يعيد نفسه، وحلقات فى سلسلة تجر أخواتها ولتحول أبصارنا عن الماضى قليلاً نبحث فى عصرنا الحديث، لنرى ماذا جنت الحركة من صدامها، وماذا حققت من أهدافها؟

.. وكما قلبنا صفحة الماضى، قلبنا أيضًا صفحة الحاضر، والذى لا يزال ماثلا أمام أعيننا، فإن كنا نسينا الماضى أو جهلنا أحداثه، فإن الحاضر نلمسه الآن بأيدينا، نراه بأبصارنا، ندركه بفكرنا

وعقلنا، بدلائله التى ظهرت فى غدونا ورواحنا، ببصماته التى طبعها على قلوبنا وعقولنا وأوضاع بلادنا.

.. قلبنا صفحة الحاضر لنرى الصراع الدامى بين الحركات الإسلامية وبين حكومات بلادها.

قلبناها فرأينا ويا لهول ما رأينا:

- رأينا حماة وقد أبيدت عن آخرها.

- رأينا المسجد الحرام يدوى فيه الرصاص، ويتساقط فيه القتلى ويُحتجز فيه المصلون أيام جهيمان.

- رأينا التفجيرات تحدث فى موسم الحج والسيارات تحترق فى مكة والمظاهرات تفسد على الناس مناسكهم.

- رأينا أكثر من سبعين ألف قتيل فى الجزائر وآلاف أخرى من الجرحى.

- رأينا حصار الدعوة وقرارات حل جمعية الأخوان المسلمين وحظر نشاطها ومصادرة أموالها وإعدام واغتيال قادتها.

- رأينا المحاكمات العسكرية والمدنية وصدور الأحكام بالإعدام أو المؤبد.

- رأينا آلاف الشباب وقد حشدوا إلى السجن فلبثوا فى سجنهم سنين عددا.

- رأينا تشويهًا للدعوة وسبًا للدعاة، وتبادل الاتهامات بين الفريقين، وشيوع روح التحفز والتحرش بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد واللغة الواحدة.

رأينا بيوتا قد هدمت وأسرًا قد شردت، وأموالاً قد أهدرت، ونفوسًا قد أزهقت.

- رأينا عدوًا يتحرش بنا خارج الحدود يريد أن يسلب الأرض ويهتك العرض، ويستنزف الثروات.

رأينا هذه المشاهد الفظيعة.. فوقفنا نبكى أمتنا وما حل بها من نكبات، وما أصابها من تخلف وفقر وضعف.

وتذكرنا صفحة أخرى جميلة نظرنا فيها فوجدناها تبتسم وهى تقول لنا «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم».

فرفعناها فوق رؤوسنا، وحملناها بين قلوبنا، وقلنا تعالوا «ننسى الماضى بآلامه، والحاضر بجراحه، ونمضى سوياً للعناق والوفاق، للحوار بدلاً من الشجار، للسماح لا للسلاح».

خاتمـــــة

أخى القارىء الكريم

والآن .. وبعد أن وضعت الرحال فى محطتك الأخيرة .. وانتهيت تقريبًا من رحلتك المباركة خلال هذا الكتاب .. أحسبك ستقول:

- هذا لعمر الله عين الصواب والحق .. وتلك هى عظمة الشريعة حقًا فكم زالت بتلك الكلمات هموم ثقال .. وكم اطمأنت بها نفوس حيرى .. وكم استنارت بها عقول طالما بحثت عن ضوء ينير لها معالم الطريق.

ولكنِ .. ألا ترون ما ذهبتم إليه من عدم تكفير الحكام ومنع الخروج عليهم لن يكون رادعًا لهؤلاء الحكام .. وسيدفعهم إلى مزيد من ترك الشريعة .. وسيشجعهم على التمادى فى التقصير فى حق الإسلام وشرائعه .. ولعل مثل هذا الكلام يكون لهم بمثابة ضوء أخضر لمنع الدعوة إلى الله دون حساب ولا عقاب .

ونقول لذلك القارىء الكريم.

- زادك الله حرصًا على دينك .. وحبًا لنصرة الإسلام وإقامة شرائعه.

- ولكن - أخى الحبيب - إن الواقع يشهد على أن عكس ما قلت هو الصحيح .. وكذلك فى التاريخ أعظم عبرة وأصدق دليل .. ليس التاريخ القديم فحسب .. ولكن الحديث أيضًا.

فالمشاهد أن عدم تكفير الحكام ومنع الخروج عليهم يقربهم من الدين .. ويزيدهم حبًا للإسلام وأهله والعاملين له .. ويبين لهم أن أهل الدين والدعاة إلى الله لا يطمعون فى حكمهم .. ولا يسعون نحو سلطتهم .. ولا يرغبون فى مناصبهم .. ولا يعملون على إيذائهم.

بل غاية هم الدعاة وأعظم مطلب لهم أن يعلو الدين ويرتفع شأن الإسلام، ويا حبذا لو كان ذلك على يد أولئك الحكام .. إذن لحازوا الثواب العميم والأجر الجزيل .. ولنالوا فضل السبق إلى ذلك الشرف العظيم .. ولن تكون لهم الرفعة فى هذه الدنيا فحسب .. بل ستكون الرفعة والعلو فى الدارين.

أما حين تنطلق الفتاوى بتكفير حكام المسلمين ، ويحدث الخروج عليهم بالسيف والسلاح .. فليس غريبًا أن ترى كراهية الحكام وجميع أعوانهم .. وهم كثيرون مع قطاعات أخرى من الشعب لأبناء الحركة الإسلامية وللدين ودعاته والعاملين له.

ترى بعض هؤلاء جميعًا للدعوة إلى الله وسوء ظنهم بالدعاة وتوجسهم من أهل الدين .. والرغبة فى منعهم وحظر دعوتهم.

ترى تنحية صوت العقل والمنطق والتراحم .. وحلول القسوة والعنف والغلظة.

ترى زوال النعم والخيرات .. وحلول النقم والشرور والمفاسد.

ترى جرأة الحكومات على الدين .. وإقدامهم على فعل أشياء ما كانوا ليقربوها من قبل .. ولطالما تهيبوا من مجرد ذكرها والقرب منها.

ودعنى – أخى الحبيب – أقتبس لك شذرات من أثر تكفير الحكام والخروج عليهم بالسلاح .. وقد ذكرت بعض هذه الشذرات فى ختام الباب الثالث من هذا الكتاب.

«لا يسمع لداعى الحكمة .. ولا يؤبه بصوت العقل .. ولا يحس أحد بوخز الضمير .. فلا ينصت لشكاية .. وتوصد الأبواب وتقام الحواجز».

«وتسقط أمتنا صرعى ضحية معارك لا طائل من ورائها .. وإنما يحصد العدو ثمارها : بعدما بذر بذورها وسقى زرعها».

وتبقى الأمة كسيرة الجناح .. قد تعطلت مصالحها .. وتبددت خيراتها .. واختلفت صفوفها.

«متى يسمع صوت المؤذن على المآذن، وصوت الدعاة على المنابر؟.. إنه لن يسمع إلا إذا سكن صوت الرصاص .. لأن أزيز الطائرات، وهدير المدافع، وصرخات الرصاص، وعويل النساء والأطفال أقوى من صوت المؤذنين .. ودعاء الداعين .. فمتى أغمد السلاح، استمع الناس لنداء الصلاة: حى على الفلاح».

وليت الأمر يقتصر على تردى العلاقة بين الحاكم والمحكوم فحسب .. بل إن تكفير الحكام والخروج عليهم تمتد آثاره السلبية لتشمل الحاكم والمحكوم على السواء .. بل تشمل الأوطان نفسها

وتهدد بكل قوة أمنها وسلامتها واستقرارها.

فالخروج على الحكام يعطى الذريعة للتدخل الخارجى فى شئون أوطاننا الداخلية بشكل أو بآخر .. وقد يكون هذا التدخل تدريجيًا وبصورة غير مباشرة وقد يسفر عن وجهه الكالح، ويصل فى نهاية الأمر إلى الاحتلال العسكرى.

والخروج على الحكام يعطى الذريعة لتدخل الجيوش الأجنبية .. ويوفر لها موطن قدم على أرضنا بحجة حماية الأقليات .. وما أزمة دارفور منا ببعيد وما القانون الأمريكى لحماية الأقليات العرقية والدينية منا ببعيد.

ولعل هذا الكم الهائل من الآثار السلبية الناجمة عن الخروج المسلح على الحكام تستوقف الدعاة إلى الله .. وتلفت أنظارهم إلى التحلى بشيمة أولى العزم من الرسل .. ألا وهى الصبر الإيجابى الجميل .. ذلك الخيار الاستراتيجى العظيم، والذى ينبغى على العاملين للإسلام أن يدركوا عظمته وأن ينتبهوا لقيمته.

وبعد .. أخى القارىء الكريم

وقد اتضحت أمامك الصورة بكل أبعادها .. وعلمت كيف تكون الصورة المثلى لعلاقة الحاكم بشعبه .. والفرد بأمته .. فهل لك فى عمل يفيض بالخير .. ويتسم بالشرعية .. ويتميز بالواقعية تخدم به دينك .. وتنفع به وطنك .. وتساهم به فى تحقيق العزة والرفعة لأمتك؟

فلتتذكر دائماً أنك - ككل مسلم صالح مخلص - على ثغر من ثغور الإسلام الكثيرة المتعددة .. أياً كان دورك ووظيفتك ومكانتك .. فلتبذل جميع وسعك فى زيادة الخير وتقليل الشر حينما كنت .. وإياك ثم إياك أن يؤتى الدين والإسلام من قبلك.

هذا .. وإنى لأسأل كل قارىء لهذا الكتاب ألا ينسنى وأسرتى الصغيرة والكبيرة من دعاء صالح بظهر الغيب .. فكم تحتاج هذه الأسرة إلى دعوات المخلصين بالعفو والعافية .. فلطالما كشرت

لهم الحياة عن أنيابها .. وإنى لأرجو الله العلى القدير أن تبش الحياة فى وجوههم جميعاً بدعوات المخلصين من القراء.

كما أرجو من كل قارىء يرى ثلمة أو عيباً أو نقصاً فى هذا الكتاب، أو فى غيره من كتبى أن ينصح لنا فى ثوب من الأدب الراقى والخلق النبيل .. وألا يحرمنى من شرف توجيهه وتقويمه وتسديده حتى يتم الخير، ويتعزز الصواب .. ويفيض الهدى والرشاد.

وختاماً .. أخى القارىء الكريم

فهذا جهد المتواضع المقل .. إن كنت أصبت فيه فبنعمة من الله وفضل .. وإن كنت قد أخطأت فحسبى أننى اجتهدت .. وحاولت إدراك الصواب ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

فإن كان ثمة توفيق وحق وخير وصواب .. فهو محض فضل من الله سبحانه .. هو الذى خلقنا .. وهو الذى رزقنا وربانا .. وهو الذى أنعم علينا وهدانا .. وهو الذى علمنا وآوانا .. وهو الذى ألهمنا جميل الصبر على مرارة المحن .. وهو الذى حببنا فى دينه وزينه فى قلوبنا.

﴿وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾

وإن كان ثمة خطأ أو تقصير .. فمن نفسى ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان.

«وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى، إن ربى غفور رحيم».

وشريعة الإسلام منزهة من الخطأ، ومبرأة من ذلك القصور .. وإنما يلحق الخطأ بأمثالى من البشر الذين قال عنهم المصطفى ﷺ :

«كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

والله أسأل أن ينفع المسلمين جميعًا بهذا الكتاب .. وأن يهدى به إلى سبيل الرشاد .. وأن يثقل به موازين الحسنات .. ويجعله ذخرًا لى ولأسرتى ولكل من شارك فيه فى يوم عصيب تزل فيه الأقدام .. إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ناجح إبراهيم عبد الله

٢٢ شعبان ١٤٢٥ هـ

٦ أكتوبر ٢٠٠٤ م

أهم المراجع

١) القرآن الكريم: علومه وتفسيره

تفسير القرآن الكريم	الحافظ ابن كثير
تفسير الطبرى	أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبى»	محمد الانصارى القرطبى
أضواء البيان	الإمام الشنقيطى
فى ظلال القرآن	الشيخ / سيد قطب
عمدة التفاسير	الشيخ / أحمد شاكر
التبيان فى آداب حملة القرآن	أبو زكريا يحيى بن شرف

٢) الحديث وعلومه

صحيح البخارى	محمد بن اسماعيل البخارى
صحيح مسلم بشرح النووى	أبو زكريا يحيى بن شرف النووى
اللؤلؤ والمرجان	محمد فؤاد عبد الباقى
منهاج السنة	شيخ الإسلام ابن تيميه
جامع العلوم والحكم	ابن رجب الحنبلى
رياض الصالحين	أبو زكريا يحيى بن شرف النووى
سير أعلام النبلاء	الإمام الذهبى

٣) العقائد

معارج القبول	حافظ بن حكمى
٢٠٠ سؤال وجواب فى العقيدة	حافظ بن حكمى
شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبى العز الحنفى
الفصل الملل والاهواء والنحل	ابن حزم
تهذيب مدارج السالكين	ابن قيم الجوزية

الإيمان أركانه وشروطه	د/ محمد نعيم يس
مدارج السالكين	ابن قيم الجوزية
فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	ابن عثيمين

٤) التاريخ الإسلامى والسيرة

البداية والنهاية	الحافظ ابن كثير الدمسقى
تاريخ الخلفاء	جلال الدين السيوطى
السيرة النبوية	ابن هشام
الرحيق المختوم	صفى الرحمن المباركفورى
المنهج الحركى للسيرة النبوية	محمد منير الغضبان

٥) الفقه وأصوله

أعلام الموقعين	ابن قيم الجوزية
فقه الزكاة	د/ يوسف القرضاوى
الوجيز فى أصول الفقه	د/ عبد الكريم زيدان
الاعتصام	الامام الشاطبى
فتاوى معاصرة	د/ يوسف القرضاوى
الأحكام السلطانية والولايات الدينية	الماوردى
الخراج	أبو يوسف
المغني	ابن قدامة
من فقه الدولة فى الإسلام	د/ يوسف القرضاوى
مجموع الفتاوى	شيخ الاسلام ابن تيمية
المستصفى	أبو حامد الغزالى
الموافقات	الشاطبى
السيل الجرار	الشوكانى
الروضة الندية	صديق يحسن خان

الإحكام فى أصول الأحكام	ابن حزم
الرسالة	الامام الشافعى
قواعد الاحكام فى مصالح الإمام	عز الدين بن عبد السلام

٦) فكر ومعارف

حكم الجاهلية	محمود شاكر
الحكم وقضية تكفير المسلم	مستشار / سالم البهنساوى
شبهات حول الإسلام	مستشار / سالم البهنساوى
منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم	د / يحيى اسماعيل
مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية	د / يوسف القرضاوى
عوامل السعة والمرونة فى الإسلام	د / يوسف القرضاوى
السياسة الشرعية	د / يوسف القرضاوى
نهر الذكريات	د / ناجح إبراهيم. .. اسامة حافظ
حرمة الغلو فى الدين وتكفير المسلمين	د / ناجح إبراهيم .. على الشريف
مسودة كتاب فى الحاكمية «لم يطبع»	أسامة حافظ .. عاصم عبد الماجد

قراءة نقدية لبعض ما ورد فى كتاب:

ظاهرة الارجاء والرد عليها	د / ياسر برهامى
القرآن والسلطان	الاستاذ / فهمى هويدى
فتوى التتار دراسة وتحليل	د / ناجح إبراهيم
هداية الخلائق بين الغايات والوسائل	د / ناجح إبراهيم

فهرس الكتاب

إهـــداء ٣

بين يدى الكتاب ٧

الباب الأول : برقيات مهمة إلى شباب الأمة ٢١

بين يدى الباب ٢٣

الفصل الأول: «وإن زنى وإن سرق .. رغم أنف أبى ذر» ٢٩

الدعاة إلى الله .. هداة لا قضاة ٣١

ورحمتى وسعت كل شىء ٣٤

إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث ٣٩

لنا الظاهر .. والله يتولى السرائر ٤٩

الالتزام بالدين لا يعنى تكفير المسلمين ٥٢

لأن تخطىء فى الأسلمة .. خير من أن تخطىء فى التكفير ٥٦

الإسلام يثبت بالشهادتين دون شروط زائدة ٥٩

ترك واجبات الدين .. عصيان لا كفران ٦٤

«وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبى ذر» ٦٩

شريعة الرحمن .. لا مؤاخذة بغير علم ٧٣

إقامة الحجة .. تعليم للجاهل وتذكير للناس ٨٢

المعلوم من الدين بالضرورة .. حدوده وضوابطه ٨٦

مخالقة مشروعه .. لا موالاة ممنوعة ٩١

هل كل محبة لغير المسلم موالاة محرمة؟ ٩٦

الفصل الثانى : حاكمية الخالق .. لا تعنى تكفير الخلائق ١٠٥
العبرة بالمقاصد والمعانى .. لا بالألفاظ والمبانى ١٠٧
حاكمية الخالق لا تعنى تكفير الخلائق ١١٠
أحكام العقيدة لا تفرق بين حاكم ومحكوم ١١٤
تكفير الحكام أشد خطراً من تكفير العوام ١١٨
الأنظمة الحاكمة .. هل توصف بكفر أو إيمان ١٢٦
حقيقة الطاغوت بين اللغة والشرع ١٣٠
«كفر دون كفر» عبد الله بن عباس ١٣٦
من لم يكفر الكافر فهو كافر .. رؤية صحيحة ١٤٣
«لا تكليف إلا بمقدور» .. وإن كان حاكماً ١٤٨
الإسلام منهج حياة أشمل من الحدود ١٥٤
الإكراه يلحق بالدول كما يلحق بالأفراد ١٦٣
عزلة الدول .. انتحار وفناء ١٧٠

الباب الثانى : بين حاكمية الله وحاكمية البشر ١٧٩
بين يدى الباب ١٨١

الفصل الأول : جنكيز خان وحكام المسلمين .. قياس مغلوط ١٨٨
رحم الله رجلاً عرف زمانه فاستقامت طريقته ١٨٩
الإسلام يأمرنا بالموضوعية والعدل عند الحكم ١٩٢
بين جنكيز خان ..وحكام اليوم ١٩٣
هل قوانين بلادنا تشبه ياسق التتار؟ ١٩٦
القوانين المصرية تنقسم من حيث اتفاقها مع الشريعة الإسلامية إلى ثلاث أقسام ٢٠٠
أحوال المسلمين اليوم .. هل تقارن بحال التتار ٢٠٣

الفصل الثانى: دراسة موضوعية لآيات الحاكمية ٢١٣
آيات المائدة نالت من الحركة الإسلامية اهتماماً بالغاً ٢١٥
أسباب النزول .. خطوة على طريق الفهم ٢١٦
ملاحظات حول أسباب النزول ٢١٨
العبرة بعموم اللفظ.. أم بخصوص السبب؟ ٢٢١
معنى «فأولئك هم الكافرون» ٢٢٤
لماذا كانت الآيات ظنية الدلالة؟ ٢٢٥
كفر دون كفر .. مالم يجحد أو يستحل ٢٢٦
الحكم بما أنزل الله عمل من الأعمال ٢٢٩
متى يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفراً أكبر؟ ٢٣١
لماذا سميت معصية الحكم بغير ما أنزل الله كفراً؟ ٢٣٦
الخلاصة من دراسة آيات الحاكمية فى المائدة ٢٣٩
وختاماً نقول ٢٤١

الفصل الثالث: الحاكمية فى القرآن .. شبهات وردود ٢٤٣
أولاً: قوله تعالى : «أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله»........ ٢٤٦
وقفات مع الآية الكريمة .
الوقفة الأولى : مفهوم العبادة بين الاعتدال والاختزال ٢٤٧
الوقفة الثانية: فيمن نزلت هذه الآية؟ ٢٤٨
الوقفة الثالثة : القول الفصل فى مسألة الطاعة والاتباع ٢٥١
خلاصة القول ٢٥٤

ثانياً: قوله تعالى : «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» ٢٥٥
وقفات مع الآية الكريمة .

الوقفة الأولى : حكم الجاهلية بين المعصية والكفر ٢٥٧
صور الجاهلية قسمان ٢٥٨
الأول : جاهلية الاعتقاد ٢٥٨
الثانى : جاهلية العمل والسلوك ٢٥٩
الوقفة الثانية: نقل الفتوى .. ضوابط وشروط ٢٦٠
فتوى ابن كثير فى التتار ٢٦١
الوقفة الثالثة : أحكام الشريعة بين الترك والاستبدال ٢٦٤

الفصل الرابع: حاكمية الله.. ثم حاكمية البشر .. توافق لا تعارض....... ٢٦٧
هل للبشر ابتداءً حق فى التشريع؟ ٢٧٠
نعم للبشر حاكمية فى اطار الشريعة ٢٧٢
حاكمية البشر بين القرآن والسنة ٢٧٤
حاكمية البشر من أسرار خلود الشريعة ٢٧٧
حاكمية البشر إعمال للشريعة .. لا أهمال لها ٢٨٠
حق البشر فى التشريع بالمصلحة المرسلة ٢٨١
متى تصبح حاكمية البشر صالحة وراشدة ٢٨٤

الباب الثالث: الخروج على الحكام .. عبر وعظات ٢٨٧
بين يدى الباب ٢٨٩
التاريخ مخزن العبر ٢٩١

أولاً: خروج الحسين بن على رضى الله عنه ٢٩٨
الاسلام دين الواقعية ٣٠٩
فلنعرف طبائع الناس ٣١٣
الحرب بين المسلمين تنسى فضائل ذوى الفضل ٣١٧

المطالب العادلة وحتمية المواجهة ٣١٨
ثانياً : قصة خروج جيش الحرة ٣٢٣
حفظ الجميل وحرمة الغدر ٣٢٧
العدل وشخصية العقوبة ٣٢٩
حكم قتل الرهائن والمدنيين ٣٣١

ثالثاً: قصة خروج جيش التوابين ٣٣٣
ثورة العواطف ونظرات العقول ٣٣٥
الحياة الحقة للدعاة ٣٣٧
خير الدعاة أرحمهم بالناس ٣٣٩

رابعاً: قصة خروج ابن الزبير - رضى الله عنه ٣٤٣
ماذا لو بايع ابن الزبير - رضى الله عنه - يزيد بن معاوية؟ ٣٥٠
أخطاء لايصح أن تكون ٣٥١
بين الدعوة وقيادة الناس ٣٥٦
ثورة ابن الزبير والأماكن المقدسة ٣٥٧
كيف نحمى المساجد من الاقتحام ٣٦٠
حرمة التمثيل بالقتلى ٣٦٣
هل تحقق لابن الزبير ما أراد ٣٦٤

خامساً : قصة خروج ابن الأشعث على الحجاج ٣٦٦
الحجاج تقييم لعصره ٣٧٠
بين الأهداف المشروعة والوسائل الممنوعة ٣٧٥
من أراد الكل فاته الكل ٣٧٨

هل ندخل على السلاطين؟ وماذا نفعل؟ ٣٨١
القتال بين الآمال والآلام ٣٨٥
اللجوء السياسى بين الوهم والحقيقة ٣٩٠
وختاماً نقول ٣٩٢
فلنسأل التاريخ .. ولنستوعب التجارب ٣٩٢
يا ليت قومى يعلمون ٣٩٥
بدائل ووسائل ٣٩٦

وبعـــــد ٤٠١
خيار الأئمة .. وحب الأمة ٤٠٣
الثمار المرة ٤٠٥
كيف نشيد البنيان؟ ومتى نسمع الأذان؟ ٤٠٨
نظرات معاصرة ٤١٠
خاتمة الكتاب ٤١٣
أهم المراجع ٤٢١
فهرس الكتاب ٤٢٥